وجهات نظر

الكتب

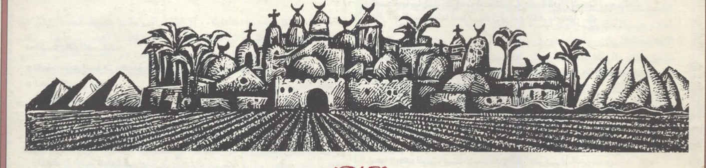
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 2 - Issue 14 - March 2000

مجلة شهرية . العدد الرابع عشر . السنة الثانية . مارس ٢٠٠٠ . الثمن عشرة جنيهات

محمد حسنين هيكل

عن المسلمين والأقباط فى مصر





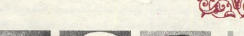


فانونو وامرأة الموساد

القصة الكاملة للقنبلة الذرية الإسرائيلية



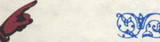
الخيول العربية فتنة الأمراء وملهمة الشعراء





انتفاضة الديمقراطية فى إيران

تقرير فهمى هويدى من طهران



كمال أبو المجد وحوار فى دافوس

عن العولمة والإسلام

سيرة حياة عبد الرحمن بدوى: أنا.. أنا.. ومن بعدى الطوفان

على أنقاض الشيشان. بوتن إلى الكريملن

النجمى.. أصفهانى القرن العشرين

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثانية

العدد الرابع عشر

مارس ٢٠٠٠

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

محتويات العدد:

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم



«كل المقالات المنشورة فى هذه المجلة تعبر بالضرورة عن رأى أصحابها مادامت عليها توقيعاتهم.. وعندما تكون للمجلة «وجهة نظر» تمثل سياستها فسوف يكون توقيع المقال باسمها.»

كتاب العدد:

- أحمد كمال أبو المجد.. أستاذ القانون الدستورى بكلية الحقوق ـ جامعة القاهرة
- آرييه أوسوليفان.. صحفية بالجيروزاليم بوست
- إلياس سحاب.. كاتب سياسى وناقد موسيقى من لبنان
- أنتونى كوردزمان.. خبير استراتيجى أمريكى
- جلال أمين.. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية بالقاهرة
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى
- سيرجى كوفاليف.. عضو البرلمان الروسى
- عبد العظيم أنيس.. أستاذ الإحصاء الرياضى المتفرغ بجامعة عين شمس
- عمرو كمال حمودة.. من هواة تربية الخيول
- فهمى هويدى.. صحفى
- فيونا مكارثى.. كاتبة أمريكية
- محمد حسنين هيكل .. صحفى
- محمد سليم العوا.. محام
- مرفت عبدالناصر.. أستاذ الطب النفسى فى جامعة ليستر بإنجلترا
- يوسف القعيد.. صحفى وروائى مصرى

رسوم العدد للفنانين: محمد حجى ـ سعد الدين شحاته

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

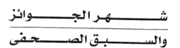
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة اشتراكات الأهرام ـ مؤسسة الأهرام ـ شارع الجلاء ـ ت: ٣٣٩١٠٩٠

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهماً ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالاً ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير.
France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــــة ..



شـــــهر الجـــــوائز والســـــبق الصـــــحفى

منذ أن كتب صمويل هانتنجتون مقاله الشهير قبل أعوام عن الصدام بين الحضارتين الغربية والإسلامية، والفكرة تطرح نفسها، أو «تُطرح عمداً» من وقت لآخر بغض النظر عن مكان الطرح أو أسلوبه أو الهادفين لتسويقه.

فعند القمة البيضاء الشاهقة فى «دافوس» السويسرية، حيث جلس زعماء العالم وحكماؤه قبل شهر يتبادلون حديثاً«هادئا» وعقلانيا عن «العالم القادم»، كان الملف على المائدة. وفى سفوح جبال القوقاز الوعرة، كان المزارعون الشيشانيون البسطاء يدفعون يوميا ثمن الترويج الواسع النطاق فى وسائل إعلام موسكو، لمفهوم «العدوالإسلامى» الذى بدأت ترتسم فى الأذهان صورته الإعلامية الكاريكاتورية: ذلك الرجل ذو الجلباب القصير، واللحية الطويلة، والذى يحمل مدفعا وأوراقا ثبوتية تشير إلى كنية تبدأ دائما بلفظة «أبو..» أو «ابن..».

كما جاء فى القائمة الشهيرة التى أذاعها التليفزيون الروسى قبل أيام مدللا على «أننا لا نحارب الشيشان.. بل أولئك المسلمين القادمين من كل مكان» فى إطار حملة «تبريرية» واسعة النطاق لحرب يتفق الكثيرون على أنها قامت لأسباب داخلية وانتخابية بحتة.



قضية «التكامل أو الصراع مع الآخر» مثلت إحدى زواياها بندا أول على «أجندة» لقاءات منتدى دافوس قبل أسابيع والذى يحضره عدد من رؤساء الدول وكبار الساسة وشارك فيه - ممثلا لمصر - المفكر الإسلامى الدكتور أحمد كمال أبوالمجد حيث شارك فى حوارات عديدة مع عدد من رؤساء الدول وراسمى السياسات فى الدول الغربية، والذين تتيح لهم الندوة لقاءات مغلقة متحررة من الشكليات والرسميات.

وفى هذا العدد من «وجهات نظر» يخصنا الدكتور أبوالمجد بعرض «ما تكشف له خلال هذه الحوارات» والتى ركزت على الإجابة عن سؤال أساسى مفاده: هل تؤدى العولمة - بالضرورة - إلى صدام الحضارات؟! مفسرا المظاهرات الصاخبة التى شهدتها «سياتل» الأمريكية، وبعدها «دافوس» نفسها، موضحا أن الآليات الجديدة للسوق «العولمية» - وعذرا للاشتقاق - وإن كانت قادرة بحق على إعادة التوازن إلى كثير من صور العلاقات الاقتصادية والتجارية، إلا أنها - مع ذلك - ليست وصفة سحرية قادرة بذاتها على تحقيق جميع صور التوازن الاجتماعى، وتحقيق قيم العدل والمساواة.

قضية «الآخر» ، وإن كانت من زاوية مختلفة، وجدت طريقها أيضا إلى موضوعنا الرئيس فى هذا العدد، فوسط «حالة من الفوضى أحاطت بالموضوع» والتعبير للأستاذ هيكل، وإدراكا منا لأهمية - إن لم يكن خطورة - القضية، كنا قد قدمنا فى العدد الماضى «رؤية ثنائية» لما حدث فى تلك القرية الجبلية جنوب مصر، والتى احتل اسمها، صعب النطق باللغات اللاتينية(الكشح) سطور برقيات وكالات الأنباء العالمية للمرة الثانية خلال أشهر معدودة، لدرجة دفعت البعض - بدلا من التفكير فى تغيير المناخ والأسباب - إلى الدعوة إلى تغيير الاسم المتوارث لعقود طويلة لم يكن فيها شقاق ولا مواجهة ولا دماء، ليبقى التغيير بعد ذلك «على الورق» مهما بدا من حفاوة واحتفال.

وفى هذا العدد، نؤصل ما بدأناه بمقال واسع وشامل للكاتب الكبير محمد حسنين هيكل حول «ما تبدى وتصاعد فى السنوات الأخيرة من ضغوط على العلاقات بين المسلمين والأقباط من أبناء الشعب المصرى..»، يرى فيه أن موضوع الوحدة الوطنية يقف جنبا إلى جنب مع أهمية الحفاظ على مياه النيل «النهر الواحد الذى تجىء موارده من خارج الحدود»، وأن كلتا المسألتين أهم وأخطر من أى مسألة أخرى، ذلك أنه «بدون سلامة القاعدة الوطنية، وبدون حماية مياه النيل والمحافظة عليها، يصبح أى كلام عن الأمن وعن المستقبل سبقا للأوان بالقفز على الحقائق..».



ورغم أننا مطبوعة «شهرية» ، إلا أننا نواكب دائما خبرية الحدث، ففى هذا العدد أيضا نستبق إعلان النتائج النهائية للانتخابات النيابية فى إيران، لنقدم «تحقيقا صحفيا ميدانيا» للتحول الكبير الحادث على الضفة الأخرى للخليج، حيث جسد النظام هناك لسنوات فى الذهن الغربى نموذج «الخطر الإسلامى» ثقافيا وسياسيا، بل وحتى عسكريا.

التغطية الصحفية من داخل طهران وحوزاتها وحسينياتها بل وبيوت فعالياتها، يكتبها لنا الكاتب الصحفى المعروف فهمى هويدى، والذى أوفدته «وجهات نظر» خصيصا لتغطية الحدث، وليعود لنا بحصيلة لقاءات وحوارات مع عدد من القوى والرموز الفاعلة فى عاصمة «الجار» الذى لايمكن تجاهله عربيا فى وقت تعاد فيه الصياغة الشرق أوسطية، وفى الحقيقة فقد كانت «وجهات نظر»، ونحن المجلة الشهرية، المطبوعة العربية الوحيدة الحاضرة - فعليا - هناك لنرصد عن قرب، ونحلل عن كثب، ونكتب بأصابع صافحت أولئك الذين نكتب عنهم.

يتواكب مع الأحداث فى عددنا أيضا الذى يصدر قبل أيام من الانتخابات الرئاسية فى موسكو، مقال مهم لسيرجى كوفاليف يوضح فيه كيف كانت تلك الانتخابات سببا أساسيا لحرب الشيشان الثانية، وكيف أشعلها فلاديمير بوتن ليجعل من أنقاض البلد الفقير طريقه المُعبَّد للكريملن، فضلا عن عرض لكتاب لايخلو من بوليسية الإثارة، كتبه بيتر هونام المحرر بالصنداى تايمز عن الأسرار الحقيقية لعملية خطف موردخاى فانونو الخبير الإسرائيلى الذى كشف قبل سنوات عن الأسلحة النووية الإسرائيلية، قبل أن تتمكن الموساد من خطفه بعد أن أغوته إحدى الشقراوات بقضاء وقت ممتع فى العاصمة الإيطالية ، ننشر عرضا لهذا الكتاب بقلم الدكتور عبدالعظيم أنيس، فى الوقت الذى تتصاعد فيه شكوك «موثقة» عن أخطار التلوث الإشعاعى المتسرب لمفاعل ديمونة المتهالك والذى كان موضوعا رئيسا لما كشفه فانونو بطل القصة فى هذا الكتاب.



ويبدو أن الشهر الفائت الذى احتفلت فيه المجلة بعيد ميلادها الأول كان شهر جوائز، إذ فازت «وجهات نظر» ، وهى لم تكد تطفئ شمعتها الأولى، بجائزة أحسن مجلة ثقافية لعام ١٩٩٩، وتسلم رئيس تحريرها الجائزة من الرئيس مبارك فى حفل افتتاح معرض القاهرة الدولى للكتاب.

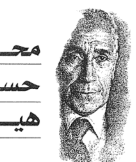
وعلى الناحية الأخرى من العالم ، أُعلن فى بولونيا، حيث يقام أكبر معرض فى العالم لكتاب الطفل نهاية هذا الشهر، عن فوز الشقيقة «دار الشروق» بجائزة «الآفاق الجديدة ٢٠٠٠» والمخصصة لناشرى العالم من قارات أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا وأستراليا، وذلك عن كتاب «حياة محمد فى ٢٠ قصة» ، والذى تفوق على ١٤٠٠ كتاب من أكثر من ٣٠ دولة وصلت للتصفية النهائية.

قيِّمةٌ هى هدايا عيد الميلاد تلك التى نعتز بها، ونعتز أكثر بثقتكم وحفاوتكم، التى نعتبر الاحتفاظ بها أثمن هدية «شهرية»، علينا مسئولية الحفاظ عليها.

وجهات نظر

عن





محمد حسنين هيكل

إن العقائد لا دخل لها بما يمكن أن يقال فى قضايا غيرها عن ديمقراطية الحوار؛ ففى مجال الدين لا توجد أقلية أو أغلبية تحصى بها الأصوات فى نهاية المطاف، ولحسم الأمور بحيث تخضع أقلية لرأى أغلبية، أو تواصل الأقلية عرض حججها كى تتحول هى يومًا إلى أغلبية.

....

لقد كان زمن الحرب الباردة جامعة كبرى تعلمت فيها القوى «هندسة» الفتن، وأكثر من ذلك فإن البراعة فى «الهندسة» وصلت أحيانا إلى إعادة «هندسة الماضى» وإعادة تركيب تاريخ المجتمعات بما يوافق مقاصد الأقوياء!

اللوحة للفنان محمد حجى

والأقبــــاط فى مصـــر

١ الـــــدين والنيـــــل

طال تَرَدُّدى أمام الموضوع الذى أحسست أننى أريد التَّوَقُّف معه، وليس مع غيره، فى هذا الحديث !

وطال تَرَدُّدى - أيضاً - أمام الجِهة التى ينبغى توجيه الحديث إليها بظنٍّ - أو باعتقاد - أنها الأوْلى به من غيرها، وأنها المسئولة عنه قبل الجميع.

والحاصل أن الموضوع الذى طال تَرَدُّدى أمامه هو ما تَبَدّى وتصاعَد فى السنوات الأخيرة من ضغوطٍ على العلاقات بين المُسلمِين والأقباط من أبناء الشعب المصرى.

والحاصل كذلك أن الجِهة التى طال تَرَدُّدى فى توجيه الحديث إليها هى رئاسة الدولة بالتحديد، لأنى أظنُّ - وأعتقد - أنها الأوْلى به من غيرها وأنها المسئولة عنه قبل الجميع.

....

....

والسَّبَب الذى طال من أجله تَرَدُّدى أمام الموضوع فى حَدِّ ذاته أن الخَوضَ فيه اسْتُبيحَ أمرُه - رغم جَلال خَطَره - لكل ماسكِ قَلَمٍ أو حَجَر أو سَيْف، ولكل مُطلٍّ على الناسَ من صفحة جريدة أو سَمّاعة مذياع أو شاشة تلفزيون، ولكل من اعتَلى منصَّة كلام أو منبَر وَعظ، أو أمسَكَ بحَبْلِ ناقوسٍ فى بُرجِ كنيسة.

وكانت النتيجة حالة من الفَوْضي أحاطت بالموضوع وقد حَسَبَت أنها تَسُدُّ الطُرُقَ إليه بالزِحام، أو تَصُدُّ عنه بإيثارِ البُعد (عن الزِحام) !

وأما السَّبَبُ الذى طالَ من أجله تَرَدُّدى أمام الجِهة التى أوَجِّه إليها هذا الحديث - وهى رئاسة الدولة - فهو الحساسية من تَجاوُزِ الحُدود :

من ناحية فإن لدَىَّ ظناً - بل واعتقاداً - أن موضوع الوِحدة الوطنية - هو وموضوع مياه النيل معها دون غيرهما وقبل غيرهما - هما اختصاصٌ أصيلٌ لرئاسة الدولة، ومسئولية غير قابلة للقِسْمة تحت أية دعاوى - بما فى ذلك دعوى الفصل بين السُلطات، أو دعوى الممارسة الديمقراطية - ذلك أن مسألة دينَيْن على أرض وطنٍ واحد، وكذلك مسألة نَهْر هو المَصدَر الوحيد للحياة تجىء موارده من خارج الحدود - هما مما لا يَجوزُ فيه التفويض، ولا طول الجَدَل والتَزَيُّد!

كلتا المسالتين فى ظنى - واعتقادى - أهَم وأخطر من أى مسألة أخرى، حتى مسألة الحرب والسلام، وحتى مسألة التنمية والتكنولوجيا، ذلك أنه بدون سلامة القاعدة الوطنية، وبدون حماية مياه النيل والمحافظة عليها - يُصبِح أى كلام عن الأمن وعن المُستَقبل سَبقاً للأوان بالقفز على الحقائق !

ومن ناحية أخرى فإن داعى الحساسية من تَجاوُزِ الحُدود ينشا من أنِ توجيه الحديث إلى رئاسة الدولة قد يُرَدُّ عليه بأن رئاسة الدولة ليست فى حاجة إلى من يلفِت نظرها لما هو فى الصميم من اختصاصها ومسئوليتها .. وهذا منطقى ومشروع !

....

....

على أنه فى النهاية كانت دَواعى التَرَدُّد - هى نفسها دَواعى المُجازفة بالإقدام، لأن الأمور لم تَعُد تحتمل.

ففوضى الزِحام من حول موضوعٍ من الموضوعات لا تمنع أحداً أن يُنادى من بعيد بصوت الضمير، حتى وإن لم يكن واثقاً من إمكانية التاثير.

ثم إن اختصاص جِهة بأمرٍ ومسئوليتها عنه لا يَصُدُّ عن توجيه الحديث إليها فى شانه، فتوجيه الحديث إلى طَرَفٍ لا يَعنى بالضرورة تَنبيه هذا الطَرَف إلى غياب، وإنما قد يكون القَصدُ تاكيد وتأييد اختصاصِه وتدعيم قيامه على مسئوليته.

....

....

وفى كل الأحوال، ومهما كانت الاعتبارات، فإننى بعد طول التَرَدُّد جازَفت وتَقَدَّمت !



أما الدين ـ على خلاف مع النيل حتى الآن ـ فقد كان باستمرار مكمناً مشحوناً بالخطر. بمعنى أن مياه النيل لقرون طويلة ظلت في أمان.. أما عقائد الدين فقد كانت باستمرار في الميدان. والتفسير واضح، فالنيل في حُضن الطبيعة، أما الدين ففي قلوب البشر. وفي حين أن الطبيعة مستقرة على أحوالها، فإن قلوب البشر تتنازعها تقلبات الأيام.

ذلك أن الموضوع مُتَّصِلٌ بمُستَقبَلِ وَطَن، ثم إن التَّوَجُّه بالحديث إلى الجهة المسئولة عنه ـ رئاسة الدولة ـ حالة ضرورة وليس حالة اختيار!




وفيما يتصل بالموضوع نفسه واعتباره موصولاً بمستقبل وطن، فليست هناك حاجة إلى إعادة قراءة أو استقراء التاريخ العام ـ أو حتى تاريخ الأفكار ـ لكي يَتَّفق الناس جميعاً على مَركَزيَّة الدين في حياة مصر بالذات، ذلك أن هذا البَلَد هامَ تَعَلُّقاً بفكرة الدين حتى من قبل أن تَتَنَزَّل كلمة السماء!

......

وأتذكر حوارين مُتَّصلَيْن ذات يوم في باريس (ربيع سنة ١٩٧١) ـ مع أديب فرنسا الحديثة ومُفَكِّرها الكبير «أندريه مالرو» (وزير الثقافة في عَهْد «شارل ديجول») ـ وكان الدين ـ وفي مصر بالذات ـ هو مالئ حديثنا، وكان «أندريه مالرو» هو الذي بادر بطرح الموضوع.

كان الحوار الأول على الغداء في مَطعَم «لاسير»، وكنا في صَدَد الحديث عن إسهام مصر في مُحيط الحضارة الإنسانية الأكبر، ووَجَدتُ «مالرو» يقول: «لا بد أن نَتَذَكَّر أن الحضارة المصرية هي التي «اختَرَعَت» فكرة الأبَدِيَّة».

وعَلَّقتُ بملاحظة قلت فيها: «لنَتَّفق على أن نكون أكثر تحديداً ونقول إن الحضارة المصرية لم «تخترع» وإنما «أهدَت» إلى الإنسانية فكرة الأبَدِيَّة. أي نقول بأن مصر «أَهدَت» بَدَلاً من أن مصر «اختَرَعَت».

وكان رَدُّ «مالرو» قوله: «إنه دون تَعَنُّت في تدقيق الكلمات فإن الحضارة المصرية هي التي طَرَحَت فكرة البَعث بعد الموت، وفكرة العالم الآخر بعد هذه الدنيا التي نعيش فيها، وفكرة الحساب والثَّواب سَيْراً على صراط مُستَقيم في يوم معلوم».

......

وفي الحوار الثاني ـ على العشاء ـ في بيت صديقته الكبيرة السيدة «فيلموران» في حَيِّ «سان جيرمان دو برى» ـ عادَ «مالرو» إلى استئناف ما انقطع بعد الغداء وكأننا بَقينا في نفس المجلس من الظهر إلى الليل، وهكذا فتح من جديد قصة غرام مصر وهيامها بفكرة الدين، وكان بين ما قاله أن تَعَلُّق مصر بفكرة الدين وَصَلَ بها إلى دَرَجة جَعَلَت منها البَلَد الوحيد في الدنيا الذي اعتَنَقَ ثلاثة أديان على التوالي: من العقائد الفرعونية المغرقة في الأساطير، إلى المسيحية المُستَعِدَّة للشهادة، إلى الإسلام المُكَلَّف بالجهاد.

ومن اللافت للنظر أن «مالرو» كان يربط في حديثه بين ديانات مصر المختلفة وبين النهر الواحد، ورأيه أن «مصر كانت في حاجة إلى النَّظَر فيما وراء الطبيعة لأن حياتها كلها تَعتَمِد على نَهْر لا ترى منابعه وتَجهَل كل شيء عن مَسَاره، ثم إن مياه هذا النهر تزيد وتنقص، ومَجراه يفيض أو يغيض لأسباب تحس بها مصر حين مَجيء خيرها أو شرها، لكنها في الحالتين لا تستطيع أن تجد تعليلاً غير أن حركة النهر «المعبود» إرادة علوية فوق أي إرادة إنسانية، وكانت تلك دوافع مصر إلى الرجاء وإلى الدُّعاء وإلى الصَّلاة، وإلى الربط بين المَعبَد والمَجرى!

......

......

وناقَشتُ «مالرو» طويلاً تلك الليلة، وكان طرحي عليه أن هناك أسباباً أبقى لتَعَلُّق مصر بفكرة الدين.

قلت إنه بصرف النظر عن كل الأسباب والعِلَل ـ مما ذكر ولم يذكر ـ فإن تَعَلُّق مصر بفكرة الدين مُؤَسَّس على أن هناك خالقاً وخَلقاً، وهناك رسالات ورُسُلاً، وهناك عَقائد ليس من الضروري أن يبحث لها الناس عن أسباب مادية أو «مائية»، حتى وإن احتَكَموا في كل ثَقافتهم إلى العقل وجَعَلوه مَرجِعاً وسُلطاناً، باعتبار أن العقل هو القوة الفاعلة في المادة وليس العكس، وتلك هي ميزة العَقل وقُدرَته على الإدراك المُستَمِر لقوانين الطبيعة ومطالب الحياة.

وقد ظَلَّ تَبايُن التفسيرات بيننا قائماً على الغداء والعشاء، لكن اتفاقنا واتفاق من شاركوا في الحوار معنا ـ وبينهم كبير مراسلي «النيويورك تيمس» في أوروبا «ساي سالزبورجر»، ورئيس تحرير «الموند» «بوف ميرى»، والمُفَكِّر الكبير صاحب العَمود الشهير في «الفيجارو» «ريمون آرون»، إلى جانب مضيفتنا الكريمة السيدة «فيلموران» ـ انعَقَدَ على الأهمية المركزية لقضية الدين في مصر، سواء بدأت الفكرة بسِرِّ النهر مانح الحياة والنماء، أو بسَبْقِ الرِّسالات الإلهية مانِحَة الإيمان واليقين.

وفي مطلق الأحوال فقد كانت تلك الحوارات في باريس نظرة جديدة على حقائق راسخة من قديم في حياة مصر: «النيل والدين» حسب «مالرو» ـ أو «الدين والنيل» حسب ما طَرَحَ غيره عليه!



بالنسبة للنيل لم يظهر تَحَدٍّ له شأن يُهَدِّد وصول مياهه إلى مصر، وتلك قضية يطول الحديث فيها وليس هنا مكانها رغم أهميتها ورغم ما ظَلَّ ساكناً فيها حتى القرن التاسع عشر، ثم تَبَدَّى مشكلة في القرن العشرين، وهو على الأرجح سوف يُصبِح قضية القضايا وصراع الحياة ذاتها في الحقب الأولى من القرن الواحد والعشرين!

أما الدين ـ على خلاف مع النيل حتى الآن ـ فقد كان باستمرار مَكْمَناً مَشحوناً بالخطر.

بمعنى أن مياه النيل لقرون طويلة ظلت في أمان..

أما عقائد الدين فقد كانت باستمرار في الميدان.

والتفسير واضح، فالنيل في حُضن الطبيعة، أما الدين ففي قلوب البَشَر. وفي حين أن الطبيعة مُستَقِرَّة على أحوالها، فإن قلوب البَشَر تتنازعها تَقَلُّبات الأيام.

......

إن مصر القديمة المُغرَمة بفكرة الدين (على رأي «مالرو») سارت وراء الفرعون الإله ثلاثة آلاف سنة تبني له أهراماته ومعابده، وتدفن معه كنوزه ـ أو كنوزها! (وكانت صلة الفرعون بالنيل حميمة، بل إن الصور اختلطت إلى حدود يصعب تمييزها في بعض الأحيان بين النهر والإله والفرعون).

وعندما وَصَلَت المسيحية فإن مصر لم تَتَبَّعها فقط، وإنما قادت أحد مذاهبها الكبرى وراء «مُرقُص» قدِّيسها الأعظم.

وعندما أقبَلَ الإسلام فإن جيش «عَمرو بن العاص» لم يكن قَوياً بسلاحه (أربعة آلاف جندي بالسيوف والحِراب) ـ وإنما كانت قوته الحقيقية هي الشريعة التي سبقت السَّيْف وغاصت إلى أعمق من الحربة، وكانت قوة الشريعة ـ مع عوامل أخرى فعلت فعلها ـ هي التي شَدَّت الجماعة الأكبر من سكان مصر، في حين أن جماعة أخرى (لها وزنها) آثَرَت أن تَظَلَّ حيث كانت على عقيدتها المسيحية.

هكذا تجاوَرَ دينان على أرض الوطن الواحد، وبالتجربة الحية وعِبرَتِها أدرَكَ أتباعُ الديانتين ـ من الشعب الواحد على أرض الوطن الواحد ـ أن الحياة المشتركة فَرض ومكتوب، وذلك تَحَقَّقَ على مَسار التاريخ رغم اختلاف الدين.

ومع أن هذا الاختلاف في الدين ظَلَّ حقيقة اجتماعية وسياسية، مقبولة بالفكر ومُعاشة بالواقع، فإن هذا الاختلاف ـ شأنه شأن أي اختلاف ـ كان قابلاً للاستغلال، مُعَرَّضاً لكل ما تتأثر به قلوب البَشَر من نوازع تجيء بها تَقَلُّبات الأيام.

وذلك الاستغلال وَقَعَ فعلاً في فترات من التاريخ تَعَرَّضَت مصر فيها لحَمَلات الغَزو، ولمحاولات الاختراق، ولتَرَبُّص الأغراض والمطامع خصوصاً عندما كان ذلك يتوافق مع عوامل التراجع والانحطاط، فتلك بالطبيعة فاتحة الثغرات ومُحَرِّضة الأهواء.

......

......

وكان الذي يحدث في تلك الفترات أن الاختلاف في الدين ـ وهو موجود في كل الأحوال، وغير مرئي مثل خطوط الطول والعرض على كوكب الأرض مع أنها تَدُلُّ على اختلاف مناطق الزَّمَن وتَبايُن مواسم الطبيعة ـ يجري التركيز عليه.

وهكذا فإن الخط غير المرئي (في ظروف العافية) يَتَحَوَّل بإثارة الحساسيات حوله إلى علامة ظاهرة أشبه ما تكون بخيط أو شَعرة.

ثم يزداد الضغط على مواقع الحساسيات، وتَتَحَوَّل العلامة (خيطاً أو شعرة) ـ إلى مساحة واضحة تُباعد بين ناحيتين.

وتبلغ الأحمال والأثقال مَداها، ويَتَحَوَّل الفاصل إلى خط، ويَتَحَوَّل الخطُّ إلى شَرخ، ثم إلى فلق، ثم إلى ما يُشبِه الكَسر!

ثم يَتَنَبَّه الكل إلى أن الفِتنَة استيقظت، ويكتشف الكل قبل أن يفوت الأوان ـ أحياناً بشبه معجزة ـ أنهم تَخَطَّوا حدود الأمان!



وفي العادة «تَتَنَبَّه رئاسة الدولة في مصر» لأنها المسئولة عن تَماسُك الوَطَن وعلى أرضه ديانتان (بينهما خَطٌّ غير مرئي في ظروف العافية) ـ بمقدار ما أنها المسئولة عن النهر الواحد تَتَدَفَّق مياهه إلى أراضيها

هكذا فإن الخط غير المرئي (في ظروف العافية) يتحول بإثارة الحساسيات حوله إلى علامة ظاهرة أشبه ما تكون بخيط أو شعرة. ثم يزداد الضغط على مواقع الحساسيات، وتتحول العلامة (خيطا أو شعرة) ـ إلى مساحة واضحة تباعد بين ناحيتين. وتبلغ الأحمال والأثقال مَداها، ويتحول الفاصل إلى خط، ويتحول الخط إلى شَرخ، ثم إلى فلق، ثم إلى ما يشبه الكسر!





قادمة من وراء حدودها مع أنه بذاته كل حياتها.

وفى هذه الظروف تحتاج الأمور إلى إرادة الفعل المُتَمَثِّلة فى سُلطَة السيادة، وهى المُتَجَسِّدة - بالدرجة الأولى - فى رئاسة الدولة.

والواقع أنه حين تظهر بوادر الفتنة، ناشئة من اختلاف العقائد، مع وجود رغبة أو تصميم على استغلالها من الخارج أو حتى من الداخل - فإن الوَطَن - أى وَطَن، وليس الوَطَن المصرى وحده - يَجِد نفسه أمام ظرف لا يصلح فيه منطق الحوار لأن العقائدَ بطبيعتها مُتَعَلِّقة بالإيمان، وما يتصل بها مشبوب بالعواطف، وطول الأخذ والرد يحرك فى القلوب ما تصعب السيطرة عليه.

ومن ناحية أخرى فإن العقائد لا دخل لها بما يمكن أن يقال فى قضايا غيرها عن ديمقراطية الحوار، ففى مجال الدين لا توجد أقلية أو أغلبية تحصى بها الأصوات فى نهاية المطاف ولحسم الأمور بحيث تخضع أقلية لرأى أغلبية، أو تواصل الأقلية عرض حججها كى تَتَحَوَّل هى يوماً إلى أغلبية.

مثل ذلك كله فى غير محله، وخارج السياق.

وكذلك تنشأ الحاجة إلى سُلطة الدولة العليا، مع ملاحظة أن المَطلَبَ الديمقراطى فى أى سياسة هنا يَسْتَمدُّ قُوَّتَه من شرعية السُلطة وليس من ممارسة شَعائِر الديمقراطية (على فرض وجودها !).

يضاف إلى ذلك أن شعائر الديمقراطية ربما - ربما - تكون لها فرصة قبل أن تُطِلَّ الفتنة.

لكن كل هذه الشعائر تصبح عبثاً حتى على روح الديمقراطية وما تكفله من الحقوق - إذا أطَلَّت الفتنة.

وذلك شَيء من نوع ما يحدث فى ظروف الحرب : شعائر الديمقراطية تسبق السلاح. فإذا كانت إدارة الحرب موكولة إلى إدارة شرعية حَقّ لها أن تدير شئون الحرب دون أن تتعطل أو تنتظر.

وفى الفِتَن شيء قريب الشَّبَه بذلك خصوصاً فى مَجال العقائد - وهى فى بعض الأحيان براكين نار - وهنا وكما يحدث فى الحرب فإن الإدارة لا بد أن يَقَعَ تكليفها على قيادة شرعية تَتَصَرَّف بالمسئولية قبل أن تَتَصَرَّف براكين النار وهى غير مسئولة.

....

....

والشاهد أنه فى الأزمنة الحديثة فإن صناعة الفِتَن - إلى جانب عوامل الفِتَن - لم تَعُد عود ثقاب يُلقى - بالمصادفة أو بالعمد - على حَطَب، وإنما صناعة الفِتَن تَحَوَّلَت إلى «هندسة» بمعنى الكلمة ! :

- الخط الافتراضى (مثل خطوط الطول والعرض) يمكن هندَسَته ليُصبِح مسافةً وفاصلاً (خيطاً أو شَعرة).

- والفاصل (خيطاً أو شَعرة) يمكن هندَسَته ليَتَحَوَّل إلى خطٍّ - إلى شَرخٍ - إلى فَلقٍ - إلى كَسْر.

- وطول الجدل إلى حَدِّ الصخب، وتبادل الاتهامات وتوزيع المسئوليات فى حوادث متصلة بالعقائد - قادرٌ لوحده أن يُحَوِّل «خَطَاً غير مرئى» إلى «أخدود عميق بلا قرار»، وأن يُحَرِّك من المشاعر والغرائز ما يجعل الوَهْمَ نفسه يَتَجَسَّد قضية حياة ومَوْت.

ولقد كان زَمَنُ الحرب الباردة جامعة كبرى تَعَلَّمَت فيها القوى «هندَسَة» الفِتَن. وأكثر من ذلك فإن البراعة فى «الهندَسَة» وَصَلَت أحياناً إلى إعادة «هندَسَة الماضى» وإعادة تركيب تاريخ المُجتمعات بما يوافق مقاصد الأقوياء! ▪

٢ خطة كردينال ملكى!

▪▪ مَسار التاريخ بلا نهاية، وعصورد ووقائعه سَيْلٌ مُتَدَفِّقٌ طوال الوقت، هادئٌ أحياناً، هائجٌ فى معظم الأحيان - لكنه فيما يتعلق بهذا الحديث فإن النصف الثانى من القرن التاسع عَشَر رأى مشاهد بالغة الأهمية فيما يتعلق بمصر، خصوصاً فيما يتصل بجوار ديانَتَيْن على أرض وَطَن واحد.

فى ذلك النصف الثانى من القرن التاسع عَشَر كانت مصر موضوع سباق إمبراطورى هائل : اقتصادى - عسكرى - سياسى - وثقافى أيضاً، لأن الثقافى وفيه العقائد قابل لأن يَتَحَوَّل بالمُعالجة وإعادة التشكيل إلى مصالح لها مكاسبها ومغانمها !

وفى المجال الإمبراطورى (اقتصادى - عسكرى - سياسى) كان السباق بين قوتين : بريطانيا وفرنسا - وفى حقيقة الأمر فإن السباق بينهما نحو مصر مَلأ مساحة القرن تقريباً - من حَملة «نابليون» إلى حَملة «فريزر»، ثم جاءَت وَقفة لتخفيف حرارة السباق اتفقت فيها القوتان على سيطرة مُشتَرَكة فى عصر «إسماعيل»، ثم انقَضَّت بريطانيا وانفَرَدَت بالغنيمة واحتَلَّت مصر بحملة «ولسلى» سنة ١٨٨٢.

وبطبيعة شبكة العلاقات بين القوتين فإن ما هو ثقافى فى المجال الإمبراطورى كان مُحَرِّكاً إلى الاهتمام - أو ادعاء الاهتمام - بالإسلام والمسلمين، وذلك بحُكمِ نفوذ بريطانيا شرق وغرب الهند حتى أودية الفرات والنيل، وبحُكمِ نفوذ فرنسا عبر الشواطئ إلى شمال أفريقيا وسواحل الشام.

وهذا السباق بين إمبراطوريتين تَرَكَ الباب مفتوحاً لقوى أخرى - ولعله أغراها - بأن تحاول التَدَخُّل أو التَسَلُّل إلى الميدان الثقافى، ولكن عن غير طريق الإسلام والمسلمين، بتحديد أكثر عن طريق المسيحية والمسيحيين من كل المذاهب، بما فيهم الأقباط الأرثوذكس فى مصر.

وكان هناك ثلاثة وافدين جُدُد رأوا الباب المفتوح وتقدموا يُجَرِّبون حظوظهم، الوافد الأول هو الولايات المتحدة الأمريكية، الإمبراطورية الجديدة القادمة على أول الطريق - والثانى هو الكنيسة الأرثوذكسية الكبرى للإمبراطورية الروسية، وهى إمبراطورية وصلت إلى آخر الطريق وكانت وقتها تُجاهد السقوط وتبحث عن وسائل لتفاديه - وأخيراً الكنيسة الكاثوليكية فى الفاتيكان، وهى بدورها قوة إمبراطورية بلا حدود - حتى وإن كانت لا تملك سلاحاً أو اقتصاداً مُسَيْطراً أو مُستَعمَرات خاضعة.

وجَرَّبَ الثلاثة فى مصر المسيحية - ولم يَصِلوا جميعاً إلى نتيجة تُذكَر.

- جَرَّبَت الولايات المتحدة عن طريق بعثات التبشير، وكانت خطوتها «الرسولية» - أو «الإرسالية» وفق التسمية التى جرى اعتمادها تواضعاً - هى العمل على تحويل أقباط مصر من الأرثوذكسية إلى البروتستانتية، وتَوافَد المُبَشِّرون الأمريكان، أو تحت الرعاية الأمريكية، إلى القاهرة، ومنها نَقَلوا نشاطهم إلى صعيد مصر بعيداً عن العين الساهرة للكنيسة القبطية المصرية وبَطرَكها العنيد «ديمتريوس» الثانى.

- وتَصَوَّرَت الإمبراطورية الروسية أن تدخل من الباب بإذن رسمى، فذَهَبَ قُنصُل روسيا العام فى مصر إلى مقابلة البطرك الذى خَلَفَ «ديمتريوس» - وهو البطرك «كيرُلُس» الخامس - يهمس فى أذُنه بأنه «إزاء كل هذا الطَمَع فى مصر فإن الأقباط الأرثوذكس فيها لا ملجأ لهم غير قيصر روسيا وهو حامى العقيدة الصحيحة». ورَدَّ البطرك المصرى بذكاء الفطرة فسأل القُنصُل الروسى: «ومَن يحمى القيصر ؟» - وجاء الرَدُّ : «يحميه الله» - وكان البطرك جاهزاً فقال : «وهو أيضاً يحمينا»، ثم أضاف عبارته المشهورة : «القَيْصَر يموت وأنا أيضاً.. ولا يحتاج مَيِّت إلى حماية مَيِّت، وإنما يحتاج الكل إلى حماية من لا يموت».

- وأما الفاتيكان فى روما فقد كانت محاولته قصيرة العُمْر، فما أن جاءت الرسالة الأولى من البابا الكاثوليكى إلى البطرك المصرى حتى كان الرَدُّ عليها : «منذ متى تَهْتَمُّ الكنيسة الرومانية فى الغرب بأحوال المسيحيين فى الشرق، وهى التى كانت تعتبرهم طول العُمر هراطقة مُرتَدِّين» !



وعندما دَخَلَت مصر إلى القرن العشرين استَوقفها سؤال هوية تاريخى كان لا بد أن تَرُدَّ عليه، ذلك أن تطورات القرن السابق (التاسع عشر) وقد انتهت بالاحتلال البريطانى لها سنة ١٨٨٢ - طَرَحَت عليها ذلك السؤال الحيوى، وكان عليها أن تَرُدَّ، ثم تُقاتل إذا اقتضى الأمر دفاعاً عن اختيارها.

وكان المطروح على مصر ثلاثة خيارات :

١ - مقاومة الاحتلال البريطانى لطلب الاستقلال وإقامة دولة ذات سيادة من نوع ما عرفته أوروبا فى أعقاب الثورة الفرنسية - وليس هناك ما يمنع هذه الدولة ذات السيادة من التعاون بصفة مميزة مع الإمبراطورية البريطانية (صديق قوى يقدر فى رأيهم على مساعدتها - وكان من أنصار هذا الرأى الشيخ «محمد عبده» ومدرسته).

٢ - مقاومة الاحتلال البريطانى بقصد العودة إلى الخلافة العثمانية وهى الإطار الجامع للشعوب الإسلامية باعتبار أن ذلك مكان مصر الصحيح، ثم إنه الموقع الذى كانت فيه فعلاً قبل الغَزْو البريطانى، وكان أهلها فى حماه رَعِيَّة عثمانية - (وأنصار هذا الخيار يرون أن مَطلب مقاومة الاحتلال البريطانى يحتاج أيضاً إلى قوة أكبر من قوة مصر الذاتية، والحَلُّ هو الباب العالى - وكان من أنصار هذا الرأى «مصطفى كامل» وحزبه).

٣ - مقاومة الاحتلال البريطانى والإصغاء جيداً إلى دعوة قومية جديدة تُعطى للعَرَب بوِحدَة الثقافة وتَواصُل الجغرافيا وامتداد التاريخ خصوصية الأمة فى المحيط الحضارى الإسلامى الأوسع.

(وكان هذا الخيار نداءً بعيداً خافت الصوت لا تساعده قُوَّة إمبراطورية، ولا نداء خلافة قادرة أو عاجزة - وليس له بَعد نصير قوى له صوت يمكن سماعه !).

وكذلك كان مَطلَبُ مقاومة الاحتلال مُتَفَقاً عليه.

وأما سؤال الهَوِيَّة فقد كان مَوْضِعَ اجتهادات مُتعارِضة.

....

....

لم يكن «الوفـد» يضـم بين أعضـائه حتى هذه اللحظـة أقباطاً، وهنا ذهبَ عَـددٌ من أقطـابهم إلى «سـعد زغـلول» (باشا) الذى بَرَزَ كزعيم لا ينازع للوفـد المصرى يسـألونه: «إذا كان مبدأ اسـتقلال الشـعب المصرى هو المطـلوب فكيف يجـوز تشكيل الوفـد المصرى المطالِب به - دون أقباط مصر؟»

وربما أن سؤال الهَوِيَّة كان أشَدَّ صعوبة بالنسبة للأقباط فى مصر - أكثر مما كان بالنسبة للمُسْلمين، ولعلهم كانوا أقرب إلى الخيار الأول - وهو خيار الاستقلال، لكن الهواجس ساورتهم من واقع أنهم كانوا منذ دخول الإسلام فى ذِمَّة الوالى أو الأمير أو الخليفة.

وبصرف النظر عن رواسب كثيرة فقد عرفوا «وَضْع أهل الذمة» وتَعامَلوا معه وخبروه - لكن الاستقلال حالة مُسْتَجَدَّة. فالفرد فى الدولة المستقلة «مواطن»، و«المواطنة» مفهومٌ مُسْتَجَدٌّ - يَحِلُّ محَلَّ مفهوم طالت العهود عليه، وهو وضع «الرَعِيَّة» للفرعون، أو القيصر، أو الخليفة، أو السلطان، أو المَمْلوك، أو الأمير - وهذا المفهوم المُسْتَجَدُّ للمواطَنة سوف يأخذ وقتاً طويلاً حتى تثبت جذوره، وإلى أن يتأكد ذلك فالقلق وارد.

وبالتداعى من ذلك كان هناك محظور رآه بعض العُقَلاء من أقباط مصر، ذلك أن خيار الاستقلال مع علاقة مُتَمَيِّزة ببريطانيا (وفق الخيار الأول) سوف يَضَع أقباط مصر أمام مَأزَق مُحتَمَل خصوصاً إذا لم يستطع مفهوم «المواطَنة» أنْ يُؤَكِّد قيَمَه وقواعدَه - ذلك أنهم فى هذه الحالة سوف يجدون أنفسهم - بواقع الحال أو بضرورته - أقرب إلى القوة الدولية ذات العلاقة المُتَمَيِّزة مع مصر المُسْتَقِلّة، وهى بريطانيا.

وفى بعض الأحيان فإن هذا الخيار رغم محاذيره تَبَدَّى أدعى إلى السلامة من العودة إلى الخلافة العثمانية (الإسلامية) - ثم إنه كان أكثر تحديداً من خيارٍ عَرَبىٍّ ما زال بعيداً لكنه يحمل هو الآخر بالحقائق الحضارية مُحتَوى «إسلامياً» تظهر لمساته ولو من بعيد!

وكان التَّخَوُّف - وهو مُبَرَّر - أن تكون من هذين الخيارين عَودة بالعلاقات بين المُسْلمين والمسيحيين إلى «عهود الذمَّة» بحكمِ الولاية بدلاً من «حقوق المُواطَنة» فى الدولة الحديثة.

ثم بقى سؤال الهَوِيَّة فى مصر مُعَلَّقاً وحائراً حتى جاءت ثورة سنة ١٩١٩ فأخَذَت بخيار الدولة الوَطَنِيَّة المُسْتَقِلَة، وكان نجاحها الأعظم هو تَبَنِّيها لمبدأ «المُواطَنة» من واقع أنه وَطَنٌ واحد يتعايش على أرضه دينان، ومن الإنصاف أن يقال أن نقطة التَحَوُّل فى هذا التَوَجُّه جاءت من قيادات قبطية.

فقد حَدَثَ فى بداية الثورة أن وفداً تَشَكَّلَ لمقابلة المندوب السامى البريطانى لإبلاغه بمطالب وطنية على رأسها مطلب الاستقلال. ثم تَحَوَّلَ الوفد إلى حزب حمل نفس الاسم وهو «الوفد» ، تعبيراً عن أن المطالبة بالاستقلال ما زالت مُسْتَمِرَّة. ولم يكن «الوفد» يضم بين أعضائه حتى هذه اللحظة أقباطاً، وهنا ذَهَبَ عَدَدٌ من أقطابهم إلى «سعد زغلول» (باشا) الذى بَرَزَ كزعيم لا ينازع للوفد المصرى يسألونه : «إذا كان مبدأ استقلال الشعب المصرى هو المطلوب فكيف يجوز تشكيل الوفد المصرى المُطالِب به - دون أقباط مصر ؟»،

وكانت تلك علامة فارقة فى مسار الحَرَكة الوَطَنِيَّة المصرية.



وبعد دخول أقباط مصر من باب «الوفد» بالدرجة الأولى إلى المشاركة السياسية فى تجربة الدولة الجديدة تحت مفهوم «المُواطَنة» (بدلاً من مفهوم «الرَعِيَّة») - فقد كان يمكن أن تنتكس التجربة كلها لسببين:

أولهما - أن المَلك «فؤاد» راح يَتَطَلَّع إلى إرث الخلافة الإسلامية بعد سقوط الدولة العثمانية - وقد استطاع المَلك دون عناء كبير أن يُجَنِّدَ الأزهر لمطلبه، وبالتالى فإن العباءة الإسلامية جرى استعمالها سياسياً بأكثر من اللازم، وكان مطلوباً منها أن تكون غطاءً لأحلام مَلَكِيَّة لا أمَلَ لها فى الحالة الإسلامية وقتها، بل ولا أمَلَ لها فى عُصور جديدة لا يملك فيها رئيس دولة واحد أن يَضَعَ على رأسه عمامة الإسلام (والإسلام لا يعرف التيجان).

لكن عباءة الخلافة كان فى مقدورها أن تمتلئ برياح الأوهام - ومن ثم تظهر للناظرين إليها أوسع من حقيقتها !

وأما السبب الثانى فهو أن أحزاب الأقلية (الأحرار الدستوريين فى ذلك الوقت) وقد نَشَأت بالخروج على «الوفد» ، لم تَجِد لها فى الشعب المصرى نصيراً يعطيها شَرعية تُغَطّيها - وكذلك فإنها لم تلبث أن احتَمَت بالعرش تستعمله للوصول إلى الحكم أو يستعملها فى طموحات وأغراض المَلِك «فؤاد» فى الخلافة.

ومع أنه كان بين «الأحرار الدستوريين» من عارَضَ المَلك «فؤاد» فى مطلب خلافة المُسْلمين - فإنَ الحزب نفسه - وغيره من أحزاب الأقلية - لم تجد فى عدائها لـ «الوفد» دعوى تقدم بها نفسها إلى الشارع المصرى غير دعوى التواجد القبطى الظاهر فى قيادة «الوفد». وهكذا كانت أحزاب الأقلية التى أسَّسَت دعاواها على وَعد الديمقراطية هى التى قبعت فى الخندق المَلَكى يحميها من نتائج وعدها !

وكذلك لم يَعُد أمام أحزاب الأقلية التى تراجَعَت عن دعوى الديمقراطية - إلا أن تَشْتَدَّ فى تظاهرها بادعاء الغيرة على الإسلام مُسْتَغِلَّةً ظهور الأقباط فى «الوفد» ، ومُرَكِّزَة على هذا الظهور، وكانت تلك مأساة كبرى لأن بعضاً من أكثر العناصر فى مصر استنارة لم تجد سبيلاً إلى مقاومة «الوفد» غير «تحريض إسلامى يَسْتَثير الشكوك» - ضدَّ مسيحية قبطية «وَجَدَت المكان الأكثر ملاءمَةً لها فى حِزب الأغلبية» !

وعندما بدأ تراجع «الوفد» حتى فى حياة «سعد زغلول» (باشا) بعد قبوله بالإنذار البريطانى الذى تلقته مصر فى أعقاب اغتيال السير «لى ستاك» سردار الجيش المصرى وقائد القوات فى السودان - فإن ذلك القبول بالإنذار أحدث آثاره رغم أن «سعد زغلول» تَرَكَ مطالب هذا الإنذار يُنَفِّذها غيره - وإن برضاه وتحت حمايته.

وفى هذه اللحظة كان يمكن أن يكون ضَعفُ «الوفد» (وتهالك خصومه رغم استنارة بعضهم) - حَدَثاً يُؤَثِّر على الوعاء الأكبر للوَطَنِيَّة المصرية الجامعة لولا بروز شخصية «مكرم عبيد» بدوره الكبير فى «الوفد» وفى الحياة السياسية المصرية بعموم.

....

....

والحقيقة أن «مكرم عبيد» أخَذَ أقلَّ مما يستحق فى الاعتراف بدَوْرِه فى تمتين رابطة الوطنية المصرية (وفى صميمها فكرة «المُواطَنة») من حيث إنه المسيحى القبطى المتمثل لروح الحضارة العربية (وهى إسلامية) - الذى استطاع لسنوات طويلة من أواخر العشرينات وطوال الثلاثينات وحتى بداية الأربعينات أن يجعل من نفسه ومن دَوْرِه رَمزاً بالِغ الأهمية فى الحياة السياسية المصرية.

كان «مصطفى النحاس» هو زعيم «الوفد»، لكن قيادة «الوفد» الفعلية كانت لـ «مكرم عبيد»، وفى حين أن «مصطفى النحاس» كان يُلَقَّب فى قاموس «الوفد» بـ «الزعيم الجليل» ، فإن «مكرم عبيد» كان يُلَقَّب بـ «المُجاهِد الكبير» . وكان الرجل يستحق هذا الوصف مَن ناحية فكرية بَحتَة، حتى قبل الناحية السياسية الأوسع، وكان ذلك حتى باللا وَعى تجسيداً حَيّاً لتجاوُر دينين على أرض وَطَنٍ واحد فى ظروف لم يَتَرَسَّخ فيها بعد مفهوم الوَطنية، ولم يتأكد فيها بعد معنى المُواطَنة.

كان وجود «مكرم عبيد» على قِمَّة «الوفد» - فى حَدِّ ذاته - يغنى عن اجتهادات كثيرة تثير بالطبيعة أسباباً للاختلاف.

وكان الأمَل أن يَظَلَّ الرمز قائماً بدَوْرِه ريثما تَتَمَكَّن المفاهيم والمعانى من مَدِّ وتَعميق جذورها.

لكن أحوال السياسة، وأهواء البَشَر، وضغوط ظروف دولية طاغية - تكاثَفت كلها لمحاصرة الحلم الوطنى المصرى، ولم يكن هذا الحلم - لسوء الحظ - قادراً على مواجهتها.

وكان «مكرم عبيد» رمزاً ودَوْراً ضمن قائمة الضحايا فى أزمة الحلم الوَطَنى المصرى.



كان «مكرم عبيد» - وهو الشخصية النافذة فى «الوفد» - قد بدأ يحس بما طَرَأ على الحزب بعد زواج زعيمه «مصطفى النحاس» وهو فى الخامسة والخمسين من عمره بفتاة شابة جميلة فى العشرين من عمرها عنَد إتمام الزواج، وفى أبسط الأحوال وأهْوَنِها فإن «مكرم عبيد» (مع أنه أكثر الساعِين فى زواج «النحاس» (باشا) وفى اختياره لشريكة لحياته) - بدأ يحس أن هناك تأثيراً منافساً له على وقت «الزعيم» واهتماماته، وكذلكَ فكره ! ومع تزايُد «سلطان البيت» فإن «سلطان الحزب» راح يتناقص، و «مكرم عبيد» بواقع الحال أول من يحس بالتغيير.

وفى ظروف الحرب العالمية الثانية (التى بدأت سنة ١٩٣٩) فإن الأحوال الاجتماعية فى مصر شهدت دخول عناصر كثيرة وافدة بوسائلها على ساحة التأثير والنفوذ، والسياسة كذلك.

وعندما عادَ «الوفد» إلى الحكم فى حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ فقد كانت عودته مأساوية، ذلك أن «الوفد» عاد نتيجة لتَدَخُّل السفير البريطانى بحصار قصر «عابدين» واقتحامه، بفصيل دبابات، وإبلاغ المَلك «فاروق» أنه «إذا لم أعلم قبل الساعة السادسة مساءً بأن النحاس باشا قد دُعِىَ لتشكيل الوزارة فإن المَلك فاروق يَتَحَمَّل تبعَةَ ما يَحدُث». وكان على المَلك «فاروق» أن يُوَقِّعَ بقبول الإنذار أو يتنازل عنَ العرش، وقد وَضَعَ المَلك توقيعه على الإنذار بيَد مُرتَعشة. ثم جاء «الوفد» - وهو من الناحية الفعلية مُمَثِّل الأغلبية الشرعية إلى الحكم - ولكن بقُوَّة الدَبّابات البريطانية، وكانت تلك هى المأساة.

ولم يكن «مكرم عبيد» سعيداً بما جرى على النحو الذى جرى به - كما لم يكن سعيداً بما طَرَأ على محيط «النحاس» (باشا) سواء

كان وجود «مكرم عبيد» على قمة «الوفد» - فى حد ذاته - يغنى عن اجتهادات كثيرة تثير بالطبيعة أسبابا للاختلاف. وكان الأمل أن يظل الرمز قائما بدوره ريثما تتمكن المفاهيم والمعانى من مد وتعميق جذورها



بظروف زواجه مع تفاوت الأعمار، أو بالعناصر الاجتماعية المُستَجَدَّة مع أجواء الحرب على الحياة الخاصة لزعيم «الوفد».

وكان المَلك «فاروق» الذى قَبِلَ الإنذار البريطانى مُرغَماً يشعر بالمهانة، ولم يكن له عزاء إلا ثقته فى أن رئيس ديوانه «أحمد محمد حسنين» (باشا) يُرَتِّب له خُطَّة تُعيدُ إليه حَقَّهُ وتُمَكِّنُه من خُصومه ـ وكان أسوأ هؤلاء الخصوم فى نَظَرِه «مصطفى النحاس» الذى لم يَكتَفِ بعَداء قديم مع القصر من عَهْد والده وعَهْدِه (وكان «النحاس» فيه على حَقّ) ـ وإنما أَضيف إلى ذلك قبول «النحاس» بتأليف الوزارة من يَد (ماسورة) مَدفع على ظهر دَبّابة بريطانية تَحَدِّياً للمَلك ومُشارَكَة فى تَحقيرِه أمام شعبه وجيشه، وإذلاله حتى أمام نفسه وداخل قصره !

وبالفعل فإن «أحمد محمد حسنين» (باشا) وَضَعَ خُطَّة انتقام للمَلك قَلَّدَ فيها عُصور الكرادلة (من «ريشليو» إلى «ماتزينى») وكلهم وقفوا وراء مُلوك فى الصبا، وقاموا بالوصاية عليهم، وعشقوا أمهاتهم(!)، وحاكوا الدسائس والمؤامرات فى تصفية خُصومِ العرش (أو خُصوم الكرادلة بمعنى أصح !).

وكانت خُطَّة الكردينال «أحمد محمد حسنين» انتقاماً لكرامة المَلك الصَبِى (الذى قام بنَوْعٍ من الوصاية عليه تحت وصف أنه رائده، وتَزَوَّجَ أُمَّه سِرّاً كما فَعَل الكردينال «ماتزينى» مع «كاترين دى مديتشى» والدة مَلك فرنسا القاصر «لويس» الثالث عشر) ـ خطة طويلة ومعقدة والبنود الرئيسية فيها كما يلى :

١ ـ العَمَل على إنهاء خدمة اللورد «كيلرن» السفير البريطانى (الذى قَدَّمَ الإنذار) فى مصر كى لا يَظَلّ وجوده فيها تَذكِرة للمَلك بلَحظة هَوانه وهو يريد أن ينساها !

٢ ـ القَصاص ـ ! ـ من «مصطفى النحاس» الذى فُرِضَ عليه قهراً، والأفضل أن يكون القصاص تصفية جَسَدِيَّة لرئيس «الوفد» ورَمياً بالرصاص (وبالفعل جَرَت أكثر من محاولة لاغتيال «النحاس» (باشا) قام بها ضباط من تنظيم الحَرَس الحديدى الذى أنشأه المَلك أداة لإرهاب خصومه !).

٣ ـ إنزال العقاب بكل من ساعَدَ فى توثيق العلاقات بين السفارة البريطانية وزعيم «الوفد»، وأول هؤلاء «أمين عثمان» (وبالفعل فقد تم اغتيال «أمين عثمان» بتوجيه ورعاية من القصر، وبأسلحة ضباط الحَرَس الحديدى).

٤ ـ وهذا هو البَندُ الأهَمُّ ـ كسر «الوفد» كحزب والتركيز بالتحديد على «مكرم عبيد» سكرتيره العام باستغلال ما طرأ على مشاعره الداخلية فى السنوات الأخيرة، سواء من إحساسه ببُعد «مصطفى النحاس» عنه وعن الحزب ـ أو من ضيقه بمأزق عَوْدَة «الوفد» إلى الحُكم نتيجة إنذارٍ بريطانى.

وكان نجاح الكردينال «أحمد محمد حسنين» فى بَندِ كَسْر «الوفد» بالتركيز على سكرتيره العام كبيراً، فقد كان «مكرم عبيد» حتى من قبل فبراير سنة ١٩٤٢ مُتَأَزِّماً، ثم زادته الظروف التى رافقت عودة الحزب إلى الحكم تأزُّماً، لأن تكالُبَ العائدين إلى السُلطة بدا له مزعجاً وخصوصاً أن هذا التكالُب كان يَجِد له سنداً داخل دوائر مُؤَثِّرة فى الحزب أو عليه ـ بل إن هذا التكالب وَجَدَ منطقاً يغطيه بادِّعاء أن البُعدَ عن السُلطة سنوات جَعَلَ الحلوق شديدة الجفاف بقسوة الظمأ !

كان حلم كسر «الوفد» مشروعاً سياسياً دائماً للقصر. وقد تَصَوَّرَ السلطان «فؤاد» عندما انشَقَّ الأحرار الدستوريون أن خروجهم بالجملة من الحزب ـ وأقطابهم صفوة أساطينه ـ أنها نهاية «الوفد»، ثم تَبَيَّن أن الرمز السياسى فى مصر كان ـ وسوف يَظَل ـ مَعبوداً لا يُطال إلى درجة أن مُدُن مصر وقراها سمعت ورَدَّدَت نداءً يقول إن «الاحتلال على يَد سعد ولا الاستقلال على يَد عدلي» (يَكَن)، ثم شعاراً ثانياً يقول «إنه لو رَشَّحَ الوفد حَجَراً لانتَخَبناه» ـ أى أنه «سعد زغلول» بذاته وصفاته وليس غيره مهما كان من مَزاياه، ثم تَبَيَّن أيضاً أن «سعد زغلول» قادرٌ بشعاراته على سحق منافسيه حتى بالتخوين، وكذلك تَرَدَّدَت أحكام قاسية بالإعدام السياسى من نوع وصف مفاوضات غير «الوفد» مع الإنجليز بأنها «جورج الخامس يُفاوض جورج الخامس (مَلِك إنجلترا)»، ثم إن كل هؤلاء الذين انشقوا عن «الوفد» هم : «برادع الإنجليز». وقد تمكنت هذه الشعارات فى الحياة السياسية المصرية، وأدَّت إلى عملية استقطاب حاد كان «الوفد» خلالها فى الموقع الأعلى، وكان خصومه فى الموقف الأدنى.

وتَكَرَّرَت عملية الانشقاق على «الوفد»، والقصر يراهن كل مرة ويخسر الرهان، بما فى ذلك الرهان المُهِم على «محمود فهمى النقراشى» (باشا) و «أحمد ماهر» (باشا)، وقد بدا ذلك انشقاقاً حاسماً، أصحابه هُم وقتها أغلبية النخبة فى صفوف القيادة الوفدية العليا، ثم إن «النقراشى» و «ماهر» كانا الأقرب إلى «بيت الأمة» والأحب إلى السيدة «صفية زغلول»، وقد اختارا لحزبهما الجديد الذى قام بالانشقاق اسم «السعديين»، ولم يكن هناك فى رأيهما دليلٌ على العودة إلى شرعية الأصول أكثر من استعادة اسم «الزعيم خالد الذِكر» عنواناً لحزبهما الجديد.

وعندما راهَن «أحمد حسنين» (باشا) ضمن سياسة الانتقام للمَلِك «فاروق» من خصومه واستقرَّ رهانه على كسر «الوفد» بانتزاع «مكرم عبيد» نفسه من صفوفه ـ فإن الرهان بدا جدياً وشبه موثوق بنتائجه لأسباب موضوعية ولأسباب ذاتية.

ومن الناحية الموضوعية فإن «الوفد» سنة ١٩٤٢ لم يَعُد ذلك «الوفد» الذى ملأ الساحة المصرية فى بداية العشرينات من القرن. فالحزب لم يستطع أن يقدم شيئاً فى قضية الاستقلال سوى أنه رَفَعَ عَلَمها ورَدَّدَ شعارها، وكان هو الذى عاد بعد وصف دستور سنة ١٩٢٣ بأنه دستور الأشقياء إلى اعتبار هذا الدستور نصاً مقدساً، وكان هو حتى فى حياة «سعد زغلول» الذى قبل بالإنذار البريطانى بإخلاء السودان، وأخيراً وبعد عناء طويل فإن «مصطفى النحاس» خليفة «سعد» كان هو الذى وَضَعَ توقيعه على معاهدة سنة ١٩٣٦، وهى وثيقة لا تختلف كثيراً عما تَوَصَّلَ إليه غير الوفديين فى مفاوضاتهم مع الإنجليز.

ثم جاءت الورطة الكبرى بحادث ٤ فبراير ١٩٤٢، ومع أن «النحاس» من الناحية النظرية كان زعيماً لحزب يمثل الأغلبية لا زال، وهو مقصى عن الحكم بتَعَسُّفٍ مَلَكى ـ إلا أن ملابسات عودته إلى حقه الدستورى كانت «عورة» لا سبيل إلى تغطيتها، وقد بَدَت العورة فاضحة عندما حُمِلَ السفير البريطانى على أعناق الوفديين حين ذَهَبَ إلى مَقَرّ مجلس الوزراء غداة تشكيل الوزارة ليهنئ رئيسها «مصطفى النحاس». وكانت صورة اللورد «كيلرن» محمولاً على الأعناق وصوت متظاهرين يهتفون له ـ إشهاراً للفضيحة أكثر من تغطية عليها !

وإذن ـ هكذا جَرَت حسابات «أحمد حسنين» (باشا) ـ فإن «الوفد» سنة ١٩٤٢ ليس هو «الوفد» سنة ١٩٢٠ وبعدها.

وأما الأسباب الذاتية التى تخص «مكرم عبيد» شخصياً، فأولها أن «المجاهد الكبير» عيارٌ آخر غير عيار كل من سبقوه إلى الخروج من «الوفد».

فهو بذاته ـ روح «الوفد السياسى، ومدير شئونه الذكى، وصوته البليغ الناطق باستيعاب كامل للحضارة المصرية والعربية (ومحتواها الإسلامى)، وهو مُحَرِّك تَواجُد «الوفد» وسط مواقع التأثير فى الحياة العامة وأهمها تلك الأيام حركة النقابات المهنية، ثم هو المثقف الواعى اجتماعياً والذى استطاع أن يقول للكل فى آخر ميزانية قدمها : «إننا حررنا المواطن المصرى من استغلال الأجنبى، وآن أن نحرر المواطن المصرى من الاستغلال المصرى».

وأخيراً وأهَم ـ فى نظر «أحمد حسنين» (باشا) [وتلك من خطاياه غفر الله له] ـ تقديره أن خروج «مكرم عبيد» سوف يضع الأقباط جميعاً أمام اختيارٍ صعب. فمكان «مكرم عبيد» حيوى فى «الوفد»، ودوره الواسع مظلة فوق كثيرين، ووجوده فى حَدّ ذاته ضمانة وعلامة على أن «الوفد» هو الباب المفتوح بوعى ـ لواحدة من الحقائق التاريخية الكبرى فى مصر (شَعبٌ واحد وديِنان).



وتَرَدَّدَ «مكرم عبيد» فى الشهور الأولى من سنة ١٩٤٢، ثم غلبته هواجسه. وكان الرجل ـ شأنه شأن كثير من المُثَقَّفين ـ شخصية بالغة الحساسية، شديدة التَوَتُّر، سريعة التأثر ليس فقط بالوقائع ولكن حتى بالإشارات والتلميحات.

وكذلك استطاع «أحمد حسنين» أن يحقق هدفه.

خرج «مكرم عبيد» من «الوفد» ـ وخرج ومعه جمع كبير من أقطاب الحزب ـ ولم يكن فى مقدور أحد أن يتجاهل حقيقة أن الخارجين بينهم عَدَدٌ مَلحوظٌ من كبار الأقباط.

ولم يخرج «مكرم عبيد» ساكتاً رغم قسوة الأحكام العرفية فى زمن الحرب، وإنما خرج ومعه سِجِلٌ حافلٌ بما اعترض عليه من تصرفات زَعامة «الوفد» ومحيطها ـ أسماه «الكتاب الأسود ـ للعهد الأسود».

ومن المفارقات أن فصول الكتاب كانت تُسَلَّم فصلاً بعد فصل إلى مندوبٍ يمثل القصر، يحملها كى تُحفظ فى خزينة «رئيس ديوان جلالة المَلك» حتى يجيء أوان الطبع والتوزيع!

وكانت تلك فترة الحيرة الكبرى لأقباط مصر منذ بدأ

وبالفعل فإن «أحمد محمد حسنين» (باشا) وضع خطة انتقام للمَلِك قلد فيها عصور الكرادلة (من «ريشليو» إلى «ماتزينى») وكلهم وقفوا وراء ملوك فى الصبا، وقاموا بالوصاية عليهم، وعشقوا أمهاتهم (!)، وحاكوا الدسائس والمؤامرات فى تصفية خُصوم العرش (أو خُصوم الكرادلة بمعنى أصح !)

كانت مشاعر «مكرم عبيد» تتسرب حتى وإن لم يقصد، وتسْحَب ذيولها على الحياة القبطية فى مصر. وكان هناك جيل جديد من المهتمين بالسياسة. وقد بدا لهم عندما اقتربوا من الساحة أن تجربة «مكرم عبيد» فصلٌ مُحَيِّرٌ، دافعٌ ورادعٌ فى نفس الوقت!

انخراطهم فى الحياة السياسية المصرية الحديثة بعد تشكيل «الوفد».

والمزعج أن «أحمد حسنين» (باشا) لم يكن غافلاً عما يفعل، فقد كان وهو يشق «الوفد» - يُغامر أيضاً فى مجال العلاقة بين المسلمين والمسيحيين.

وفى تلك الأوقات وطبقا لشهادة «حسن يوسف» (باشا) وكيل الديوان المَلَكى، فإن حسابات رئيس الديوان «أحمد حسنين» (باشا) فى هذه النقطة الحساسة جرت فى السياق التالى :

- إن خروج «مكرم» من «الوفد» سوف يؤدى إلى «كسر» تمثيله الشامل للأمة، وسوف يصل الأقباط فيه يوماً بعد يوم إلى الشعور بانه لم يَعُد لهم مكان فيه.

- وسوف يتأكد ذلك الشعور عندما يخرج أكبر عَدَد من قادة الأقباط من حزب «الوفد» لينضموا إلى «مكرم» ، وهذا سوف يجعلهم - ويجعل مؤيديهم - فى موقف معارضة لـ «الوفد».

- إن القصر المَلَكى أخطأ ذات مرة فى العشرينات أيام المَلِك «فؤاد» حين تصور إمكانية حصوله على خلافة المسلمين، ومن ثم أبعد عنه الأقباط، وقد حان الوقت الآن كى يقوم «فاروق» بتصحيح خطأ «فؤاد» ويقرب الأقباط منه.

- إن القصر سوف يكون فى مقدورد أن يرضى الأقباط، وإذا لم يستطع أن يضمن لهم فى المجال السياسى وظروفه أوضاعاً مناسبة، فإنه يستطيع تعويضهم عن ذلك بدفعهم أكثر فى المجال المالى، وكان هذا قطاعاً يستطيع القصر أن يصل إليه بحكم أن الوزارات تتغير وأما القصر فهو هناك طول الوقت، وذلك ما يريدد المال : نصيراً موجوداً فى كل وقت.

(والغريب أن تلك كانت إحدى المعالم الرئيسية فى سياسة «اللورد «كرومر» غداة الاحتلال البريطانى لمصر، فقد كتب ينتقد الأقباط لعدم مجاراتهم للإمبراطورية البريطانية وهى مسيحية مثلهم، وكان رأى «كرومر» ترتيباً على ذلك أن الأقباط لا يرجى لهم دور سياسى مُؤثر فى مصر، والحل أنه يمكن تعويض ضعفهم السياسى بقوة مالية تؤدى إلى توازن يعطيهم نوعاً من التأثير السياسى حتى وإن كان صامتاً).

وفى النهاية فإن «مكرم عبيد» انشق عن «الوفد» ، وكان «النحاس» (باشا) بوصفه الحاكم العسكرى فى البلاد وقتها هو الذى أمَرَ باعتقاله بعد شهور من انشقاقه.

وكان ذلك بالفعل، وكما قَدَّرَ «أحمد حسنين» ، أهَمَّ خروج من «الوفد» ، فلم يكن الأمر مجرد شخص «مكرم عبيد» ، وإنما كان هناك - أيضا - ما أصاب الرمز الذى ظَلَّ «مكرم عبيد» يمثله فى الحياة السياسية المصرية من العشرينات إلى الأربعينات.

والذى حَدَثَ أن «مكرم عبيد» أنشأ فيما بعد حزباً أسماد حزب «الكتلة» (وكان المعنى الذى قصدد واضحاً). وكان المفروض أن يكون «الكتلة» بديل «الوفد» - لكن ذلك لم يحدث، فلا الكتلة حلت محل «الوفد» ، ولا «الوفد» احتفظ بـ «كتلة» ما كان يمثله. والحقيقة أن «الوفد» بعد ذلك الانشقاق الكبير وملابساته لم يُصبح بعدها نفس «الوفد» الذى كان قبلها.



والحاصل أن «مكرم عبيد» أصيب بعد انشقاقه واعتقاله، وحتى بعد تحرره من الاعتقال عندما أقيلت وزارة «الوفد» يوم ٨ أكتوبر ١٩٤٤ - بنوع من الإحباط الشديد ظلت وطأته تزداد ثقلاً عليه حتى أصيب باكتئاب حاصرد ثم عَصَرَهُ عَصراً !

والذى حدث أن «مكرم عبيد» خرج من الاعتقال يوم ٩ أكتوبر ١٩٤٤ ليجد مندوباً عن القصر يبلغه أنه أصبح وزيراً للمالية فى وزارة «أحمد ماهر» الذى عهد إليه المَلِك بتشكيل الوزارة بعد إقالة «النحاس». وربما أن «مكرم عبيد» راودد الإحساس بأنه أكبر من «أحمد ماهر» (سياسياً) وأجدر منه (نضالياً) فى إسقاط حكومة «الوفد» بحكم تأثير «الكتاب الأسود» ولعله تصور نفسه أحق برئاسة الوزارة، ومع ذلك فإن الرجل كَتَمَ مشاعره بظَنٍّ - أو وَهْم - أن الفرصة لم تضع بعد، وهكذا وقف على سلم وزارة المالية فى لاظوغلى وقد احتشد أمامه ألوف من الناس جاءوا إليه ولم يذهبوا إلى غيرد من رجال العهد الجديد ليلقى فيهم خطابه الشهير الذى بدأد بقوله : «سبحانك اللهم جئت بى من باطن الأرض سجيناً ووضعتنى على خزائن الوَطَن أميناً».

ثم توالت شعاراته تُحَرِّك الناس وتهز وجدانهم من قوله «فلنجعل من ماضينا قاضينا» ، و «انقضوا أو انفضوا»... إلى آخرد.

ودَخَل «مكرم عبيد» بحزب «الكتلة» إلى انتخابات سنة ١٩٤٥، ومع أنه كان هناك اتفاق بين الأحزاب التى شاركت فيها على توزيع المقاعد النيابية درءاً لأسباب الفرقة بين أطراف التحالف المناهض لـ «الوفد» - فإن «مكرم عبيد» ما لبث أن شعر أن حزبه يَتَعَرَّض عَمْداً للتحجيم وأحياناً بوسائل «التزوير» ، ولم يتحمل «مكرم عبيد» أن يجد نفسه شريكاً صغيراً فى ائتلاف يعلم هو أكثر من غيره أنه «مصنوع» ، ثم إن كل ما يسنده هو رغبة القصر.

وفى هذه الفترة قام «مكرم عبيد» بدور نشيط فى السياسة العربية، وفى حين أن غيره من الساسة الأقباط ساورتهم شكوك - خفيفة أو ثقيلة - فى مسالة انتماء مصر العربى، فإن «مكرم عبيد» كان يملك من سعة الرؤية وبُعد النظر ما جعله يدرك الضرورة القومية حين طرحت نفسها - حتى عندما وَقَّعَ «مصطفى النحاس» (باشا) ميثاق إنشاء الجامعة العربية وكان «مكرم عبيد» فى المعتقل.

ثم شارك «مكرم عبيد» فى لقاءات ومؤتمرات، وكان هو - قبل فلاسفة حزب «البعث» (فى الشام) مَن رأى مُبَكِّراً أن الإسلام ليس ديناً فقط وإنما هو مُحيطٌ حضارىٌ التقت فيه ثقافات الأمم التى اختارت الإسلام، وقد جاءت كل منها بمواريثها إلى ساحته وصَبَّت فيها خلاصة ما عندها، وتفاعل الجزء مع الكل، وكان أن الأمة العربية - بمسلميها ومسيحييها - خلقت محيطاً حضارياً عاماً جوهره الإسلام وامتزاج ثقافات شعوبه، ثم إن هويته النهائية هى العروبة. وفى حين أن كثيرين من الأقباط - حتى بين مفكريهم - خلطوا بين القومية العربية وبين الدين فإن «مكرم عبيد» ظَلَّ يرى التخوم ظاهرة والملامح واضحة.

....

....

وبرغم ذلك فإن «مكرم عبيد» بدأ يرى مع تصرفات كل يوم أن شركاءه فى الائتلاف يحاولون تهميشه، وذهب شاكياً إلى القصر مرة بعد مرة، لكن القصر - خصوصاً بعد مصرع «أحمد حسنين» فى حادث سيارة أمام لورى إنجليزى عند كوبرى قصر النيل - كان قد نسى منطق اللعبة مع «مكرم عبيد» - والواقع أنه لم يَعُد هناك فى البلاط المَلَكى من يستطيع ادعاء أنه كان فى هذه اللعبة فى البداية لكى يتحمل مسئوليتها ويدفع حركتها فى النهاية !



وهكذا فإن القصر بدأ يهمل شكاوى «مكرم عبيد» ، ثم راح يضيق بها، ثم راح رجاله يتهربون بالذرائع التقليدية التى تَتَرَدَّد باستمرار فى بلاطات الشرق !

وضاعف من إحساس «مكرم عبيد» بالمرارة أن «أحمد ماهر» (باشا) الذى قبل هو على مَضَض أن يعمل تحت رئاسته - جرى اغتياله فى البرلمان ثم خلفه «النقراشى» (باشا) رئيساً للوزراء، وفى حين أن «أحمد ماهر» كان سياسياً مَرِناً فإن خَلَفه كان مشهوراً بشدة العناد، ولم يكن «مكرم» - من أيام مَجدد فى «الوفد» - مُعجَباً بـ «النقراشى» ، وقد تمزقت نفسه حسرات عندما وَجَدَ نفسه مُخَيَّراً بين العمل تحت رئاسته أو الخروج من الحكم.

ويبدو أن «مكرم عبيد» راودد فى ذلك الوقت وَهْم إمكانية العودة إلى حِزبه القديم، ولو حتى من باب النكاية فى هؤلاء الذين استدرجوه ثم تَرَكوه فى التِّيه بعيداً عن العُمران - وقد أيقظ هذا الوَهْم فى خواطره أن «صبرى أبو علم» (باشا) سكرتير «الوفد» الذى خلف «مكرم عبيد» فى موقعه القديم توفى فجأة سنة ١٩٤٧ - وتَرَدَّدَت شائعات - لم تكن بلا أساس - عن عودة «مكرم» إلى «الوفد» ، ولكن «النحاس» (باشا) قطع دابر كل إمكانية لهذه العودة بنفى صريح.

ويروى تقرير للسفير البريطانى السير «رونالد كامبل» إلى وزير الخارجية البريطانية (ضمن محفوظات وزارة الخارجية لتلك السنة ١٩٤٧) أن مصدراً موثوقاً به أبلغ السفير أنه حضر مجلساً مع «النحاس» (باشا) قيل فيه لزعيم «الوفد» إن «مكرم عبيد» يذرف الدموع نَدَماً على ما كان وتَحَرُّقاً للعودة إلى مكانه القديم. وطبقاً لتقرير السفير فإن «النحاس» (باشا) قفز من مقعده وقال : «التماسيح التماسيح "crocodile crocodile" - يريد أن يقول إن دموع «مكرم عبيد» دموع تماسيح.

وفى الوقت الذى أصبح فيه «مكرم عبيد» نهباً للياس من دورٍ مؤثرٍ يستحقه بقدرته وتجربته وتاريخه - فإن الأحوال القبطية عاوَدَتها الوساوس، وزاد منها ذلك البروز المُتصاعد لحركة الإخوان المسلمين فى الحياة السياسَية، وفى الشارع السياسى، وفى أوساط الشباب. وكان القصر الذى مال فى البداية إلى استعمال قوة الإخوان المسلمين ضد «الوفد» قد أفزعته نزعتهم إلى العنف، لكنه فى حالة تقربه من الإخوان المسلمين حاول أن يجعل المَلِك «فاروق» - بانتظامه فى صلاة الجمعة وفى يده مسبحة وعلى ملامح وجهه خشوع - إماماً فى عيونهم. وعندما لم تنفع مناورة الاحتواء وصل العداء الصريح خصوصاً بعد اغتيال «النقراشى» رئيس الوزراء واغتيال «حسن البنا» مرشد الإخوان انتقاماً له - إلى حَدٍّ أن القصر حاول أن يجعل من المَلِك منافساً للإخوان يأخذ منهم الإمامة ما دام لم يستطع أن يكون هو بذاته إماماً لهم !

....

....

وفى الظروف التى أتيح لى فيها أن أتعرف على «مكرم عبيد» عن قرب، وكان ذلك فى أواخر الأربعينات، وفى أجواء انتخابات يناير ١٩٥٠ التى أشرفت عليها وزارة قصر رأسها «حسين سرِّى» (باشا)، فقد كان إهمال شأنه قد بلغ ذروته إلى درجة الإهانة - حتى أن حزب «الكتلة» تحت قيادته لم يحصل على مقعد واحد من مقاعد مجلس النواب !! - وكان الرجل ممروراً بقسوة، وضاعف من مرارته أن حزب «الوفد» عاد إلى الحكم، وأن ما كان يشكو بسببه من أوضاع أصبح قانون الحزب، وأصبح قانون الحكم.

وسمعت فى هذه الفترة «مكرم عبيد» بطريقة لا تخلو من مبالغة أوجدها فى نفسه - شعوراً طغى عليه بأنه استُعمِلَ فى لعبة قصور، ومع أنه لم يقل ذلك بوضوح فيما سمعت منه - فإن النبرة فى صوته كانت مزيجاً من الغضب الواصل إلى حَدٍّ الكراهية مُوَزَّعة على أطراف بعرض الساحة السياسية المصرية.

وكانت مشاعر «مكرم عبيد» تتسرب حتى وإن لم يقصد، وتَسْحَب ذيولَها على الحياة القبطية فى مصر. وكان هناك جيل جديد من المهتمين بالسياسة، وقد بدا لهم عندما اقتربوا من الساحة أن تجربة «مكرم عبيد» فصلٌ مُحَيِّرٌ، دافعٌ ورادعٌ فى نفس الوقت! ■



٣ بعد ثورة ١٩٥٢

■ وعندما وقعت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ـ كان الخط غير المرئى ـ مثل خطوط الطول والعرض ـ قد نزل على الأرض خيطاً أو شعرة، ثم تَحَوَّلَ إلى فاصلٍ ظاهر، ثم إن هذا الفاصل تَحَوَّلَ إلى شرخٍ يزداد عُمقاً باندفاع الحوادث.

كان ما تداعي وتوالى بعد الحرب العالمية الثانية قد طرح أسئلة ومشاكل وملابسات تثير القلق، ثم حدث أن جاءت الثورة بأسباب أخرى للقلق جعلت احتمال انفلاق الشرخ أكثر من احتمال التئامه كما يحدث للجروح فى الجسم الإنسانى، والأوطان فى الأصل والأساس مجتمعات إنسانية.

وكانت هناك بالتحديد ثلاثة أسباب جاءت مع الثورة أو توافقت مع قيامها :

أولها: أن مجلس قيادة الثورة لم يظهر فى قائمة أعضائه «قبطى »، ومع أن هناك فارقاً بين التنظيمات السياسية العلنية وبين تشكيلات العمل السياسى السرى ـ فإن ما آلت إليه الأحوال قبل الثورة جَعَلَ من عدم وجود ضابط قبطى فى مجلس القيادة الجديدة مسألة أكبر من حجمها.

وثانيها: أنه بدا فى أول الثورة وكأن نظامها الجديد وثيق الصلة بتنظيم الإخوان المسلمين، وبالفعل فإن الإخوان حاولوا إعطاء الانطباع بأن لهم فى الثورة أكبر مما هو بادٍ على السطح، وزَكّى ذلك واقع أن بعضَ أعضاء مجلس الثورة اقتربوا فى مرحلة من مراحل حياتهم من جماعة الإخوان المسلمين («كمال الدين حسين» و «أنور السادات» ـ بل و «جمال عبد الناصر» نفسه لعدة شهور).

وثالثها: أنه فى تلك اللحظة لم تكن الكنيسة القبطية فى أحسن أحوالها لأن بطركها الأنبا «يوساب» كان يواجه أزمة داخل كنيسته نشأت من صراع بين التقليد والتجديد، وكانت الكنيسة بواقع ما طرأ خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها ـ قد أصبحت ـ بأحكام الظروف ـ وحدها فى الحياة القبطية ودون قيادة سياسية بارزة يعترف بها الكل ـ المسلمون قبل الأقباط ـ كما كان فى زمن «مكرم عبيد» ، ولم تكن الكنيسة فى ذلك الوقت مُؤَهَّلة لهذا الدور. ومن سوء الحظ أن معظم العائلات القبطية الكبيرة قصرت نشاطها على المجال الاقتصادى والمالى مصداقاً لسياسة القصر (التى فلسف لها اللورد «كرومر») ـ وبالتالى فإن الدائرة القبطية (constituency) كانت خالية سياسياً، ليس لها نائب معتمد، أو مرشح مقبول !

....

ثم طرأت مضاعفات ألقت ظلالها على موقف كان معقداً وزاد تعقيداً، ففى ذلك الوقت ظهر تنظيم سياسى قبطى باسم «جماعة الأمة القبطية» ، وراح هذا التنظيم يضغط بمطالبه على الكنيسة كى تتخذ موقفاً باسم الأقباط «يستعيد لهم حقوقهم الضائعة»، ثم كان أن تمكن أفراد من هذا التنظيم سنة ١٩٥٤ من خطف البطرك القبطى الأنبا «يوساب» نفسه من قلب دار البطريركية ونقله إلى دير معزول فى الصحراء، وهناك جرى إرغامه على توقيع وثيقة بالتنازل عن الكرسى البابوى والموافقة على مطالب كثيرة، وفوق ذلك فقد حملت الوثيقة فى نهايتها تحذيراً للسلطات المصرية من أى تدخل فى الموضوع لأن ذلك «شأن داخلى» لا يخصها.

وانقسم الرأى العام القبطى فى الموضوع جانبين :

- جانب يرى ـ حتى وإن لم يدخل فى إطار تنظيم «جماعة الأمة القبطية» ـ أن الأحوال القبطية كان يجب أن تحصل على عناية أكثر من الدولة حتى لا تصل الأمور إلى ما وَصَلَت إليه.

- وجانب يرى أن النظام الجديد وقف يتفرج على إهانة خطف البابا من مقرِه البطريركى، ولو شاء لتدخل ومنع، لكنه ترك قبطياً يضرب فى قبطى ووقف هو يتفرج.

ولم يكن ذلك هو الحال ـ لكن شكل الحوادث أوحى باستنتاجاته خصوصاً فى أجواء مثقلة بعوارض سبقتها.



ولقد حاول النظام الجديد (نظام ٢٣ يوليو) أن يواجه القضية، وفى البداية فإن تمثله لها لم يكن كاملا بقدرٍ مُتَساوٍ مع أهميتها، ومن سوء الحظ أن المستشارين السياسيين الأول للنظام الجديد كانت لهم تصورات مسبقة (خصوصاً «عبد الرزاق السنهورى» (باشا) رئيس مجلس الدولة وقتها، و «سليمان حافظ» (بك) وكيله). وكان ظَنُّ الاثنين أنه فى أى ممارسة سياسية، وحتى بالديمقراطية المطلقة، فإنه لا أمل لأى «أقلية دينية» أن تشارك فى الحياة السياسية على مستوى يرضيها، والحل فى رأى الاثنين هو «التعويض الاقتصادى عن الغياب السياسى». والملاحظ أن رئيس الوزراء فى بداية الثورة («على ماهر» باشا) ساند هذا الرأى (والقول به ـ كما وَرَدَ من قبل ـ سابق : اعتمده من الأصل اللورد «كرومر» من دار المندوب السامى البريطانى فى بداية القرن العشرين ـ واعتمده «أحمد حسنين» باشا من القصر الملكى من بداية أربعينات القرن نفسه) ـ والآن وفى بداية الخمسينات عاد ذلك الرأى يعرض نفسه فى عصرٍ مختلف.

وبشكل ما فإن «جمال عبد الناصر» كان يشعر ـ ولو على نحوٍ غير محدد ـ أن هناك وضعاً ما يقتضى حلاً ما، وكان إحساسه التلقائى أن الدائرة القبطية تحتاج إلى نائب جديد أو مرشح مقبول يُعَوِّض الدور الخلاق الذى قام به «مكرم عبيد» فى العشرينات والثلاثينات فى الحياة السياسية المصرية.

وكان أن وَقَعَ اختياره ـ وبترشيح من المهندس «أحمد عبده الشرباصى» الذى كان بخبرته العملية يعرف أسرار التركيبة العائلية المصرية خصوصاً فى الريف ـ على الدكتور «كمال رمزى استينو».

وبالفعل فإن «استينو» أقبل على دورِه بإخلاص، لكن المشكلة أن الرجل قضى حياته كلها «تكنوقراطى» يحاذر كل ما هو سياسى، والآن وقد تجاوز به العمر سِن الشباب فإن إعادة تأهيله سياسياً كانت صعبة. والحقيقة أن الرجل حاول وبصدق ـ لكن المشكلة أن الدائرة القبطية بعموم، والعائلات القبطية بخصوص ـ نظرت إلى «استينو» باعتباره مبعوث النظام الجديد إليها يسمع وينقل، يستجلى ويوضح، وذلك وضع آخر يختلف عن وضع «مكرم عبيد» الذى استطاع بِفَهْمٍ عميقٍ لروح الحضارة العربية أن يبادر ويقول، وأن يؤثر ويحرك، وهو فى نفس الوقت قيادة سياسية وطنية جامعة.

وإنصافاً لـ «كمال رمزى استينو» فإنه وَجَدَ أن عدداً من العائلات القبطية الكبيرة ـ والتى قام نفوذها على مسافة قريبة من سياسات «كرومر» و «أحمد حسنين» ـ قد تَفَرنَجَت بتراكم الثروة مع بروز أنماط جديدة من الحياة الاجتماعية فى النصف الأول من القرن العشرين. وفى حين أن رجلاً مثل «مكرم عبيد» كان يحفظ القرآن عن ظَهرِ قلب. فقد كان المشكوك فيه أن بعضاً من هذه العائلات القبطية الكبيرة تنطق فى حياتها كل يوم داخل بيوتها بجُملة واحدة سليمة من اللغة العربية.



وفى ظروف اشتداد الحرب الباردة فقد تأكد أن السياسة الأمريكية ابتداء من عصر الرئيس «أيزنهاور» ـ راحت تعتمد سياسة خارجية يلعب الدين فيها دوراً بارزاً، وكان الظن أن الدين ـ قبل الجيوش، وقبل الأدب، وقبل الفن ـ هو القادر بالطبيعة على مواجهة الماركسية «المُلحِدة» فى الدول التى اعتمدتها (الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية كلها ـ ثم الصين ومحيطها فيما بعد).

وكان «جون فوستر دالاس» وزير خارجية «أيزنهاور» قد وضع سياستين متوازيتين اعتقد أنه لا تعارض بينهما، وآمن أن كل سياسة منهما قادرة فى مجالها :

السياسة الأولى هى إنشاء حلف إسلامى يضم كل الدول التى تعتنق الإسلام (وتحارب الالحاد) فى حلف عسكرى تقوده الولايات المتحدة.

وقد سمعت بنفسى فى واشنطن ـ أواخر سنة ١٩٥٢ ـ شرحاً مُفَصَّلاً للفكرة قدمه لى الجنرال «أولمستيد» رئيس برامج المساعدات الخارجية فى وزارة الدفاع ـ البنتاجون. والخُلاصة فيه أن الولايات المتحدة ترى ثلاث دول محورية يلزم أن يرتكز عليها هذا الحلف لتكتمل له فاعليته :

ـ باكستان ـ وهى بالتعداد أكبر بُعد إسلامى (وقتها).

ـ تركيا ـ وهى بالسلاح أقوى بلد إسلامى (وقتها أيضاً)

ـ مصر ـ وهى بالأزهر أهَم مرجعية إسلامية (وقتها كذلك).

ولعل اهتمام الجنرال «أولمستيد» وغيره بزيارتى إلى واشنطن تلك الأيام كان هدفه أن أنقل الفكرة إلى «جمال عبد الناصر» باقتناع يؤكد ما ينقله إليه سفراء الولايات المتحدة لديه ـ رسمياً

فى نفس الوقت الذى كانت فيه «العسكرية» الأمريكية تحاول إنشاء حلف إسلامى واسع من كراتشى إلى القاهرة إلى أنقرة ـ فإن «الدبلوماسية» الأمريكية وضعت ثقلها وراء مجلس الكنائس العالمى

الحقيقة أن البابا «شنودة» كان أكثر الناس ملاءمة لمكانه وزمانه، ولعل دوره - على نحو ما - استعاد دور «مكرم عبيد» رغم اختلاف خلفيته وشخصيته وموقعه. كان «مكرم عبيد» قد وصل إلى روح الحضارة العربية (للعرب المسلمين والمسيحيين) عن طريق دراسة الدين وحفظ القرآن، وكان الراهب «شنودة» قد وصل إلى نفس النتيجة من باب الأدب

عن فكرة الحلف واحتمالات تنفيذها (وكان «جمال عبد الناصر» طول الوقت يراقب بحرص، ويتابع بحَذَر!).

وكانت السياسة الثانية - وقد تبناها «جون فوستر دالاس» بنفسه وعمله وتواجده المباشر - هي إنشاء ما سمى باسم «مجلس الكنائس العالمي»، وكان الغرض من إنشائه جمع كل الكنائس من المذاهب المسيحية المختلفة في تنظيم واحد ينهض هو الآخر بدوره في وضع القِيَم المسيحية في مواجهة الدعاوى الماركسية، وكان أكثر الخوف ذلك الوقت على جنوب أوروبا، خصوصاً فرنسا وإيطاليا واليونان، ففي هذه البلدان جميعاً بدا التحدى الشيوعي غالباً، وبدا أن الديمقراطية نفسها قد تصبح وسيلته إلى بلوغ السُلطة، ولم يَعُد هناك خط دفاع قادر غير الدين - مع وجود خط دفاع خفي هو وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ونعرف الآن أنها «دفعت» و«زَوَّرت» و«قتلت» لكي تمنع اليسار من الوصول إلى مواضع القرار في باريس وروما وأثينا (وغيرها).

....

وفي نفس الوقت الذي كانت فيه «العسكرية» الأمريكية تحاول إنشاء حلف إسلامي واسع من كراتشي إلى القاهرة إلى أنقرة - فإن «الدبلوماسية» الأمريكية وضعت ثقلها وراء مجلس الكنائس العالمي.

وبالفعل فإن مجلس الكنائس العالمي حاول أن يمد نشاطه إلى الكنيسة المصرية - وكان ذلك إحياء جديداً لجهود تبشيرية سبقت - لكن الكنيسة القبطية المصرية كانت واعية بتراثها، حريصة على استقلالها.

وبرغم محاولات لاستغلال تَوَجُّه مصر العربي في منتصف الخمسينات، ثم قيام الوحدة المصرية السورية قرب نهايتها - وتأويل ذلك لدى البعض إسلامياً - فإن الكنيسة المصرية الوطنية حشدت قوتها وواجهت. (ولا يهم هنا أن نفراً من الأقباط حاولوا عَلَناً وسراً ومن مَقَرّ جريدة طائفية - إيقاظ النعرة الفرعونية عن تصميم وعمد - ثم الترويج في الداخل والخارج لاحتكار الفرعونية وحصرها في الأقباط وحدهم، ثم جنوح البعض بعد ذلك إلى تصرفات وصلات جانبها الصواب. وتَشَجَّعَت هذه التصرفات والصلات في أعقاب الانفصال بين مصر وسوريا، وكان أن تَقَرَّر - تَزَيُّداً في الحرص دون خطر حقيقي فيما أظن - وضع بعض المُتَوَرِّطين فيها تحت الحراسة، ومن سوء الحظ أن الإجراء طال غيرهم بالتبعية.

[وكان هناك بين الأقباط من انطبقت عليهم الإجراءات الاشتراكية بقواعدها - شأن غيرهم من المسلمين - وكان هناك من وَصَلَت إليهم الإجراءات باعتبارات الأمن - من منظور المُختصين به)].



وفي كل الأحوال فإنه بعد مرحلة حافلة بالتطورات من السويس إلى دمشق، وجد «جمال عبد الناصر» أمامه بطركا قبطياً قادماً من عمق الريف المصري مستوعباً - بالحسِّ - لحقائق مصر الاجتماعية وضروراتها. وهكذا فإنه في أول مرة التقاه بعد أن جرى انتخابه وترسيمه، اتفق معه على خط اتصال مباشر يعطى للبطرك - كما لشيخ الأزهر وقتها - أن يطرق باب رئيس الدولة في أي وقت يشاء.

وكان «جمال عبد الناصر» قد أدرك بالتجربة العملية أن تجاور دينين (إلى جانب نهر واحد يعيش على ضفافه واعتماداً على مياهه أصحاب وَطَن واحد) - هو مسئولية رئاسة الدولة، لأن ترك الأمر لجهاز الدولة العادى قد لا يكون كافياً في ظروف غير عادية (ومن الملاحظ أن نفس الشيء حَدَثَ في ذات الفترة بالنسبة لنهر النيل، فقد كان مشروع إنشاء السد العالي تحت الإشراف المباشر لرئاسة الدولة).

وكذلك قامت علاقة من نوع خاص بين «جمال عبد الناصر» وبين «كيرلس» السادس، وكانت علاقة مباشرة لا يدخلها وسطاء ولا تداخلها حساسيات.

وربما أن الأمر احتاج مرة واحدة إلى اقتراب غير مباشر بين الاثنين.

....

ففي ذات يوم من سنة ١٩٦٤ جاء لزيارتي في «الأهرام» صديق كريم ينتمي إلى أسرة قبطية بارزة هو الأستاذ «أمين فخري عبد النور» (ابن السياسي القبطي الكبير «فخري عبد النور» الذي كان أول من ذهب إلى «سعد زغلول» عند تشكيل «الوفد» يطالب بحق الأقباط ودورهم في العمل الوطني من أجل الاستقلال).

وكان «أمين فخري عبد النور» يسألني «إذا كنت أقابل الأنبا صمويل يحمل إليَّ رسالة من البطرك كيرلس»، وبالطبع رَحَّبْت - وفي غد جاء الأنبا «صمويل» ومعه «أمين فخري عبد النور» - وكانت رسالة «كيرلس» السادس سؤالاً رأى البطرك أن يوجهه إلى الرئيس «جمال عبد الناصر» عن طريقي وليس مباشرة منه إليه - وذلك حتى لا يؤدي طرح السؤال مباشرة إلى إحراج للطرفين إذا كان للرئيس رأيٌ مخالف.

كان مؤدى السؤال كما شرحه الأنبا «صمويل» هو أن الكنيسة المصرية وهي مقبلة على الاحتفال بألفية ثانية بعيد ميلاد السيد المسيح تفكر في المستقبل، ومع ظهور مجتمعات قبطية جديدة خارج مصر، فإن البطرك يحلم بإنشاء كاتدرائية تكون في مقام الكرازة المرقسية - بين كنائس العالم الكبرى.

والمطلب الذي يريده البطرك من الرئيس هو:

- السماح ببناء كاتدرائية (فهذه مسألة أضخم من بناء كنيسة عادية) - والتصريح من المستوى الأعلى مطلوب هنا بصفة خاصة (مع العلم أنه بالنسبة لبناء الكنائس العادية فإن «جمال عبد الناصر» كان قد أعفى البطريركية من تصريح وزارة الداخلية وذلك في حدود بناء ٢٥ كنيسة كل سنة، والبطرك هو الذي يملك سلطة التصريح بها، وتَقَبَّل منه وزارة الداخلية بغير أن تتعلل بأحكام الخط الهمايوني الشهير!)
- بعد ذلك فإن البطرك عنده مشكلة أخرى هي مشكلة التمويل، فبناء الكاتدرائية سوف يحتاج إلى مبالغ كبيرة، والكنيسة تواجه أزمة بين أسبابها أن بعضاً من أغنياء الأقباط المستعدين للتبرع أصابتهم القرارات الاشتراكية (سنة ١٩٦١)، ومن ثم فقد أصبح عذرهم أمام البطرك ظاهراً. ومن ناحية ثانية فإن أوقاف الكنيسة سَرَى عليها ما سَرى على الأوقاف كلها، ولم يعد هناك من ريعها ما يغطي ولو جزءا من تكاليف بناء الكاتدرائية.
- وأخيراً فإن البطرك لا يرى بُدّاً من طلب مساعدة الدولة، لكنه في نفس الوقت يدرك أن مساهمتها مباشرة في بناء كاتدرائية مسيحية مسألةٌ دقيقة!

وخلاصة الرسالة في النهاية أن البطرك حائر: يريد أن يكلم الرئيس في ذلك كله - لكنه في نفس الوقت لا يريد إحراجه - لا أمام المسلمين ولا أمام الأقباط.

....

ونَقَلْتُ رسالة البطرك إلى الرئيس، وسألني «جمال عبد الناصر»: «ما هي الحدود المالية لطلب البطرك؟» - ولم أعرف جواباً، لأن الأنبا «صمويل» كان مُكَلَّفاً بالسؤال ولم يكن مُكَلَّفاً بما بعده.

وبعد أيام قليلة ذهبت مع الأنبا «صمويل» إلى لقاء مع البطرك «كيرلس» السادس في مَقَرِّه.

وكان البطرك محرجاً في تحديد ما يطلبه، وتشاور مع الأنبا «صمويل» أمامي بالظنون عن التكلفة، وكان رده أنها «ما بين مليون ونصف إلى مليونين من الجنيهات»، وأكثر من ذلك فإن البطرك أمر سكرتيره فجاءه بمجموعة من الرسوم الهندسية لمشروع الكاتدرائية، وكان «كيرلس» السادس من تشوقه إلى بناء كاتدرائية قد كلف بتصميمها - فعلا - عدداً من أكبر المهندسين الأقباط في مصر.

....

وحين حملت اقتراح البطرك وما ألحقه من تصميمات - إلى «جمال عبد الناصر» في بيته مساء نفس اليوم، كان قد توصل إلى حَلٍّ عملي.

كان تقديره أنه قد يكون من الصعب أن يقرر مجلس الوزراء إنشاء كاتدرائية قبطية من ميزانية الدولة، فهذه سابقة قد تجر وراءها بالنسبة للمسلمين والأقباط ما لا داعي له من التباس. لكنه نظراً للضرورات - وهي تتعلق بروابط المجتمع الوطني - فإن إنشاء الكاتدرائية بمؤازرة الدولة مطلوب. وكان الحل أن «جمال عبد الناصر» دعا رئيس مؤسسة البناء والتشييد (وهو يومئذ المهندس «على السيد») وطلب إليه - وعَزَّز طلبه بتوجيه رئاسي مكتوب - أن تتولى شركات المقاولات التابعة لمؤسسته، كل في اختصاصها الفني، بناء وتجهيز الكاتدرائية، ثم أن تضيف التكاليف إلى حساب عمليات أخرى يقوم بها القطاع العام - وقد كان.

وحضر «جمال عبد الناصر» احتفال بناء الكاتدرائية، ولم أستطع حضور الاحتفال لداعي سفر مفاجئ، وكان أن بعث البطرك باثنين من كبار أساقفة الكنيسة أحدهما الأنبا «صمويل» والثاني الأنبا «تاوفيلس» لإقامة قداس بركات في بيتي ولأولادي، ومع القداس صفحة من كتاب كنسي عتيق، وقطعة نسيج قبطي قديم، كلاهما داخل حافظ من زجاج - وقال لي البطرك فيما بعد إن «الصلاة مهما اختلفت الطقوس دعاء لرب واحد ساكن في قلوب كل المؤمنين».

وربما أن الحقائق كانت تَتَطَلَّب ما هو أبقى وأعمق من علاقة وثيقة بين بطرك ورئيس - لكنه لسوء الحظ أن معارك ٢٣ يوليو المستمرة جعلتها تترك وراءها فراغات مفتوحة! ■

من تلك الأيام تدفقت مياه كثيرة في النهر الواحد الذي يعيش على ضفافه ويتجاور دينان لكن مياه النهر حملت بعد ذلك بقع دم. وفي «الكشح» سنة ١٩٩٩ كان الدم بقعة كبيرة على سطح الماء، وهذه علامة بالغة الخطورة. والشاهد الآن أن أحداً لا يحتاج إلى لجنة تحقيق برلمانية، أو حتى محضر تحقيق بوليسي، لكي يدرك مدى خطورة العلامة



٤ الســـــادات وشـــــنودة

في بداية رئاسته ترك الرئيس «السادات» قضية «تجاور دينين في وطن واحد» لجهاز الدولة العادى، وبالذات وزارة الداخلية، وقد شغلها السيد «ممدوح سالم» ابتداءً من مايو سنة ١٩٧١ وظلَّ فيها حتى عهد بها إلى أحد مساعديه عندما كُلِّفَ هو بتشكيل الوزارة في مايو سنة ١٩٧٥.

وكان «ممدوح سالم» رجلاً يتمتع بمزايا كثيرة، لكن طبيعة اهتمامه بـ «عامل الأمن» قبل أى اعتبار دفعه دون تَعَمُّد إلى صدام مع البطرك الجديد الذى أصبح لقبه الرسمى «البابا» بعد إنشاء الكاتدرائية. ومع أن السيد «ممدوح سالم» كان أكبر المُحَبِّذين لانتخاب الأنبا «شنودة» (البابا الجديد) - فإنه ما لبث أن غَيَّرَ رأيه لأن البابا «شنودة» كانت له نظرة في إدارة شئون كنيسته يصعب أن تَتَحَكَّم فيها كلها قيود أمن.

والحقيقة أن البابا الجديد كان أكثر الناس مُلاءمة لمكانه وزمانه، ولعل دوره - على نحوٍ ما - استعاد دور «مكرم عبيد» رغم اختلاف خلفيته وشخصيته وموقعه. كان «مكرم عبيد» قد وصل إلى روح الحضارة العربية (للعرب المسلمين والمسيحيين) عن طريق دراسة الدين وحفظ القرآن، وكان الراهب «شنودة» قد وصل إلى نفس النتيجة من باب الأدب، وكانت اللغة مدخل عقله إلى قناعته، كما أن الشعر كان المدخل إلى قلبه. وفي حين أن «مكرم عبيد» كان كتلة من الأعصاب مشحونة طول الوقت، فإن البابا «شنودة» كان هادئاً في حساباته ممسكاً بزمام أعصابه دائماً.

وكانت بداية المتاعب بين الرئيس «السادات» والبابا «شنودة» - هي السياسة الجديدة التي فَكَّرَ فيها وأشرف على تنفيذها المهندس «عثمان أحمد عثمان» وهو الصديق الذى راح يظهر بإلحاح في الدائرة القريبة من الرئيس «السادات»، وكان مؤدى سياسة «عثمان» استعمال شباب الجماعات الإسلامية في التصدى لجمهور الشباب القومي (وفيه الناصرى) في الجامعات. ومع استمرار مظاهرات الطلبة بسبب فوات «عام الحسم» (١٩٧١) - كما أسماه الرئيس «السادات» - دون حسم - فإن مطلب التصدى تَحَوَّل إلى مطلب ردع، وكان أن ظهرت العصى والجنازير وسكاكين قرون الغزال. وبالطبع فإن نزعة العنف لم تقتصر على الجامعة وإنما تَسَرَّبَت وسالت إلى المجتمع الواسع خارجها، وكانت وزارة الداخلية في حساباتها «لاتجاهات الشارع» قد أصبحت أكثر تَوَجُّساً، وكان أن اتخذت موقفاً أكثر تشدُّداً في عملية ترميم وإنشاء الكنائس مُتَزَمِّتة أكثر من اللازم حتى في تطبيق الخط الهمايونى، والهدف بالطبع مجاراة الجماعات الإسلامية أو مداراتها - مع اعتبارها في ذلك الوقت ضمن احتياطي النظام ضد مُناوئيه.

وتَوَتَّرَت الأحوال في «الخانكة» - حين حَدَث ما اعتُبِر عدواناً - بالحريق والهدم - على كنيسة في «أبو زعبل»، ثم قرر البابا «شنودة» أن يقود موكب أساقفة سَيْراً على الأقدام إلى الكنيسة المعتدى عليها لإقامة الصلوات فيها. وأحس وزير الداخلية أن البابا - صديقه القديم - يَتَحَرَّش بوزارته ويَتَحَدَّاها أن تَتَعَرَّض له ووراءه صفوف من القادة الروحيين لكنيسته!



كنت في ذلك الوقت - نوفمبر ١٩٧٢ - ما زلت من أقرب الناس سياسياً إلى الرئيس «السادات».

وظهر يوم ١٠ نوفمبر ١٩٧٢ - اتصل بى الرئيس «السادات» هائجاً من اللحظة الأولى يقول لى «إنه لم يَعُد يطيق صبراً على شنودة» (يقصد البابا «شنودة»)، فهو - في رأيه - يتصرف وكأن الدولة غير موجودة، أو كأنه يريد أن يصبح دولة فوق الدولة، وهو بذلك سوف يقود «البلد» إلى فتنة طائفية، وقد قرر هو («السادات») - أن يتحمل مسئوليته وأن يضع «شنودة» في حجمه الطبيعي، ولذلك فإنه سوف يذهب أول الأسبوع القادم إلى مجلس الشعب ويُفَجِّر «الموضوع الطائفى» ويطلب إلى المجلس أن يتحمل مسئوليته وأن يتخذ من الإجراءات ما يكفل وضع الأمور في نصابها و «البلد» مقبل على معركة - ثم طلب الرئيس «السادات» منى أن أكتب له الخطاب الذى يعرض به الموضوع على مجلس الشعب وأن أضمنه ما اقترح أن يتخذه المجلس من إجراءات أشار إلى بعضها.

ورَجَوْتُه أن يَتَمَهَّل فذلك موضوع لا يُعالَج بالحدة، ثم إنه لا يُعالَج بـ «الإجراءات»!

واحتَدَّ الرئيس «السادات» قائلاً إنه «لا يستطيع أن يجلس على كرسيه وتحته لغم موقوت كما كان يفعل جمال» (يقصد «جمال عبد الناصر») - ثم يستطرد: «جمال كان له بال طويل في الصبر، أما أنا فلا أستطيع، ولا بد لمجلس الشعب أن يَجِدَ حلاً حاسماً للموضوع»، وهو على أى حال «ذاهب» «ذاهب» إلى المجلس سواء كان في يده خطاب مكتوب أو لم يكن عنده إلا ما يخطر على باله لحظة يبدأ حديثه أمام المجلس، مضيفاً: «إننى سوف أفَجِّر المشكلة برمتها وليكن ما يكون»!

ورَجَوْتُه أن يأذن لى بالمرور عليه في بيته في الجيزة.

وعندما دَخَلْتُ عليه أحسست من اللحظة الأولى أنه مُعَبَّأ على الآخر بحتمية «التفجير» سواء كان مُحَرِّك التعبئة أمنيا، أو كان مُحَرِّكُها من أصدقائه المقربين.

ولساعتين حاولت أن أطرح عليه وجهة نظر أخرى ملخصها «مسئولية رئاسة الدولة مباشرة» عن «جوار دينين على أرض وطن» (وبمثل «تَعَلُّق حياة شعب بمجرى نهر واحد»).

وأخيراً وبعد عناء تَوَصَّلنا إلى حَلٍّ وسط: بدل أن يتكلم هو في مجلس الشعب يبعث إلى المجلس بخطاب عن «الموضوع»، وبدل أن يقوم هو بعملية «تفجير» أمام المجلس يَطلُب من هذا المجلس أن يقوم بتقصى الحقيقة فيه والعودة إليه بتقرير عنه. وكتبت له ونحن بعد جلوس في بيته مشروع الخطاب الذى يبعث به إلى المجلس، ووافق عليه.

وصباح اليوم التالى دَعَوْتُ إلى مكتبى الدكتور «جمال العطيفى» - وهو المستشار القانونى لـ «الأهرام» وفي نفس الوقت وكيل مجلس الشعب (وقد عُيِّنَ فيما بعد وزيراً للإعلام). وحكيت لـ «جمال العطيفى» ما انتهى إليه لقائى في اليوم السابق مع الرئيس «السادات»، وأحطته علماً بأن المجلس سوف يتلقى اليوم أو غداً خطاباً من رئيس الجمهورية يطلب إليه «تشكيل لجنة تحقيق برلمانية» لتقصى الحقائق وتقديم تقرير عنها. وكان تعليق «جمال العطيفى» على الفور أنه «لا يستطيع أن يرى ماذا يستطيع المجلس أن يفعل في هذا الموضوع وفي هذه الظروف؟» - وقلت له إن «ذلك رأيى أنا الآخر» - لكن ما يمكن «تَوَقُّعُه» من المجلس هو فسحة وقت (أسبوع أو أسبوعين على أكثر تقدير) تخدم هدفين:

من ناحية تنفيس البخار المكبوت في البلد نتيجة لحوادث لم يتداركها في الوقت المناسب أحد، وإنما تُرِكَت لتتراكم ولتتحول إلى قنبلة موقوتة (على حَدِّ تعبير الرئيس «السادات»).

ومن ناحية ثانية إتاحة فرصة لمناقشة مسئولة في إطار دستورى واضح، قد يستفيد منها الرئيس ويشعر معها أن هناك من يشاركه المسئولية في مواجهتها، وذلك في نفس الوقت يساعده على أن يستجمع أفكاره ويعيد تركيزها، ويتصرف بسلطته وهى وحدها القادرة على المواجهة السليمة لهذا الموضوع، سواء بالاستباق المستنير لوقائعها، أو بالتدارك اليقظ لتداعياتها.

ولم أكن أحتاج إلى شروحات تطول مع «جمال العطيفى» لأن علاقة صداقة وعمل في «الأهرام» نشأت واستمرت سنوات قبلها وجعلتنا معاً في مواجهة هذا النوع من القضايا العملية المباشرة على موجة واحدة. وقد سألنى دون تَرَدُّد لا تسمح به ظروف هذا النوع من المشاكل «ما إذا كنت أرى أن يكون هو المسئول عن هذه اللجنة البرلمانية باعتباره وكيل مجلس الشعب؟» - وكان ذلك في ظنى ترتيباً مثالياً لو أمكن تدبيره. وطلب «جمال العطيفى» أن أساعد في «الترتيب» باتصال مع السيد «حافظ بدوى» رئيس مجلس الشعب وقتها بعد أن يكون هو قد تولى شرح التفاصيل له فور أن يتلقى مكتبه رسالة الرئيس «السادات». وكذلك كان.

وصباح يوم ١٤ نوفمبر ١٩٧٢ صَدَرَ «الأهرام» وعلى صَدْرِ صفحته الأولى خَبَر كتبته بنفسى، ونصه كما يلى:

«علم مندوب «الأهرام» أن الرئيس أنور السادات قد طلب إلى مجلس الشعب تشكيل لجنة برلمانية خاصة للتحقيق في بعض المحاولات التى جرت أخيراً لافتعال فتنة طائفية لا يمكن أن يستفيد منها الوطن أو المواطنون في أى وقت فضلاً عن هذا الوقت بالذات.

وكانت وجهة نظر الرئيس السادات أن هناك وسيلتين لمعالجة هذا الموقف:

الوسيلة التقليدية وهى محاولة تَكَتُّم الأمور والتغطية عليها بالحلول الوسط.

والوسيلة الثانية هى وسيلة المواجهة ووضع الحقائق أمام جماهير الأمة الواعية كلها لكى تستطيع أن تحكم وتفرض على الجميع أن يلزموا حدود مسئولياتهم تجاه الوحدة الوطنية.

وقد كان آخر المحاولات التى دعت إلى تشكيل لجنة التحقيق البرلمانية، هو حادث في «الخانكة»، احترق فيه سقف غرفة في مقر جمعية «أصدقاء الكتاب المقدس».

وأدت تطورات هذا الحادث إلى مضاعفات وردود أفعال مختلفة، برغم أنه كانت هناك محاولات لا شك في صدقها لضبط الأعصاب والحرص على كل المقدسات الوطنية التى يلزم الحرص عليها.

> أشعر - ولا بد أن غيرى يشعرون كذلك - أن المشهد العربى كله سوف يختلف إنسانياً وحضارياً - وسوف يصبح على وجه التأكيد أكثر فقراً وأقل ثراءً لو أن ما يجرى الآن من هجرة مسيحيى المشرق تركَ أمره للتجاهل أو التغافل - أو للمخاوف حتى وإن لم يكن لها أساس



وكان الرئيس السادات قد تلقى برقيات عديدة من أهالى «الخانكة» ، ومن عدد من رجال الدين. وكان بعد ذلك اتصاله بالسيد حافظ بدوى رئيس مجلس الشعب.

وقد اتخذ مجلس الشعب أمس قراراً. نصه كما يلى :

«قرر مجلس الشعب تشكيل لجنة لتقصى الحقائق حول الأحداث الطائفية التى وقعت فى مركز الخانكة، والاطلاع على تحقيقات النيابة وإعداد تقرير للمجلس عن حقيقة ما حدث».

وقد تشكلت اللجنة برئاسة الدكتور جمال العطيفى وكيل المجلس، وعضوية السادة : محمد فؤاد أبو هميلة، وعبد المنصف حزين، وكمال الشاذلى، وألبرت برسوم، والدكتور رشدى سعيد، ومحب استينو.

وعلم مندوب «الأهرام» أن لجنة التحقيق البرلمانية سوف تستمع إلى أقوال جميع المسئولين بغير استثناء.

وستبدأ اللجنة بسماع تقرير السيد ممدوح سالم نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية، ثم جميع رجال الأمن فى المنطقة، ثم كل الذين اتصلوا بالوقائع، ثم تَطَّلع اللجنة على تحقيقات النيابة العامة للموضوع، وذلك فى سبيل التوصل إلى الحقيقة وإعلانها للمواطنين.

....

....

وجاءنى الدكتور «جمال العطيفى» بعد أسبوع يقول إنه اللجنة عَقَدَت عدة اجتماعات للاستماع ولتقصى الحقائق، وهو يرى أن الاستماع والتقصى لا يمكن أن يزيدا أكثر من أيام قليلة أخرى، وإلا فإن المسائل قد «تفك» ، وذلك لا يجب السماح به. وكان «جمال العطيفى» حائراً فى كيفية كتابة تقرير اللجنة رداً على إحالة الرئيس، ولم يكن هناك حَلٌ إلا إعادة الأمر إلى رئاسة الدولة «باعتبار أن الدستور أناط بالرئيس أن يسهر على حماية الوحدة الوطنية» ، وكانت تلك بالفعل هى العبارة المفتاح فى تقرير اللجنة (مع ملاحظة أن تقرير اللجنة حوى فوق العبارة المفتاح أفكاراً واقتراحات ما زالت حتى هذه اللحظة تستحق الاهتمام وتستوجب إعادة التقدير حتى رغم انقضاء ثمانية عشر عاماً على كتابته).

ولم أفاجأ حين اتصل بى الرئيس «السادات» تليفونياً صباح العشرين من نوفمبر يقول لى، ضاحكاً هذه المرة وليس مُسْتَفزّاً : «إن المجلس أعاد لى الكرة مرة أخرى».

وكان ردى أن تلك طبائع الأمور، فليس فى هذه الساحة ولا ينبغى أن يكون هناك لاعب آخر، بمعنى أن الكل يستطيع أن يتفهم وأن يقترح وأن يساعد وأن يفيد، لكن «جوار الدينين على أرض الوطن الواحد» ـ هى ومياه النيل ـ مسئولية رئاسة الدولة قبل كل الأطراف.

واستأذنت الرئيس «السادات» مرة أخرى أن أَمُرّ عليه فى بيته، وجلسنا ساعات طويلة نناقش ماذا بعد ؟ وماذا يصنع بتقرير اللجنة ؟ ـ وتوصلنا إلى أهمية أن تكون خطوته الأولى بزيارتين : أولاهما للجامع الأزهر يلتقى مع شيخه ومع هيئة كبار العلماء، والثانية لدار البطريركية يلتقى مع بابا الكرازة المرقسية ومع المجمع المقدس بأكمله، وفى الاجتماعين يستطيع الرئيس أن يوجه وأن يدعو إلى تلطيف الأجواء وتخفيف درجة الاحتقان، من باب الحقيقة الوطنية والتاريخية، وليس من باب الكلام الشائع والساذج عن «التسامح» وعن «السماحة» ـ إلى آخره !

(وفى نفس الجلسة وافقَ الرئيس «السادات» بعد تَرَدُّد على إعادة العمل بالترتيب القديم بين «جمال عبد الناصر» والبابا «كيرلس» السادس، وبحيث يكون فى سلطة البابا، ودون عراقيل بسبب الخط الهمايونى، أن يُصَرِّح ببناء خمس وعشرين كنيسة كل عام).

....

....

وبعد أسبوعين ـ فى شهر ديسمبر ـ قام الرئيس «السادات» بالفعل بالزيارتين. وقد طلب إلىَّ أن أكون فى انتظاره ليقص علىَّ النتائج، ودخل الرئيس «السادات» من باب بيته إلى البهو وإلى الصالون الكبير وكنت فى انتظاره جالساً مع قرينته السيدة «جيهان» ، وكانت هى الأخرى قلقة تريد أن تعرف كيف سارت الأمور، وكان الرئيس «السادات» فى أحسن أحواله وهو يحكى بطريقته المسرحية (أحياناً) ـ ويقول :

ـ «فى هيئة كبار العلماء مشى كل شىء كما هو منتظر. فى البطريركية أثبت «شنودة» أنه ناصح أكثر مما قَدَّرت».

وأضاف الرئيس «السادات» :

ـ «حاولت استفزازه مُتَعَمِّداً. نظرت إلى ساعتى أثناء اجتماعنا وأعضاء المجمع المقدس كله حولنا وقلت مُوَجِّهاً كلامى له : «لقد حان موعد صلاة الظهر وأريد سجادة صلاة».

وهرع شنودة بنفسه إلى غرفة مجاورة وجاء لى بسجادة صغيرة فَرَشَها بنفسه وسط مكتبه وخرج الكل من القاعة، ولكن شنودة لم يخرج وإنما وقف بعيداً وقد شَبَكَ يديه أمام صدره فى خشوع وانتظرنى حتى أتم صلاتى... ورأيته بركن عينى وحاولت تقدير رد فعله... ».

وكانت السيدة «جيهان» هى التى سبقت بأول ملاحظة فى التعقيب على ما قال زوجها، وسألته بحيرة : «غريبة يا أنور... وليه تِسْتَفِزُّه؟ ».

وقال لها «أنور السادات» بطريقته :

«ياه يا جيهان لن تفهمى فى السياسة طول عمرك. أردت استفزازه لكى تَظهَر خفايا مشاعره».

ثم أضاف :

«لكنه ناصح وغويط».

وسألته إذا كان قد أبلغه بالعودة إلى اتفاق الرئيس «عبد الناصر» والبابا «كيرلس» ؟ ـ ولم ينتظر الرئيس «السادات» حتى أكمل سؤالى، وقال :

«وافقت له على ضعف عَدَد الكنائس التى اتفق عليها جمال مع كيرُلُّس» !

وعندما لاحظ دهشتى استطرد يقول : «شنودة ظَلَّ طول الوقت يقول لى أنت رئيسنا وأنت زعيمنا وأنت رَب العائلة».

....

....

ومن سوء الحظ أن الأمور لم تلبث أن تعقدت حتى جاء يَومٌ سنة ١٩٧٨ ـ سمعت فيه وكنت فى زيارة عمل إلى روما ـ خطاباً عاماً للرئيس «السادات» يروى فيه تفاصيل إضافية عن خلافاته ـ القديمة والجديدة ـ مع البابا «شنودة» ، ثم وَصَلَ إلى نقطة من خطابه قال فيها إنه كان على وشك اتخاذ إجراء ضده لولا أنه تلقى «خطاباً من فتاة صغيرة رَجَتْهُ أن يطيل صبره، وتَمَنَّت لو كان فى استطاعتها أن تأخذ من عمرها وتضيف إلى عمره» ، وكان أن تَمَهَّلَ فى اتخاذ ما انتوى من إجراء ـ لكنه ـ كما قال ـ «تَمَهَّلَ فقط وقد يعود إلى ما فكر فيه إذا لم يكف البابا شنودة عما يفعله».

وأدهشنى خطاب الرئيس «السادات» خصوصاً فيما أعلن أنه ينوى اتخاذه من إجراءات، وحين عُدتُ إلى القاهرة بعد أيام سألت الأستاذ «سيد مرعى» وهو الصديق العزيز المشترك وقتها بين الرئيس «السادات» وبينى ـ عن الأمر، وفوجئت به يقول لى : «إن الرئيس كان ينوى عزله»!

وتساءلت مندهشاً : «وهل يملك عزله ؟».

وكان رد «سيد مرعى» : «كان سيعملها باستفتاء عام»!

واشتدت دهشتى وتساءلت : «استفتاء عام على منصب البطرك للشعب المصرى كله أم لطائفة منه فقط ؟» !

وقال «سيد مرعى» : «لا.. كان سيعرضه على الجميع، لكنه لم يكن ينوى طرحه على الناس بمنصب البطرك تحديداً ـ كان قد تلقى فتوى من بعض أساطين الكنيسة من أصدقائه بأنه يكفيه أن يسحب المرسوم الرئاسى الذى اعتمد نتيجة انتخاب البطرك بواسطة المجمع المقدس، لكى يصبح وضع البابا غير قانونى» ـ وهكذا فإن سَحب مرسوم رئاسى هو المقرر له أن يكون سُؤال الاستفتاء!

وسألته عمن قدم للرئيس هذه الفتوى وهى مؤدية فى رأيى إلى كارثة، ولم يجب «سيد مرعى» مباشرة، وأحسست أنه يوافق على رأيى، وكان من حُسْن حظ الجميع أن خطاب الفتاة الصغيرة التى تَطَوَّعَت على الورق أن تأخذ من عمرها وتعطى الرئيس «السادات» قد أنقذ الموقف قبل وصوله إلى نقطة اللا عودة.

لكنه من سوء الحظ أن تَطَوُّع الفتاة الصغيرة بسنين إضافية من العمر لم يجد نفعاً، فما هى إلا سنوات ثلاث إلا وكان رصاص شباب إسلامى قد أصاب الرئيس «السادات» فى مقتل !

وكان بعد ذلك ـ فى سبتمبر ١٩٨١ ـ أننى سمعت فى سِجْنِ «مزرعة طُرَة» مع مئات غيرى من المُعتَقَلِين ـ أن إجراءات «ثورة» سبتمبر (!!) التى أعلنها الرئيس «السادات» على معارضيه جميعاً مرة واحدة ـ طالت ضمن مَن طالت بابا الكرازة المرقسية نفسه، وأن البابا «شنودة» حاله كحالنا الآن ـ نحن فى سِجْن «طُرة» ـ وسجنه دير وادى النطرون.

وكانت رئاسة الدولة بعد الرئيس «السادات» هى بنفسها التى تقدمت تفتح باب الدير ـ وباب السِّجْن ـ لكى تنتهى حالة احتقان خطرة كان يمكن أن تؤدى إلى ما هو أبعَد من الاحتقان !



من تلك الأيام تَدَفَّقت مياه كثيرة فى النهر الواحد الذى يعيش على ضفافه ويتجاور دينان لكن مياه النهر حملت بعد ذلك بُقَعَ دَم.

وفى «الكشح» سنة ١٩٩٩ كان الدَم بُقعة كبيرة على سطح الماء، وهذه علامة بالغة الخطورة.

والشاهد الآن أن أحداً لا يحتاج إلى لجنة تحقيق برلمانية ـ أو حتى محضر تحقيق بوليسى ـ لكى يدرك مدى خطورة العلامة.

وفى كل الأحوال فإن الحقائق الواضحة أمام الكل لا تترك مجالاً للاجتهاد :

ـ فهناك أجواء مشحونة ومُعَبَّأة بأسباب تَتَعَدَّد دواعيها : اجتماعية ـ اقتصادية ـ سياسية ـ فكرية.

ـ وهناك مناخ تحفزت فيه عوامل الانفلات والانفجار.

ـ وهناك حقيقة سقوط ٢٣ قتيلاً من المواطنين : ٢٢ منهم من الأقباط وواحد فقط من المُسْلمين ـ وهى قرينة تشير إلى خطأ ما فى مكان ما، مهما قيل إن التدقيق فى مسار الوقائع ضرورى ومطلوب.

....

....

وفى حالة من الفوضى تُشارِك فيها الأقلام والحجارة والسيوف، وتفتى فيها صفحات الجرائد وشاشات التلفزيون وأجهزة الراديو، ومنابر المساجد وأجراس أبراج الكنائس ـ فإن الأمور فى النهاية تحتاج إلى صَوْتٍ يقول : مَهْلاً !

ثم يكون على الجميع أن يخفضوا أصواتهم ولو مؤقتاً ويتذكروا أن سُلطة الدولة العليا هى المُكَلَّفة بالمسئولية قبل غيرها، وهى القادرة على أن تلحق، والأفضل أن تسبق.



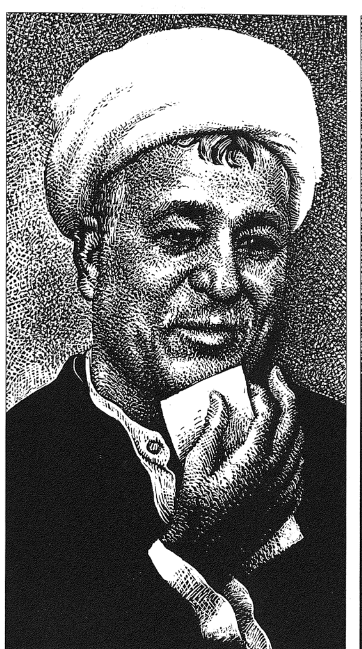
بقى أنه ما دام هذا الحديث كله حديث ضمير فإن هناك ملاحظة لابد لها أن تقال، وهى ملاحظة تعبر ضفاف النهر الواحد، وتتخطى صحارى الوطن المصرى، واصلة بقلق حقيقى إلى المشرق العربى ـ وهى ملاحظة تتعلق بمسيحيى المشرق (فى فلسطين، ولبنان، وسوريا، والعراق، وحتى تركيا).

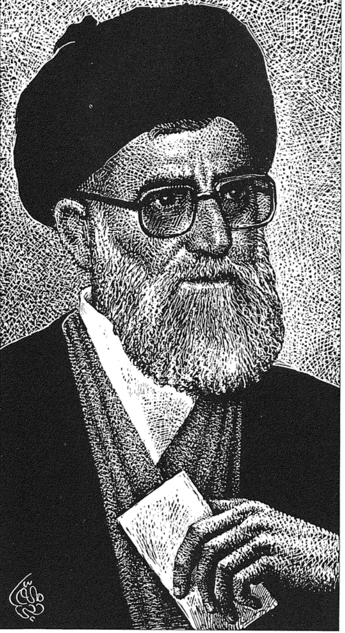
هناك ظاهرة هجرة بينهم يصعب تحويل الأنظار عنها، أو إغفال أمرها، أو تجاهل أسبابها، حتى وإن كانت الأسباب نفسية تتصل بالمناخ السائد فى المنطقة أكثر مما تتصل بالحقائق الواقعة فيه !

وأشعر ـ ولا بد أن غيرى يشعرون كذلك ـ أن المشهد العربى كله سوف يختلف إنسانياً وحضارياً ـ وسوف يصبح على وجه التأكيد أكثر فقراً وأقل ثراءً لو أن ما يجرى الآن من هجرة مسيحيى المشرق تُرِكَ أمره للتجاهل أو التغافل ـ أو للمخاوف حتى وإن لم يكن لها أساس.

وظنى أن جموع المسلمين فى الأمة مطالبة أكثر من أى وقت مضى بأن تعرف وتُدرك بيقين أهمية مواريثها، وحيوية تَنَوُّع مصادر ثقافتها، وخصوصية التركيبة الخلاقة والمبدعة فى تشكيل حياتها.

أى خسارة لو أحَسَّ مسيحيو المشرق ـ بحق أو بغير حق ـ أنه لا مستقبل لهم أو لأولادهم فيه، ثم بقى الإسلام وحيداً فى المشرق لا يؤنس وحدته غير وجود اليهودية الصهيونية ـ بالتحديد ـ أمامه فى إسرائيل؟! ■


رفسنجانى


خامنئى

تقرير من طهران
عن انتخابات البرلمان

انتفاضة

فهمى هويدى

هبت ريح الديمقراطية هذه المرة من حيث لايحتسب أى أحد كعادتنا. توقعناها من الغرب فداهمتنا من الشرق! ليس هذا فحسب، وإنما وجدناها خارجة من آخر موقع يخطر على البال فى تفكير هذا الزمان. إذ من كان يصدق أن تطل علينا المفاجأة من عباءة أولئك الذين درجنا على تسميتهم «بالملالى» استخفافا بهم وازدراء لهم. حتى وجدناهم - وهم «الأصوليون» الملتحون والمعممون - حققوا فى إيران خلال عقدين اثنين فقط تحولات ديمقراطية جذرية، عجز عنها «العسكر» فى أقطار أخرى نعرفها طيلة نصف قرن من الزمان.

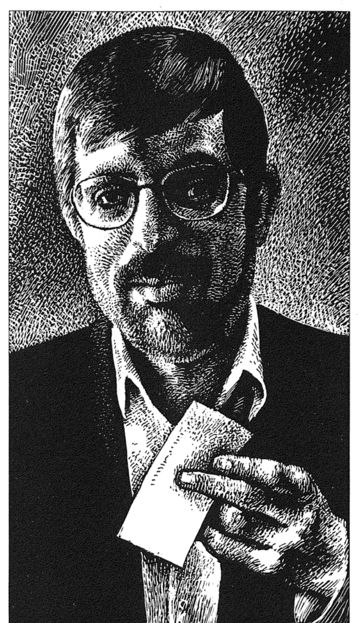
نعم كانت الانتخابات النيابية التى جرت أخيرا فى إيران مشهدا ديمقراطيا بامتياز، أثار دهشة البعض وحسد وحسرة آخرين، لكن الذى لايقل أهمية عن ذلك، أنها كانت بمثابة فض لاشتباك بائس بين الدين والحرية، عشّش فى الوجدان الإيرانى منذ «ثورة الدستور» فى بدايات القرن الفائت.

يحتاج ذلك المنطوق إلى تحرير، يكشف عن القسمات ويتقصى الشواهد والحيثيات فيما هو كائن وفى الذى كان، الأمر الذى يدفعنا إلى سباحة لامفر منها تمر بشطآن عدة، تتوزع مراسيها بين الحاضر والماضى، لكنها تظل فى إيران، لاتبارحها.

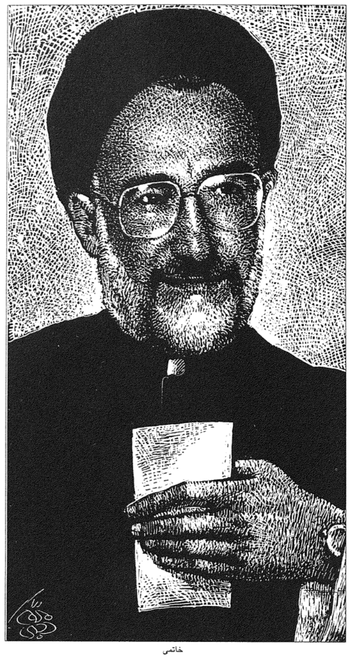


[١]

جرت المعركة كلها فى أجواء تحت الصفر، فشتاء طهران الثلجى لم يشهد صخبا



كرباستشى



خاتمى

الديمقـــراطيـــة فـــى إيـــران

ولاضجيجا كهذا الذى جرى هذا العام، إذ ألف الناس فى شهر فبراير بالذات أن يظلوا معتصمين بالبيوت وحول المدافئ قدر الإمكان، وقليلون هم الذين اعتادوا الذهاب إلى شمال العاصمة لكى يمارسوا هواية التزلج والرشق بكرات الثلج، لكن المشهد انقلب هذا العام بسبب الانتخابات، حيث قضت الأغلبية أوقاتها فى قاعات المؤتمرات ومراكز التجمعات، من المساجد والحسينيات إلى ستاد أو ملعب «شيروى» الذى يحمل اسم طيار كان من أبطال الحرب العراقية الإيرانية.

لأحد يعرف بالضبط كيف كانت الأرض تنشق عن تلك الحشود التى ما انفكت تملأ القاعات والملاعب متحدية أجواء ماتحت الصفر ومعرضة عن المدافئ، نعم استخدم المرشحون العديد من وسائل جذب الجماهير، فاستعانوا بالمطربين والموسيقيين الكبار، والمشاهير من لاعبى كرة القدم والمصارعة، لكن القدر المتيقن أن حضور الجماهير كانت له أسباب أقوى بكثير من مجرد الاستماع إلى معزوفة أو أغنية أو الحصول على توقيع لاعب شهير أو مصارع عتويل.

فالشعب الإيرانى ـ مثلنا ـ مسيّس حتى النخاع، ومنذ تلقى إشارات الاستدعاء التى لاحت فى الأفق منذ نزل السيد محمد خاتمى إلى حلبة المصارعة السياسية فى عام ٩٧، فإن الجماهير العريضة تشبثت بالفرصة وعضت عليها بالنواجذ، حتى لم تعد تفوت مناسبة حضور دون أن تسارع إلى الاحتشاد وملء المقاعد، والمشاركة بكل ما تملك من قوة فى تنويعات الضجيج الانتخابى العذب. وهو الضجيج الذى تكفلت الصحافة الإيرانية بتغذيته ورفع وتيرته، ذلك أن الصحافة كانت ـ وما زالت ـ إحدى جبهات الصراع بين الإصلاحيين والمحافظين، ومنذ رفعت القيود عن التعبير والإصدار تحولت الصحف إلى مرآة عاكسة لكل مايجرى، وكاشفة للمعقول وغير المعقول من الخبايا والأسرار، صحيح أن القضاء الذى خضع لسيطرة المحافظين أغلق أربع صحف فى غمرة الانفعال والاستنفار، لكن عشر صحف أخرى صدرت مقابل ذلك، حتى لا أستبعد أن يكونوا قد ندموا على المصادرة، فالريح التى تاتى عبر أربع نوافذ همّها أقل من تلك التى تهب من عشر، حيث بعض الضر أهون من بعض!

استغرق فى الضحك زميلنا «شمس» (اسمه وحده دون أبيه أو عائلته «ما شاء الله شمس الواعظين» ولكل أن يختار الكلمة التى تروقه ويناديه بها!)، حيث سألته عن عدد الصحف التى رأس تحريرها وخاض من على منبرها معركته ضد المحافظين، حتى استصدروا حكما بسجنه لمدة ثلاث سنوات، لم يتأيد بعد، لأنه لايزال معروضا على محكمة الاستئناف، قال إنه أصدر فى أواخر عام ٩٧ صحيفة «جامعة» أى المجتمع المدنى (كان ذلك بعد انتخاب الرئيس خاتمى) لكن المحافظين لم يحتملوها فاستصدروا حكما بإيقافها وسحب رخصتها، فاصدر صحيفة أخرى باسم (توس) ـ أرض شهيرة فى خراسان ـ بنفس هيئة التحرير والكتاب وبنفس الإخراج، وحين أغلقت

هذه بدورها أصدر صحيفة باسم «نشاط» واصلت الموقف والتجربة. وحين ضاقوا بها وأغلقوها أصدر صحيفة باسم «صبح آزاد جان» ومعناها «عصر الأحرار»، ومعها صحيفة أخرى باسم «أخبار الاقتصاد»، وهو يعتقد أن الأجواء المترتبة على الانتخابات الأخيرة في إيران سوف تطيل من عمر صحيفتيه الأخيرتين.



[٢]

ما فعله شمس لجأ إليه آخرون من الذين خاضوا المعركة لصالح الإصلاحيين، وكانت النتيجة أن تزايدت أعداد الصحف ولم تنقص، بحيث أصبحت المواجهة بين التيارين المحافظ والإصلاحي تدور رحاها على صفحات ٣٠ صحيفة يومية - إذا أضفنا المجلات الأسبوعية فإن الرقم يرتفع إلى ٧٠ مطبوعة - يتخاطفها الناس كل صباح من على الأرصفة والأكشاك، ولك أن تتصور كم المعلومات والآراء التي يمكن أن تزخر بها تلك الصحف، وتعبئ بها الرأى العام بمختلف اتجاهاته، حتى أن البعض يحملون الصحف «طويلة اللسان» مسئولية تدهور الوضع الانتخابي للرئيس السابق هاشمي رفسنجاني في ترتيب المرشحين الفائزين عن طهران. إذ لأنه بدرجة «رئيس سابق» للجمهورية، فقد كان الظن أنه سيحتفظ بموقعه على رأس القائمة، وسيكون أول الفائزين بين نواب العاصمة الثلاثين، بمظنة أن «الرئيس» حتى وإن كان سابقا ينبغي أن يصبح رأسا لكل شيء وفي الصدارة دائما. وقد ظل أنصار الشيخ رفسنجاني أسرى هذا الظن حتى ٤٨ ساعة قبل بدء التصويت، إذ بنفسي سمعت كلاما بهذا المعنى من السيد غلام حسين كرباستشي الأمين العام لحزب «كوادر البناء» الذي هو حزب الرئيس السابق. (تأسس أثناء رئاسته للجمهورية، وضم بعضا من معاونيه إضافة إلى شقيقه محمد).

ليلة الثلاثاء ٢/١٥ قال لي كرباستشي الذي رأس بلدية طهران وخرج من السجن حديثا. (تصيده المحافظون وحاكموه ثم ساقوه إلى السجن ليقضي ثلاث سنوات، ثم أفرج عنه بعفو من القائد السيد خامنئي) إن استطلاعات الرأى التي أجريت دلت على أن الشيخ رفسنجاني سوف يحصل على المركز الأول في طهران، محتفظا بمسافة كبيرة بينه وبين الثاني، غير أنه غير رأيه ليلة الخميس، وقال إن آخر الاستطلاعات التي أجراها حزب كوادر البناء أشار إلى أن رفسنجاني لن يحصل على المركز الأول.

أما ما حدث فقد قلب الموازين وصدم كل أركان «الكوادر» حيث ظل مركزه الانتخابي يتدهور ساعة بساعة أثناء الفرز، إلى أن أعلن رسميا يوم الاثنين ٢/٢١ أن الرئيس السابق حصل على أقل أصوات الفائزين وجاء ترتيبه التاسع والعشرين من ثلاثين نائبا!

فرحت حين سمعت الخبر، لا لأن رفسنجاني سقط في الاختبار الأول، ولكن لأن الديمقراطية نجحت بامتياز، ذلك أنه كلما ازداد عدم اليقين قبل الانتخابات، وكلما كانت النتائج مفاجئة ومغايرة للتنبؤات، كلما ازدادت الثقة في نزاهة الانتخابات وشفافيتها، ولا أنكر أن لهذه الواقعة صدى خاصا عندي، اختلف عما استشعره كل الذين أعرفهم في طهران، ربما لأني أحد الذين يستبد بهم الشوق إلى طور نكف فيه عن تعاطي الانتخابات مضمونة النتائج (هل كلمة مطبوخة أدق؟). تلك التي يدخل فيها البعض وهم مطمئنون إلى النتيجة، وغير مستشعرين أي درجة من القلق أو الاضطراب.

لست أشك في صحة القول بأن للصحف دورا في الهزيمة النسبية التي لحقت بالشيخ رفسنجاني، ذلك أنها حاكمته بقسوة وانتقدت سجله، بعدما استدعت ملفه وفتشت فيه ضمن ملفات أخرى عديدة نزعت من حولها الهالات وهتكت الحصانات، واستباح الجميع نقدها بجراءة غير معهودة، منذ طالت الرقاب وارتفعت مختلف الأصوات مجلجلة في الفضاء السياسي.










رفعت جبهة «المشاركة» التي شكلها مؤيدو الرئيس خاتمي ويتزعمها شقيقه الأصغر الدكتور رضا شعارا يقول: إيران لكل الإيرانيين، ورفع حزب كوادر البناء الذي شكله مناصرو الشيخ هاشمي رفسنجاني شعارا يدعو إلى «الأمن والعدالة والحرية»

قبل ثلاثة أسابيع تقريبا من موعد التصويت نصبت مجلة «إيران فردا» - إيران الغد - محاكمة مطولة للرئيس السابق لم تبق لعهده على فضيلة، سواء حين كان رئيسا لمجلس الشورى في عهد الإمام الخميني، أو رئيسا للجمهورية بعد وفاته، أكثر من ذلك فإن صحيفة «صبح آزاد جان» نشرت رسالة لأحد العلماء المخضرمين - حجة الإسلام حسن يوسف أشكوري - ندد فيها بالشيخ رفسنجاني، وروى في ثناياها القصة التالية: في الدورة الأولى لمجلس الشورى الإسلامي، في منتصف عام ١٩٨٢، وقف السيد هاشم صباغيان عضو المجلس وسط القاعة وقال: يجب أن تكون الانتخابات القادمة حرة، لكي يتمكن أبناء الشعب من اختيار مرشحيهم دون وصاية من أحد، لكنه حين صرح بذلك، فوجئ ببعض الأعضاء وقد نهضوا مسرعين حوله، وأشبعوه ضربا! - وقد قام علي أكبر معين ممثل طهران وعبر عن اعتراضه على ذلك السلوك، فما كان من أولئك النفر من الأعضاء إلا أن استداروا نحوه وأعطوه حظه من الضرب، وبعد عدة أيام من الواقعتين، وقف الشيخ هاشمي رفسنجاني خطيبا في صلاة الجمعة، وأعرب عن تأييده لما جرى، معتبرا أن عمل أنصار «حزب الله» في مجلس الشورى كان بمثابة عمل جهادي كبير!

هذا نموذج واحد لعشرات القصص والروايات التي تناولت مواقف رفسنجاني وسياساته وركزت على سلبيات عهده، الأمر الذي كان لابد أن يحدث صداه لدى الرأى العام، وكان التصويت في الانتخابات دالا على أن الرسالة وصلت، وأنها كانت سريعة المفعول!



[٣]

يكفي أن يخترق المرء شارع «ولي عصر» وحده، حتى يرى صورة وافية للخريطة السياسية الإيرانية كما بدت في سنة ٢٠٠٠، على الأقل، فهذا ما فعلته لعلمي أن شارع ولي عصر الذي يصل شمال طهران بجنوبها، ممتد بطول لامثيل له في إيران، حيث يزيد على ثلاثين كيلو مترا، الأمر الذي جعل بعض الفقهاء - الإمام الخميني على رأسهم - يعتبرون القادم من الشمال إلى الجنوب أو العكس «مسافرا» يحق له الإفطار في شهر رمضان.

اللافتات والملصقات الانتخابية غطت جوانب الشارع واعترضته في مواضع عدة، ولأنه طويل على النحو الذي ذكرت، فقد وجد كل مرشح مكانا على جانبيه أعلن فيه عن نفسه، باسمه وصورته وشعاراته، ورغم أن المرشحين في طهران وحدها كان عددهم ٨٠٠ شخص، بينهم ١٢٥ امرأة، يتنافسون على ٣٠ مقعدا للعاصمة (إجمالي المرشحين وصل إلى ٥٨٠٠ بينهم ٤٢٤ امرأة، والعدد المطلوب لمجلس الشورى ٢٩٠ فقط)، إلا أن جنبات الشارع احتملت هذا العدد الكبير نسبيا، وظل بوسع المار أن يقرأ بوضوح الرسائل المبثوثة في ثنايا الشعارات، التي أتاح البراح للبعض أن يكررها في مواضع عدة.

ليس في هذا كله جديد يسترعي الانتباه، فقد كان ذلك دأب المرشحين في كل انتخابات سابقة، إنما الجديد والمثير حقا في خطاب «مجلس شمشم» (المجلس النيابي السادس)، هو مضمون شعارات الحملة الانتخابية، التي كان محورها الأساسي هو الناس بهمومهم وأشواقهم.

منذ قامت الثورة كانت الشعارات المرفوعة تحمل سمتا أيديولوجيا، يدور في فلك الثورة والإسلام وولاية الفقيه، حتى بدت وكأنها محلقة في الفضاء أو متعلقة بالآخرة، هذه المرة، رفعت جبهة «المشاركة» التي شكلها مؤيدو الرئيس خاتمي ويتزعمها شقيقه الأصغر الدكتور رضا شعارا يقول: إيران لكل الإيرانيين، ووجدنا حزب كوادر البناء الذي شكله مناصرو الشيخ هاشمي رفسنجاني يرفع شعارا يدعو إلى «الأمن والعدالة والحرية»، بل وجدنا أن حزبا باسم «العدالة والتنمية» قريب من كوادر البناء، رفع شعارا غيرمسبوق في خطاب الثورة الإسلامية يقول: دعونا نعيش!

هذا التوجه كان له صداه في شعارات أخرى بلاحصر، دعت إلى الوفاق الوطني، والإصلاح الاقتصادي، والعزة والسعادة، وحل مشكلات الناس...إلخ.

صحيح أن الحملة الانتخابية تضمنت شعارا بأكثرمما تضمنت برامج، نتيجة لعدم وجود حياة حزبية مستقلة وواضحة المعالم، إلا أن الشعارات كانت لها دلالتها المهمة من حيث إنها شغلت بالمجتمع وركزت على مشكلات الخلق - وربما كان شعار «دعونا نعيش» من أكثر النداءات تعبيرا عن تطلعات الناس في هذه المرحلة.

أما شعار إيران لكل الإيرانيين (إيران براى همه ايرانيان) الذي رفعه أنصار السيد خاتمي (حزب جبهة المشاركة) فهو يختزل مشروع الرئيس الذي يلح عليه منذ خاض معركته في عام ٩٧ وتولى السلطة بعد ذلك، وعلى حد تعبير حجة الإسلام مجيد أنصاري (من أركان حزبه وكان زعيم الأقلية الإصلاحية في مجلس الشورى الخامس (الحالي) وهو في الوقت نفسه عضو مجلس الخبراء) فإن الشعار يعد مسعى نحو تكريس مفهوم «المواطنة»، ومن ثم فهو دعوة لعدم استثناء أحد في بلد الثورة الإسلامية، مسلما كان أم غير مسلم، بصرف النظر عن كونه مصطفا في اليمين أو اليسار، وسواء كان ملتزما أو غير ملتزم، رجلا كان أو امرأة، وقد ترجم الحزب هذا الموقف حيث رشح على لائحته في إحدى الدوائر الانتخابية القريبة من أصفهان واحدا من المسيحيين الأرمن خارج نطاق الحصة المقررة دستوريا للأقليات (خمسة مقاعد).

الذين يتابعون خطاب ومواقف الأطراف المختلفة في الساحة الإيرانية، يدركون أن شعار إيران للإيرانيين هو رد مباشر على موقف المحافظين الذين يعتبرون أن العلماء في مقام الأوصياء على المجتمع، ويرددون عبارة مفادها أن «الناس أيتام والعلماء قيمون عليهم»، وقد سمعت هذا الكلام في زيارة سابقة من آية الله جنتي، أحد أهم رموز معسكر المحافظين، الذي أضاف أن العلماء - فضلا عما سبق - هم أقرب إلى كافل اليتيم، الأمر الذي يعني أن الناس تحت وصايتهم ويعدون طبقا لهذا المنظور مجرد رعايا، وليسوا مواطنين.

هذا المنطق يتحداه شعار إيران لكل الإيرانيين، وإن شئنا الإنصاف والدقة فينبغي أن نلحظ أن خطاب الرئيس خاتمي من البداية كان يمثل تحديا لذات الموقف، أذكر له في هذا الصدد خطابا ألقاه في «خوزستان» ذات

الأغلبية العربية، بعد أقل من عام على توليه السلطة، (فى ٥/٣/٩٨) حيث قال ما نصه: «فى مجتمعنا قراءات وتفسيرات مختلفة للإسلام، بعضها يدعى أن الناس ليسوا أهلا لانتخاب خياراتهم بأنفسهم، وأنهم بحاجة إلى وصي بحاجة إلى أحد «الأسياد» فوق رءوسهم، وهذا السيد أو الحاكم لاينتخبونه أو يختارونه بأنفسهم، بل إنه ينتخب فى مكان آخر وفى موقع آخر، وقد يزعمون بأن الله هو الذى نصبهم فوق رءوسهم وصيا عليهم. وأنه يسيرهم ويرشدهم كما يرى» ..

هذه ليست قراءة الثورة الإسلامية للإسلام، لأن هناك وثيقة محددة حصلت على موافقة الشعب، وصادق عليها الإمام (الخمينى) وهي موضع قبول مرشد الثورة (السيد خامنئى). هى الدستور الذى ينص صراحة على أن الناس يحكمون أنفسهم بأنفسهم، وأن للناس وحدهم حق تقرير مصيرهم.

رسالته هذه عبر عنها السيد خاتمى بلغة أكثر وضوحا، فى خطاب آخر ألقاه فى شهر يوليو من العام ذاته، وقال فيه«إذا أردنا أن نخدم التدين خدمة حقيقية، فينبغى أن نعلن التلازم الدائم بين الدين والحريات، وبغير ذلك فإن التدين قد يصبح سلاحا يعوق تقدم البشرية».



[٤]

لنا أن نقول أن الرئيس خاتمى لم يكن فحسب يرد على دعاوى الجناح المحافظ، الأبوية والوصائية، ولكنه كان أيضا يلح على إزالة ذلك الالتباس الذى شاع فى بعض الأوساط بشأن علاقة الدين بالحرية، وهو الالتباس الذى فرض نفسه على تفكير البعض، فى الحوزة العلمية وخارجها، منذ ثورة الدستور فى سنة ١٩٠٦، التى يطلق عليها فى الأدبيات الفارسية اسم «انقلاب مشروطيت».

ذلك أن مرحلة نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين شهدت تمردا فى إيران على حكم القاجاريين الذين طغوا فى البلاد وأشاعوا الفساد، وفتحوا أبوابها لنفوذ الأجانب وهيمنتهم على التجارة فيها، الأمر الذى استنفر العلماء والتجار وأعدادا من المثقفين، مما ألجأ السلطان ناصر شاه إلى السعى لقمعهم بكل السبل، فهرب بعضهم إلى الخارج وواصلوا إصدار الصحف والمنشورات التى كانت تهرب إلى إيران، وتغذى فى أوساطها روح التمرد والسخط، ومن المفارقات أن القاهرة كانت إحدى أهم العواصم التى يصدر منها المنفيون الإيرانيون صحفهم، وتذكر المصادر التاريخية أن أولئك الإيرانيين كانوا يصدرون آنذاك مجلتين على الأقل من العاصمة المصرية، إحداهما باسم «ثريا» والثانية «يدورش»، وأنهما كانتا من أكثر المطبوعات فضحا لمفاسد الحكم القاجارى فى إيران. (بعض المنفيين أصدروا فى كلكتا بالهند مجلة «الحبل المتين»، وأقرانهم الذين تمركزوا فى لندن أصدروا مجلتى «اختر» و«قانون»).

أثمر التحريض مفعوله - هناك كلام كثير عن دور جمال الدين الأفغانى فى إذكاء الثورة ضد حكم ناصر الدين شاه - الأمر الذى فجر ثورة عارمة فى المدن الإيرانية، انتهت باغتيال الشاه ناصر الدين، وتولى الشاه مظفر الدين السلطة فى البلاد. وقد حاول الأخير أن يقوم ببعض الإصلاحات، ولكن رياح الثورة كانت قد هبت وفجرت معها غضب الجماهير المكتوم. وحين لجأ أعوان الشاه الجديد إلى قمع التمرد بالقوة، فإن ذلك أجج من الغضب ووسع من نطاقه. وارتفعت أصوات العلماء: داعية إلى إعمال حكم القانون، وإلى المطالبة بالدستور








حين ظهر خاتمى على المسرح، كان قد قضى سنوات قابعا فى أرشيف المكتبة الوطنية فى طهران، منذ استقال من منصبه كوزير للإرشاد، بالكاد كان يذهب إلى جامعة طهران لكى يحاضر فى موضوع «المجتمع المدنى»، لم يكن متفائلا كثيرا، حتى بدأ اليأس يتسرب إلى نفسه

وبالثورة الإسلامية. فى الوقت ذاته كانت المنشورات والصحف التى تسربت من الخارج تلح على إقامة دولة القانون والدستور الحديثة، لا دولة الاستبداد والشركات الأجنبية.

قاد العلماء الثورة، واشتهر من بينهم السيد محمد الطباطبائى والسيد عبد الله البهبهانى، وتنادى الجميع للاعتصام بمدينة «قم»، فيما سمى بالهجرة الكبرى، فى إعلان عن الاحتجاج والإصرار على المطالب الدستورية، كما اعتصم التجار فى معسكر كبير بطهران، تصادف أن كان أمام السفارة البريطانية.

حين تزايدت الضغوط على ذلك النحو، لم يجد مظفر الدين شاه بدا من الرضوخ، فاصدر فرمانا بتكوين مجلس نيابى منتخب من الأمة فى ١٥ أغسطس ١٩٠٦، وبدأ عدد من المفكرين والخبراء فى وضع قانون الانتخابات، وسرعان ما تمت الانتخابات، وافتتح أول مجلس نيابى فى تاريخ إيران فى السابع من أكتوبر عام ١٩٠٦، ولم يكن مستغربا أن احتل العلماء أغلبية مقاعد ذلك المجلس.

لم يلبث مظفر الدين شاه أن مات فى أول يناير عام ١٩٠٧، وتولى مكانه فى عرش السلطنة، أمين محمد على قاجار، الذى أحاط نفسه بمستشارى السوء، الذين كانوا من الروس، وعلى رأسهم يهودى روسى اسمه «شبشل». ومنذ لحظة توليه السلطة، فإنه أضمر شرا للمجلس النيابى. حتى أنه لم يوجه الدعوة لأعضائه لحضور حفل تتويجه، لكنه لم ينتظر طويلا حتى أعلن الحرب على المجلس، فلجأ إلى حيلة خبيثة ادعى فيها «أن النظام الدستورى مخالف للإسلام»، وأنه كمسلم «مخلص» لا يقبل باستمرار ذلك التعارض، وأنه حين يقف مصطلح «الشريعة» فى مواجهة القانون، فإن خياره محسوم لصالح الشريعة، الأمر الذى لا يدع له فرصة للتردد فى الإطاحة وسحق كل من يتحدث عن الدستور أو القانون!

لم يخل الأمر من علماء منافقين داهنوا الشاه ودافعوا عن مقولته، فاستخدم أحدهم «فضل الله نورى» فى التنديد بالخارجين على الشريعة، الذين يحاولون استبعادها وإحلال القانون والدستور مكانها، إذ اعتبر هؤلاء «خارجين على ولى الأمر وظل الله فى الأرض والحكم الشرعى، وأنهم من البابية والبهائية»، الخارجين عن الملة والملعونين فى الدنيا والآخرة.

حدث الصدام الذى لم يكن منه مفر، واستعان الشاه بفرقة من القوازق الروسية، كان قد شكلها أبوه ناصر الدين لحمايته فى عام ١٨٧٩، فحاصرت المجلس النيابى وقصفته بالقنابل فى ١٩٠٨/٦/٢٧. بينما وقفت قوات أخرى لاصطياد أعضاء المجلس الذين حاولوا الخروج منه هربًا من القصف، فقتل بعض أولئك الأعضاء، وأعدم عدد من الزعماء الدينيين، بل وأطلق الرصاص على الذين احتموا بمسجد «بهارستان». وكان ذلك حافزا لانتقال شرارة الثورة إلى بعض المدن الإيرانية الأخرى «تبريز ورشت وكيلان وأصفهان». لكن كل تحرك ووجه بذات الدرجة من القمع الوحشى، وكانت تلك بداية سلسلة من الاضطرابات والقلاقل، أدت إلى خلع محمد على شاه ونفيه، وتعيين ابنه أحمد شاه ملكا، الذى كان تحت الوصاية، وعجز عن السيطرة على البلاد، الأمر الذى انتهى بقفز رضا شاه على السلطة فى عام ١٩٢٥، وانتهاء حكم القاجاريين، وبدء حقبة جديدة حكمت فيها أسرة بهلوى طيلة أكثر من نصف قرن، حتى أطاحت بها الثورة الإسلامية فى عام ١٩٧٩.

[٥]

هذا الالتباس فى علاقة الشريعة بالقانون والدستور ظل كامنا فى الوجدان الإيرانى، سواء فى جانب بعض المتدينين من غلاة المحافظين، أو من جانب بعض المثقفين العلمانيين، الذين تبنوا حل الإشكال من خلال رفع شعار فصل الدين عن الدولة. ورغم أن مشروع الحكومة الإسلامية الذى تبناه آية الله الخومينى، انطلق من فكرة المصالحة بين الطرفين - إذا جاز التعبير - إلا أن ممارسات بعض رموز المحافظين وآرائهم أساءت كثيرا إلى توجهه. ولا ينسى أن الثورة الإسلامية ما أن استقام لها الأمر فى سنة ١٩٧٩، حتى سعت إلى إعداد دستور جديد، وإلى انتخاب مجلس نيابى. غير أن نشوب الحرب العراقية الإيرانية فى سنة ١٩٨٠، واستمرارها لمدة ثمانى سنوات، لم يتح للتجربة أن تنمو وتنضج على النحو المنشود. وحين انتهت الحرب وخلفت ما خلفته من تدمير وتخريب فى البنيان الإيرانى، جاء الشيخ هاشمى رفسنجانى رئيسا للجمهورية، ورفع شعار «التنمية الاقتصادية»، التى كانت استجابة لضرورات تلك المرحلة، وبعد ثمانى سنوات من توليه السلطة، تغيرت خلالها إيران كثيرا، انتخب الرئيس محمد خاتمى، الذى قدم من الظل، رافعا شعار «التنمية السياسية»، وملبيا شوق المجتمع إلى الحضور والمشاركة، وإلى الحرية التى غيبتها طويلا الظروف والصدمات المتلاحقة.

حين ظهر السيد خاتمى على المسرح، كان قد قضى عدة سنوات قابعا فى أرشيف المكتبة الوطنية فى طهران، منذ استقال من منصبه كوزير للإرشاد فى حكومة الرئيس رفسنجانى، بالكاد كان يذهب إلى جامعة طهران لكى يحاضر طلابه فى موضوع «المجتمع المدنى»، هو نفسه لم يكن متفائلا كثيرا، حتى بدأ اليأس يتسرب إلى نفسه.

يروى السيد غلام كرباستشى رئيس بلدية طهران السابق، أنه زاره فى بيته فى أوائل عام ١٩٩٦، لكى يدعوه إلى ترشيح نفسه لعضوية مجلس الشورى الخامس، لكسر احتكار وهيمنة المحافظين والتقليديين الذين فازوا بأغلبية كبيرة فى المجلس الرابع، فأطاحوا بالإصلاحيين واليسار، حتى كادوا يستأصلونهم من المسرح السياسى الإيرانى. وحين اقتربت مدة المجلس الرابع من النهاية، حاولت تلك القوى أن تعيد تنظيم صفوفها والاحتشاد لخوض المعركة الانتخابية، ومنافسة المحافظين فى المجلس التالى (الخامس). فى هذا السياق، فإنهم حاولوا أن يرشحوا على لائحتهم بعضا من الأسماء ذات الوزن، التى تحظى باحترام الجماهير، وكان السيد محمد خاتمى واحدا منهم.

حين فاتحه كرباستشى فى الأمر، وكان آنذاك أمينا عاما لحزب كوادر البناء، لم يجد منه حماسا للترشيح. وحين سأله عن سبب إعراضه عما دعى إليه، وجده ضعيف الأمل فى أن تكون المحاولة ذات جدوى، وغير واثق من فرص النجاح، خصوصا أن المحافظين كانوا آنذاك فى أوج قوتهم، وفى ذروة الشعور بأحكام الهيمنة على مختلف مؤسسات الدولة.

وكانت جملة هذه الأسباب، هى التى دفعت السيد خاتمى إلى

الاعتذار عن عدم الترشيح لمجلس الشورى، وإيثاره البقاء فى موقعه بالمكتبة الوطنية، والاكتفاء بما يلقيه من محاضرات على طلاب جامعة طهران.

يرجح كرباستشى أن السيد خاتمى أعاد النظر فى موقفه، وعاد إليه بصيص الأمل، حين وجد أن الإصلاحيين أثبتوا حضورا قويا فى الانتخابات التى اعتذر عن عدم المشاركة فيها، إذ فازوا فى المجلس الخامس بحوالى مائة مقعد من ٢٧٠ (تمت زيادة عدد مقاعد مجلس الشورى لاحقا، حتى وصلت إلى ٢٩٠). ومن ثم أصبحوا يمثلون أقلية قوية، نجحت فى كسر هيمنة المحافظين على المجلس. أهم من ذلك أن تلك النتيجة أثبتت أن هناك قطاعات فى الرأى العام ضائقة بأداء المحافظين وباحثة عن بديل آخر.

هذا الأمل شجع السيد خاتمى على النزول إلى الحلبة، وخوض المعركة الرئاسية فى عام ١٩٩٧، وليس سرا أن الرئيس السابق هاشمى رفسنجانى كان أحد الذين شجعوه على ذلك، رغم أن بعض أركان حزبه (كوادر البناء)، لم يكونوا متحمسين لترشيحه، على الأقل، فقد كان هذا هو رأى كرباستشى الأمين العام للحزب، الذى رأى فى خاتمى فضائل كثيرة، لكنه اعتبره شخصية «غير مقاتلة» (التعبير الذى سمعته منه)، ولأنه كذلك فى ظنه، فقد كان تقديره أنه ليس أنسب شخص لمقارعة المحافظين، وتحدى قبضتهم القوية، وهيمنتهم على مؤسسات الدولة.

حين رشح نفسه للرئاسة، فإن خاتمى تصرف كأى مثقف ذكى وواع، فرفع شعار «التنمية السياسية»، مدركًا أن المجتمع بحاجة ملحة إليه، ثم خاطب الشرائح التى همشت لسبب أو آخر خلال سنوات الثورة، وفى مقدمتها المثقفون والنساء والشباب. وحين دخل من هذا الباب، فإنه نجح فى أن يلحق هزيمة قاسية بمنافسه الشيخ ناطق نورى رئيس مجلس الشورى، الذى أيدته كل مؤسسات الدولة، بما فى ذلك القائد السيد على خامنئى. وكانت تلك أول مفاجآت التحول الذى أذهل المحافظين وأفقدهم صوابهم. وأسوأ من ذلك، أنهم لم يستوعبوا درسه، فاستخفوا بما حدث بقدر استخفافهم بخاتمى نفسه حين نازل مرشحهم فى البداية.



[٦]

الذى لم يلحظه المحافظون لا فى الانتخابات الرئاسية ولا فى الانتخابات النيابية الأخيرة، أن الدنيا تغيرت فى إيران، وأن العقدين اللذين مرا فى عمر الثورة الإسلامية، شهدا تحولات جذرية فشلوا فى إدراكها، ومن ثم فشلوا فى التعامل معها. وهو معنى يركز عليه كثيرا «شمس الواعظين» رئيس تحرير صحيفة «عصر آزادجان» فى أحاديثه وكتاباته، حيث ما برح ينبه إلى أن المجتمع الإيرانى الذى شهد انتخابات سنة ألفين يختلف تماما عن المجتمع الذى قامت فيه الثورة قبل ٢١ عاما. «يكفى أن تعلم مثلا أنه حين قامت الثورة فى عام ١٩٧٩، كان عدد سكان إيران ٣٤ مليون نسمة، وكانت نسبة الأمية بين ٤٨٪، ٥٠٪. وكان عدد الذين تخرجوا من الجامعات فى السبعين سنة السابقة، لايزيد عددهم على ٤٠٠ ألف شخص».

فى سنة ألفين، انقلب هذا الوضع رأسا على عقب، فقد وصل عدد السكان إلى ٦٥ مليونا (البعض يرتفع بالعدد إلى ٧٠ مليونا). الأمر الذى يعنى أن أكثر من ٣٠ مليون شخص ولدوا بعد الثورة، ولم يكن لهم علاقة لا بعهد الشاه ولا بالصراع ضد «الشيطان الأكبر»، وربما بالكاد يذكرون الحرب العراقية الإيرانية.

من ناحية أخرى، فإن نسبة الأمية انخفضت







إن هالات القداسة التى أحاطت بكثير من العناوين والرموز والشعارات فى بداية الثورة، لم تعد تحظى بذات القدر من التقديس والامتثال أو الانصياع، فمفردات مثل القائد أو المرشد أو الرئيس أو آية الله العظيم أو ولاية الفقيه، لم تعد تعنى الكثير عند الشباب

إلى ٢٠٪. وفى الوقت ذاته، وصل عدد الذين تخرجوا فعلا من الجامعات الإيرانية، والمنخرطين فى سلك التعليم الجامعى إلى أربعة ملايين و٤٠٠ ألف شخص.

إذا أضفنا إلى المتغيرات الجذرية الحاصلة فى إيران، جملة المتغيرات الأخرى التى شهدها العالم خلال العقدين الماضيين فى مجالى الاتصال والمعلومات، فإننا نستطيع أن نقول بثقة أن عالم سنة ألفين يختلف بصورة جذرية عن عالم عام ١٩٧٩، الذى وقف عنده المحافظون فى التفكير والمتطلبات والأحلام والتطلعات.. إلخ.

ليس ذلك فحسب، وإنما يستطيع المراقب أن يلحظ فى الشارع الإيرانى الآن، أن هالات القداسة التى أحاطت بكثير من العناوين والرموز والشعارات فى بداية الثورة، لم تعد تحظى بذات القدر من التقديس والامتثال أو الانصياع، فمفردات مثل القائد أو المرشد أو الرئيس أو آية الله العظيم أو ولاية الفقيه، لم تعد تعنى الكثير عند الجيل الجديد من الشباب. لذلك فإن رجلا فى حجم وثقل الشيخ هاشمى رفسنجانى، كان رفيق الإمام وساعده طيلة العقد الأول للثورة، أصبح من السهل تجريحه والهتاف ضده الآن، ولم تعد له ذات الهيبة أو السلطان فى أوساط الأجيال الجديدة. ولذلك كان ميسورا إلحاق الهزيمة به فى الجولة الأولى من الانتخابات، على النحو الذى سبقت الإشارة إليه. وقد سمعت فى أحد المهرجانات التى نظمها الحزب المؤيد له (كوادر البناء) هتافات صاخبة ضده من جانب بعض الشباب.

[٧]

حين توجه الرئيس خاتمى بخطابه إلى المجتمع، واستدعى الفئات المهمشة فيه، تشبث الجميع بالفرصة وعضوا عليها بالنواجذ، حيث بدا أن ثمة إصرارا شعبيا عارما ليس على الحضور السياسى فحسب، وإنما على المشاركة أيضا. ساعد على ذلك لا ريب التسييس ضارب الجذور فى الأعماق الإيرانية. وحقيقة أن المجتمع فى ظل الثورة، ظل محتفظا بحيويته، التى اختزنت حقا، لكنها لم تجهض ولم تمت. وحين واتتها الفرصة، فإن الطاقات المختزنة عبرت عن نفسها بسرعة، وظهر المجتمع فى حالة من العافية لا تخطئها عين.

يكفى أن تعلم مثلا أن ١٥٠ حزبا وتجمعا ورابطة شاركت فى المعركة الانتخابية التى شهدتها طهران، لذلك فإننى أزعم أن اختزال المعركة فى كونها تنافسا بين «المحافظين» و«الإصلاحيين»، يعد من قبيل التبسيط المخل، لأن المحافظين ليسوا شيئا واحدا، ولكنهم جبهة عريضة ومتسعة تضم مختلف ألوان الطيف السياسى، تماما كما هو الحال بالنسبة للإصلاحيين.

المحافظون مثلا، يتألف تجمعهم من حوالى عشرين جبهة مختلفة فى مقدمتها: رابطة رجال الدين المناضلين، جمعية المؤتلفة الإسلامية، رابطة المهندسين الإسلامية، رابطة الأطباء الإسلامية، رابطة العمال الإسلامية، الرابطة الإسلامية لأرباب العمل فى سوق طهران (البازار)، الرابطة الإسلامية للجامعيين الإيرانيين، الرابطة الإسلامية للمعلمين، الرابطة الإسلامية للموظفين، رابطة وعاظ طهران، رابطة زينب (نسائية)، الرابطة الإسلامية لأطباء الأسنان، وللأطباء البيطريين، الرابطة الإسلامية للناصحين فى قم، رابطة نواب المجلس.. إلخ.

أما الإصلاحيون، الذين يضمهم إطار باسم «جبهة ٢ خرداد»، وهو التاريخ الفارسى لفوز الرئيس خاتمى بمنصبه (فى ٢٣ مايو ١٩٩٧)، فإنهم يتشكلون فى عدد مماثل تقريبا من الجماعات التى فى مقدمتها، مجمع رجال الدين المناضلين، جمعية المشاركة الإسلامية، حزب كوادر البناء، منظمة مجاهدى الثورة الإسلامية، البيت العمالى، حزب العمل الإسلامى، الرابطة الإسلامية للمدرسين الإيرانيين، الرابطة الإسلامية لأساتذة الجامعة، الرابطة الإسلامية للمهندسين، حزب التضامن الإيرانى الإسلامى، رابطة نواب المجلس السائرين على نهج الإمام، رابطة المرأة الإيرانية، التجمع الإسلامى، مكتب توثيق الوحدة، تجمع السائرين على نهج الإمام.. إلخ.

داخل كل جبهة، هناك اليمين واليسار والوسط، وهناك المعتدلون والمتطرفون والعقلاء والحمقى، وبعضهم أقرب إلى مجموعات فى الجبهة المقابلة، بقدر ما هم أبعد عن جماعات أخرى فى ذات الائتلاف الذى ينخرطون فيه، ولذلك فمن الصعب نسب الشر كله إلى طرف واحد، أو نسب الخير كله إلى طرف آخر. وبعض المحافظين يعتبرون أنفسهم «ملتزمين» وينسبون إلى الإصلاحيين أنهم «غير ملتزمين»، بل إن الإصلاحيين أنفسهم تشقق معسكرهم أثناء الانتخابات بسبب الخلاف حول ترشيح الشيخ هاشمى رفسنجانى لعضوية مجلس الشورى، وهو الموقف الذى دعا إليه أنصاره فى حزب «كوادر البناء»، غير أن بعض أنصار الرئيس خاتمى الذين شكلوا حزبا باسم «جبهة المشاركة الإسلامية»، عارضوا ذلك، كما عارضته أعضاء جبهة رجال الدين المناضلين (روحانيون مبارز). وانتهى الأمر بأن وصف أعضاء كوادر البناء رفاقهم فى جبهة المشاركة «بالتطرف». وفى الأيام الأخيرة للحملة الانتخابية، كان الاشتباك بين الفصيلين الكبيرين من الإصلاحيين أكثر حدة منه بين الإصلاحيين والمحافظين.

من تجربتى مع التيارين، وجدت بين المحافظين جامدين ورجعيين ومعادين للحريات، كما وجدت بينهم عقلاء ومتفتحين وغيورين على هوية البلد واستقلاله وكرامته. أيضا وجدت بين الإصلاحيين رموزا نيرة وواعية غيورة على الحريات العامة بقدر غيرتهم على الإسلام وعلى أهداف الثورة، كما وجدت منفلتين ومتغربين التحقوا بقطار الإصلاحيين ليس حبًا فيه، ولكن كرها للآخرين وسعيا إلى هدم البنيان فوق رءوس الجميع!

[٨]

ليلة الانتخابات كانت جلستنا فى بيت الدكتور عطاء الله مهاجرانى، وزير الإرشاد المثير للجدل الذى ظل المحافظون يحاولون اصطياده وتنحيته عن موقعه طيلة السنتين الماضيتين، كانت زوجته جميلة كديور التى تعمل صحفية منذ عشر سنوات فى صحيفة «اطلاعات» (حاصلة على الدكتوراه فى العلوم السياسية)، قد أخذ منها التعب كل مأخذ، فهذا هو اليوم الأخير فى حملتها الانتخابية، بعدما قررت أن تجرب حظها فى عضوية مجلس الشورى عن طهران، بعدما نجحت فى «شيراز» فى الدورة السابقة (الخامسة)، لكن المحافظين استخدموا نفوذهم وأسقطوها، طبقا لروايتها.

كانت السيدة جميلة قد وضعت طفلتها الرابعة «صهباء» منذ ثلاثة أشهر فقط، الأمر الذى أضاف إليها عبئا جديدا، لكن لم يكن هناك

مفر من اقتسام المسئولية عنه مع زوجها الدكتور مهاجراني، فحين لايكون أمام الوزير اجتماعات أو لقاءات مسائية، كان يبقى في البيت إلى جوار صهباء، يرعاها ويطعمها ويغير لها ملابسها إذا لزم الأمر. وحينما كانت ظروف عمله تضطره إلى مغادرة البيت في أمسيات أخرى، لم يكن أمام الدكتورة جميلة سوى أن تحمل الطفلة على كتفها وهي تطوف بأنحاء الدائرة حتى منتصف الليل، وسط جو طهران الثلجي.

في تلك الليلة، كانت قد اختتمت جولاتها وجلست تترقب التصويت والنتيجة، ولم يكن يزعجها سوى رنين الهاتف المحمول الذي لم يكف عن النداء طوال الوقت. انتحت جانبا في غرفة الاستقبال وراحت تطعم «صهباء» وتهدهدها، بينما نهض وزير الإرشاد لكي يقدم لنا الشاي، وأطباق الفاكهة وبعض الحلوى الإيرانية.

استغرق الأمر وقتا حتى استجاب لإلحاحي في أن يكف عن مجاملة الضيوف، ويجلس كي يجيب عما عندي من استفسارات، وحينئذ سألته عن السبب الذي يقف وراء كثرة الأحزاب والجمعيات التي شاركت في الانتخابات، وتضخم قوائم المرشحين في العاصمة (كانت هناك ٢٣ قائمة).

كنت أعلم أن الدكتور مهاجراني - وهو وزير في حكومة السيد خاتمي - من أركان «كوادر البناء»، وهو الحزب أو التجمع المؤيد للشيخ هاشمي رفسنجاني، وأن زوجته الدكتورة جميلة قدمت نفسها باعتبارها مرشحة مستقلة، وإن كانت أكثر ميلا إلى حزب «المشاركة» الذي أنشأه أنصار الرئيس خاتمي، بمعنى أن الاثنين يقفان في صف الإصلاحيين، مع تمايز طفيف في هوى كل منهما [للعلم: أشارت نتائج فرز الأصوات في طهران إلى فوز السيدة جميلة بالمركز الثاني بين نواب طهران، وكانت السيدة فائزة رفسنجاني قد فازت بالمركز الثاني في العاصمة أثناء انتخابات عام ٩٦].

قال الدكتور مهاجراني إن تعدد المجتمعات والمؤسسات الأهلية أصبح ظاهرة في إيران، منذ دعا الرئيس خاتمي إلى إقامة المجتمع المدني الإسلامي، وإن القوانين السارية تيسر وتشجع إقامة هذه المؤسسات، لذلك فإنه أصبح بمقدور أي جماعة من الناس تلتقي على هدف معين أن يسجلوا أنفسهم في جمعية أو رابطة أو حتى حزب، وفي كل الأحوال فليس هناك ما يمنعهم من الاشتغال بالعمل السياسي. وقد وجد كثيرون أن إنشاء مثل تلك التجمعات يتيح لهم فرصة المشاركة بقوائم تجمع أعضاءها وغيرهم من المرشحين الذين يريدون تأييدهم، الأمر الذي أدى إلى تلك التخمة المؤسساتية التي حفلت بها الساحة الإيرانية في موسم الانتخابات، وهي تخمة عارضة وموسمية، لأن أكثر تلك التجمعات لن يسمع لها صوت يذكر، وقد تنفض تماما بعد انتهاء المعركة الانتخابية.

سألته: ما الذي سيبقى بعد ذلك؟ - فقال: إن في إيران الآن أربع قوى سياسية أساسية، والباقون على هوامشهم أو يدورون في فلكهم، الأولى: رابطة علماء الدين المناضلين (روحانيت مبارز) التي تمثل ركيزة تجمع المحافظين - والثانية هي مجموعة «كوادر البناء» بقيادة هاشمي رفسنجاني وهم مجموعة من السياسيين والتكنوقراط الإصلاحيين - والثالث هو تجمع علماء الدين المناضلين (روحانيون مبارز) وهم يمثلون اليسار الراديكالي إذا جاز التعبير، وإلى جانب خصومتهم للمحافظين، إلا أن لهم تحفظات على سياسة الشيخ رفسنجاني وعلى سياسة الكوادر، ومع ذلك فهم يعتبرون أنفسهم ضمن جبهة خرداد والخط الإصلاحي عموما. المجموعة الرابعة هي جبهة المشاركة، التي تشكلت منذ أكثر من عام، وتضم مجموعة من مؤيدي الرئيس محمد خاتمي، في مقدمتهم شقيقه الدكتور رضا، وهو طبيب كان من الناشطين في قيادة حرس الثورة (احتل رأس قائمة الفائزين لعضوية مجلس الشورى عن مدينة طهران).

قلت للسيد مهاجراني: ما الفرق بين المحافظين والإصلاحيين؟

قال: الفرق الأساسي يكمن في الموقف من الحريات العامة ومن فكرة المواطنة، فالمحافظون ضد إطلاق الحريات، ويتعاملون مع المجتمع من منطلق الوصاية والأبوة، ومن ثم فإنهم يعتبرون الناس رعايا يسمعون ويمتثلون، بينما موقف الإصلاحيين المنحاز إلى الحريات مشهود، كما أنهم يرون في الناس أنهم مواطنون لايمتثلون، وإنما يشاركون. في الجانب الاقتصادي ليست هناك برامج واضحة يمكن الاعتماد عليها في تحديد الفارق في النظر بين الجانبين، وإنما يمكن القول بأن المحافظين أميل إلى التجارة، بحكم علاقتهم بالبازار، بينما الإصلاحيون أقرب إلى الصناعة.

في السياسة الخارجية ليست هناك فوارق جوهرية بين المعسكرين، باستثناء موضوع العلاقة مع الولايات المتحدة، الذي يضع المحافظون لاستئنافها شروطا أكثر صعوبة وتشددا من غيرهم، أما العلاقات الإيرانية العربية أو الإيرانية الأوروبية، فموقف المحافظين والإصلاحيين منها متطابق إلى حد بعيد.

قلت: والموقف من ولاية الفقيه؟

قال: ولاية الفقيه أصل في الدستور ولا نختلف حوله، فالجميع يقرون بضرورة استمرار تلك الولاية، ولكن هناك خلافا حول شروطها، فالتيار الغالب بين الإصلاحيين يدعو إلى تحديد مدة الولاية، بدلا من أن تكون مطلقة، وإلى إخضاع القائد للقانون، كما يطالب هؤلاء بأن يمارس «مجلس الخبراء» الذي ينتخب القائد حقه في الرقابة عليه، شأنه في ذلك شأن أي مسئول في الدولة، وهذه أفكار تتبلور بمضي الوقت، وأحسب أنها تلقى تجاوبا من جانب السيد علي خامنئي، الذي أثبت أنه دائم التفاعل مع اتجاهات الرأي العام، ذلك أنه ليس قائدا فحسب، ولكنه «مرجع» ديني أيضا، واحترامه للرأي العام وتجاوبه معه جزء من مقومات شرعيته.

أضاف السيد مهاجراني أن المحافظين لا يتحدثون عن شروط الولاية، ولكنهم يقبلون بها كما هي، ويتمسحون فيها، بل ويزايدون عليها حتى يحتموا بسلطات وصلاحيات القائد، لكنه كان أكثر ذكاءً منهم، وكان مدركا لما يريدونه، وحرص دائما خصوصا في السنة الأخيرة أن يبتعد عن التصنيف في معسكرهم، محتفظا بدوره الطبيعي كرأس للدولة فوق الصراعات والتحزبات.

قلت: أين يكمن الخلاف بين الطرفين الإصلاحيين الكبيرين: كوادر البناء، وجبهة المشاركة؟

قال: أنت تعلم أن كوادر البناء تأسست في عهد الرئيس هاشمي، وعمرها أكثر من أربع سنوات، بينما جبهة المشاركة حديثة نسبيا، حيث لا يتجاوز عمرها عاما واحدا. وأستطيع أن أقول إنه ليس هناك خلاف موضوعي كبير بينهما، فهما يقفان على أرضية واحدة، وتضمهم جبهة واحدة (الثاني من شهر خرداد)، وكانت «كوادر البناء» في مقدمة القوى السياسية التي دعمت السيد خاتمي وناصرته في حملته الانتخابية الرئاسية. وإذا كان «الكوادر» قد انحازوا إلى مدخل التنمية الاقتصادية في ظرف ما بعد الحرب، بينما ارتأت قيادة «المشاركة» في طور لاحق التركيز على مدخل التنمية السياسية، فذلك لا يعد سببا للخلاف، ولكنه بمثابة تباين في زاوية النظر وفي تقدير متطلبات الواقع في كل مرحلة، فضلا عن أن كلا منهما يكمل الآخر، ولا يتناقض معه.

قلت: هل تعتقد أن الخلاف الذي ظهر على السطح أثناء الحملة الانتخابية ينصب على شخص الرئيس هاشمي رفسنجاني؟

قال: هذا صحيح إلى حد كبير، فالكوادر اختاروا الشيخ هاشمي على رأس قائمتهم، بينما رفضت جبهة المشاركة ذلك، ولم يكن هذا موقفها وحدها، إنما شاركها فيه طرف إصلاحي مهم ثالث، هو تجمع علماء الدين المناضلين (روحانيون مبارز)، وفيما عدا ذلك فقد كان هناك اتفاق بين هذه القوى على دعم بقية المرشحين (للعلم: من بين ١٨ حزبا وتجمعا في جبهة «٢ خرداد» وافقت ٦ تجمعات فقط على اسم الشيخ رفسنجاني بينما اعترض عليه ١٢).

قلت: هل تعتقد أن هذا الخلاف يمكن أن يؤثر على مستقبل المعسكر الإصلاحي، أو على علاقة الشيخ هاشمي بالسيد خاتمي؟

قال: أستبعد ذلك تماما، إلا إذا رجحت كفة المتطرفين بين الإصلاحيين ونجحت ضغوطهم في فك الارتباط بين قوى جبهة ٢ خرداد. وفي حدود علمي، فإن هناك تفاهما وتشاورا مستمرين بين الرجلين الكبيرين (هاشمي وخاتمي)، اللذين يعملان بتنسيق مع القائد، وهذا كفيل بضمان استقرار الأمور في المستقبل.









إن تعدد المجتمعات والمؤسسات الأهلية أصبح ظاهرة في إيران، منذ دعا خاتمي إلى إقامة المجتمع المدني الإسلامي، وإن القوانين السارية تيسر وتشجع إقامة هذه المؤسسات، لذلك فإنه أصبح بمقدور أي جماعة من الناس أن يسجلوا أنفسهم في جمعية أو رابطة أو حتى حزب



[٩]

لقد هزم المحافظون حقا في الحملة الانتخابية، وفقدوا أغلبيتهم في مجلس الشورى، لكننا نبسط الأمر كثيرا إذا ما تصورنا أنهم تلقوا ضربة قاضية، وأخرجوا من حلبة السياسة الإيرانية. وغاية ما يمكن أن يقال إنهم خسروا جولة، لكنهم لم يخسروا المعركة، وربما أخرجوا من موقع لكنهم لم يغادروا الساحة.

أقول هذا الكلام راجيا ملاحظة أننا نتحدث عن الاتجاه العام الذي برز فيما تم فرزه من أصوات، وأن النتائج الرسمية للجولة الانتخابية الأولى لم تعلن بعد، وأن جولة الإعادة الثانية ستتم بعد احتفالات عيد النوروز، التي تكاد تتعطل فيها الحياة تماما في إيران لمدة أسبوعين في النصف الثاني من شهر مارس، ومن ثم فإن الصورة النهائية لمجلس الشورى لن تكتمل معالمها إلا خلال شهر أبريل بإذن الله.

مع ذلك كله فالقدر المتيقن، حتى إشعار آخر على الأقل، أن الإصلاحيين حققوا فوزا بدا ساحقا، وأن هزيمة موجعة لحقت بالمحافظين، الأمر الذي يثير أكثر من سؤال حول مستقبلهم السياسي ودورهم المفترض في الساحة الإيرانية.

المحافظون لا يزالون موجودين في العديد من المواقع المهمة في إيران، فهم يسيطرون على «مجلس صيانة الدستور»، (١٢ عضوا نصفهم من الفقهاء يعينهم القائد والنصف الآخر من كبار رجال السلطة القضائية، فقهاء أيضا) الذي يراقب سير الانتخابات ولا يعتبر أي قانون يصدره مجلس الشورى ساريا إلا إذا تحقق أعضاؤه من مطابقته للشريعة وللدستور. هم يسيطرون أيضا على «مجلس الخبراء» الذي ينتخب أعضاؤه (عددهم ٩١) بالاقتراع العام، ويقومون هم بانتخاب القائد ومراقبة سير عمله، هم يسيطرون كذلك على عضوية

«مجلس تشخيص مصلحة النظام»، المعين من قبل القائد، والذى يفصل فى أى نزاع ينشأ بين مجلس الشورى وصيانة الدستور، حول القوانين المزمع إصدارها. فى الوقت ذاته فإنهم يسيطرون على جهاز السلطة القضائية الذى كان سلاح المحافظين فى تصفية الحساب مع رموز الإصلاحيين حتى ساقوا بعضهم إلى السجون فى الفترة الماضية (كرباستشى وعبد الله نورى ومحسن كديور).

لا يستطيع أحد أن يتجاهل سيطرة المحافظين على قيادة الحرس الثورى، وعلى مختلف المؤسسات الاقتصادية الضخمة فى البلاد (بنياد شهيد - وبنياد مستضعفان - وبنياد انقلاب إسلامى). بنياد معناها مؤسسة، ثم إن الجميع يعرفون أن لهم اليد الطولى فى «البازار» - عالم التجارة والمال - بقدر ما أن لهم ذات اليد الطولى فى المساجد والحسينيات والحوزات العلمية.

ملحوظة: حتى عهد قريب كان القائد - السيد على خامنئى - مصنفا على جانب المحافظين، فضلا عن أن عناصر لا يستهان بها فى مكتبه اعتبرت ضمن غلاة المحافظين. وبدا تحيزه ذاك واضحا أثناء الانتخابات الرئاسية التى تمت فى عام ١٩٩٧، إذ بدا لكل مراقب أن الإشارات الصادرة عن القائد وعن مكتبه تدعم الشيخ ناطق نورى. القطب المحافظ المعروف. غير أن موقف السيد خامنئى تغير خلال السنتين الماضيتين، بعدما بذل السيد خاتمى جهدا حثيثا لتحييده، من خلال إقناعه بأن التيار الإصلاحى الصاعد ليس ضده، وبانه ينبغى أن يظل فوق التيارات السياسية، وأن تحيزه إلى جانب طرف دون آخر يسحب من رصيده كقائد ومرشد للأمة. وما كان للسيد خاتمى أن يحقق مراده لولا أن عكف منذ توليه السلطة على عقد اجتماع أسبوعى مع القائد، عادة ما يستمر لعدة ساعات، الأمر الذى كانت له ثماره الإيجابية التى تبدت فى الانتخابات النيابية الأخيرة، حين ظهر السيد خامنئى محايدا تماما، وبعيدا عن أى صراع بين التيارات، الأمر الذى أزعج المحافظين كثيرا وأفقدهم سندا قويا عولوا عليه فى معركتهم ضد الإصلاحيين.

هذا التواجد القوى للمحافظين فى الساحة الإيرانية يمكن أن يكون عونا للحكومة ولمجلس الشورى، ويمكن أن يتحول إلى مصدر للمتاعب، يعمق من الاستقطاب فى البلاد، ويقود البلاد بالتالى إلى طور آخر من الانسداد السياسى. وأحسب أن ترجيح أى احتمال على آخر وثيق الصلة بقدرة عقلاء الجانبين على التفاهم، وبمدى رعايتهم للمصلحة العامة: لأنه إذا انشغل كل طرف بتصفية حسابه مع الآخر، فإن تلك المعركة الخاصة سوف تستغرق الجميع إلى حد قد يلهيهم عن رعاية مصالح الناس، مما قد يقود السفينة إلى الغرق بكل ركابها، وبصرف النظر عن انتماءاتهم السياسية.

والذى لا شك فيه أن سلوك الإصلاحيين بوجه أخص سوف يكون مؤثرا بدرجة أكبر بحكم سيطرتهم على موقعين بالغى الأهمية فى الساحة السياسية، هما السلطتان التنفيذية والتشريعية. أعنى بذلك أن الإصلاحيين سوف يستدعون ذلك الانسداد، الذى يخشى منه، إذا ما تعاملوا مع المحافظين بذات الأسلوب الاستئصالى والقمعى الذى استخدمه المحافظون ضد الإصلاحيين فى مجلس الشورى الرابع (٨٢ - ٨٦) الذى سيطروا عليه، ومنه لاحقوا الإصلاحيين وطاردوهم فى موقعهم.

[١٠]

هذه الهواجس تشغل بال كثيرين فى إيران، خصوصا بين عقلاء التيارات السياسية المختلفة، وحين تحدثت مع ثلاثة منهم، غلام حسين كرباستشى الأمين العام لحزب الكوادر، ومجيد أنصارى زعيم الأقلية فى مجلس الشورى وأحد قادة جبهة المشاركة، والدكتور حسن غفورى من أقطاب المحافظين، وجدت أن الثلاثة يحذرون من سلوك المتطرفين على الجانبين، ويسعون إلى إحداث تفاهم بين القيادات يحول دون الانسداد السياسى الذى يمكن أن ينذر بشرور كثيرة.

هزم المحافظون حقا، وفقدوا أغلبيتهم فى مجلس الشورى، لكننا نبسط الأمر كثيرا إذا ما تصورنا أنهم تلقوا ضربة قاضية، وأخرجوا من حلبة السياسة الإيرانية. وغاية ما يمكن أن يقال إنهم خسروا جولة، لكنهم لم يخسروا المعركة، وربما أخرجوا من موقع لكنهم لم يغادروا الساحة

الدكتور غفورى كان صريحا فى نقده لحكومة السيد خاتمى، فقال إنه حقق نجاحا مشهودا على الصعيد السياسى فى الداخل والخارج، فقد أحدث انفراجا فى علاقة السلطة بالمجتمع، ووفق فى مخاطبة شرائح عدة كانت عازفة عن المشاركة فى الحياة السياسية، كما أنه أنجز الكثير على صعيد إزالة بؤر التوتر فى علاقات إيران بالعالم الخارجى. غير أن هذا النجاح السياسى - أضاف - اقترن بفشل اقتصادى من نواحى عدة. فقد انخفض معدل التنمية من ٤,٥٪ فى عهد الرئيس رفسنجانى إلى ١,٥٪ فى عهده. ونسبة البطالة ارتفعت إلى ١٥٪، وكانت بين ١٠ و١١٪ فى السابق، كما أن التضخم المالى ارتفع فى عهده من ١٨ إلى ٢٢٪. ثم قال الدكتور غفورى إنه ليس صحيحا أن مجلس الشورى الذى كان تحت سيطرة المحافظين عوق عمل الحكومة، صحيح أنه حاسب بعض الوزراء وسحب الثقة من آخرين، لكنه مارس فى ذلك حقه الطبيعى. لكنه إلى جانب ذلك استجاب لكل طلبات الحكومة فى الميزانية والخطة الخمسية. ثم إن المحافظين ضحوا لصالح استقرار الحكومة وتجانسها، حين تنازلوا عن التمثيل فى التشكيلة الوزارية، رغما أن لهم فى ذلك حقا، باعتبارهم الأغلبية فى المجلس، ثم تساءل حين ذكر هذه المعلومة: فى أى بلد يمكن أن تجد أغلبية برلمانية تتنازل عن حقها ولا تمثل بوزير واحد فى الحكومة؟

قال الدكتور غفورى أيضا إن فكرة «الطريق الثالث» بين المحافظين والإصلاحيين تلوح فى الأفق، وإن هناك اتصالات بين بعض عناصر النخبة سواء لجمع العقلاء للاستمرار فى قيادة السفينة إلى بر الأمان، عبر التفاهم حول المشترك وتكتل الجميع للدفاع عنه، أو لتشكيل تجمع جديد يتبنى هذا الموقف.

كرباستشى بدوره ليس قلقا على المستقبل، ويقول إن بعض المتطرفين من «محدثى العمل السياسى» فى جبهة المشاركة يدعون إلى المفاضلة بين هاشمى رفسنجانى والسيد خاتمى ، ولكن هذا المسعى لن يكتب له النجاح، ليس فقط لأن كل طرف بحاجة إلى الآخر، وليس فقط لأن الكوادر حاضرون بقوة - حتى كتابة هذه السطور قبل إعلان النتائج الرسمية - ضمن تركيبة مجلس الشورى الجديد، ولكن أيضا لأن ثمة تفاهما جيدا بين الرجلين، من شأنه أن يقطع الطريق على احتمال من هذا القبيل.

مجيد أنصارى ردد الفكرة تقريبا، وقال إن مشروع الطريق الثالث يبحث الآن بشكل جاد فى إطار «تجمع العلماء المناضلين» ويرجح أن يقوم التجمع ذاته بهذا الدور، وحين نقلت إليه رأى الدكتور غفورى فى الأداء الاقتصادى لحكومة السيد خاتمى، سارع إلى القول بأن هذا الكلام مدهش، لأنه لو صح لاستجوب المحافظون الوزراء المسئولين عن الاقتصاد وحاسبوهم على الفشل الذى زعموه. وهو مالم يفعلوه، وإنما ركزوا على مساءلة وزيرى الداخلية والإرشاد! وعقب على الأرقام التى ذكرها غفورى قائلا: إنها مبالغ فيها، وأنه تجاهل تأثير الانخفاض الشديد فى أسعار البترول خلال السنتين الماضيتين، الأمر الذى كان له تأثيره المباشر على خطة التنمية فى البلاد، وهو أمر ليس للحكومة يد فيه، لكنه كان يمكن أن يحدث ذات التأثير على أى حكومة أخرى موجودة فى السلطة.



[١١]

لقد قلت إن الذى حدث فى طهران كان «مشهدا ديمقراطيا» بامتياز، واستخدمت هذا الوصف عن قصد حتى لايظن أحد أن الديمقراطية قد ثبتت أقدامها، وإن تجربتها قد اكتملت هناك، وإذ تمنيت ألا نهون من شأن ما جرى - وهو إنجاز ضخم لاريب - فإننى لا أوافق على التهويل من شأنه، إلى الحد الذى ينسينا أن ثمة أشواطا يجب قطعها لكى تنتقل الثورة الإسلامية بحق من ولاية الفقيه إلى ولاية الأمة.

هذا الكلام ليس رأيا شخصيا فحسب، ولكنها وجهة نظر تتردد بقوة فى أوساط النخبة الإيرانية، ويجهر بها البعض من خلال منابر عدة، وقد سمعت عدة آراء فى هذا الاتجاه من الدكتور إبراهيم يزدى زعيم حركة الحرية، ومن شمس الواعظين رئيس تحرير صحيفة عصر آزادجان، ومن على حكمت الذى كان رئيسا لصحيفة «خرداد» الإصلاحية، الذى كان صاحب امتيازها عبدالله نورى، وزير الداخلية الأسبق الذى حكم عليه بالسجن مدة خمس سنوات.

يقول هؤلاء إن الذى تم فى إيران حتى الآن يعد خطوة ضخمة فى الاتجاه الديمقراطى، وإن ثمة خطوات أخرى مازالت مطلوبة فى ذات الاتجاه، منها ما يتعلق بالقائد (مدته وخضوعه للقانون وتنشيط مساءلته) ومنها ما يتعلق بتدخل مجلس صيانة الدستور فى إجازة المرشحين ومنع آخرين، وهو الدور الذى حاول الرئيس خاتمى تقليصه من خلال إلزام المجلس بالإعلان كتابة عن أسباب اعتراضه على كل مرشح، الأمر الذى خفف كثيرا من نسبة المشطوبين فى الانتخابات التشريعية الأخيرة، فقد كان المجلس يشطب عادة ٤٠٪ من المرشحين فى السابق، ولكنه شطب على ١٢٪ فقط هذه المرة الأخيرة، وأغلبهم من ذوى السوابق القضائية والذى ثبت ارتكابهم جرائم مخلة بالشرف [يقال إن السيد على خامنئى ضغط على المجلس حتى لايطلق يده فى شطب المرشحين الإصلاحيين].

يتحدث هؤلاء أيضا عن ضرورة إلغاء محكمة رجال الدين، وعن توفير ضمانات أفضل لممارسة الحريات الصحفية ، وعن أهمية تقنين التعددية السياسية..إلخ.

لا أخفى أننى كنت أستمع إليهم بشعور اختلطت فيه الغيرة بالحسد، إذ وجدتهم أكثر ثقة فى المستقبل وأشد حماسا لمواصلة خطى التغيير الديمقراطى، الذى ثبتت شواهده ولاحت بشائره، على نحو أنعش أجواء إيران وأحيا فى كل النفوس آمالا وأشواقا بلا حصر.

لقد مصمصت شفتى وقلت : إن الذى قطع شوطا فى الرحلة - وهى دون الألف ميل بكثير - أفضل حظا من الذين لايزالون عند نقطة الصفر ويوهمون أنفسهم بأنهم يعيشون أجمل الأيام وأزهى العصور.

مع ذلك فلم أستطع أن أخفى شعورا بالسعادة، باعتبار أن من حق «القرعاء» أن تتباهى بشعر أختها، أوهكذا يقولون فى الأمثال على الأقل! ■

جنود إسرائيل البكّاءون
يفقدون شجاعتهم فى مواجهة حزب الله

آريه أوسوليفان

«السيف يصدأ إن أنت ألقيت به فى الماء المالح» ـ لاو تسو

الجنود الإسرائيليون فى لبنان يتخلون عن رباطة جأشهم لكى يدلوا باعترافات لا يخجلون منها: إنهم خائفون، ويشكون فى حربهم المحبطة ضد حزب الله، التى كثيرا ما يشعرون فيها بأنهم أشبه بأهداف يسهل ضربها. وهناك من اتهمهم بأنهم بكاءون.

وقد أثار أحدث الشكوك بشأن صمود جنودنا بعض الأسئلة المقلقة. هل جنودنا فى سبيلهم لأن يفقدوا شجاعتهم؟ وهل فقدت البلاد قدرتها على الصبر على المكاره؟ وماذا يمكن أن يعنيه هذا كله بالنسبة لمستقبل جيش الدفاع الإسرائيلى؟

إن قدرة جيش الدفاع الإسرائيلى على تحطيم أعدائه الذين يفوقونه عدداً بطريقة سلسة جعلته موضع حسد من العالم. وكان سلاحه الخفى هو ارتفاع الروح المعنوية لدى جنوده.

واليوم، يعتقد كثير من المراقبين أن جيش الدفاع الإسرائيلى مازال يلخص روح المجتمع الإسرائيلى الحالى. وهو المجتمع الذى نال منه التعب وتميز بالفردية ويزكى فيه كل إنسان نفسه ويفرح بها، بينما القدرة على تحمل الآلام آخذة فى الانحدار.

مرت إسرائيل بأوقات عصيبة فى لبنان فى السنوات القليلة الماضية. فقد قتل سبعة وثلاثون جندياً منذ ثلاث سنوات فى تصادم طائرتى هليكوبتر كانت تنقلهم إلى منطقة الشريط الآمن. وفى خريف ١٩٩٧، لحقت بجيش الدفاع الإسرائيلى موجة من الهزائم، بما فى ذلك الإجهاز المهين شبه التام على وحدة كوماندوز محمولة بحراً تضم ١٣ فرداً.

وقتل ثلاثة وعشرون جندياً فى لبنان سنة ١٩٩٨؛ وقتل اثنا عشر فى العام الماضى، ولكن كان بينهم قائد وحدة الاستطلاع المظلية، وهو أحد كبار القادة الإسرائيليين فى لبنان، حيث قتل مع صحفى إذاعى مشهور عندما قصفت قافلتهم.

أما الموجة الأخيرة التى أودت بحياة سبعة جنود إسرائيليين، فى غضون ما يقل عن ثلاثة أسابيع، فيبدو أنها القشة التى قصمت ظهر البعير، ليس فقط بالنسبة لجماهير الشعب، وإنما فيما يتعلق بالجنود أنفسهم الذين يدعون صراحة للمرة الأولى إلى مغادرة جيش الدفاع الإسرائيلى للشريط الأمنى.

إنهم يقولون إن أحداً لا يرغب فى أن يكون آخر من يموت فى لبنان.



وبالطبع فإن أحد أسباب رد الفعل هذا هو عزم رئيس الوزراء ايهود باراك المعلن على الانسحاب من الشريط الأمنى بحلول شهر يوليو. غير أن البعض يرى أن وراء هذا الانفجار العاطفى غير المعتاد من جانب الجنود نقطة ضعف أكثر عمقاً.

يقول أحد كبار ضباط جيش الدفاع الإسرائيلى المشاركين فى التخطيط العقائدى: «إننا مدللون». كما قال إن إسرائيل تفقد قدرتها على تحمل الخسائر. ويشير آخرون إلى أن السلام النسبى الذى تنعم به إسرائيل منذ حرب ١٩٧٣ قد حد من تأهبها. ومازال جيش الدفاع الإسرائيلى يعد لحرب فيما يتصل بالصراع مع القوات المسلحة للعدو أو الدول المحتمل أن تعاديه. والواقع أنه طوال ٢٧ سنة لم يهاجمنا أحد هجوماً عنيفاً. ولكن هذا يعنى أن فرق إسرائيل المدرعة تمضى فى دورة من التدريب إلى التخزين دون أن تثبت نفسها فى ميدان القتال.

والواقع أن الجنود الحاليين يتسمون بالتفرد فى تاريخ جيش الدفاع الإسرائيلى، لكونهم أول جيل يشب دون الدخول فى حرب كبيرة.

ويقول البروفيسير مارتن فان كريفالد فى كتابه: (The Sword and the Olive السيف والزيتونة)، وهو تاريخ نقدى لجيش الدفاع الإسرائيلى: «قدمت حرب الخليج أول تحذير واضح بأن شعب إسرائيل يفقد الشجاعة فى مواجهة الخصم ويتحول إلى أمة من الجبناء لم يعد لديها ما يعينها على الجلد والقتال».

ويقول الدكتور جال، كبير الأطباء النفسيين فى جيش الدفاع الإسرائيلى السابق ومؤلف كتاب (The Portrait of the Israeli Soldierصورة الجندى الإسرائيلى) «أعتقد أن الطريقة ذاتها التى مجدت بها وسائل الإعلام جنود حرب ١٩٦٧ تستخدم فى الوقت الراهن لإلحاق العار بجنود سنة ٢٠٠٠ باعتبارهم بكائين».

ومن النادر أن يسمح جيش الدفاع الإسرائيلى للصحفيين بدخول لبنان لإجراء مقابلات مع الجنود فى الخنادق. وفى المرات النادرة التى سمح فيها بذلك، كانت المقابلات تتم فى وجود المتحدث الرسمى باسم جيش الدفاع الإسرائيلى.

غير أن مخاوف الجنود وإحباطاتهم وشعورهم بأنهم خُدعوا تخترق هذا الحجاب أكثر وأكثر. وهم جميعاً ـ أو هكذا يبدو الأمر ـ لديهم رقم تليفون مراسلة إذاعة إسرائيل الحربية كارميلا ميناش. ونشرت صحيفتا «يديعوت أحرونوت» و«معاريف» مانشتات تحمل ما يقوله الجنود عن كونهم خائفين ولم يعودوا يطيقون البقاء فى لبنان ـ وتنقل سخرية قادتهم منهم باعتبارهم جبناء.

فقد نقلت «يديعوت أحرونوت» هذا الأسبوع عن ملازم فى سلاح المظلات قوله: «لم يعد لدى ما أبحث عنه فى لبنان. إننا نسمع باراك يتحدث دائماً عن الخروج فى الصيف، غير أنى أخشى أن موقعنا سيكون عليه الدور فى أن يضرب. إنى أعرف جنوداً يائسين، وجنوداً يشجعهم آباؤهم على أن يتمارضوا، وجنوداً يخافون الذهاب إلى بوابات الحدود كما أعرف جنوداً يغمرهم إحساس باليأس ويعتقدون أنهم ذاهبون إلى الموت».

وقال جندى مظلات آخر: «نحن جميعاً خائفون والقادة يحاولون تهدئتنا. إننا لا ندافع عن الدولة. ونحن مكشوفون ومعرضون للضرب. وحزب الله يضربنا بصواريخه الجديدة وكل ما نريده هو ألا يصيبنا الضرب. إننا نريد الخروج، وقد حان الوقت الذى لا بد لنا فيه من الخروج من لبنان».

ويقول ثالث: «إذا لم تكن هناك أهمية كبيرة لبقائنا هناك، فلماذا إذن لا نفكك الموقع؟ إننا فى كل الأحوال نوشك على الخروج. فماذا يريدون منا؟ أن نكون أهدافا تسهل إصابتها»؟

وفيما قد يراه المؤرخون على أنه نقطة بارزة فى معضلة جيش الدفاع الإسرائيلى اللبنانية، نقل هذا الأسبوع عن قائد المنطقة الشمالية الميجور جنرال جابى أشكينازى دعوته الجنود الذى عبروا عن هذه المخاوف بأنهم «خرق بالية وبكاءين». ونقل كذلك عنه قوله أنه إذا كان يحق لهم أن يقولوا شيئاً فينبغى عليهم قوله لقادتهم. إلا أنه أنكر بعد ذلك وصفه الجنود بأنهم «خرق بالية»، ولكنه لم ينكر الباقى.



لا يمكن وصف الجنود الإسرائيليين بأنهم قساة أو وحشيون، ولكن هل هم جبناء؟

الواقع أن الشخص الغريب قد يظن أن جيش الدفاع الإسرائيلى يعامل جنوده على أنهم أطفال. فبعد العشاء يقدم لهم الـ«كريمبو» كنوع من التحلية.

وفى لبنان، يخرج الجنود إلى الكمائن ومعهم حشية للرقاد فى الكمين، بحيث يكونون مستريحين وهم يرقدون ترقباً لمقاتلى حزب الله. كما أن حقائبهم مليئة بالأطعمة التى تعطيهم القوة والطاقة، ولديهم ملابس داخلية مدفئة وأفضل أجهزة اللاسلكى ومعدات الرؤية ليلاً.

ويذكر قادة الميدان فى لبنان أن هناك ارتفاعاً مفاجئاً فى عدد التماسات الآباء الخاصة بعدم إرسال أبنائهم إلى لبنان. وهؤلاء الذين لهم أبناء بالفعل هناك يطالبون بإعادتهم. وقيل إنهم تعللوا بمشاكل شخصية وأمراض.

وتميل مثل هذه المناشدات إلى الزيادة فى كل مرة يكون فيها تصعيد للعنف فى الشريط الأمنى. غير أنه قيل فى هذه المرة إن القادة وصفوا الأمر بأنه «هستيرى». ونقل عن أحد الضباط قوله: «ماذا أفعل عندما تهدد إحدى الأمهات بأن تقتل نفسها؟ إننى فى موقف صعب»...

ذكر الكولونيل يائير جولان، وهو قائد لواء سابق فى لبنان ويعمل حالياً رئيساً للعمليات فى قيادة الأركان العامة، إن الموقف فى لبنان أعقد من أن يوضحه أحد للجنود. وقال جولان فى مقابلة مع التلفزيون: «لا بد أن نفهم أن هذا الواقع محبط جداً. وأفضل طريقة للتعامل معه هى أن نتذرع بالجلد والقدرة على استيعاب الخسائر».

أما رئيس هيئة الأركان العامة الليفتنات جنرال شاؤول موفاز فقد اعترف بأن الغارات الجوية وغيرها من تكتيكات القتال عن بعد قد حلت محل الأكمنة التقليدية. كما قال إن المحصلة النهائية هى النتائج. وحتى الآن يقول جيش الدفاع الإسرائيلى إن النتائج «معدل انتصار» مقداره ثلاثة إلى واحد لمصلحة إسرائيل.

واتخذ موفاز خطوة غير معتادة بقضاء بعض الوقت هذا الأسبوع فى موقع متقدم للتحدث مع الجنود. وفى وقت لاحق قال للصحفيين: «لا يمكنكم أن تستدلوا من تعليق أو تعليقين صادرين عن جنود جيش الدفاع الإسرائيلى على مستوى استعداد الجنود الإسرائيليين ودافعهم».

ورغم ذلك، فإنه من الواضح أن جيش الدفاع الإسرائيلى غيّر مبادئه للحيلولة دون وقوع خسائر. فقد طورت الأسلحة بحيث تسمح للجنود بأن يبقوا على منأى من العدو. كما زيد مرمى الأسلحة، مما يقلل احتمال ما يطلق عليه جيش الدفاع الإسرائيلى اسم «هامفجاش» ـ وهى المواجهة قريبة المدى مع العدو.

والسوريون يعرفون هذا الأمر ولا يرغبون فيما هو أفضل من إرسال مغاويرهم ليقاتلوا الجنود الإسرائيليين العاجزين عن التقدم بأرقى المعدات، بينما ينظر إليهم على أنهم غير مستعدين للتضحية بأنفسهم.

ويقدم هذا المبدأ المتغير لمحة عن الطريقة التى يتوقع بها الجيش الإسرائيلى أن يخوض بها حربه التالية. فسوف يكون تبادل إطلاق النار مع العدو عن طريق القذائف والطائرات والصواريخ، مع القليل من الهجمات الأرضية. والفكرة هى التغلب على العدو بسرعة، لتحاشى الدخول فى حرب استنزاف لدى العرب قدرة أكبر على تحملها.

ولم يكن جيش الدفاع الإسرائيلى فى يوم من الأيام ـ على الورق ـ بمثل ما هو عليه الآن من قوة ومن حسن التجهيز والقدرة على الفتك بالعدو. وهو جيش يحسده كثيرون. إلا أنه، شأنه شأن كل الجيوش الحديثة فى العالم فى الوقت الراهن، يظل غير مجرب.

وبغض النظر عن الجيوبوليتيكا، لم تكن إسرائيل فى يوم من الأيام على ما هى عليه من استعداد للهجوم التقليدى. ومع ذلك فإن الإسرائيليين ـ والجنود الإسرائيليين ـ يشعرون بقدر أقل من الأمان.



قال عضو بهيئة الأركان العامة إن خوف إسرائيل من التعرض للخسائر ربما يؤدى إلى عكس ما هو مرجو. كما أوضح أن بعض التدريب قد اختصر بسبب هذا الاحتمال. وقال كذلك: «قد يؤدى هذا إلى أن نتحمل الكثير فى الأيام الأولى من المعركة. هناك ثمن لهذا. فإنك إن دربت أقل، فحينئذ تكون أقل استعداداً للحرب. وإذا كنت أقل استعداداً للحرب، فإنك تتعرض لخسائر أكثر».

ومع ذلك فإن قادة جيش الدفاع الإسرائيلى يعرفون تمام المعرفة أن جنودهم الآن، وكانوا كذلك على الدوام، أكثر حساسية، وأكثر شكاً، وأكثر إلحاحاً ـ وهو ما يشهد عليه نظامهم الغذائى.

فلتستمر إذن أيها المقاتل. ولتبك بكاء جيداً. ■

THE JERUSALEM POST, INTENET (EDITION, Feb. 18, 2000

ترجمة: أحمد محمود

في لحظة أدرك فانونو غباءه، فقد هجم عليه رجلان وضرباه على رأسه وألقياه على الأرض، ثم ربطاه من يديه وقدميه، ثم جاءت المرأة التي فتحت الباب وأعطت فانونو حقنة في ذراعه، فغاب عن الوعي

فانونو وامرأة الموساد

التحقيق الصحفي الذي كشف لأول مرة سر حيازة إسرائيل للأسلحة النووية

عبدالعظيم أنيس

أدرك خلال سنوات عمله أن الأجهزة الكيميائية الموجودة تحت الأرض - والتي ساعد في تركيبها - كانت تقوم بإعداد البلوتونيوم وهو مادة أساسية في صناعة القنبلة الذرية. ثم أدرك فيما بعد أن أجزاء من الأسلحة النووية كانت تصنع في غرف تحت الأرض

تعرض موردخاي فانونو لمصير مفزع؛ لأنه كشف أسرار الأسلحة النووية لدى إسرائيل، لصحيفة بريطانية هي «الصنداي تايمز»، ولمحررها بيتر هونام Peter Hounam، مؤلف هذا الكتاب.

ولقد قامت امرأة شقراء فاتنة تدعى سندي Cindy، بغواية فانونو، وأخذه من لندن إلى روما بحجة قضاء إجازة ممتعة سويا هناك، حيث قام عملاء الموساد بإفقاده الوعي بضربة على الرأس في شقة بالعاصمة الإيطالية، ثم حقنه بمادة مخدرة وتهريبه إلى إسرائيل على ظهر سفينة بضاعة.

وفي محاكمة مثيرة بالقدس، وجهت لفانونو تهمة الخيانة العظمى، وحكم عليه بالسجن ثمانية عشر عاما، ومازال فانونو في السجن رغم الحملة الدولية للإفراج عنه. هذه هي القصة المأساوية لرجل صحا ضميره (فانونو)، فقرر فضح كل ما يعرفه، ولامرأة جاسوسة حاولت أن تدمر فانونو، وللخداع السياسي الذي مازال مستمرا لإخفاء الدور الذي لعبته فرنسا وبلجيكا وجنوب أفريقيا ثم الولايات المتحدة لمساعدة إسرائيل في الحصول على أسرار المعرفة النووية وتوفير تكنولوجياتها.

The Woman From Mosad: The Torment of Mordechai Vanunu

(امرأة من الموساد: عذاب موردخاي فانونو)

Peter Hounam

Vision Paperbacks, 1999, 214pp., £9.99

■ يحكي مؤلف الكتاب بيتر هونام قصة صلته بموردخاي فانونو في أغسطس عام ١٩٨٦ قائلا: إنه وزملاءه في قسم التحقيقات في صحيفة «الصنداي تايمز» كانوا مشغولين بمناقشة قضية غريبة عن صحفي كولومبي يدعى «أوسكار جيريرو» قال لمحرري الصحيفة، إنه ساعد عالما ذريا من إسرائيل على الهرب، وأنه خبأه في سيدني باستراليا، وأن هذا العالم الذري الإسرائيلي لديه القصة الكاملة عن أسلحة إسرائيل النووية، وطبعا ساورت بيتر هونام وزملاءه الشكوك فيما إذا كانت قصة هذا الصحفي الكولومبي مزيفة من أولها لآخرها ومفبركة للحصول على مكافأة مالية ضخمة من «الصنداي تايمز»، وساعد على ذلك أن الصحيفة كانت قد وقعت في شرك مماثل، عندما اشترت منذ سنوات ما قيل إنه «يوميات هتلر»، ثم اتضح أن هذه اليوميات كانت مفبركة من أولها لآخرها.

وكدليل على جديته، قدم الصحفي الكولومبي أوسكار سبع صور فوتوغرافية أخذت داخل مفاعل ديمونا بإسرائيل وخارجه، وفي مركز البحوث النووية الإسرائيلية في صحراء النقب، وقال أوسكار: «إن هذا العالم الإسرائيلي يستطيع أن يبرهن أن لدى إسرائيل ليس فقط عددا من القنابل الذرية، وإنما استطاعت أيضا تطوير قنابل هيدروجينية».

ظهر أوسكار لأول مرة في مكتب الصحفي البريطاني «تيم براون» الذي يعمل لحساب الصنداي تايمز في مدريد، وبالطبع ساورته الشكوك عندما استمع إلى القصة. لكنه مع ذلك اتصل بقسم الشئون الخارجية في الجريدة، وأوضح لهم شكوكه وإن كان قد قال أن أوسكار يحمل معه صورا فوتوغرافية مثيرة. وهكذا قررت الصحيفة تكليف مراسلها في باريس (جون سواين) بالتحقق من القصة كلها. وطار سوين إلى مدريد، وأقام في الفندق الذي يقيم فيه الصحفي الكولومبي أوسكار، لكنه اكتشف صعوبة التحقق من كلام أوسكار في هذا الفندق بمدريد، فقرر إحضار أوسكار معه إلى لندن.

وهكذا وقعت على قسم التحقيقات في الصنداي تايمز مهمة التعامل مع أوسكار جيريرو، ولما كان بيتر هونام (مؤلف الكتاب) يتولى مسئولية هذا القسم تحت إشراف روبن مورجان، الذي كان شديد الشك في الموضوع برمته، فقد كان من الطبيعي أن يكلف بيتر هونام بسؤال أوسكار واستجوابه، خصوصا أنه (أي بيتر) حاصل على بكالوريوس في علم الفيزياء، ويقول بيتر هونام في الكتاب: «إن شكوكه في الأمر قد استمرت حتى بعد استجواب أوسكار، لكن الصور التي معه كانت تؤيد قصته».

وبالطبع دارت مناقشات مستفيضة بين المسئولين في الصحيفة، وانتهت إلى أنه ليس هناك ما يمكن عمله غير السفر إلى سيدني (استراليا) لمقابلة العالم الإسرائيلي «البروفيسور» موردخاي فانونو، واستجوابه للتحقق من صحة قصته.

وهكذا سافر بيتر هونام - ومعه أوسكار - إلى أستراليا يوم ٣٠ أغسطس، ونزلا في الهيلتون، وكان شعور بيتر هونام بعد حوار مطول مع أوسكار خلال رحلة الطائرة عن كيفية تعرفه على العالم الإسرائيلي، أن الموضوع مزيف، وبالتالي لم يتوقع هونام الشيء الكثير من مقابلة هذا العالم الإسرائيلي.

ولكن بعد وصولهما الفندق بساعة، اتصل أوسكار بهونام وطلب منه أن يحضر إلى غرفته لمقابلة «البروفيسور» فانونو، الذي حضر خصيصا لمقابلته. وبالطبع عندما دخل هونام الغرفة، توقع أن يرى رجلا عجوزا أبيض الشعر، لكنه فوجئ بشاب في الواحدة والثلاثين، يقف بجوار نافذة الغرفة، هو موردخاي فانونو. وعندما بدأ هونام يوجه أسئلة، أجاب فانونو في هدوء، واكتشف أن معظم ما قاله أوسكار عن فانونو هو من قبيل المبالغات، ولا يحتوي إلا على جزء ضئيل من الحقيقة. لقد عمل موردخاي حقا في مفاعل ديمونا، لكنه كان مجرد «فني» Technician، يساعد على تشغيل عملية فصل البلوتونيوم هناك. واعترف فانونو بوضوح أنه ليست لديه معرفة مفصلة بتصميم الأسلحة النووية، وإنما لديه ذاكرة قوية عن العمليات الكيميائية، وأنه قادر على أن يصف بالتفصيل الصور التي لدى أوسكار (وعددها سبع) والصور الخمسين التي في جعبته هو.

بعد استجواب فانونو، أصبحت المسألة لدى بيتر هونام هي كما يلي: هل لدى هذا الفني الإسرائيلي المتواضع قصة تثير الاهتمام؟ وهل هو يقول الحقيقة؟

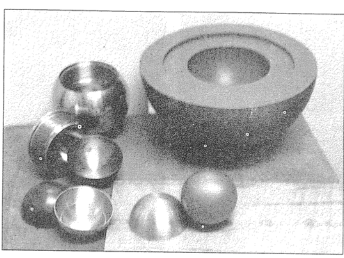
لقد تبين من هذا الحوار أن أوسكار وفانونو تقابلا لأول مرة في كنيسة سان جورج في سيدني، وكان موردخاي قد تحول إلى المسيحية، وأخبر مجموعة نقاشية في الكنيسة بما يحمله من أسرار، وسمع أوسكار بالموضوع، فاتصل بموردخاي فورا، موقنا أنه وقع على صيد ثمين.

ورغم إنجليزية موردخاي الضعيفة، إلا أنها كانت كافية لوصف العمليات الكيميائية المعقدة التي تجري في ديمونا. لكن الشيء المقنع في قصته هو استعداده للاعتراف بأنه لا يستطيع الإجابة عن كل الأسئلة الموجهة له، وذلك بسبب وضعه الوظيفي المتدني في مفاعل ديمونا.

وقد شرح موردخاي كيف أنه عين في نهاية عام ١٩٧٦، بمركز البحوث النووية للعمل في التطبيقات السلمية لهذه البحوث. وبعد تدريبه أرسل للعمل في ديمونا بمرتب جيد، وفرصة للدراسة، لكنه أدرك خلال سنوات عمله أن الأجهزة الكيميائية الموجودة



قبل انتقاله إلى الفندق الجديد، لاحظ فانونو امرأة شقراء فاتنة بالقرب من الفندق، فاقترب منها، وتحدث معها، ثم دعاها إلى فنجان قهوة فوافقت، ثم اتفقا على اللقاء فى اليوم التالى، وقالت الفاتنة إنها أمريكية وتدعى سندى



وعاء حفظ قلب البلوتونيوم للقنبلة الذرية

تحت الأرض - والتى ساعد فى تركيبها - كانت تقوم بإعداد البلوتونيوم وهو مادة أساسية فى صناعة القنبلة الذرية. ثم أدرك فيما بعد أن أجزاء من الأسلحة النووية كانت تصنع فى غرف تحت الأرض.

وقد التحق فانونو بالجامعة فى وقت فراغه لدراسة الفلسفة. وهناك اختلط بطلاب عرب، وبدأ يستمع إليهم: فأصبح أكثر قلقا مما يفعله فى ديمونا. وقال إنه قرر أن يتكلم عندما اكتشف أن إسرائيل لم تكن تصنع أسلحة ذرية فحسب، وإنما كانت تصنع قنبلة نيتروجينية، وقنبلة هيدروجينية أيضا بقدراتهما الهائلة فى الدمار.

وهكذا ترك فانونو ديمونا فى أكتوبر سنة ١٩٨٥، تحت ستار التخلص من العمالة الزائدة. وقد توافرت لديه نحو عشرة آلاف دولار كمكافأة نهاية الخدمة، ومن بيع سيارته وشقته، وسافر إلى أستراليا عن طريق اليونان وبلدان آسيوية أخرى، حاملا معه فيلمين أخذهما سرا فى ديمونا، ولم يقم بتحميضهما إلا فى سيدنى، وكانت الفكرة من أخذ هذه الصور الفوتوغرافية سرا، هى دعم روايته إن قرر أن يتكلم علنا.

رغم كل القصص المعقولة التى تحدث عنها فانونو، ظل بيتر هونام يفكر أن موردخاى قد يكون مدفوعا بهذه القصة لإيقاع «الصنداى تايمز» فى مصيدة. فهذه الصحيفة كانت فى وضع حرج جدا من قبل عندما اضطرت إلى الاعتراف بأن «يوميات هتلر» التى اشترتها للنشر كانت زائفة تماما.

لذا قامت «الصنداى تايمز» بإرسال أحد محرريها إلى إسرائيل للقاء أى أشخاص يعرفون فانونو للتحقق من صدق كلامه، بينما تولى محررون آخرون مهمة الاتصال بعلماء بريطانيين وإطلاعهم على التقارير التى كان هونام يرسلها من سيدنى عن استجواباته لفانونو، وذلك لتقدير ما إذا كان وصف موردخاى المفصل لعملية فصل البلوتونيوم صحيحة أم لا. وقد استطاع هونام أن يختلى بفانونو بعيدا عن الصحفى الكولومبى أوسكار، فإذ بفانونو يعترف أنه لم يعد سعيدا مع هذا الرجل أوسكار. وقال إنه قلق على أمنه، فالموساد يمكن أن تكون وراءه، وهو لا ينسى أن الموساد قتلت شابا مغربيا أمام زوجته الحامل، ظنا منها أنه واحد من رجال «أيلول الأسود»، ثم تبين أنه مغربى يعمل جرسونا فى أحد مطاعم النرويج.

حتى ذلك الوقت، لم يكن فانونو، ولا محررو «الصنداى تايمز»، يعرفون أن أوسكار جيريرو (كما كشف الصحفى الأمريكى لويس توسكانو فيما بعد)، كان على اتصال بالقنصل الإسرائيلى فى سيدنى. فوفق رواية توسكانو، اتصل أوسكار هاتفيا حوالى ١٢ أغسطس بالبعثة الإسرائيلية، ثم قابل أفى كليمان مسئول المخابرات الإسرائيلية فى مقهى مجاور، وقام أوسكار بحكاية قصة فانونو، وقدم اسمه الكامل ورقم جواز سفره. وهكذا وصلت القصة إلى الموساد، وبدأ الإعداد لاغتيال فانونو الذى كان يعمل سائق تاكسى فى سيدنى.

لقد قرر بيتر هونام أن يعود إلى لندن ومعه موردخاى فانونو تاركين أوسكار وراءهما فى سيدنى، ولم يتصوروا أنه سيلحق بهما على وجه السرعة.



عندما وصول بيتر هونام وصاحبه فانونو إلى لندن، اكتشف أن الصحفى البريطانى الذى أرسلته الصحيفة (ويدعى برانجيل) إلى تل أبيب، قد عاد بعد أن تأكد أن هناك فعلا شخصا اسمه موردخاى فانونو، تنطبق أوصافه على هذا الإسرائيلى الموجود فى لندن. ثم بدأ استجواب موردخاى عن طريق العالم البريطانى فرانك بيرنابى، وهو أحد العلماء البريطانيين الذين اشتركوا فى صناعة القنبلة الذرية، ثم استقال بعد ذلك، وتخصص فى أعمال السلام ومناهضة البحوث النووية الحربية.

ولقد عبر بيرنابى لرئيس تحرير «الصنداى تايمز» عن شكوكه فى قصة فانونو، ثم عاد بعد أيام ليقول إنه يعتقد أن فانونو صادق، وهو يستنتج من كلام فانونو أن إسرائيل لا تنتج أسلحة ذرية فقط، وإنما لديها إمكانيات لصناعة قنبلة هيدروجينية أيضا.

وقد بدأت صحيفة «الصنداى تايمز» فى اتخاذ إجراءات لحماية أمن فانونو إبان إقامته فى لندن، إذ أخذت تنقله من فندق لآخر، تجنبا لرصده فى أحد الفنادق، ثم قامت بتكليف أحد محرريها بمصاحبة فانونو خلال جولاته فى لندن. ففى يوم يصحبه برانجيل وفى يوم آخر تصحبه الصحفية الإنجليزية ويندى روبنز. وفى بعض هذه الجولات التقى فانونو ببعض الإسرائيليين الذين يعرفهم ويعرفونه، وظن أن هذا اللقاء كان بالصدفة، ثم تبين بعد ذلك أنه لم يكن كذلك، وإنما من ترتيبات الموساد، وكان هدف الموساد من ذلك هو محاولة إقناع فانونو بالعودة إلى إسرائيل.

وكانت مشكلة فانونو فى لندن هى إحساسه بالوحدة وبالكبت الجنسى وهو فى الحادية والثلاثين، حتى أنه اقترح على ويندى روبنز أن ينام معها، لكنها اعتذرت قائلة: إنها تريد أن تكون صديقة فحسب.

وبالطبع كان بيتر هونام قلقا من جولات فانونو فى لندن ومحاولاته التعرف على الناس على قارعة الطريق، حتى اضطرت الصحيفة إلى نقله إلى فندق فى كوفنت جاردى، وطلبت منه أن يعدها ألا يقول لأحد عن مكان إقامته.

لكنه قبل انتقاله إلى الفندق الجديد، لاحظ فانونو امرأة شقراء فاتنة بالقرب من الفندق، فاقترب منها، وتحدث معها، ثم دعاها إلى فنجان قهوة فوافقت، ثم اتفقا على اللقاء فى اليوم التالى، وقالت الفاتنة إنها أمريكية وتدعى سندى.



أعطى أوسكار جيريرو القنصل الإسرائيلى فى سيدنى كل أخبار فانونو يوم ١٠ أغسطس، وبذلك كان للموساد الوقت الكافى لتحريك عملائها فى الأماكن المناسبة.

وفى ٧ سبتمبر، كانت السلطات الإسرائيلية على علم بمناقشات فانونو مع «الصنداى تايمز»، فقد اتضح فيما بعد أن عميلين من «شيف بيت» زارا شقيق فانونو الأكبر «ألبرت» وسألاه عن مكان موردخاى، فقال إنه لا يدرى. عندئذ قال أحد العميلين: «إن موردخاى تحدث إلى صحيفة بريطانية عن عمله فى ديمونا، فإن اتصل أخوك بك قل له إنه يضع نفسه فى متاعب ضخمة بهذا الحديث». ثم طلبا من ألبرت أن يوقع على وثيقة تمنعه من الكلام فى هذا الموضوع وإلا تعرض لعقوبة السجن خمسة عشر عاما.

وكانت محاولة الموساد الأولى هى إقناع فانونو بالتراجع عن الحديث مع «الصنداى تايمز»، ولهذا دبرت هذا اللقاء الذى تم «بالصدفة» بين فانونو وبعض معارفه القدامى فى شارع ريجنت بلندن كمحاولة أخيرة لتراجع فانونو. فإذا فشلت هذه المحاولة، فالحل الباقى عند الموساد هو إزاحة موردخاى، وترك «الصنداى تايمز» فى حالة من الحيرة دون شاهدها الأساسى.

وكان على الموساد أن تعمل فى حرص بعد حادث آخر عصف بسمعة مخابرات إسرائيل منذ عامين. ففى عام ١٩٨٤، خُطف وزير نيجيرى سابق من أمام منزله فى بورشستر تراس، وكان هذا الوزير السابق عدوا لدودا للانقلاب الذى وقع فى نيجيريا. ولقد انتبهت سكوتلاند يارد للحادث وأرسلت تحذيرا إلى كل الموانئ والمطارات باحتمال تهريبه سرا إلى نيجيريا.

وفى المطار لاحظت سكوتلاند يارد صندوقين كبيرين يحملان على طائرة متجهة إلى لاجوس، فأسرعت سيارة الشرطة إلى مدرج الطائرة وأوقفتها، وبالتفتيش وجد الوزير السابق فى الصندوق الأول وهو فى غيبوبة ومقيد من يديه وقدميه، وبجانبه دكتور ليفى شابيرو الطبيب المختص فى التخدير وضابط الاحتياط فى الجيش الإسرائيلى. أما الصندوق الثانى فقد اختبأ فيه إسرائيليان آخران هما ألكسندر باراك وفيلكس أبيتول، وهما اللذان قاما بعملية الخطف. وقد اتضح أن باراك هو قائد المجموعة وقد حكم عليه فى أولد بيلى بالسجن ١٤ سنة، كما حكم على الآخرين بعشر سنوات لكل منهما. وقال القاضى ماكون إنه واثق أن العملية من تدبير الموساد.

لهذا، كان على الموساد أن تعمل فى حرص، ولذلك قررت أن تجرى عملية اختطاف فانونو بعيدا عن بريطانيا. ولهذا أيضا كانت «الصنداى تايمز» تسعى من جانبها لإخفاء فانونو على الأقل حتى يتم نشر تحقيقاتها عن الأسلحة النووية الإسرائيلية، فكانت تكثر - كما أسلفنا - من نقل فانونو من فندق لآخر، وكانت تنقله أحيانا من الفندق إلى مكان الجريدة فى حقيبة السيارة، عندما يكون مطلوبا للإجابة عن الاستجوابات الموجهة له. لكن فانونو لم يكن مطيعا دائما، فهو لم يوقع عقدا مع الصحيفة ولم يكن ملزما باتباع نصائحها، على أن الخطأ الأكبر الذى ارتكبته الجريدة بحسن نية، هو أن فانونو أقام فى لندن خلال زيارته.

وفى ٢٣ سبتمبر كانت الصحيفة جاهزة لنشر أقوال فانونو، وذهب محرران من الجريدة إلى السفارة الإسرائيلية فى لندن ومعهما خطاب من «الصنداى تايمز» يحتوى على أقوال فانونو المعدة للنشر طالبين من السفارة أن تعلق على هذه الأقوال. وقد وعد الملحق الصحفى بالسفارة بالرد فى اليوم التالى. وبالفعل أملى الملحق على الجريدة فى اليوم التالى تكذيبا لكل أقوال فانونو. واستعدت الصحيفة لنشر أقوال فانونو وتكذيب السفارة. كان فانونو فى مكاتب الصحيفة عندما وصل رد السفارة، وأعيد إلى فندق مونتباتان فى المساء. كان الجو دافئا وقرر فانونو التعرف على محيط الفندق الجديد.

ما حدث بعد ذلك عندما وقع موردخاى فى المصيدة، أصبح جزءا من أسراره، لكن اليوم اتضح أبعاد ما حدث. لقد أخذ يتطلع إلى المجلات المعروضة فى بعض المحلات

عندما لاحظ امرأة شقراء كثيفة المساحيق تنظر إليه، ثم تركت المكان الذى تقف فيه وذهبت إلى فاترينة محل مجاور، وذهب فانونو إليها، وقال: مرحبا.. هل أنت سائحة مثلى؟ ثم دعاها إلى فنجان قهوة. وفى الطريق عرف أنها أمريكية وأن اسمها سندى.

أما لماذا لم يشك فانونو فى أنها عميلة الموساد، فلأنه هو الذى حاول الاتصال بها، بينما كانت هى تبتعد عنه، فأى واحدة تحاول اصطياده لابد أن تبدأ الخطوة الأولى، هكذا فكر فانونو وكان خطاه ماساويا.

ولقد اتفقت سندى مع فانونو على زيارة متحف التيت Tate Gallery، فى اليوم التالى، وسعد فانونو بذلك. لكن فى هذا اليوم وصل ماكس برانجيل إلى الفندق ليخبر فانونو أنه مطلوب فى الصحيفة لاستجواب آخر، وكان فانونو مستاءً من كثرة الاستجوابات، وقال لبرانجيل إنه لابد من أن يعمل زيارة فى الطريق إلى الصحيفة، وذهبا سويا إلى المتحف وانتظر برانجيل عودة فانونو. وقد لاحظ أن سيدة شقراء كثيفة المساحيق تتحدث مع فانونو عند باب المتحف، وقال موردخاى عند عودته أنه اتفق معها على الذهاب إلى السينما الساعة السادسة.

وقد اعترف فانونو بعد ذلك أنه عندما سأل سندى عن الفندق الذى تقيم فيه، امتنعت عن الإجابة، وعندما سألته أين يقيم، اعترف لها أنه يقيم فى فندق مونتباتن تحت اسم مستعار (جورج فورستر)، وقال لها إن رقم غرفته ١٠٥، وطلب منها الحذر لأنه ليس من المفروض أن يخبر أحدا بكل ذلك.

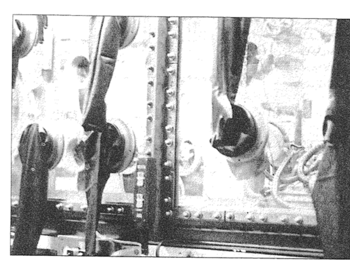
وفى اليوم التالى، بدأت الصحيفة تأخذ مسألة سندى باهتمام، ونبه بيتر هونام صديقه موردخاى فانونو إلى احتمال أن تكون عميلة للموساد، لكن فانونو استبعد ذلك. فاقترح عليه بيتر دعوته معها إلى العشاء فى منزله فى اليوم التالى، فوافق ثم اعتذر بعد ذلك لأنه هو وسندى مرتبطان بموعد آخر، واتفق مع هونام على قبول الدعوة يوم الثلاثاء.

وبعد الظهر اتصل فانونو ببيتر هونام ليخبره أن خططه للسفر خارج لندن هو وسندى قد اكتملت، وأنه لن يتراجع، وأنه سوف يعود بعد ثلاثة أيام، ليوقع عقد الصنداى تايمز. وقد طلب منه هونام أن يتصل به مرتين يوميا فى مكتبه أو فى منزله فوافق على ذلك.

وفى اليوم التالى، حزم فانونو أمتعته وغادر الفندق واختفى، وكان تحقيق فانونو جاهزا للنشر، لكن قسم التحقيقات فى «الصنداى تايمز» كان فى قمة القلق لاختفاء الشاهد الأساسى. ثم جاءت أنباء من إسرائيل تقول إن رئيس الوزراء شيمون بيريز، اجتمع برؤساء تحرير الصحف الإسرائيلية، وأخبرهم أن قضية أساسية تتعلق بإسرائيل سوف تنشر فى «الصنداى تايمز»، ورجاهم باسم الأمن القومى أن يتعاونوا معه فى محاصرة الضرر المترتب على النشر.

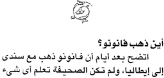
وفى اجتماع بمقر صحيفة «الصنداى تايمز» ضم كل محررى الجريدة، نوقش من جديد موضوع نشر التحقيق، وكانت الأغلبية تحبذ التأجيل إلى أن يظهر فانونو، لكن بيتر هونام عارض التأجيل، وقال إن موقف شيمون بيريز يثبت أن «الصنداى تايمز» إزاء خبطة صحفية كبيرة، وأنه إذا ثبت أن فانونو قد خطف كما هو محتمل، فمعنى هذا تأجيل النشر إلى أجل غير مسمى. وفى النهاية قرر رئيس التحرير

إن فكرة خطف فانونو بعيدا عن بريطانيا كان مقصودا بها عدم إحراج مارجريت تاتشر صديقة إسرائيل الحميمة



نموذج لطراز القنبلة الذرية الإسرائيلية

النشر فورا ونظر إلى هونام وقال: يحسن أن يكون رأيك صحيحا!!



أين ذهب فانونو؟

اتضح بعد أيام أن فانونو ذهب مع سندى إلى إيطاليا، ولم تكن الصحيفة تعلم أى شىء عن سندى.. أين تقيم؟ وما اسمها الحقيقى؟

وفى ٢٨ سبتمبر، استطاعت الصحيفة أن تعرف من تحرياتها أن سندى اشترت تذكرة سفر إلى روما، وبدأت تلح على فانونو لمرافقتها، وقالت إنها لن تشعر بانجذاب إليه وهو فى حالة القلق التى يمر بها، وأن الذهاب إلى روما سيجعله فى حالة أفضل. وادعت أن لها أختا فى روما لديها شقة جميلة وأنه فى هذا المناخ يمكن أن تزدهر علاقتهما، وفى الوقت نفسه، فقد اعتذرت عن أى علاقة جنسية معه فى الوقت الراهن، ولتسهيل الأمور عليه، اشترت تذكرة سفر أخرى على الخطوط الجوية البريطانية وقالت له إنه يمكنه السداد فيما بعد.

إن فكرة خطف فانونو بعيدا عن بريطانيا كان مقصودا بها عدم إحراج مارجريت تاتشر صديقة إسرائيل الحميمة.

أما ما حدث عندما وصل فانونو إلى روما، فقد ظل سرا غامضا لم يعرف محررو «الصنداى تايمز» تفاصيله إلا فيما بعد. فعند الوصول إلى روما، وجد فانونو صديقا لأخت سندى فى انتظارهما فى المطار، ثم ذهبت السيارة بالثلاثة إلى شقة من الشقق فى ضاحية نائية، وقد فتحت الباب لهم امرأة ذات شعر أسود. وفى لحظة أدرك فانونو غباءه، فقد هجم عليه رجلان وضرباه على رأسه وألقياه على الأرض، ثم ربطاه من يديه وقدميه، ثم جاءت المرأة التى فتحت الباب وأعطت فانونو حقنة فى ذراعه، فغاب عن الوعى.

وعندما استيقظ، أعطى حقنة أخرى، ونقل فى سيارة إلى مكان بعيد، حيث كانت سفينة شحن فى انتظاره فى المياه الدولية، نقل إليها بواسطة يخت، وعاد فانونو إلى وعيه وهو فى الطريق إلى إسرائيل، وخلال ساعات كان فى غرفة مظلمة فى مقر الموساد بتل أبيب.

وأخيرا، فتح باب الغرفة ودخل رجل ألقى بنسخة من «الصنداى تايمز»، وعلى صفحتها الأولى قصة فانونو كما رواها، وصورة مفاعل ديمونا فى وجهه وقال: «انظر إلى الدمار الذى صنعته».

والغريب أن فانونو ظل يعتقد فى براءة سندى حتى بعد أن أفلحت تحريات «الصنداى تايمز» فى نشر صورتها وكشف شخصيتها الحقيقية، وظل يعاند ويقول: «لقد أخطأتم الاختيار، لكنه فى الحقيقة كان خجلا من أن يعترف أنه مخطئ إلى درجة الغباء».



مطاردة سندى..

كان أول عمل لدى الصحيفة بعد نشر التحقيق، هو اكتشاف ما إذا كان فانونو قد تعرض لأى أذى.. لقد اختفى منذ صباح ٣٠ سبتمبر، وكان قد وعد بيتر هونام أن يتصل به مرتين يوميا خلال سفره خارج لندن، لكنه لم يفعل. وفى أواخر أكتوبر بدأت تنتشر شائعات أن فانونو عاد إلى إسرائيل قسرا، وأرسلت الصحيفة واحدا من محرريها إلى إسرائيل للتحقق من هذه الشائعات. وبدأت ضغوط دولية من جانب بريطانيا وأستراليا وفى إسرائيل لمعرفة الحقيقة، وطلب نائب بريطانى فى مجلس العموم وقف أعمال المجلس لمناقشة موضوع خطف فانونو.

عندئذ اضطر رئيس الوزراء شيمون بيريز إلى إصدار بيان يعترف فيه أن فانونو مقبوض عليه فى إسرائيل، ونفى بيريز أن يكون قد خطف من بريطانيا.

بقى السؤال المهم: كيف أعيد فانونو إلى إسرائيل؟

لقد ظل هذا لغزا حتى ٢٢ ديسمبر، عندما أُخذ فانونو لثانى جلسة من جلسات محاكمته التى جرت سرا، وعندما اقتربت السيارة من باب المحكمة، فتح فانونو يده أمام زجاج السيارة للصحفيين، وكان مكتوبا عليها بالحبر الأسود: «فانونو اختطف فى روما فى ٣٠/٩/٨٦، وقد حضر إلى روما على الرحلة البريطانية رقم ٥٠٤».

أخذت «الصنداى تايمز» تبحث عن الاسم الذى استعملته سندى عند شراء التذاكر، وقد تبين أن فانونو شغل المقعد 6F، بينما شغلت الآنسة هانين C. Hanin المقعد المجاور له. وبدأ بيتر هونام يعتقد أنه لابد أن تكون هناك سيدة حقيقية تدعى سندى هانين، تقمصت امرأة الموساد شخصيتها. وبعد بحوث واسعة فى أمريكا وبريطانيا وإسرائيل، عثرت «الصنداى تايمز» على سيدة يهودية أمريكية تقيم فى فلوريدا تدعى سندى هانين، وعرفت عنوانها فى فلوريدا، كما تبين أنها عملت فى صالون تجميل لمدة ثلاث سنوات، وكانت هذه المعلومة لافتة للنظر: لأن صديقة فانونو ادعت هى أيضا أنها عملت فى صالون تجميل.

لقد اتضح بسرعة أن سندى المقيمة فى فلوريدا لا يمكن أن تكون قد اشتركت فى خطف فانونو: لأنها فى نفس الفترة كانت مشغولة بالاستعداد لزواجها من راندى هانين.

لكن تبين أن لراندى هذا شقيقة أكبر تدعى شيرل Cheryl، ومن خلال البحث تبين أن لهذه العائلة اتصالات إسرائيلية.

إن شيرل ذات الشعر الرملى والخدود البارزة تشبه سندى التى عرفها فانونو إلى حد كبير، وهى تعيش الآن فى إسرائيل، ومتزوجة من نقيب سابق فى المخابرات العسكرية الإسرائيلية. لقد بدأت شيرل حياتها فى أورلندو، وقال عنها نائب مدير المدرسة هناك، إنه يتذكرها كطالبة مجتهدة وهادئة. وفى سن السابعة عشرة، بدأ والدها ستانلى وأمها راشيل إجراءات الطلاق، وطالبت الأم بحضانة الأطفال الثلاثة: شيرل وراندى وأختهما الصغيرة بينى Penny.

فى هذا الجو العائلى المتوتر، قررت شيرل أن تستفيد من عرض فى مدرستها بقضاء تيرم يدرس فى إسرائيل، وأحبت التجربة، وعندما عادت إلى فلوريدا وجدت أمها مشغولة بنشاطات الكنيسة. وهكذا عادت شيرل إلى إسرائيل عام ١٩٧٨، وتطوعت فى الجيش الإسرائيلى، وفى مارس ١٩٨٥، تزوجت من زوجها بنتو Bentoo.

إن التحقيقات المفصلة التى أجرتها «الصنداى تايمز» عن عائلة هانين Hanin فى فلوريدا، جعلت من الممكن أن تكون شيرل هى المرأة التى غوت فانونو، وعندما حصلت الصحيفة على صور لها بوجهها المستدير وخدودها البارزة عظامها، أعطت هذه الصور



حديث عيسى بن هشام
محمد المويلحى

محمد المويلحى (- ١٩٣٠)

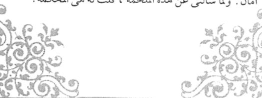
محمد المويلحى هو ابن إبراهيم المويلحى السياسى والصحفى والكاتب المصرى الذى كان من أهم رموز مصر الثقافية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. ولا تعرف سنة مولده بالضبط. وكان والده قد غادر مصر مصاحبا للخديو إسماعيل عام ١٨٧٩ بعد عزله من الحكم لكن محمدا ظل فى مصر وعاصر أحداث الثورة العرابية، وحكم عليه بالإعدام لتوزيع مقالات والده ثم خفف الحكم بالنفى إلى إيطاليا ليلحق بأبيه هناك. عاد إلى مصر عام ١٨٨٧، فكتب فى «المقطم» وانضم لصالون الأميرة نازلى ابنة أخت الخديو إسماعيل، وعندما رجع والده إلى مصر عام ١٨٩٥ أسسا معا صحيفة «مصباح الشرق». أشهر أعماله الأدبية «حديث عيسى بن هشام»، و«علاج النفس».

توفى محمد المويلحى فى ٢٨ فبراير ١٩٣٠.

(١)
المحكمة الأهلية

قال عيسى بن هشام: ولما حل يوم الجلسة رافقت الباشا إلى المحكمة فوجدنا فى ساحتها أقواما ذوى وجوه مكفهرة، وألوان مصفرة، وأنفاس مقطوعة، وأكف مرفوعة. وشاهدنا باطلا يذكر، وحقا ينكر، وشاكيا يتوعد، وجانيا يتودد، وشاهدا يتردد، وجنديا يتهدد، وحاجبا يستبد، ومحاميا يستعد، وأمًّا تنوح، وطفلا يصيح، وفتاة تتلهف، وشيخا يتأفف، وسمعنا ألفاظا متناقضة، وأقوالا متعارضة، ورأينا المحامين عن الخصمين يشحذ كل منهما لسانه، ويقدح جنانه، استعدادا للنزال، فى ميادين المقال، وتأهبا للدفاع فى مواقف النزاع.

فانزويت بصاحبى، ومحامينا بجانبى، يذكر لنا «أصولا مرعية» و«مسائل فرعية»، وظروفا وأحوالا، وشروحا وأقوالا، ومواد وفقرات، فى الجنح والمخالفات. ثم يتصفح محاضره، ويقلب دفاتره، ويقسم لنا بوكيد الأيمان، أن الباشا من تهمته فى أمان. ولما سألنى عن هذه الملحمة، قلت له هى المحكمة.





جاءت أنباء من إسرائيل تقول: إن رئيس الوزراء شيمون بيريز، اجتمع برؤساء تحرير الصحف الإسرائيلية، وأخبرهم أن قضية أساسية تتعلق بإسرائيل سوف تنشر فى «الصنداى تايمز»، ورجاهم باسم الأمن القومى أن يتعاونوا معه فى محاصرة الضرر المترتب على النشر

لاثنين من محرريها كانا قد رأيا سندى مع فانونو من قبل، وطلبت منهما أن يدرسا الصور بدقة. وقد أكد الاثنان أن هذه هى نفس المرأة التى رأياها مع فانونو.

لقد حان الوقت إذن لأن يقوم بيتر هونام بزيارتها ومواجهتها فى إسرائيل!

لقد أوضحت التحقيقات الصحفية عنوان شيرل وزوجها كما يلى: شارع شتروف، ناتانيا وهى مدينة ساحلية على بعد ٣٢ كيلومترا من تل أبيب.

وسافر بيتر هونام مصحوبا بزميله دافيد كوينت إلى إسرائيل، وحجزا غرفة فى فندق فى ناتانيا كسائحين، وعندما وصلا إلى عنوان المنزل لم يجدا أحدا فيه، ثم وصل الزوجان. وعندما اقترب الصحفيان البريطانيان من باب المسكن وجدا شيرل مع سيدة عجوز يتمتعان بالشمس فى الحديقة الخلفية.

ودقا جرس الباب، وفتحت شيرل الباب وقالت: «ماذا يمكن أن أفعل لكما؟»

قال بيتر هانوم: نحن من «الصنداى تايمز»، نحن نبحث عن موضوع هنا. هل يمكن أن ندخل؟

وللحظة بدأت خدودها فى الاحمرار، إذ أدركت معنى وقوف صحفيى «الصنداى تايمز» أمامها. لكنها قالت: تفضلا، ثم قادت الطريق إلى غرفة الجلوس، وذهبت شيرل وأحضرت أمها.

قال بيتر هانوم: إننى واحد من الذين أحضروا موردخاى فانونو إلى بريطانيا من أستراليا. والقصة كلها منشورة فى الصحف الإسرائيلية، ولابد أنك تعرفينها، لأن فانونو الآن فى السجن.

- نعم.

- نحن مهتمون جدا أن نعرف من هى المرأة التى تدعى سندى التى أحضرت فانونو إلى إسرائيل.

قالت: هل هناك امرأة بهذا الشكل؟

قال بيتر هانوم: نعم أنت هى تلك المرأة. لقد تأكدنا من ذلك دون أدنى شك. ومن الواضح أنك تعملين لحساب المخابرات الإسرائيلية، وزوجك كان على صلة بنفس الأجهزة.. إننى مهتم بحقيقة...

قالت: هل أنت تدعى أن زوجى على صلة بالاستخبارات الإسرائيلية؟

قال: طبعا.

قالت: ماذا تريد أن تحصل عليه من كل ذلك؟

قال: من الأشياء ذات المغزى، استخدامك لاسم سندى وتبنيك لشخصيتها.

قالت: إن اسمى ليس سندى.

قال: نعم هذا اسم زوجة أخيك.

قالت: أنتم تعرفون كل شىء عن عائلتى.

وارتفعت الأصوات وقال بيتر هونام لها: إنك لم تنكرى خلال كل الحديث أنك سندى.

قالت: أنكر ذلك، أنكر ذلك..

ثم قامت، وكان من الواضح أن الحديث انتهى، وبسرعة أخذ هونام بعض الصور لها قبل أن تعترض، وفى المساء اتصل الصحفيان البريطانيان بزوجها فى المنزل هاتفيا، وشرحا له ما حدث فى الصباح، وسألاه إن كان من الممكن توجيه بعض الأسئلة له، فرفض وهدد بإبلاغ البوليس إن عادا إلى المنزل لمضايقة زوجته.

وقد حاولت «الصنداى تايمز» مقابلة ستانلى هانين (والد شيرل) فى فلوريدا، لكنه رفض وادعى أنه لم ير ابنته منذ سنين، فلما قال بيتر هونام له إنه على علم بأنه رآها فى حفل زواج نجله راندى منذ عام، ثار وقال: لا أريد أن أقحم نفسى فى هذه الموضوعات.



كل الأشياء كانت تؤكد أن شيرل هى التى اشتركت فى خطف فانونو، ومع ذلك ظل هونام يقول لنفسه، إن المرأة التى رآها فى ناتانيا ليست شقراء، ولم تكن كثيفة المساحيق، كما كانت سندى فى لندن، وهذا ما جعله يقول لنفسه إنه ربما كان فى حاجة لمزيد من الأدلة، ثم تبين له بعد البحث أن هناك امرأة تدعى شيرل هانين، اقامت فى فندق Eccleston، بلندن، فى نفس فترة خطف فانونو، وعلى استمارة التسجيل عنوانها فى فلوريدا، وهو نفس عنوان عائلة هانين هناك.

وهكذا جرى التأكيد نهائيا على أن شيرل هى المرأة التى أغوت فانونو وساهمت فى خطفه إلى إسرائيل.

ثم بدأ السؤال الأخير:

هل كانت شيرل تعمل لحساب الموساد فقط، أم أنها كانت تعمل لحساب المخابرات الأمريكية أيضا؟

لقد نشرت صحيفة «الصنداى تايمز» صورا مختلفة لشيرل، باعتبارها عميلة للموساد التى اشتركت فى خطف فانونو، ثم اعترفت الصحف الإسرائيلية بالحقيقة، ونشرت صورة شيرل كبطلة من بطلات إسرائيل، وتحدثت عن دورها فى الموساد، الذى انتهى بالطبع بعد عملية فضحها. ■

مـــــــــــوزار المصـــــــــرى ..

أو

النـــوم فى ســـرير جـــوته

مـرفـت عـبـدالنـاصـر

■■ منذ عام تقريبا دعيت لمؤتمر فى مدينة الجبال والجليد «انزبروك».. تلك العاصمة الساحرة لمنطقة التيرول النمساوية للمشاركة بمحاضرة عن الدور الذى تلعبه «الثقافة» فى تشكيل السلوك والاضطراب النفسى.. ومقرر هذا المؤتمر الذى وجه إلىّ الدعوة، هو رئيس لقسم الطب النفسى فى جامعة انزبروك، غير أنه الآن فى إجازة دراسية يبحث فيها عن الأسباب التى أدت إلى انتشار التعصب العرقى وظهور النازية الجديدة فى أوروبا!

كان كريما للغاية معنا.. فلقد مكثنا فى أقدم وأجمل فندق فى انزبروك، الفندق الذى أقام فيه موزار وجوته وشيلر وسارتر وكامى وغيرهم.. ولاشك أن جاذبية هذا الفندق بالنسبة للعالم كله تكمن فى استضافته لتلك الأسماء اللامعة التى أثرت بإبداعاتها العقل الإنسانى، وجميع الغرف مسماة بأسماء هؤلاء النزلاء العظماء الذين مكثوا فى هذا الفندق خلال القرنين الماضيين.

ومازلت حتى الآن أحكى وأتباهى بشرف إقامتى فى تلك الغرفة التى نام يوما فى سريرها جوته نفسه! وكم كان هذا الأمر رائعا بالنسبة لى وفالا حسنا! فمحاضرتى التى أشارك بها فى هذا المؤتمر تبدأ بصورة هذا الشاعر العبقرى وبعض من كلماته.. هذا الشاعر الذى تساءل منذ حوالى مائتى عام عن الأسباب التى تجعل الغرب يحلو له أن ينظر إلى الشرق على أنه يمثل دائما «الآخر».. المتخلف والمختلف! مؤكدا أنه برغم تلك النظرة السلبية فإن هناك التحاما إنسانيا بين الشرق والغرب لايمكن بأى حال فصله أو تجاهله..

إلى أن جاء من بعده الشاعر الإنجليزى «كبلنج» ليهدم هذا التقارب تماما ويصر - من موقف يعرفه الجميع بأنه عنصرى - أن الشرق شرق والغرب غرب، وليس من الممكن أن تكون الحضارة الغربية الراقية البيضاء قد تأثرت من قريب أو بعيد بأى من الحضارات ذات البشرة غير البيضاء!

ماعلينا.. ولكن ما علاقة كل هذا بموزار ومصر وهذا المقال!

تأتى هذه العلاقة من طبيعة الهدية التى أهديتها لزميلى النمساوى القائم على تنظيم هذا المؤتمر وهى عبارة عن أسطوانة من الليزر تحمل عنوان هذا المقال.. «موزار المصرى» وهى بدون شك عمل جرئ، وتجربة شيقة قام بها مائة وخمسون موسيقيا من هؤلاء المبدعين الذين تفرزهم مصر يوما بعد آخر، تلك الأرض التى لاتكف أبدا عن العطاء..

وكما تقول كلمات غلاف الأسطوانة، أن هذا العمل محاولة جديدة لتوزيع موسيقانا توزيعا «موزاريا» يدمج «عمودية» الموسيقى الغربية مع «أفقية» الموسيقى الشرقية، ومن أجمل ما حوته هذه الأسطوانة مرثية تمس القلوب تتغنى بها طفلة عمرها ثمانى سنوات تغنى كلماتها بالقبطية ويقال إنها نفس المرثية التى كانت تصاحب طقوس التحنيط فى مصر القديمة.

أعجب زميلى النمساوى بالهدية وسألنى بدهشة ولكن موزار لم يذهب إلى مصر أبدا! فقلت له: نعم هذا صحيح، ولكن مصر كانت الإلهام لعمله الرائع «الناى السحرى» لدرجة أن هناك مدارس تصنف التاريخ المصرى القديم إلى ماقبل الناى السحرى (والتى اتسمت بنظريات تنكر على المصريين صناعة تلك الحضارة وتقلل من دورها فى صنع الحضارة الإنسانية) وفترة مابعد الناى السحرى (والتى اضطر العالم فيها أن يعترف لحد ما بأفضال مصر القديمة).

ولكن كيف تعرف موزار على تلك المنابع المصرية؟ والإجابة فى «بومبى» تلك المدينة الرومانية التى قضى عليها بركان فيزوف عام ٧٩ بعد الميلاد فحول تلك المدينة الجميلة إلى أطلال ورماد.. وبقايا تلك المدينة تحكى عن عظمة وجمال معبد النور والحكمة فيها.. وهو معبد إيزيس الذى كان يقام فيه يوميا احتفال راقص وقت الأصيل..



ولقد كان معبد إيزيس فى بومبى فى الحقيقة «الماكيت» الذى استخدمه موزار فى بناء معبد الحكمة فى أوبراه الشهيرة والذى تدور حوله أحداث نايه السحرى.. فقصة الناى السحرى هى قصة أمير أراد يوما أن يدخل معبد الحكمة لأنه يعرف أن حبيبته تعيش هناك! ويذهب الأمير بالفعل إلى المعبد حيث يستوقفه الكاهن الأكبر قائلا:

لايدخل هنا إلا أصحاب القلوب النظيفة
فنور الحكمة لايعرف عتمة القلوب
لاتدخل هنا أرواح جريحة
لايدخل معبدنا سوى نور النهار

فيتساءل الأمير قائلا: وهل يكفى الحب؟

ويرد الكاهن الأكبر: نعم.. فالحب يطهر القلوب..

خذ هذا الناى، نغماته سوف ترعاك وملكة الظلام تكره موسيقاه، فى ذلك اليوم الذى تتغلب فيه على كل العقبات التى حتما ستضعها فى طريقك، ستكون بالفعل جديرا بأن تدخل هذا المعبد، معبد الحكمة.

وقبل أن أتناول «مصرية» معبد النور الذى تسكنه الحكمة، أرجو أن أناقش تلك العلاقة القديمة بين النور والموسيقى. وهى أيضا فكرة مصرية أصيلة بدت لنا واضحة فى شخص «حتحور».. ربة الموسيقى والحب والجمال وهى التى ارتبط اسمها بالآلة الموسيقية التى تسمى «السيسترام». والسيسترام آلة بسيطة قد تشبه الشخشيخة. كانت فى بداية تكوينها مجرد حزمة من أعواد البردى يلوح بها فى الهواء فتصدر أصواتا رقيقة النغم! ولكن السيسترام كآلة موسيقية تحمل بالرغم من بدائيتها الظاهرة عمق تلك العلاقة الكامنة بين الموسيقى والنور والتنوير..

فلقد اعتقد المصرى القديم بفطرته أن الموسيقى تملك القدرة على تطهير النفس من الشرور والتعالى بها فوق الحقد والكراهية وربما فوق كل النقائص البشرية، ولهذا ارتبطت الموسيقى بالصلوات وأصبح النغم أقصر الطرق المتاحة للبشر للوصول إلى مراتب الإنسانية والترقى بها تدريجيا للوصول بالنفس إلى الحكمة..



ومن هنا كانت الموسيقى هى الكاهن الحقيقى فى أى معبد مصرى، فهى بالفعل أداة الكاهن التنويرية وجعبة دوائه التى يعطى من سحرها جرعات الحكمة، ولهذا فإن معبد الحكمة.. معبد النور والموسيقى معبد مصرى فى الصميم، تجسدت فكرته أكثر وأكثر فى معبد الشمس الأخناتونى والذى صمم بشكل يختلف عن كل المعابد المصرية التى سبقته. فمعبد العمارنة الأخناتونى صمم تصميما خاصا يجعل البناء نفسه يمتزج مع الفضاء الخارجى لكى يسمح لنور الشمس بالدخول فى أى وقت تريد!

هل هى الصدفة ياترى التى جعلت الاسم الأول لموزار: «أماديوس» يحمل نفس معنى أخناتون.. من يحبه الرب أو من تحبه السماء؟

وها هو أخناتون يتغنى بهذا النور.. فى شخص قرص الشمس آتون

عندما تسافر يا آتون فى السماء
ويأتى الغروب
ننتظر ساعات الليل فى سكون الصمت
حتى يأتى الشروق
وتنير مرة أخرى الوجود
عندما تشرق فى هذا الأفق
ترفرف الطيور
وترقص الغزلان
إن مصر تستيقظ كل صباح
فى عيد..
لتقف عند قدميك وتستحم بنورك

أحب أخناتون الضوء شعرا.. وأحب موزار الضوء موسيقى

ومازال الإنسان فى كل مكان يعشق الضوء مثلهما.. حبا يضئ قلب الإنسانية ويجعلها فى وسط أى ظلام على يقين تام بأن «الضوء مسيره لوحده حا يطلع»!! ■

الخيول العربية .. فتنة الأمراء



■■ من أجمل قصص السيرة الهلالية، قصة فرس «العقيلي جابر» التى اضطر أبوزيد الهلالى أن يخوض معركة عنيفة من أجل الفوز بها وفاء لعهد قطعه على نفسه.

تتحدث القصة عن جمال ورشاقة الفرس. فهى شقراء ذهبية اللون وفى جبهتها بياض يسيل فى خط أشبه بالغدير، وفى ثلاث أرجل حجل أبيض. أما الذيل فكان كثيف الشعر، مرفوعا دائما فى زهو.

ولشدة ذكاء الفرس وحيويتها فى النزال والطعان. تفردت بين سائر القبائل العربية وذاع صيتها.. وكان صاحبها غيورا عليها.. يكرمها كل الكرم فى الطعام والرعاية ويضع على حراستها ستة من العبيد الفوارس طوال الليل وأثناء النهار فلايجرؤ أحد على الاقتراب منها.. ذلك بخلاف أن العقيلي جابر نفسه كان من فرسان العرب المشهورين بالشراسة وشدة البأس.

وتقول القصة إن امرأة من كريمات القبائل العربية ذهبت لأبوزيد الهلالى تخاطب شهامته وترجو نخوته فى أن ينقذ ابنها من الكرب والهم. فقد أحب فتاة رائعة الحسن، كاملة الأدب.. أخذت بمجامع قلبه، وعندما طلبها للزواج، صدم بالمهر فوالد الفتاة طلب فرس «العقيلى جابر» فقط مهرا لها.

وهكذا أصاب الهم والكرب الفتى.. وهكذا ذهبت والدته تستعطف «أبوزيد الهلالى» ليفك كربه. فقطع الهلالى عهدا للأم بأن يأتى لها بفرس «العقيلى جابر» مهما كانت الأهوال.. وقد أطنب الرواة بأصواتهم الشجية فى وصف المحن التى خاض فيها بطل السيرة الهلالية حتى تمكن من اقتناص الفرس الشقراء وأوفى بالوعد الذى قطعه على نفسه.

أحب الناس الحصان العربى على مر العصور، لأنه كائن جميل، رشيق متناسق الأعضاء، قوى، يقظ، حساس، شديد الذكاء، يتعلم بسرعة ولاينسى أبدا ما يتعلمه من تدريبات وحركات.

وصفت الليدى «وينتورث ـ Lady went-worth»، وهى من المعدودات معرفةً بالحصان العربى الأصيل، جمالياته فى الكلمات الآتية «الحصان العربى سلالة قوية، نبيلة، مسيطرة، تتميز بالعظمة والشموخ، وإذا تاملت الحصان تجد طلعته أرستقراطية وأذنيه مضمومتين وعينيه واسعتين كحيلتين ورقبته فى إنثناء دليل العزة وجبهته مقوسة ومنخاره كبيرا وصدره عريضا أما ظهره فقصير وبه استدارة تستمر مع الكفل الذى ينتهى بالذيل المرفوع على الدوام كلما خرج الحصان من مربطه إلى الهواء الطلق. أما قوائم الحصان العربى فهى رفيعة طويلة وشعر الرأس والذيل فى منتهى النعومة والكثافة».

والحصان العربى من أقدم سلالات الخيول فى العالم، ويصل عدد الخيول العربية الأصيلة حاليا إلى نصف مليون حصان تعيش فى ٦٩ دولة حسب ما جاء فى

Encyclopedia of the Horse

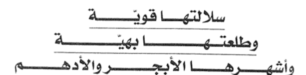
(موسوعة الخيل)

Edited by Elwyn Hatley Edwards

Octopus Books - London, 1999 Edition

.. وإلهام الشعراء!

عمرو كمال حمودة



سجلات «المنظمة العالمية للخيول العربية الأصيلة» المعروفة باسم «الواهو» والتى تعتنى بتسجيل أنساب وأسماء جميع الخيول العربية فى أنحاء العالم، كما تعقد مؤتمرا سنويا له صبغة أكاديمية لمتابعة الموضوعات الخاصة بالمحافظة على نقاء دماء الخيول العربية ووسائل تطوير تربيتها.

ويحدثنا التاريخ أن أصل الخيل العربية كان «اليمن» وعندما انهار سد مأرب هاجرت خيل اليمن إلى شمال الجزيرة العربية، ومات عدد كبير منها بسبب قسوة الطريق والعطش والجوع. وبقيت من بينها على قيد الحياة خمس خيول فقط. وجدها بعض البدو فامسكوا بها وأطلقوا عليها الأسماء الآتية:

هدبان * دهمان * عبيان * كحيلان * صقلاوى.

هذه الأسماء تحولت إلى أرسان (الرسن هو النوع من السلالة) تنتسب إليها كافة الخيول العربية.

وقد حرصت شعوب كثيرة على استجلاب خيول عربية إليها من أجل تحسين سلالة الخيل عندها.

* فمن خلال الرحالة الإيطالى «ماركوبولو» عرفنا أن الخيل العربية دخلت الهند عام ١٢٩٠. كان التجار الهنود يبتاعونها من ساحل عمان عند مضيق هرمز بأسعار زهيدة ثم تنقل إلى «مدراس Medras»، حيث تباع بأثمان مرتفعة، فتتحقق للتجار أرباح كبيرة لعظم الطلب على تلك الخيول من مهراجات وسلاطين الهند.

ويحكى «ماركوبولو» أنه فى عام ١٣٥٠ قام السلطان الهندى «علاء الدين» بتوزيع خمسمائة حصان عربى أصيل كهدايا على المدعوين فى حفل زفاف نجله الأكبر، مما يعكس مدى تقدير أثرياء المجتمع للحصان العربى.

وعند مطالعة الرسوم والمنمنمات الهندية نعرف مدى تعلق أمراء المغول بالخيل العربية، فقد استجلبوا منها الكثير، وهناك لوحة مشهورة فى غاية الجمال للإمبراطور «شاه جيهان» رسمت عام ١٦٢٨، تظهر الإمبراطور ممتطيا صهوة جواد عربى أصيل آية فى الرشاقة والتناسق.

كما اهتم الهولنديون بتربية الخيول ولهم شهرة فى حسن انتخاب السلالات، وساعدهم توفر المراعى وانتشار الزراعة، ونجحوا فى تهجين سلالة ممتازة هى «الفيلكوبولسكى Wielkopolsky»، وهو حصان جميل الطلعة ويعد مفخرة للبولنديين وهو خليط من الحصان العربى وحصان «التراخنر» الليتوانى والحصان «الثوروبريد» الإنجليزى.

وقد تعرضت أنساب الخيل البولندية لفقدان المصداقية عدة مرات بسبب ضياع أو تلف السجلات الخاصة بذلك خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، وبذلت جهود كبيرة استغرقت سنوات طوالا حتى نشأت سجلات جديدة موثقة.

ونعرف عن مربين بولنديين يقيمون مزادا سنويا لبيع خيول من سلالتهم التى تحتوى على دماء عربية، عند المنطقة الحدودية مع أوكرانيا، ويشهد المزاد عدد كبير من الأمراء والمشايخ العرب والبارونات ورجال الأعمال الأوروبيين الذين يشترون خيولا بملايين الدولارات.

وفى ألمانيا حيث التقاليد العريقة فى تربية الخيول وتنمية السلالات المختلفة، أدخل جورج الأول أمير مقاطعة هانوفر عام ١٧١٤ الخيل العربية فى السلالة التى قام بتهجينها مع الحصان «الثوروبريد» الإنجليزى وتوصل إلى إنتاج جديد أطلق عليه اسم «الهانوفرى Hanoverian». وهناك سلالة أخرى ألمانية وهى حصان «التراخنر»، وقد استولده الإمبراطور البروسى وليم الأول عام ١٧٣٢ وهو خليط من دماء ليتوانية وألمانية وعربية.

وكان وليم الأول من الخبراء فى تربية الخيول، وهو أول من أنشأ سجلات منظمة لأنساب الخيل، واهتم اهتماما خاصا بمسألة تدوين التقاليد لإنشاء المزرعة والإسطبل، ويعد إسطبل مقاطعة «سيل» The State Stud Of Celle نموذجا للتقاليد العريقة التى أرساها وليم الأول منذ عام ١٧٣٥ فى إدارة الإسطبلات وتسجيل أنساب الخيل ومتابعة تطوراتها.

أما النمسا فهى تعتز بالحصان الليبيزنر Lippizaner الأشهب فخر المدرسة الإسبانية

مملوك على حصانه للفنان «كارل فيرنيه»

للركوب فى فيينا The Spanish Riding School of Vienna وهوحصان مدرب تدريبا عاليا لأداء حركات خاصة جدا فى الاستعراضات أو فى المناسبات الاحتفالية مثل التشريفة وأعياد ميلاد وجلوس الإمبراطور على العرش.

وتعود سلالة هذا الحصان إلى إسطبلات «ليبيزا Lippiza» التى أنشأها الأرشيدوق تشارلز ابن الإمبراطور فرديناند الأول، فى مدينة «تريستا» الإيطالية الساحرة.

وحصان «اللابيزنر» خليط من دماء عربية وحصان «الجانيت Jannet» الإسبانى والحصان «الكلادروبر Kladruber» النمساوى.

أما حصان «الشجيا Shagyas» المجرى الشهير فهو نتاج خليط من الدماء المجرية والدماء العربية، وهو فى الأساس اسم جواد عربى اشتراه المجريون عام ١٨٣٦ من إحدى القبائل البدوية التى كانت تربى الخيول والأغنام فى المنطقة الحدودية بين تركيا وسوريا.

وفى روسيا كان عشق القياصرة للخيل مضرب الأمثال، وقد استجلبوا خيولا عربية من منطقة «تركمان» لتحسين السلالة الروسية وتمكنوا من انتخاب سلالة جديدة راقية هى حصان «آخال تيكى Akhal Teke» فى إسطبلات الكونت أليكسى أورولوف والذى كان فارسا ومربيا للخيول من المعدودين، وقد اشتهر اسمه فى تاريخ الفروسية بصفته صاحب طريقة «تروت أورلوف» وهى أسلوب لمشية الحصان تبرز رونقه ونغمات خطواته.

وبسبب حسن وشاعرية الحصان «آخال ـ تيكى» شيد القياصرة بالقرب من ضاحية «سان بطرسبرج» مقبرة لسلالته تزدان بالورود والرياحين، تضم مائة وعشرين حصانا وقد حفرت الأسماء وتواريخ الميلاد والوفاة على شواهد القبور.

لم تعرف فرنسا الحصان العربى جيدا سوى مع الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر. وقد انبهر بونابرت بجمال ورشاقة الحصان العربى واسترعى انتباهه مدى ذكاء وسرعة الحصان فى التلبية أثناء الحرب.. وعندما دخل القائد الفرنسى القاهرة كان من أول الأمور التى استهوته تفقد إسطبلات أمراء المماليك الذين غادروا القاهرة وتحصنوا بالصعيد، ومنهم إسطبل مراد بك وإسطبل البرديسى بك. تخير نابليون لنفسه حصانا عربيا شديد البياض بين خيول المماليك، وكان جوادا يتدله فى مشيته فخرا واعتزازا بجماله.

وعندما عاد بونابرت إلى فرنسا أخذ معه عددا من الخيول العربية الأصيلة لتطعيم الخيول الفرنسية بدمائها.. وكان النتاج الجديد أساسا لمدرسة «كادرنوار Cadre Noir» للفروسية والتى أقيمت فى مدينة «سومور». وقد تأسست عام ١٨١٤ بهدف تحسين مستوى الفروسية فى الجيش الفرنسى، وبها مجموعة متفردة من الخيول المدربة تدريبا راقيا على الحركات المتنوعة مثل التروت والقفز والسباق واللعب فى المناسبات الاحتفالية.

ولايفوتنا ذكر تأثير الحصان العربى على الخيول الأمريكية، وهى فى الأساس خليط من الجياد الهندية الأصل و«الثوروبريد» الإنجليزى، ومنذ عام ١٧٩٣ تم تطعيم هذا الخليط بدماء الحصان العربى وجاء الهجين من نوعية جيدة أطلق عليها اسم «حصان مورجان» وقد ولد بمدينة «فيرمونت» وتتحسن نوعية السلالة بمضى الزمن وتواتر الأيام.





ارتبط العرب بالخيل (من رباط ومربط) فى الجاهلية والإسلام معرفة بفضلها وتشرفا بها، والحصان ركن أساسى من اعتزاز العربى بتاريخه وحاضره بل جزء من شرفه وكرامته، وأطلق العرب على الحصان عدة أسماء فهو جواد من الجودة لأنه سخى وكريم فى الجرى والرمح.. وهو فرس من الفروسية والنخوة والنبل، والجمع خيل لأنه يذهب بخيال الإنسان لشدة جاذبيته ولأنه يختال بجماله.

وفى كتاب «المحاسن والأضداد للجاحظ» نعرف أن أول من ركب الخيل واتخذها كان نبى الله إسماعيل بن النبى إبراهيم (عليهما السلام)، وكان النبى داود يحب الخيل حبا جما، فلم يكن يسمع بفرس «بعرق وعتق أو حسن أو جرى إلا بعث إليه حتى جمع ألف فرس».. فلما قبض الله داود عليه السلام، ورث النبى سليمان ملكه وميراثه وجلس فى مقعد أبيه فقال كلمته المشهورة: «ماورثنى داود مالا أحب من هذه الخيل».. وقد أحسن رعايتها والحفاظ عليها..

وكانت أجمل خيل سيدنا سليمان الحصان «زاد الراكب» ومن نسله كل خيول «بنى هلال» الذين تفوقوا بين سائر العرب فى إنتاج الخيل الجميلة كاملة الأوصاف سواء فى البنية أو الحسن أو السلوك.

وقد اشتهر من نسل «زاد الراكب» لدى بنى هلال.. «حوشية» و«بار» و«الخرز» و«الوثيمى» و«ابن الدينارى» و«هجيس» ثم «أعوج» وهومن خيرة خيول العرب لرشاقته وسرعته، فلم تكن تسبقه أية خيول فى ساحة الحرب.

ومن القبائل المشهورة أيضا فى تربية الخيل «بنى ثعلبة» و«بنى أسد». وقد استنكح بنى ثعلبة لخيلهم من «أعوج» وانتجوا «ذا العقال» وكان جوادا عجيبا فى قوته وتحمل السفر لمسافات طويلة وفى قدرته على الكر والفر وساهم فى إنتاج سلالة قوية كانت مفخرة بنى ثعلبة على مدى التاريخ.

ويحدثنا التاريخ أيضا عن الفرس «مكتوم» وكان من فحول الخيل وملكا لغنى بن أعصر وقد أنتج سلالة طيبة فى جنوب الجزيرة العربية. وإذا تحدثنا عن ذكاء الخيل، فلايجب أن ننسى جياد فارس العرب «عنترة بن شداد العبسى، ومنهم «الأبجر» و«الأدهم»، والأخير كان لونه أسود مثل الليل يمرق كالسهم وسط الصحراء فيثير الخوف فى قلوب الفرسان معلنا عن قدوم عنترة لساحة الوغى.

وكان الشاعر الكبير امرؤ القيس أول من شبه فى الشعراء الخيل بالظبى والنعامة والسرحان (الذئب السريع) فى قوله:

له أيطلا ظبى وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

ووصف شاعر العرب النابغة الذبيانى خيل «بنى أسد» بقوله:

فيهم بنات «العسجدى» و«لاحق» ورق مراكلها من المضمار

والشطر الثانى من البيت يعنى أن الخيل مدربة جيدا بحيث رقت مواضع ركاب الفارس وهومستوى على السرج.

وكان رسول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حفيا يعتز بالخيل لأقصى درجة وهو القائل: «اربطوا الخيل وامسحوا بنواصيها وأكفالها وقلدوها (أى ضعوا القلائد فى رقابها) ولاتقلدوا الأوتار، وعليكم بكل كميت أغر محجل (أى البنى اللون ذو الشعر الأسود والأرجل بها بياض) أو أشقر أغر محجل أو أدهم أغر محجل».

ومن خيول الرسول البديعة: «لزاز» و«ليحاف» و«المرتجز» (وسمى كذلك لحلاوة صهيله) و«السكب» وكلها معدودة من خيل بنى هاشم.

ونعرف من كتب التاريخ أن «الأجدل» كان من أقوى الخيل لصاحبه أبى ذرالغفارى، كما أن اليعسوب «فرس الصحابى الزبير بن العوام» كانت من أجمل خيل العرب فى الإسلام.

وفى العهد الأموى، ذاع صيت «الحرون» وكان شديد الجرى له ملكة غريبة، فهو ينطلق فى السباق متحديا ويسبق غيره ثم يقف وينتظر الخيل حتى تأتى للمكان الذى يقف فيه فينطلق من جديد بأقصى سرعته ليسبقها حتى تلحق به مرة أخرى. ويحكى أن القائد العباسى المهلب بن أبى صفرة رغب فى شراء «الحرون» وزايد عليها مع مسلم نجل القائد أبى قتيبة حتى وصل سعر الجواد إلى «ألف دينار» ففاز بها مسلم، واحتفى «بالحرون» أيما احتفاء، ذلك أن مسلم كان من أبصر الناس بفنون ترويض ورعاية الخيل، ولقب بالسائس لمعرفته بسياستها وبعلمه الغزير فى مداواة الخيل وتطبيبها.

ومن أجمل الخيول العربية الأصيلة، النوع المصرى وقد كتب عنه الدكتور «كلوت بك» فى كتابه «لمحة عامة إلى مصر» الصادر فى أواخر القرن التاسع عشر فقال:

«للخيل فى مصر أنواع عديدة منها النوع العربى الأصيل الوارد من بلاد العرب والنوع الشامى الذى تستخدمه قبائل الكرد وعنيزة والنوع الوارد من داخل آسيا وأوروبا والنوع المجلوب من دنقلة، وقد اختلطت هذه الأنواع ببعضها فكان نسلها خليطا مختلفا، على أنهم يتخذون الطلوقة من الجياد العربية الكريمة الأصل، فإن هذه الجياد إذا «نزت» على أفراس قوية، أنجبت نوعا من الجياد كبيرا قويا تام الاستدارة وهو الذى يتألف منه النوع المصرى الحقيقى.

فالحصان المصرى أطول قامة من الجواد العربى، ورأسه أحسن وضعا من رأس الجواد العربى ورقبته أجمل منظرا وأدق استدارة وعيناه يطير منها الشرر والنشاط والحماس ومنخاره أعرض وأوسع وسوقه أدق وأصلب وأكثر أعصابا، ومشيته أدل على النبل والعزة والجلال».

وللسلطان أحمد بن طولون فضل كبير فى تربية الخيول العربية بمصر وتوفير الرعاية لها وتشييد الإسطبلات الصحية وكان ابن طولون خبيرا ببيطرة الخيل وأصول التداوى، لإدراكه لمدى حساسية الخيل للأمراض. وقد أوصى بالاهتمام بنوعية الطعام وهو صاحب نظام معين للإطعام يتكون من الشعير والتبن والنخالة،



مع قليل من الفول في فصل الشتاء لتوفير الطاقة للجواد، بالإضافة للبرسيم والعشب باستمرار.

ومن خبرة ابن طولون كتب مؤلفا عن تطبيب الخيل هو «أقرابازين الخيل»، ومن ضمن مانصح به إضافة قليل من العسل الأسود على طعام الفرس التي تلد لزيادة إدرار اللبن خلال فترة الرضاعة.

وقد بنى الإسطبلات في «القطائع» وأمر هو وابنه خمارويه بحلبة لسباق الخيل، وقلده كل من جاءوا من بعده وتذكر المؤرخة سيدة إسماعيل كاشف في كتابها عن تاريخ الدولة الإخشيدية، «أن الإخشيد قلد أحمد بن طولون فأمر بإقامة حلبة سباق الخيل منذ سنة ٣٢٤هجرية، ويبدو أن الإخشيد شعر بعد وفاة الوزير الفضل بن جعفر ومقتل ابن رائق بأن سلطانه قد توطدت دعائمه فاطمأن باله وزاد ميله إلى التشبه بابن طولون وابنه خمارويه. وأمر بأن تكون في بلاطه رسوم وتقاليد وقواعد للبروتوكول، وأن تكون له امتيازات لايشاركه فيها أحد من كبار رجال دولته، ومن ذلك أن يكون لسرج فرسه حلية دقيقة وزخارف خاصة لايشاركه فيها أحد، وقد اقتنى الإخشيد مجموعة كبيرة من الخيل الجميلة المدربة تدريبا رفيعا كانت من مظاهر الترف والأبهة في بلاطه».





أما سلاطين المماليك فقد وصل تعلقهم بالخيول العربية إلى حد العشق الجنوني، ولا عجب لأنهم كانوا فرسانا وأصحاب أذواق رفيعة تشهد عليهم عمارة المساجد والقصور والأسبلة التي شيدوها.

من هؤلاء السلاطين والأمراء يأتي في المقدمة السلطان «الناصر محمد بن قلاوون» وكان فارسا محبا لركوب الخيل وممارسة رياضة اللعب بالكرة والصولجان.. وكان بناء عظيما أقام القصور والمساجد والبيمارستانات وأصلح الطرق والجسور.

وقد امتلك السلطان قلاوون عددا كبيرا من الخيول الأصيلة التي استجلبها من «نجد» و«الإحساء» ومن «العراق» و«قطيف» و«البحرين»، وقد دفع مبالغ طائلة مقابل ذلك، بل قيل إنه دفع ٦٤ ألف دينار لشراء الفرس المسماة «القرطاء».

وقد وضع السلطان نموذجا لبناء الإسطبلات السلطانية محددا عمارتها وطريقة البناء وتوزيع المباني. والمقصود بالإسطبل عند «قلاوون» ومن جاء من بعده من سلاطين وأمراء المماليك (البحرية والبرجية) مجموعة من مباني لأجل سكن السلطان أو الأمير هو وأسرته ومماليكه وخيوله.. فكان الإسطبل يشمل مقر السكن وبيوتا لمماليكه وإسطبلات لخيوله ومخازن لمؤنها وحفظ سروجها والإسطبل السلطاني بالقلعة مكانه اليوم مجموعة المباني التي كانت مخازن الجيش بالقلعة الواقعة على يمين الداخل من باب العزب الذي كان يسمى قديما باب الإسطبل وفي المساحة الممتدة بين جامع أحمد أغاقبوجي إلى نهاية الورش القديمة في جهاتها الغربية والقبلية والشرقية.

ومن أهم الإسطبلات التي أقامها السلطان قلاوون، إسطبل «ميدان المهارى» وإسطبل «ميدان سرياقوس» بالإضافة لثلاث حلبات للسباق وكثيرا ماكان السلطان يتواجد بنفسه بين الإسطبلات لمتابعة ميلاد مهر أو مراجعة سجلات الأنساب أو لمشاهدة «المرماح» أي سباق الخيل عند المماليك.

وعلى الرغم من الطباع الشرسة للسلطان «برقوق» إلا أنه كان صاحب ذوق رفيع محبا للجمال ويشهد على ذلك روعة وفخامة عمارة مسجده بالقرافة الشرقية بمدينة القاهرة.

وقد اقتنى السلطان برقوق مايربو على السبعة آلاف حصان عربي أصيل، وهو الذي أنشأ سوق الخيل بالرميلة وسوقا للسروجية وأخرى للمهمازيين واللجامين، وذلك بالمنطقة الواقعة بميدان صلاح الدين حاليا، وبالتحديد بين مدرسة السلطان حسن وبين باب قلعة الجبل الغربي (باب العزب) وما في امتداده إلى الجنوب من سور القلعة بطول حوالي مائة متر ومنه إلى مدخل شارع السيدة عائشة. وكان برقوق شغوفا بالأبهة والفخامة، واهتم بصنعة السروج من الجوخ المشغول بخيوط الذهب، وكان يصنع ركابات سرجه الخاص من الفضة الخالصة.

ومن أمراء المماليك الذين افتتنوا بالخيل «الألفي بك» . فمن شدة حبه لها كان يترك أموره وأعماله وينطلق إلى صحراء مديرية الشرقية ويغيب شهرا أو أكثر سعيا وراء الخيل الأصيلة التي اشتهر بتربيتها عربان الشرقية ومنهم الطحاوية، وكان الألفي بك يعيش بينهم كما يحيا البدو بل تزوج امرأة بدوية كان يترك لديها جواده المفضل لترعاه عند غيابه.

وكان الألفي فاهما للغة الخيل ويتحدث معها، وكانت الخيل تسير إليه عندما تراه مقبلا عليها، وقد عرف بشدته مع السائسين في إسطبلاته، يدخل عليهم بعد صلاة الفجر ليخرجوا الخيل إلى الهواء الطلق ويقف بنفسه على نظافة الإسطبلات وطومار الخيل (أي تنظيفها)، ويلاحظ تحضير «العليقة» ويأمر بتريض الجياد ويتابع المريض منها، وعرف عنه حب ركوب الخيل بدون سرج، وقد أخذ زوجين من جياده معه عندما نفي إلى إنجلترا.



وفي العصر الحديث، فإن طوسون باشا نجل محمد على باشا الكبير اكتشف ولع ابنه عباس وتعلقه بالخيل أثناء مصاحبته له خلال الحملة العسكرية المصرية في الحجاز ضد الوهابيين. وقد صارت صداقة قوية أساسها حب الخيل بين عباس وابن سعود وأهدى الأخير فرسا عربية لعباس عربونا للصداقة، ودفع عباس لابن سعود سبعة آلاف جنيه ذهبي لشراء فرس أخرى «جلابية» وفيما بعد أمر مملوكه الخاص جمال الدين بك الشماشرجي الملقب بـ«اللالا» بأن يمسح كل شبر في الجزيرة العربية بحثا عن أجمل الخيول ويشتريها لتأسيس الإسطبل الخديوي في مصر. وتمكن جمال الدين بك من شراء أجمل فرسات قبيلة عنيزة وهي من رسن صقلاوي النادر.

وقد وضع عباس باشا ومن بعده نجله إلهامي باشا البداية الحقيقية للإسطبلات الملكية المصرية للخيول العربية الأصيلة، ولاينسى فضل النبيل عمرطوسون في إنشاء السجلات المصرية الدقيقة لأنساب خيول الجمعية والتي انتظمت أصول السلالة المصرية حتى الآن. وقد تحول اسم الجمعية بعد ثورة ٢٣يوليو وزوال الملكية إلى الهيئة الزراعية المصرية الحكومية وتضم حوالي أربعمائة حصان وتشرف على سير العمل فيما يقرب من ١٦٣ مزرعة خاصة ملك أفراد لتربية الخيول العربية.

وتحتفظ الهيئة المصرية بنخبة فريدة من الطلائق الكاملة الأوصاف غير الموجودة في أي مزرعة أخرى في العالم. ومن نجوم هذه النخبة، الحصان «العدل بن أخناتون» وهو أشهب، ولايقل ثمنه عن خمسة ملايين من الدولارات، وهناك أيضا «عمير» وهو أشقر، ثم «سراج الدين» و«جادالله» و«سنبل» وكلها لاتقدر بمال ولايسمح ببيعها باعتبارها ثروة قومية.

ومن الخيول المصرية المرتفعة الثمن الحصان «سكر معقود» ولايقل ثمنه عن ثلاثة ملايين جنيه وتملكه السيدة وجدان البربري وهي من أقدم وأشهرمربي الخيول العربية على مستوى العالم.

ولعل الحصان «أسوان» يحوز شهرة خاصة وصيتا ذائعا، فقد أهداه الزعيم الراحل جمال عبدالناصر إلى نيكيتا خروشوف سكرتير عام الحزب الشيوعي السوفيتي في حقبة الستينيات، إعرابا عن امتنان الشعب المصري للمساعدة التي قدمها السوفييت لمصر في بناء السد العالي.

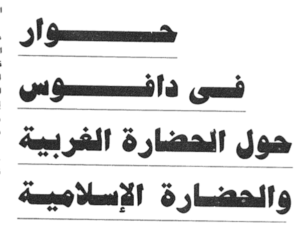
وقد وضع الحصان «أسوان» في إسطبل خاص بمزرعة «تيرسك» الحكومية في مقاطعة «ستافروبول» بجنوب روسيا، وكان فاتحة خير على الخزانة الروسية لأن سلالته بلغت ٣٥٠ حصانا أصيلا بيعت بملايين الدولارات، وأشهر أولاده المهر «بيلينج» الذي بيع لشركة «كوايتكس ترويترس الفنلندية» بمبلغ ٢،٥ مليون دولار.

وقد وقعت حادثة طريفة عندما سافرت البعثة الحكومية المصرية لتسليم الجواد «أسوان» هدية الرئيس عبدالناصر إلى الاتحاد السوفيتي، فقد تكونت من وكيل وزارة الزراعة والأستاذ عبدالوهاب عبدالنبي كبير مربي مدرسة الفروسية ثم عم «عبدالقادر» سائس الحصان «أسوان»، وكان أكبر أعضاء البعثة سنا مع تميزه بالطول الفارع. وكانت وزارة الزراعة قد ارتأت أن يرتدي عم عبدالقادر لباسا يتكون من بنطلون كاكي وجاكيت أخضر موشى بخيوط وأزرار ذهبية. وعندما وصلت البعثة إلى الميناء الروسي استقبل الحصان «أسوان» استقبالا رئاسيا فقد اكتست أرض الميناء بالسجاد الأحمر وعزفت الموسيقى.

وعندما أطل الحصان «أسوان» وعم عبدالقادر ممسك بلجامه تصور السوفييت لأول وهلة أن عم عبدالقادر جنرال في الجيش المصري أتى خصيصا لرئاسة البعثة وتسليم الحصان، فقوبل على الفور بترحاب شديد وأركبوه السيارة التي أرسلها خروشوف لرئاسة البعثة وأعطيت له أجمل غرفة في الفندق، وفي اليوم التالي اتضحت الحقيقة لموظف البروتوكول فتم تنزيل مستوى «عم عبدالقادر» على الفور وأعطيت له غرفة بجوار صديقه «أسوان» في الإسطبل.. ولكن عاش عم عبدالقادر طيلة حياته وهويترحم في سعادة على العز والأبهة التي أسبغتها عليه علاقته بالحصان «أسوان» ذلك الجواد العربي الأصيل. ■



هل تؤدى العولمة إلى صدام الحضارات؟



حوار فى دافوس حول الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية

أحمد كمال أبو المجد

الحوار بين الحضارات لايمكن أن يؤدى وظيفته التاريخية إلا إذا تمت ممارسته فى إطار ثلاثة مبادئ: عدم محاولة إقناع الآخرين بالتخلى عن انتمائهم الحضارى وخصوصيتهم الثقافية، والتسليم بأن التعددية الثقافية جزء من نظام الكون وسنة من سننه، والتوجه إلى البحث عن القاسم المشترك بين الحضارات سعيا إلى وضع برنامج عمل موحد يتحقق به الاعتماد المتبادل

الحوار بين أبناء الحضارات المختلفة واقع موضوعى قائم منذ قرون طويلة وليس بدعة مستحدثة خلال السنوات العشرين الأخيرة كما يتصور بعض الناس، إلا أن بواعث الاهتمام به والدعوة إليه قد اختلفت لاختلاف الأوضاع السياسية والاقتصادية التى تحيط به فى هذه المرحلة من مراحل التاريخ الإنسانى، حيث تدخل العلاقات بين الناس والشعوب عهدًا جديدًا لاتزال معالمه فى طور التشكل والتكوين.

وقد أتيح لكاتب هذه السطور أن يشارك مستمعًا أحيانا، ومتحدثًا وباحثًا أحيانًا أخرى، فى عشرات الندوات والمؤتمرات التى عقدت على المستويين الإقليمى والدولى خلال العشرين سنة الأخيرة.. وكان آخر هذه الندوات الندوة المهمة التى عقدت يومى ٣١ يناير وأول فبراير من هذا العام فى منتجع دافوس على قمة الجبل قريبًا من مدينة زيوريخ بسويسرا، وهى ندوة ضمت عدة لقاءات، شارك فيها رؤساء عدة دول غربية وإسلامية، وكان لى شرف المشاركة فيها - ممثلا لمصر - مما أتاح لى إدارة حوارات عديدة مع عدد من الباحثين المتخصصين وراسمى السياسات فى الدول الغربية (الأوروبية).

وقد دار الجزء الأكبر من الحوار فى غُرف مغلقة، وبأسلوب وتنظيم بعيدين تماما عن الشكليات، مع حرص على أن يكون الحديث تلقائيا، وأن يتخذ اللقاء شكل الحوار الحقيقى.. وقد شارك فيه عدد من رؤساء الدول وكبار الساسة وعلى رأسهم رؤساء إيطاليا وألمانيا وفنلندا وأندونيسيا ورئيس وزراء إسرائيل السابق شيمون بيريز، وممثل بابا الفاتيكان الكاردينال أرنيزو.

وفى هذا السياق، بدا لى أن أعرض بعض ما تكشف لى خلال هذه الحوارات على جمهور قرائنا فى مصر، وعلى امتداد العالمين العربى والإسلامى.



مقدمات ضرورية:

إن الحوار بين الأمم والشعوب لم ينقطع يومًا، منذ تكونت الجماعات الإنسانية الأولى فى صورة قبائل وعشائر، ثم حين قامت الدولة الحديثة بأركانها ومعالمها المعروفة فى علمى السياسة والقانون.. وزادت أهمية هذا الحوار وتجلت آثاره المختلفة فى تبادل التأثير والتأثر بين الحضارات المختلفة حين تحددت ملامح الثقافات المختلفة باطرها المرجعية المتباينة، وبأنظمتها المعرفية والقيمية التى تمنح كلا منها خصوصيتها المتميزة.. وفى خصوص العلاقة بين الحضارتين «الغربية» و«الإسلامية»، يعرف مؤرخو الحضارات أن العرب قد قاموا بترجمة عديد من كتب الثقافة اليونانية القديمة، فحافظوا بذلك عليها، ثم نقلوها إلى عديد من الدول الأوروبية، مساهمين بذلك فى تكوين ما نسميه اليوم «الحضارة الغربية».. ويعرف أولئك المؤرخون كذلك مدى تأثير ذلك الفكر العربى الإسلامى على تطور كثير من روافد الثقافة الغربية فى ميادين الأدب والفلسفة وفى ميدان العلوم الرياضية، وعلمى الطبيعة والطب.. مما نستطيع معه أن نقرر أن ثقافة عصر النهضة الأوروبية لم تكن ثقافة غربية خالصة، وإنما كانت تضم تأثيرات عربية وإسلامية سجلها ووثقها كثيرون من دارسى الحضارات ومؤرخيها.. حسبنا أن نشير منهم إلى ما سجلته العالمة الألمانية الشهيرة سيجريد هونكه فى كتابها «شمس الإسلام تشرق على الغرب».

على أن الاهتمام بموضوع «الحوار بين الحضارات» والدعوة النشطة إلى ممارسته قد دخلا مرحلة جديدة فى أعقاب ظاهرتين.. إحداهما «عالمية» تتجاوز حدود العلاقة الخاصة بين الثقافتين الإسلامية والغربية، والأخرى خاصة بالعلاقة المتميزة بين هاتين الحضارتين:

أما الظاهرة الأولى، فهى ظاهرة الاتجاه المطرد الذى تتسارع خطاه نحو «العولمة» أو الكوكبة بصورها ومجالاتها المختلفة، وهو اتجاه أدى إليه سقوط الحواجز المكانية والزمانية التى كانت تفصل الحضارات بعضها عن بعض، وتعزل التجارب الإنسانية المحلية عن تجارب الآخرين، وتحول دون التواصل معهم..

والعولمة حقيقة واقعة حين تفهم على أنها التقارب الحتمى بين النظم والتجارب الإنسانية تقاربًا صنعه سقوط الحواجز، وهو السقوط الذى أدى إليه التقدم العلمى الهائل فى وسائل وفنون الاتصال وتبادل المعلومات، وسهولة انتقال الأشخاص والسلع والخدمات من مكان إلى مكان.

ولكن هذا الاقتراب الواقعى ليس قادرًا على أن يخلق - بذاته ومن تلقاء نفسه - واقعًا إنسانيًا جديدًا أفضل من كل ما كان قبله، وإنما يتوقف الأمر فى النهاية على ما نفعله جميعا فى توجيه هذا التقارب، وما نقيمه لأنفسنا من نظم وهياكل للعلاقات بين الشعوب فى إطار هذا الواقع الجديد.

ومن الأمانة العلمية والصراحة الضرورية، أن نقرر أن السنوات الأخيرة قد شهدت - ولاتزال تشهد - محاولات بالغة النشاط من جانب قوى سياسية واقتصادية كبرى لتوجيه هذا الواقع الجديد، وجهةً تخدم مصالحها وحدها، دون التفات لمصالح الآخرين وحقوقهم.

ولعل محاولات تنظيم التجارة العالمية تنظيمًا يتيح أكبر قدر من حرية الحركة والانتقال للسلع والخدمات عبر حدود الدول والقارات، قد كشفت لنا جميعا عن هذه الحقيقة التى آن أوان الانتباه إليها حتى لا يؤدى تجاهلها إلى إطلاق شرارة جديدة لصراعات اقتصادية لم تكن فى الحسبان بين القادرين على المنافسة وغير القادرين عليها، أو بين الأقوياء اقتصاديًا والضعفاء، وهى صراعات يمكن أن تتحول فى مراحل تالية إلى صور أشد حدة تفقد النظام الاقتصادى العالمى الجديد ميزته المنشودة فى تحقيق السلام الشامل بين المتنافسين فى أسواق الاقتصاد والتجارة وتقديم الخدمات..

إن الانتباه المفاجئ إلى هذه الحقائق، هو الذى يفسر المظاهرات الصاخبة التى قامت منذ أسابيع فى سياتل عاصمة ولاية واشنطن الأمريكية، وتلك التى قامت فى منتجع دافوس بسويسرا خلال الاجتماع السنوى للمنتدى الاقتصادى العالمى.. تعبيرًا عن احتجاج الضعفاء و«المهمشين» على انفراد الأقوياء والأغنياء بوضع قواعد النظام الاقتصادى العالمى الجديد.

إن آليات السوق فى النظام الاقتصادى الحر الذى صاحب ظاهرة «العولمة»، والذى اتجهت إليه الأغلبية العظمى من دول العالم، استجابة للرغبة فى الاندماج Integration فى النظام العالمى، هذه الآليات قادرة بحق على إعادة التوازن إلى كثير من صور العلاقات الاقتصادية والتجارية، ولكنها - مع ذلك - ليست وصفة سحرية قادرة بذاتها على تحقيق جميع صور التوازن الاجتماعى، وتحقيق قيم العدل والمساواة، وهما قيمتان إنسانيتان عالميتان، مستقرتان فى الضمير

البشرى ولا تتوقفان على اتباع نظام اقتصادى معين.

وبعبارة واضحة، فإن آليات السوق التى كثر الحديث عنها والإشادة بدورها لا يمكن أن تكون بديلاً يحل محل الجهود الإنسانية المتميزة عبر التاريخ لتحقيق هاتين القيمتين.. ولذلك تظل الحاجة قائمة إلى منظومة أخلاقية تحرس النشاط الاقتصادى وتمنع كل صور العدوان على حقوق الآخرين ومصالحهم. وفى ظل «العولمة» التى تفرض نفسها يومًا بعد يوم، تظهر الحاجة إلى «قيم أخلاقية مشتركة» يتوافق عليها أتباع الحضارات المختلفة، وهو ما يجعل الحوار بين الحضارات مدخلاً طبيعيًا وضروريا لتحقيق هذا التوافق.

ب - أما الظاهرة الثانية، فهى ما روج له بعض الكتاب والباحثين من توقع الصدام بين الحضارتين الغربية والإسلامية، والواقع أن المقدمة الأولى لهذه الظاهرة قد جاءت مع ما ذهب إليه فرانسيس فوكوياما من أن التاريخ السياسى والاجتماعى قد بلغ نهايته بانتصار الحضارة الغربية ونموذجها المعاصر الذى تمثله أوروبا والولايات المتحدة.. وفكرة نهاية التاريخ هذه فكرة لا تثبت علميًا عند المناقشة، وهى مناقضة لما ذهب إليه ابن خلدون قديمًا، وما قال به أزوالد اشبنجلر حديثا، من أن الحضارات لها دورات كدورات الكائنات الحية، تبدأ بالميلاد فالطفولة فالشباب، وتنتهى بالكهولة والشيخوخة.. ولا نريد هنا - والحديث أساسًا عما جرى فى داڤوس من أحاديث ومناقشات حول العلاقة بين الحضارتين الإسلامية والغربية - لا نريد أن نعترض سياق هذا الحديث بدراسات نقدية للنظريات المختلفة فى فهم التاريخ وتفسير مساراته.. وإنما حسبنا أن نقرر خطأ النتيجة التى انتهى إليها فوكوياما، والتى لا نرى فيها إلا تعبيرًا عن الانحياز الجارف للحضارة الغربية، والانبهار الشديد بما حققته تلك الحضارة من انتصار سياسى وعسكرى واقتصادى على حضارة معاصرة أو نظم سياسية واقتصادية كانت تستند إلى فكر فلسفى مناقض ومخالف.. وقد نسى فوكوياما أن الساحة المعاصرة تضم حضارات وثقافات أخرى غير أطراف الصراع الدولى الذى استمر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى سقوط المعسكر الشيوعى فى أوائل التسعينيات من القرن الماضى.

أما الترويج للصدام المتوقع أو «الحتمى» بين الحضارتين الغربية والإسلامية، فقد اشتد الاهتمام به منذ كتب صمويل هانتنجتون مقاله الشهير فى مجلة «الشئون الخارجية Foreign Affaires»، ثم بعد أن أصدر كتابه الذى يحمل ذات العنوان. ونظرية هانتنجتون وإن لم تخل من جانب من الحقيقة، إلا أنها تسرف إسرافًا شديدًا فى توقع «هذا الصراع» وتكاد تقول بحتميته.. فضلاً عن أنها تقوم على افتراضين لا دليل عليهما:

أولهما: وجود تناقض أساسى لا سبيل إلى رفعه بين مضمون الحضارتين والقيم الأساسية المسيطرة على كل منهما.. مع تجاهل عناصر التشابه والاشتراك التى تسمح بقيام صور عديدة من التعاون بين أتباعهما.

الثانى: افتراض أن «اختلاف» مضمون كل من الحضارتين، وقيمهما العليا لا يمكن أن يصفى إلا من خلال الصراع والتصادم.. مع أن كثيرًا من «الخلافات» الثقافية والأيديولوجية، بل السياسية والاقتصادية قد جرت تسويتها تاريخيًا من خلال اتفاقات على التعايش، أو من خلال علاقات أخذ وعطاء.. تبادلت فيها الأطراف المختلفة التأثر والتأثير.

وسنعود إلى بيان تصورنا لمستقبل العلاقة بين هاتين الحضارتين فى الجزء الأخير من هذه الدراسة، وإنما نشير فى هذا السياق إلى ما انتهى إليه باحث غربى معاصر تميزت كتاباته فى هذه القضية، بقدر كبير من الموضوعية والفهم السليم لروح كل من الحضارتين، وهو الأستاذ جون اسبوسيتو - الأستاذ بجامعة جورجتاون - ومؤلف كتاب من أهم ما كتبه الغربيون فى هذه القضية هو كتاب «الخطر الإسلامى، وهم أم حقيقة» "The Islamic Threat, Myth or Realty"، وانتهى فيه إلى التسليم بوجود اختلافات مهمة بين الحضارتين، ولكنه نفى نفيًا قاطعًا أن تكون الحضارة الإسلامية معبرة عن «تهديد Threat» للحضارة الغربية ولطرق المعيشة فى إطارها.. كما ذهب إلى أن المواجهة بين الحضارتين إنما تشكل تحديًا Challenge لكلٍّ منهما، وأن نتيجة هذا التحدى سوف تتمثل - فى تقديره - فى استفادة كل من الحضارتين من الأخرى، وفى التقاء أتباعهما على خير ما فى كلٍّ منهما.



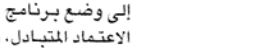
ويقتضى فهم أصحاب كل حضارة للحضارات الأخرى، ملاحظة أمرين أساسيين تشترك فيهما الحضارات كلها:

الأمر الأول: أن تاريخ كل حضارة إنسانية يسجل صورًا عديدة من المفارقة والتفاوت بين «المفاهيم النظرية الأساسية للحضارة» والسلوك العملى لأتباع تلك الحضارة.. وهى مفارقات تفسرها أسباب مجتمعية مختلفة.. تتمثل فيما تتعرض له الشعوب من ضغوط وما تواجهه فى تاريخها من مؤثرات داخلية أو وافدة.. ومن ثم ينبغى عند الدراسة المقارنة للحضارات المختلفة التمييز دائمًا بين مستوى الأفكار والمبادئ Conceptual Level، ومستوى السلوك العملى للناس من أتباع تلك المبادئ المعلنة، وهو ما نسميه المستوى المجتمعى Societal Level.

الأمر الثانى: أن الحضارات المعاصرة جميعها ليست فى حالة سكون أو جمود عند حالة نهائية ثابتة، وإنما هى جميعًا فى حالة حركة وتطور.. ولابد - من أجل ذلك - من ملاحظة هذه الحركة ورصد اتجاهاتها.. وتصور مستقبلها فى ظل هذه الحركة.. وبغير هذا يقع المتحاورون فى أخطاء فادحة قد تؤدى إلى استحالة التفاهم والتعاون بينهم.. وما أظن أحدًا يجادل فى أننا نحن «العرب والمسلمين» نمارس عملية تأمل داخلى، ونقد ذاتى، وتحليل موضوعى لأوضاعنا ومشكلاتنا وطرق سلوكنا. وأن كثيرًا من موروثاتنا وتقاليدنا توضع من جديد على محك التحليل والتقييم، وأننا صرنا أكثر وعيًا بدور المؤثرات الخارجية على أوضاعنا الداخلية، وأن الآراء التى تقدم لنا وللآخرين عن حضارتنا وعن موقفها من عديد من القضايا المعاصرة، قد صارت تطرح فى أطر جديدة دعا إليها «تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال» على حد تعبير الفقهاء وعلماء الأصول..

كذلك لاشك فى أن ما نطلق عليه، تعميمًا وتبسيطًا وصف «الحضارة الغربية»، يتعرض لهزات عديدة، ومراجعات متنوعة، وأن تيارها الأساسى تحيط به تيارات جانبية أو هامشية عديدة.. وأن الغرب بدوره يمارس عمليات معقدة من عمليات المراجعة وإعادة التأمل..

ولما كانت كثير من أسباب هذه المراجعات هى ذات الأسباب التى دعت إلى مراجعات مماثلة فى حضارتنا العربية والإسلامية، فإنه لا يبدو بعيدًا أن تسفر المراجعات عن توسيع مساحات الاتفاق.. وتضييق مواضع التناقض والاختلاف.. وهو ما يزيد الحاجة إلى تنشيط الحوار.



نحو منهج سليم للحوار:

إن الحوار بين الحضارات لا يمكن أن يؤدى وظيفته التاريخية فى إثراء التجارب الإنسانية، وفى الاستفادة من الخبرات المتنوعة للشعوب إلا إذا تمت ممارسته فى إطار منهج سليم يوافق عليه ويرتضيه أطراف ذلك الحوار، وأهم عناصر هذا المنهج - فى تقديرى - أمور ثلاثة:

أولها: الاتفاق على أن الغرض من وراء الحوار ليس إقناع الآخرين بالتخلى عن انتمائهم الحضارى وخصوصيتهم الثقافية، والدخول فى حضارة أخرى مهما كان لها فى لحظة تاريخية معينة من تفوق وانتشار.. إن الدعوة إلى التخلى عن الانتماء الحضارى لا تعدو أن تكون استثمارًا لأوضاع سياسية أو اقتصادية قائمة سعيًا إلى فرضه هيمنة ثقافية لا تقل فى آثارها السلبية عن الهيمنة السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية.. وفى تقديرى أن التقصير أو التردد فى الإعلان عن الالتزام المطلق بهذه القاعدة الأساسية مسئول إلى حد كبير عن إعراض الكثيرين عن المشاركة فى هذا الحوار، واتخاذهم - بدلا من ذلك - مواقف دفاعية رافضة للتبادل الحر الفعال فى ميادين الفكر والثقافة والنظم الاجتماعية والاقتصادية..

وثانيها: التسليم بأن التعددية الثقافية جزء من نظام الكون وسنة من السنن التى أودعها الله فى مجتمعات البشر، وأن السعى للقفز عليها والابتعاد عنها عن طريق استبعاد الآخرين أو تهميش دورهم، إنما هو حركة ضد التاريخ وضد السنن الثابتة فى الكون وفى مجتمعات الناس.

وهذا الإيمان بالتعددية لابد أن يصاحبه ويتممه إدراك لحقيقة أخرى مؤداها أن الحكمة موزعة بين خلق الله، وأن البناء الإنسانى الجديد لا يمكن أبدًا أن يكون احتكارًا لشعب واحد أو أمة واحدة.. وقد لا يعرف البعض أن حضارتنا العربية الإسلامية وهى - تاريخيًا وموضوعيًا - إحدى الحضارات الإنسانية الكبرى التى ينتمى إليها اليوم ما يزيد على ألف مليون من البشر، هذه الحضارة قد قامت من يومها الأول على أساس الإيمان بالتعددية، والاعتقاد بأن التنوع والاختلاف مصدر أساسى من مصادر الغنى الحضارى، ومحرك أساسى من محركات التبادل الثقافى والمنافسة الإنسانية البناءة.

وفى القرآن الكريم - كتابنا المقدس - إشارة صريحة لا تحتمل سوء التفسير لهذه الحقيقة حيث يقول الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعلنا منكم شرعَةً ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً ولكن ليبلوكُم فيما آتاكم فاستَبِقوا الخَيرات﴾.. وهكذا جعل هذا النص الكريم من التنوع والاختلاف دافعًا للمنافسة، ومحركًا للتسابق على طريق الخير والعمل النافع.

وثالث هذه المبادئ: التوجه إلى البحث عن المشترك الجامع بين الحضارات المعاصرة، ذلك أنه إذا كان الحرص الشديد على تثبيت الانتماء الثقافى، والدفاع المستميت عن «الخصوصيات الثقافية» أمورًا مفهومة ومشروعة تمامًا فى عصر الغزوات والحروب ومحاولات الاستئصال الثقافى، فإن طبيعة المرحلة التى يجرى فيها الحوار المعاصر بين الحضارات والتى يميزها وعى متزايد بالأخطار المشتركة التى تهدد مستقبل جميع الشعوب، ووعى مواكب له بالحاجة إلى إيجاد «أنساق سلوكية» تحتكم إليها تلك الشعوب عند الاختلاف.. كل ذلك قد صار يتطلب توجه الجهد الأكبر نحو البحث عن القواسم المشتركة، والمصالح المشتركة سعيًا إلى وضع برنامج عمل موحد يتحقق به الاعتماد المتبادل، والمشاركة المتساوية لأبناء الحضارات المختلفة..

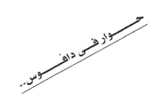


وفى إطار هذا المنهج، كان من الضرورى أن نذكّر المشاركين فى ندوة داڤوس بأنه إذا كان التعرف على حضارة الآخر وفهم منطلقاتها الأساسية، هو أول شرط للحوار الصحيح بين الحضارات، وإذا كنا من جانبنا نمارس هذه المحاولة الشجاعة فى حرص كامل على الموضوعية وطلب الفهم الصحيح، فإن من واجبنا أن نذكر مفكرى الغرب وباحثيهم وساستهم - بكل التواضع - بأن عليهم من جانبهم واجبًا مماثلاً فى التعرف الصادق على حقيقة الحضارة العربية والإسلامية.. وفى رفض التصوير الظالم لحضارتنا بأنها حضارة عزلة وجمود وعنف وعدوان على الآخرين.. وهو تصوير يفتقر إلى أبسط مظاهر الموضوعية والدقة العلمية ولكنه قادر - إذا ترك دون تصويب حاسم وسريع - على تسميم الآبار التى سوف نشرب منها جميعا مع مطلع القرن الجديد، وعلى خلق حاجز مصطنع بين شعوب تنتمى إلى أكبر حضارتين معاصرتين، وأكثرها تأثيرًا على مستقبل المسيرة الإنسانية المشتركة، وهى تعبر بوابة القرن الجديد.. إن هذا التصور الظالم للحضارة العربية الإسلامية يقوم على انتقاء غير موضوعى للظواهر، مركزًا الأضواء كلها على عدد من الظواهر العارضة أو الجزئية، وبعض التيارات الفكرية والسياسية الهامشية، مصورًا إياها على أنها المعبر الشرعى والوحيد عن الحضارة العربية الإسلامية..

إن على مفكرى الغرب وساسته أن يذكروا أن الأزمات السياسية والاقتصادية التى تتعرض لها الشعوب المعاصرة قد أفرزت تيارًا نسميه بمنطق التاريخ العربى الإسلامى تيار الخوارج.. وهم جماعة قديمة، لها فى عالمنا المعاصر أشباه كثيرة، خرجوا بفكرهم ونشاطهم عن التيار العريض للجماعة، محاولين هدم ذلك التيار ونقض أسسه الكبرى..

ونعلم جميعًا أن ظاهرة التطرف التى يؤثر البعض أن يسميها الأصولية قد أصبحت ظاهرة عالمية، وأنها نشأت نشأة مستقلة داخل الحضارات المعاصرة، وداخل الفكر الدينى المعاصر بصفة خاصة.. ونعلم جميعًا كم تعانى المجتمعات الغربية وكم يعانى الفكر الدينى فى المسيحية وفى اليهودية على السواء من آثار هذا الفكر الشكلى الحرفى المتشدد الذى ينمو وينتعش فى أجواء الإحباط أو الظلم وفى ظل التغيرات الحادة والسريعة التى تنتاب المجتمعات فى فترات التحول التاريخى..

والراسخون فى العلم، فى الجامعات ومراكز البحث العلمى الصحيح فى الغرب وفى الشرق على السواء، يعرفون حق المعرفة أن التيار الواسع العريض للحضارة العربية الإسلامية كان - ولايزال - إلى هذا اليوم تيارًا إنسانى النظرة، عقلانى البحث، واسع الصدر، مؤمنًا أشد الإيمان بالتعددية الثقافية وممارسًا لهذا الإيمان من خلال فضيلتى التسامح والسماحة، وهما كلمتان عربيتان



ظاهرة التطرف التى يؤثر البعض أن يسميها «الأصولية» أصبحت ظاهرة عالمية داخل الحضارات المعاصرة، وداخل الفكر الدينى المعاصر.. تعانى منها المجتمعات الغربية والفكر الدينى المسيحى واليهودى على السواء.. والراسخون فى العلم يعرفون حق المعرفة أن التيار الواسع للحضارة الإسلامية تيار إنسانى واسع الصدر مؤمن بالتعددية..



خطر الإرهاب وخطر استخدام أسلحة الدمار الشامل من الأخطار الجسيمة التى يجب أن يتوجه الحوار القائم إلى تجنبها والتوصل إلى صيغة للتعايش بين الشعوب تضع نهاية للحروب التى سادت القرن الذى ودعناه، وتفتح عهدا جديدا لثقافة السلام



فاعلية الدور الذى يمكن أن تؤديه الأديان فى المستقبل القريب والبعيد تظل موقوفة على قدرة المتحدثين باسم هذه الأديان على إعادة النظر فى خطابهم الدينى بحيث يغدو أكثر تجاوبا مع الهموم الجديدة للأفراد والشعوب وأوثق صلة بالواقع الذى تعيشه تلك الشعوب



تعبيران عن مقابلهما الإنجليزى والفرنسى Tolerence, Toleration.. والراسخون فى العلم فى الغرب والشرق يشهدون بأن الحضارة العربية الإسلامية كانت - ولاتزال - شديدة الاهتمام بالعلم حريصة على طلب المعرفة، تدعو بلسان أول وحى أوحى إلى النبى العربى محمد عليه الصلاة والسلام أن ﴿اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم﴾ وأنها حضارة تحترم إنسانية الإنسان وتصون حياته وعرضه وماله.. وهو احترام ردده وأعلنه هذا النبى العربى فى آخر كلماته إلى الناس قائلا لهم: «أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى يوم القيامة».



موضوعات الحوار:

كان من الضرورى بعد هذه المقدمات كلها أن نقدم للمشاركين فى مؤتمر دافوس قائمة سريعة بأهم الموضوعات التى يمكن أن يدور حولها الحوار فى مرحلته الراهنة، وكان على رأس هذه القائمة الأمور الخمسة الآتية:

١ - أن من أول ما نحتاج إلى تذكره والانتباه إليه، والعمل على تحقيقه، الحرص على إقامة العدل وتحقيق المساواة، داخل الجماعات السياسية القطرية، وفى العلاقات السياسية والاقتصادية بين الدول.

إن قضية التنمية وتعظيم الثروة لايجوز بحال أن تشغلنا عن السعى الدءوب لتحقيق العدل، فالعدل قيمة إنسانية كبرى لايجوز أن تحتكر الدعوة إليها والاهتمام بها مدرسة فكرية أو سياسية واحدة..

ومن الخلط الشديد فى الفهم أن يرى البعض فى تحول أكثر الدول إلى نظام اقتصادى حر يشجع المنافسة ويعتمد فى تحقيق التنمية الشاملة على مبادرات الأفراد والمؤسسات الخاصة.. مايصرف الأفكار عن قيم العدل وتكافؤ الفرص.. إن مشكلة الفقر الذى لايزال شبحه يخيم على عشرات الملايين من البشر فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.. ينبغى أن تحتل مكان الصدارة بين موضوعات الحوار الدائر بين الحضارات المعاصرة، وعلينا أن نتذكر بعد ذلك أن استمرار الفوارق الهائلة بين المستويات الاقتصادية للأفراد والشعوب يهدد السلام الاجتماعى الداخلى والدولى تهديدا مباشرا وينذر بسلسلة من الأزمات، ويفجر ألوانا من الصراع لاينبغى أن يكون لها موضع فى حضارة الحوار..

٢ - وإذا كان من أهداف الحوار القائم التوصل إلى صيغة لتعايش الشعوب تضع نهاية للحروب التى امتلأ بها القرن الذى ودعناه، وتفتح عهدا جديدا من العلاقات تسوده ثقافة السلام والتعايش الآمن بين الشعوب.. فإن هذا الهدف النبيل يهدده فى واقعنا الداخلى والدولى خطران جسيمان:

أولهما: خطر الإرهاب الذى تمارسه فى عشوائية غير مسبوقة جماعات منحرفة الفكر مجردة من المسئولية، لاتلقى بالا لحرمة الدماء والأنفس والأموال.. ولقد عبر كثير من المفكرين والساسة ورؤساء الدول فى مناسبات سابقة عديدة عن ضرورة التعاون الدولى لمقاومة الإرهاب العشوائى الذى استشرى خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضى، والذى بات ينشر القلق والفزع، وينزع الأمن والاطمئنان ويهدد مسيرة التنمية فى العديد من البلدان، ولقد أثبتت الأيام أن خطر الإرهاب الذى يهدد الحضارة الإنسانية فى صميمها لايزال قائما ومستشريا مع بدايات القرن الجديد..

أما الخطر الثانى: فهو تهديد الحياة كلها باستخدام أسلحة الدمار الشامل القادر على عبور القارات، وعلى إصابة عشرات الملايين من الأبرياء والمدنيين.. ولقد سارعت مصر من جانبها إلى الانضمام المبكر لاتفاقية حظر الأسلحة النووية، حرصا على تطابق الأعمال مع الأقوال، وحثا للدول التى لاتزال مترددة فى الانضمام لتلك الاتفاقية على تغيير موقفها، والانضمام إلى كتيبة الحريصين على السلام، ولكن بعض هذه الدول ومنها دول مجاورة لمصر ترفض الاعتماد فى تحقيق أمنها على النظام الدولى، وعلى القرارات الدولية الصادرة من مؤسسات ذلك النظام، مؤثرة أن تأخذ القانون فى يدها، وأن تعتمد على الردع الذى تحققه لها حيازة هذا النوع البغيض من أسلحة الدمار..

وقد آن الأوان للمؤمنين بالسلام وضرورة تحقيقه من أبناء الحضارات المختلفة أن يشكلوا فيما بينهم قوة ضغط سياسى واقتصادى على تلك الدول، حتى تزول أسباب القلق والتوتر، وحتى يختفى شبح استخدام تلك الأسلحة القادرة على التدمير الشامل، إذا وقعت نزاعات سياسية أو اقتصادية تدفع بعض أفرادها للجوء إلى القوة التى تمثل أسلحة الدمار الشامل أسوأ صورها وأخطر وسائلها.

٣ - ويواجه العالم مع مطلع الألفية الثالثة تهديدا غير مسبوق للبيئة، يتمثل فى استنفاد مواردها الطبيعية، وتدمير جانب منها، وتلويث أرضها وجوها وبحرها بألوان من الملوثات تعاظم حجمها وتأثيرها الضار مع انتشار الصناعة، وقيام المصانع الضخمة التى تهدد مخلفاتها السامة حياة ملايين البشر وصحتهم وسلامة أبدانهم تهديدا لم تعرف البشرية له مثيلا فى تاريخها الطويل، وفى مقدمة الموارد التى يهددها انتشار النمو تزايد الرخاء وتضاعف عدد السكان، الموارد المائية التى يتوقع الخبراء والعلماء أن يكون الصراع حولها أحد أبرز وأخطر الصراعات فى القرن الذى استقبلناه منذ أسابيع، وإذا كان هذا الصراع لم يتفجر بعد على نطاق واسع فإن الحكمة تقتضى العمل السريع على تجنبه وتوقى حدوثه ووضع إطار قانونى اتفاقى ملزم دوليا يحكم استخدام المياه، وينظم حقوق الراغبين فى هذا الاستخدام، حتى لايساء استخدام الحقوق فى هذا المورد الحيوى الذى تعتمد عليه حياة الناس وسائر الكائنات.

٤ - وتواجه شعوب العالم مع بداية القرن الجديد حاجة ملحة إلى صياغة إطار قانونى جديد يحكم العلاقات الدولية بعد أن طرأت عليها تغيرات جذرية جعلت النظام القانونى القائم الذى تمثله منظمة الأمم المتحدة إطارا غير معبر عن الأوضاع الجديدة، عاجزا عن التلبية الفعالة لحاجات الأمم والشعوب فى ظل تلك الأوضاع، إن موازين القوى التى كانت قائمة عند وضع ميثاق الأمم المتحدة فى الأربعينيات من القرن الماضى قد تغير تغيرا جوهريا، كما أن المخاطر التى كانت قائمة آنذاك، والتى جرى وضع ذلك الميثاق لمواجهتها، لم تعد هى المخاطر القائمة عند بداية القرن الجديد، إن المفارقة بين النظام الدولى الذى تحددت - جزئيا - بعض معالمه خلال العقود الثلاثة الأخيرة وبين نظام الأمم المتحدة وآليات العمل فى إطاره قد تجلت فى عجز الأمم المتحدة عن حل كثير من النزاعات الدولية الحادة، وفقا لمعيار واحد يعبر تعبيرا دقيقا وأمينا عن إرادة الشعوب التى تعمل باسمها الأمم المتحدة، لقد عبرت تلك الشعوب عن إرادتها من خلال توصيات وقرارات الجمعية العامة، بينما جرى اتخاذ القرارات الحاسمة والملزمة من خلال قرارات مجلس

الأمن الذى ظل حتى يومنا هذا يعبر عن «توازنات» بين القوى كانت قائمة عند وضع الميثاق ولكنها لم تعد اليوم قائمة ولاصالحة، وظلت غالبية شعوب الأمم المتحدة تتخذ داخل الجمعية العامة مواقف وتوجهات لاتجد سبيلها للتنفيذ، مابقى ذلك التنفيذ محكوما بالتوازنات القديمة التى يعكسها نظام الفيتو المعمول به فى مجلس الأمن..



ونستطيع، دون مبالغة أو تجن، أن نقرر أن جزءا كبيرا من الدور السياسى والقانونى للأمم المتحدة قد أصابه الشلل نتيجة نظام العمل وأسلوب اتخاذ القرارات داخل مجلس الأمن، ولولا الجهود المثمرة والنشاط الكبير الذى أدته الأمم المتحدة فى الجوانب الاجتماعية والثقافية والإنسانية لكان حجم الإحباط والشعور بالعجز الذى أصاب شعوب العالم أشد وأكبر.

٥ ـ وأخيرا، نسجل من جديد فى هذا العرض السريع الحاجة الماسة إلى«إطار أخلاقى» للسلوك يحكم النشاط السياسى والاقتصادى للدول وشعوبها فى ظل «العولمة» التى فرضها سقوط الحواجز بين الشعوب، وتداخل المصالح وامتدادها عبر الحدود التى كانت قائمة بين الدول والقارات.

إن العالم الذى يتجه بسرعة ـ على هذا النحو ـ فى اتجاه العولمة قد صار محتاجا إلى أخلاق عالمية تعكس هذا التوجه وتناسبه، خصوصا وقد بدأ الناس جميعا ينتبهون إلى انتشار عدد من الظواهر المصاحبة لهذا التحول أو المترتبة عليه وفى مقدمتها استغراق الأفكار فى تحصيل المنافع المادية، وتراجع مستوى العلاقات الإنسانية الآن وانتشار عبادة الذات وانتشار عديد من صور الفساد فى الأنشطة السياسية والاقتصادية على السواء وفى سبيل الاتفاق على مضمون هذا النظام الأخلاقى الجديد فإن الأديان وعلى رأسها الأديان الإبراهيمية الثلاثة ومعها الفلسفات الإنسانية القديمة والحديثة تستطيع أن تؤدى دورا رائدا وفعالا فى إقامة «المنظومة الأخلاقية» التى تتراضى حولها جميع الأمم والشعوب. على أن فاعلية هذا الدور فى المستقبل القريب والبعيد، تظل موقوفة على قدرة المتحدثين باسم هذه الأديان على إعادة النظر فى«خطابهم الدينى» بحيث يغدو أكثر تجاوبا مع الهموم الجديدة للأفراد والشعوب وأوثق صلة بالواقع الذى تعيشه تلك الشعوب، ولاشك عندنا فى أن فى مقدمة مظاهر التعديل الذى ينتظره الناس من «الخطاب الدينى» أن يكون أكثر التفاتا إلى ضرورات التعاون واكتشاف مواضع الوفاق، وأقل إلحاحا فى طرح مواضع التباين ومظاهر«الاختلاف» وأسباب المواجهة والصدام وأن يكون ـ كذلك ـ أكثر ميلا للتيسير على الناس ورفع الحرج الفكرى والعملى عنهم وتوسيع هامش التباين والتميز الجائز بينهم، فى إطار المبادئ العليا والمقاصد الكبرى التى تلتقى عند أكثرها الأديان والفلسفات الإنسانية التى توجه أكثر الأمم والشعوب.

ومن المهم بعد ذلك أن نشير إلى عدد من الظواهر التى تميزت بها ندوة دافوس والتى استوقفت نظرى منذ البداية:

أولا: شدة اهتمام المشاركين من رؤساء الدول الأوروبية بالتعبير عن فهمهم الصحيح للإسلام، وإعلان براءتهم من الحملة الإعلامية التى تحاول الإساءة للإسلام والمسلمين، وتوكيد حرصهم على تصحيح صورة الإسلام فى العقل الغربى، وفى إقامة علاقات تعاون وتفاهم وجهود مشتركة بين أوربا بصفة خاصة وبين العالمين العربى والإسلامى، وهذا الاهتمام الكبير لم يقابل بمثله من جانب العرب والمسلمين، فالرئيس الأندونيسى عبدالرحمن وحيد، وهو الرئيس المسلم الوحيد الذى شارك فى هذا الحوار، مشغول أساسا بالمتاعب والمشاكل التى يواجهها فى بلده، وبعضها متاعب ذات طابع طائفى ودينى..

ثانيا: أن الأمر لم يكن واضحا تماما فى شأن موضوع الحوار ونطاقه، وما إذا كان حوارا مسيحيا ـ إسلاميا بدليل مشاركة كاردينال كاثوليكى ممثل لبابا روما وتحدثه إلى المؤتمر بهذه الصفة، أم أنه حوار حضارى يتجاوز نطاق الحوار المسيحى الإسلامى على أهميته.

ثالثا: أن شيمون بيريز رئيس وزراء إسرائيل الأسبق قد شارك فى الحوار بصفته الشخصية، كما سبق له أن شارك فى دورات أخرى لمؤتمر دافوس، وكان جوهر حديثه أنه ـ على ما يقول ـ قد آمن بأن القوة المسلحة لاتصلح لفض النزاعات بين الشعوب، وأن الحوار والتسابق فى ميادين العلم والإبداع والاقتصاد هو اللغة التى ينبغى أن تسود العلاقة بين الشعوب خلال القرن المقبل، وهذا كلام جيد لا اعتراض عليه، ولكنه كلام تكذبه السياسات والمواقف التى تتخذها حكومة إسرائيل التى تنتمى إلى حزب العمل وهو الحزب الذى يمثله شيمون بيريز، وآخرها التصعيد الوحشى وغير المسئول للعدوان على الأراضى اللبنانية واللبنانيين المدنيين.

ولما كان منظمو الندوة قد اختاروا لشيمون بيريز مقعدا مجاورا لى، فقد سألته بعد انتهائه من إحدى كلماته: «مادمت تحسن الحديث بهذه الدرجة من الفصاحة، فما هو سر خسارتك المتكررة فى الانتخابات، وكان جوابه المتارجح بين الجد والسخرية: «لأن الناخبين هناك ليسوا على وعى كوعى المشاركين فى هذا الحوار».

رابعا: اتخذت الجلسة الختامية للمؤتمر كله شكلا خاصا، إذ عقدت الجلسة برئاسة السيد كلاوس شواب رئيس المنتدى، وحضرها جميع المشاركين فى المؤتمر، وأدارها رئيس فنلندا، وتحدث فيها رئيس جمهورية ألمانيا المستر يوهانس راو حديثا بالغ العمق يكشف عن فهم واضح لإشكالية الحوار بين الحضارتين الغربية والإسلامية، كما تحدث فيها رئيس فنلندا، والكاردينال أرينزو، وشيمون بيريز، كما تحدثت فيها بصفتى الشخصية أو ممثلا لمصر وهو أمر لم يكن واضحا تماما للمشاركين..

ولكن..

بقى أن نوجه إلى مثل هذه الحوارات اهتماما متزايدا وأن نعظم مشاركتنا فيها وفى أمثالها، حتى لاينفرد بساحة الحوار من يملكون أسلحة بالغة التأثير على العقول والنفوس، وحتى لانغيب عن منافستهم فى مثل هذا التأثير، كما يبقى أن توجه صحافتنا وأجهزة إعلامنا مزيدا من العناية لإدخال مثل هذه الحوارات ومايدور فيها فى ثقافتنا العامة، حتى يتخلص الرأى العام العربى والإسلامى من الانكماش والعزلة ومن أسر الرؤى المحلية الخالصة التى تهدد قدراتنا على أن يكون لنا مكان فى نظام عالمى جديد يحدد معالمه الذين يبادرون ويبادئون ويشاركون لا الذين يترددون ويبتعدون وينعزلون. ■



حديث عيسى بن هشام

محمد المويلحى

(٢)

الطب والأطباء

قال عيسى بن هشام: ولما حال أمرنا من المحكمة إلى الأوقاف، وعلم الباشا بما هنالك من قلة الإنصاف، وأنه لابد لنا من أن نطيل الالتماس والرجاء، ونكرر الدعاء والنداء، ونكثر من الغدو والرواح، فى كل مساء وصباح، فنبلى فى هذا الديوان جدة الزمن، ونقف عليه، وقوف العاشق على الدمن، لما هو مستفيض من اختلال أعماله، واعتلال عماله، وفساد إدارته، وسوء نظارته، نزل به من الهم والغم ما أورثه الضنى والسقم، وحل به من الحزن والكمد، ما أخل بنظام الجسد فغدا هزيلا نحيلا، ووقع مريضا عليلا، فأشرت عليه بالطبيب. قال: يخطئ ولايصيب، وماذا يجدى العلاج ومايفيد وللآجال توقيت وتحديد، فأقنعته بأن الاعتقاد بتحديد الأجل، لايمنع من مداواة العلل وسبحان من أرشدنا إلى الدواء، عند حلول الداء، لالتماس الشفاء! فقبل إشارتى بعد طول الإباء. فجئت له بأحد الأطباء، من ذوى الشهرة بالبراعة، فى ممارسة الصناعة، فجلس بجانبه يجس نبضه، ويقرع صدره، ثم استلم قلمه وولاه ظهره، وأخذ يرقم أصناف العلاج، بيد دائمة الاختلاج.

ثم قال: دونكم هذا الدواء، جرعة فى الصباح وأخرى فى المساء، ولا تأخذوه إلا من صيدلية فلان فإنه صادق مؤتمن، لايغش فى التركيب ولايغلى فى الثمن.

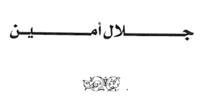
قال عيسى بن هشام: فأعجبنى من هذا الطبيب صدقه فى مقالته، وحسن نظره فى صناعته، وسألت الله لجماعة الأطباء أن يهتدوا مثل هذا الاهتداء.

ثم إنى ودعته بعد أن عين لنا البقعة المناسبة لتجديد الهواء، وقرر ما يناسب حال المريض من العلاج والغذاء إلى أن يتدرج من النقاهة إلى تمام الشفاء.



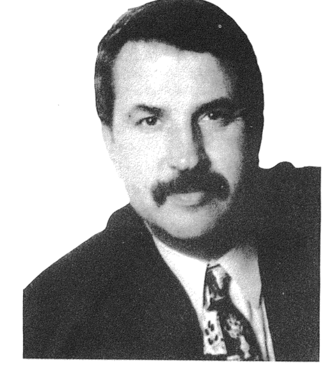

مبعــوث العولمــة .. أو تومــاس فريــدمــان

جــلال أمــين



لوسائل الإعلام الأمريكية والغربية عموما، حاسة قوية جدا قادرة على التقاط الكتاب والمتحدثين الذين يتمتعون بقدرة على الترويج للأفكار الحديثة المطلوب تسويقها، وقد عثرت مؤخرا على كنز ثمين فى صورة السيد توماس فريدمان





لابد أن أعترف للقارئ بأننى رغم أنى أعتبر نفسى من المهتمين بعدالة توزيع الدخل، لم أبتئس كثيرًا لدى سماعى بسقوط الاتحاد السوڤيتى، أو على الأقل لم أبتئس بنفس الدرجة التى ابتأس بها كثيرون غيرى.

ذلك أن الاتحاد السوڤيتى، وإن كان قد قطع شوطا بعيدا فى تحقيق العدالة فى توزيع الدخل، بدا لى أقرب إلى الولايات المتحدة، مما كان يظن الكثيرون من المؤمنين بالاشتراكية والرأسمالية على حد سواء. لاشك فى أن أوجه الاختلاف بين النظامين كانت شديدة ومهمة، ولكن الذى أقصده هو المعنى الذى كان فى ذهن المفكر السياسى الفرنسى «ريمون آرون»، كما عبر عنه فى كتابه الذى اشتهر وذاع صيته فى أوائل الستينيات، «ثمانية عشر درسا عن النظام الصناعى»[1]. كان ريمون آرون يقول، إنه على الرغم مما بين النظامين السوڤيتى والأمريكى من اختلافات مهمة، فكلاهما كان يبنى «النظام الصناعى»، وإن كان الأول يحاول فى ذلك أن يلحق بسرعة بالثانى. وأن النظام الصناعى سواء فى ظل الرأسمالية أو الاشتراكية، له خصائص ثابتة، تتعلق بالاقتصاد أكثر منها بالسياسة، أى بتراكم رأس المال وتعظيم الربح (وإن كان يسمى «بالفائض» فى الاتحاد السوڤيتى)، وترشيد الإنتاج، وتقسيم العمل، واستهداف رفع معدل النمو (ولو على حساب العمال) والمستهلكين.. إلخ.

ربما كان الأمر مختلفا فى ذهن كارل ماركس (بل لابد أنه كان بالفعل أمرا مختلفا)، عندما كان يكتب كتابه «رأس المال»، وكذلك فى ذهن لينين، عندما كان يستعد لشن ثورته، ولكن المقصود هنا هو الاتحاد السوڤيتى وليس الماركسية أو اللينينية. كانت المنافسة الأيديولوجية بين الاتحاد السوڤيتى والولايات المتحدة مهمة بلا شك، وكان التعصب الأيديولوجى لدى الطرفين شديدا وحقيقيا، ولكننا لا يجب أن نبالغ فى أهمية هذا التنافس بين أيديولوجيتين مختلفتين، بالمقارنة بالتنافس بين نظامين حول مغانم متشابهة.

كانت هذه المغانم المتشابهة تشمل مغانم سياسية وعسكرية، ولكن المغانم الاقتصادية كانت أساسية أيضا للطرفين، وكان من أهم هذه المغانم الاقتصادية، خاصة فى نظر الولايات المتحدة هى الأسواق. كانت كل دولة تدخل فى فلك الاتحاد السوڤيتى سوقا مغلقة أمام السلع ورءوس الأموال الأمريكية والغربية بوجه عام، بما فى ذلك بالطبع السلاح الأمريكى.

لا عجب إذن، أن سقوط الاتحاد السوڤيتى والكتلة الشرقية كلها دولة بعد أخرى، فى أواخر الثمانينيات ومطلع التسعينيات، كان انتصارا رائعا للاقتصاد الغربى والأمريكى بوجه خاص. لم يكن غريبا أن يجرى التعبير عن هذا الانتصار وإطلاق صيحات الفرح والتهليل فى شكل تعبيرات أيديولوجية أساسا، ولكن ليس من الضرورى أن يكون هذا هو سبب الفرح الأساسى. أقول إن هذا التأكيد على الانتصار الأيديولوجى (أى انتصار مبدأ الحرية الفردية) على حساب الانتصار الاقتصادى (أى فتح أسواق جديدة للسلع ورءوس الأموال الغربية). لم يكن غريبا، لأن من الطبيعى أو الأكثر لياقة، أن يفاخر المرء بمبادئه أكثر مما يفاخر بماله، حتى لو كان قبل هذه المبادئ أمرا مشكوكا فيه. ولكن الحقيقة هى أن السبب الأساسى للفرح كان اقتصاديا. ليس هذا فحسب، بل إن الانتصار الأيديولوجى كان مبالغا فيه جدا، وذلك لأسباب قريبة جدا مما كان يدور فى ذهن ريمون آرون.

لقد كان النظامان، السوڤيتى والأمريكى فى واقع الأمر، وكما كان يقول بحق المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى «تنويعين على نفس اللحن الأصلى»، أو صيغتين من صيغ حضارة واحدة، هى الحضارة الغربية. والهدف النهائى لكلا النظامين، كان متشابها إلى حد بعيد: وهو تعظيم معدل النمو، وتكاثر حجم السلع والخدمات، ورفع مستوى الاستهلاك، كل ما هنالك أن هذا الهدف كان يجرى السعى له فى النظامين، فى ظروف تاريخية مختلفة، استتبعت بعض الاختلافات فى النظام السياسى، وفى درجة تدخل الدولة، ومن ثم فى سياسة توزيع الدخل. بل إن النظام الأمريكى كان يحمل فى الحقيقة حتى فى جانبه السياسى، إذا تأملناه جيدا، أوجه شبه مع النظام السوڤيتى أكبر مما يبدو لأول وهلة، منها ما حاول تصويره جورج أورديل فى رواية (١٩٨٤)، على الرغم من أن الكثيرين يحبون أن يصوروا هذه الرواية وكأنها مجرد نقد للاتحاد السوفيتى وحده.

فى مثل هذا المناخ من الفرح والتهليل لانتصار المعسكر الرأسمالى، كان ابتداع تعبيرات جديدة لوصف المرحلة الجديدة التى دخلها العالم أمرا مفيدا جدا، بل ولعله كان ضروريا.

كان تعبير «نهاية التاريخ» مفيدا، ولكنه فضلا عما فيه من مبالغة (إذ كم منا يمكن أن يصدق أن العالم سوف يظل رأسماليا إلى الأبد)، كان يصف جانبا صغيرا من جوانب هذه المرحلة التاريخية ولا يصف جوهرها. كذلك كان تعبير «صراع الحضارات» لا يصف جوهر المرحلة الجديدة، بل أحد أعراضها، وحتى هذا العرض كان من الممكن أن يثير اعتراض الكثيرين، كما حدث بالفعل.

كلا التعبيرين (نهاية التاريخ وصراع الحضارات) كانا مع ذلك مفيدين فى الإيحاء، بأن الرأسمالية هى النظام الأبقى، وأن «الحضارة» التى تمثلها هى أفضل الحضارات طرًا.

كان تعبير «العولمة» (Globalization)، إذا قورن بالتعبيرين الآخرين، ذا مزايا لا يستهان بها. فهو ينصب على جوهر المرحلة الجديدة التى دخلها العالم بعد سقوط الكتلة الشرقية (أو هكذا يبدو الأمر على الأقل): تقارب وسقوط الحواجز، وسهولة انتقال السلع والخدمات، ورءوس الأموال والأفكار بدرجة لم يعهدها التاريخ من قبل، كما أن من الممكن للجميع الاعتراف بهذه الحقيقة، حتى لو اختلفوا فيما بينهم حول ما إذا كانت هذه هى نهاية التاريخ أو لم تكن، تنبئ بصراع بين الحضارات أو بحوار وتعايش سلمى فيما بينها. ففى جميع الأحوال لا خلاف على أن ما يحدث هو «عولمة». ولكن الكلمة يمكن أيضا أن تحقق نفس الغرض الذى يحققه التعبيران الآخران (نهاية التاريخ وصراع الحضارات)، وإن كان على نحو أكثر «خبثًا»، ومن ثم أكثر فعالية. فكلمة العولمة، وإن كانت لا توحى إيحاءً مباشرًا بأفضلية النظام الرأسمالى، فإنه من الممكن إذا استخدمت استخداما جيدا، أن تحقق نفس الغرض وتوحى بنفس الإيحاء، إذا فلنتتبع الخطوات الآتية:

١ـ العولمة ظاهرة حتمية (يبدو أن هذا واضح ومن السهل الاقتناع به).

٢ـ إذا كانت العولمة ظاهرة حتمية، فلا جدوى ولا فائدة من محاولة مقاومتها (صحيح أيضا).

٣ـ العولمة فى حقيقة الأمر، انتشار لنظام

والمثقفون المصريون!

معين ونمط معين للحياة، أقرب النظم والأنماط إليه هو - فيما يبدو - النظام والنمط الأمريكي (يبدو أن هذا صحيح أيضا).

٤- إذن فلا جدوى ولا فائدة من الوقوف في وجه انتشار النفوذ الأمريكي، سواء تمثل هذا الانتشار في صورة دخول سلع أو خدمات أو رءوس أموال أو أفلام أو أفكار أو قيم أو أنماط سلوك. (انتهى الاستنباط).

المنطق إذن سلس وواضح، وليس من السهل التشكيك في صحته. فلنروِّج له إذن على بركة الله، ولتعقد المؤتمرات والندوات والمناظرات، ولندعُ المحاضرين والكتاب لمناقشة هذا الموضوع المبهر، متعدد الجوانب، والذي يمس أحدث قضايا الساعة وأشدها أهمية وإلحاحًا، بل يمسها كلها، وهو موضوع «العولمة». ولا يجب أن ندخر مالا في سبيل الإكثار من هذه المؤتمرات والمحاضرات. ولدينا هذه الميزة العظيمة إذا تعلق الأمر بالعالم الثالث: فمثقفو العالم الثالث لا يبتدعون بأنفسهم أي تعبيرات أو ألفاظ جديدة، بل هم قاعدون ينتظرون بلهفة ظهور أي تعبير أو لفظ جديد في العالم المتقدم. فمتى ظهر، سرعان ما يتخذون سمة المفكرين العظام، ويشحذون أذهانهم للبحث عن المعاني العميقة الكامنة وراء هذا التعبير، أو ذلك اللفظ، وعن المعنى «الصحيح» والدفين له. وقد يعترضون على الظاهرة نفسها، التي يصفها هذا التعبير أو يقبلونها، وقد يقول بعضهم إنها ظاهرة قديمة، وبعضهم يقول إنها حديثة جدا. ليس هذا مهمًا، المهم أنهم وقعوا كلهم في الفخ (كما سبق أن شغلوا من قبل بما إذا كان التاريخ قد انتهى حقا أو لم ينته، أو ما إذا كان ما بين الحضارات صراعا أم مجرد حوار). وانطلى عليهم هذا التخفي الجديد للنظام الأمريكي، الذي يبدو أنه يتخفى كل يوم في زي جديد، فلم يتبينوا أنهم، وهم يدافعون عن العولمة بهذا الحماس، إنما يدافعون في الوقت نفسه عن النظام الأمريكي والنمط الأمريكي في الحياة.

ولوسائل الإعلام الأمريكية، والغربية عموما، حاسة قوية جدا قادرة على التقاط الكتّاب والمتحدثين الذين يتمتعون بقدرة على الترويج للأفكار الحديثة، المطلوب تسويقها. وقد عثرت مؤخرا على كنز ثمين في صورة السيد توماس فريدمان، محرر الشئون الخارجية في جريدة النيويورك تايمز، ومؤلف كتاب السيارة ليكساس وشجرة الزيتون: محاولة لفهم العولمة[2]، الذي ظهر في العام الماضي، واكتسب شعبية واسعة، وترجم بسرعة فائقة إلى اللغة العربية، وظهر في طبعة أنيقة أناقة غير مألوفة[3] (فهو مجلد بجلدة سميكة من القماش لا يعرفها قراء الكتب العربية عادة، تعلوها جلدة أخرى ورقية فاخرة كتب عليها اسم الكتاب بحروف ذهبية كبيرة وبارزة، وقد ترجم الكتاب ترجمة رائعة، صحيحة لغويا ودقيقة ومفهومة (على عكس ما نجده عادة فيما نراه من ترجمات إلى العربية)، ولم يكد المثقفون المصريون ينتهون من قراءة الكتاب، حتى وجدوا توماس فريدمان نفسه واقفًا بينهم بدمه ولحمه، مدعوًا لإلقاء بعض المحاضرات، وللالتقاء بهم في ندوات وحوارات، أو على موائد عشاء أو قنوات تليفزيونية، لا تعد عادة بهذه السرعة. وقد قرأت كثيرًا من هذه المقالات أو معظمها، ووقائع هذه الحوارات، كما استمعت إلى تسجيل لحوار دار بين توماس فريدمان والدكتور هشام الشريف أستاذ إدارة الأعمال، بدعوة من الجامعة الأمريكية بالقاهرة تحت عنوان «العولمة والشرق الأوسط»، جرى في هذه الجامعة في ٢٤ يناير الماضي، وأعقب الحوار مناقشة بين فريدمان وبعض المثقفين المصريين الذين حضروا هذا اللقاء.



ولابد أن أبدأ بالتعبير عن إعجابي بالسيد فريدمان كمتحدث ومحاضر. إنه رجل يتكلم كلاما واضحا ومفهوما ومرتبا، وهو لا ينحرف يمينا أو يسارا عن موضوعه في تفاصيل لا جدوى منها للموضوع الذي يتكلم فيه. وهو صريح ومباشر لا يقول كلاما يحتمل مائة معنى. وهو لا يخلو من ملكة أدبية، يحسن استخدام التشبيهات، فيرسم صورًا معبرة عن المعاني التي يريد نقلها، فتنتقل إلى المستمع أو القارئ بسهولة.

عندما سمعت كلامه بعد أن رأيت صوره، رأيت اتفاقا تاما بين الاثنين، فهو في صوره متحمس مندفع، وعمره يبدو في الصور أقل بكثير مما يتوقع المرء لشخص له مثل وظيفته المرموقة وشهرته، ولكنه عمرٌ يناسب هذه الصفات التي ذكرتها.

هذا هو تقريبا كل ما لدي من قول لصالحه، وإن كنت قد وجدت كتابه أيضًا مليئًا بالملاحظات الذكية، التي لا تخلو في كثير من الأحيان من حكمة تفتقر إليها كثير من الكتابات في موضوع العولمة. أخذت أسأل نفسي وأنا أستمع إلى الشريط المسجل لحديثه في ندوة الجامعة الأمريكية: «بأي شيء تذكرني هذه الطريقة في الكلام؟» فوجدت أن أقرب شيء لها، هو طريقة بعض الرجال الذين كنت أراهم على شاشة التليفزيون الأمريكي أثناء زياراتي للولايات المتحدة، وقد عهد إليهم بمهمة الترويج لسلعة ما، كسيارة أو ثلاجة، فإذا بهم ينهمكون في حديث طويل سريع الإيقاع وشديد الحماس، وقد بدوا أحيانا وكأنهم قد حفظوا هذا الحديث عن ظهر قلب دون تفكير أو اقتناع بما يقولون.

لا أريد أن أزعم أن الصورتين متطابقتان تمام الانطباق، فالسيد فريدمان رجل محترم أكثر من ذلك الرجل بكثير، وهو يقول كلاما أكثر ذكاء بكثير وأخف ظلا، ولكن الشبه موجود وإن لم يكن كاملا.

فالرجل يبيع شيئا لاشك في ذلك. وإن كان الشيء المباع في هذه الحالة فكرة، بل فكرة عميقة ومهمة، ولكنه يحاول بيعها على أية حال. والمطلوب حثّ الجمهور وترويضه على قبول هذه الفكرة. صحيح أن الجمهور في هذه الحالة جمهور من المتعلمين تعليما عاليا، بل وكثير منهم من المثقفين، ولكنه جمهور يمكن ويجب ترويضه. ذلك أن النجاح النهائي لهذه المهمة لا يتم إلا بإقناع (أو حثّ) بعض متخذي القرارات الأساسية وأولي الأمر في عدد كبير من الدول، على اتخاذ قرارات تتفق مع مصالح معينة. وهؤلاء الذين يتخذون هذه القرارات يتأثرون بالرأي العام ويحسبون حسابه، وهذا الرأي العام يصنعه في نهاية الأمر، حفنة من المتعلمين والمثقفين، ومن ثم وجب ترويضهم. ومن هنا تأتي أهمية أشخاص لهم مثل كفاءات توماس فريدمان.

ولكن ما الذي يحاول توماس فريدمان بالضبط أن يبيعه؟ إنه ليس إلا فكرة «العولمة» نفسها. فهو يبدأ حديثه بالقول بأن العولمة ليست مجرد موضة عابرة، أو صفة من صفات النظام الجديد، بل هي النظام الجديد نفسه. وهو في هذا لا يبعد كثيرا عن الحقيقة. بل إذا تغاضينا عن تطلب منتهى الدقة، قد لا يبعد عن الحقيقة بالمرة. وهو يقول إنه في ظل هذه العولمة لم يعد توازن القوى كما كان من قبل بين دولة وأخرى، بل بين الدولة والسوق. أو على حد تعبيره، السوق الأعظم (Super Market)، وهو لا يبعد كثيرا عن الحقيقة هنا أيضا.

وهو مصيب كذلك عندما يقول إنه إذا أرادت هذه «السوق الأعظم» إسقاط دولة ما، فهي لا تفعل ذلك عن طريق ترتيب انقلاب، كما كان يحدث في الماضي، بل عن طريق (إغراق) سنداتها، أي عمل ما من شأنه تخفيض قيمة سنداتها، وسمعتها في أسواق الائتمان إلى الحضيض.

وهو يقول كلاما قريبا من الحقيقة أيضا، وإن لم يكن دقيقا، عندما يقول إنه في ظل العولمة، لا يملك أحد «مقاليد السيطرة كاملة» (Nobody is quite in Control)، ولكن الأخطر من عدم الدقة هنا، أنه قول قد يوحي بشيء بعيد جدا عن الحقيقة.

إن فريدمان لا يكاد ينبس قط بتعبير «الشركات متعدية الجنسيات» أو الدولية أو العملاقة، بل لم ترد كلمة الشركات على فمه قط (بل ولا في الكتاب اللهم إلا ربما مرة واحدة في الكتاب كله، وعلى نحو عابر)، بينما الحقيقة فيما يبدو لي، أنه إن كان هناك شيء يقترب من السيطرة شبه الكاملة على ما يحدث في العالم فهو هذه الشركات، والأهم من ذلك أن سيطرة ونفوذ وقوة هذه الشركات قد أصبحت في ظل «العولمة» أكبر منها في أي وقت مضى.

إذن فالقول بأنه في ظل العولمة «لا أحد يملك مقاليد السيطرة كاملة»، إذا فهم منه (كما هو المقصود فيما أظن)، أننا نعيش في هذا العصر، أكثر مما كنا في أي عصر مضى، في ظروف ديمقراطية يتمتع فيها الصغار والضعفاء بحرية أكبر في الحركة والتعبير عن أنفسهم، فإنه يكون قولا مضللا بدرجة كبيرة.

قد يكون فريدمان قد قال هذا القول مدفوعا ببعض الخبث، وقد يكون قاله ببراءة، ولكن «الخبث» يوجد بدرجة أكبر (وإن كان لا يزال مستترا إلى حد كبير)، في مواضع أخرى من حديثه. فهو مثلا وهو يحاول إقناعنا بأن فردا واحدا قد يستطيع تعبئة مقاومة ناجحة لبعض القوى الغاشمة في ظل العولمة، يخاطب جمهوره قائلا: «أنتم مصدر القوة وليس غيركم». وهذا كلام معسول جميل، ولكنه أبعد عن الحقيقة من عكسه، ولا أظن أن شخصا له مثل ذكاء توماس فريدمان، وسعة اطلاعه على ما يجري في العالم، يفتقد حقيقة أننا نحن المساكين أصحاب القوة الحقيقية في هذا العالم!

ولكن الخبث كامن بدرجة أكبر بالطبع، في طريقة فريدمان في حشر إسرائيل والإسرائيليين بداع وبدون داع في كلامه، ولكن الأثر المقصود في جميع الأحوال هو دائما لصالح إسرائيل. والأمثلة على ذلك كثيرة جدا، خاصة في كتابه. فهو كلما أراد أن يضرب مثالا على شيء طيب، مثل الكفاءة العالية، أو التقدم التكنولوجي، أو الحكمة، أو القوة بوجه عام، أو المناعة ضد أي عمل عدائي.. إلخ. نجد بالصدفة المحضة، أن المثل يتعلق بإسرائيل. وكلما أراد أن يذكر أسماء ثلاث أو أربع عواصم من عواصم العالم، نجد أن من بينها مدينة القدس (معتبرا إياها بالطبع، عاصمة إسرائيل). وإذا أراد أن يدلل على أنه لا يقلل من أهمية المحافظة على التراث، يضرب كمثل على ذلك تأييده لما تفعله إسرائيل للمحافظة على تراثها، الذي يمتد في التاريخ لآلاف من السنين!

كذلك يظهر بعض الخبث في رده على سؤال وُجِّه إليه في ندوة الجامعة الأمريكية، عن رأيه في اعتراضات المعترضين خلال انتفاضة سياتل في نوفمبر الماضي. هنا قام توماس فريدمان بدور تمثيلي ممتاز، وهو ينطق باحتقار كلمة «سياتل» ويرددها بنفس الطريقة الساخرة عدة مرات، من أجل أن يسلب أحداث سياتل ما حظيت به لدى الكثيرين من تعاطف وتأييد. وكان محور رده أن «سياتل» هذه ليست سياتل واحدة، بل عدة «سياتلات»، بمعنى أن المعترضين في سياتل على أعمال منظمة التجارة العالمية، وعلى جولات تحرير التجارة، ليسوا في الواقع متحدي الهدف والموقف، بل لديهم أهداف ومواقف مختلفة، يتعارض بعضها مع بعضها الآخر. وهذه حقيقة لا ينكرها، أو لا يجب أن ينكرها المعترضون على مبدأ حرية التجارة، ولكن إدراك هذه الحقيقة لا يضع حدا للقضية، ولا يوجب السخرية مما حدث في سياتل، ولا يمثل «دفاعا» ناجحا عن مبدأ حرية التجارة، ولا يبرئ ساحة منظمة التجارة العالمية. فقد يكون أعداء هذه المنظمة مختلفين وذوي أهداف متعارضة، دون أن يعني ذلك أن هذه المنظمة بريئة مما تتهم به. كل ما هنالك أن تعارض أهداف المعارضين، يجعل مهمة كل منهم أصعب مما يمكن أن يكون، لو اتحدت هذه الأهداف، ويجعل من السهل على منظمة التجارة العالمية أن تستمر في عملها وتستفيد من استخدام هذا ضد ذاك.

كل هذا بسيط ولا يجب أن نتوقف عنده كثيرا، لا عدم الدقة ولا حتى الخبث يجب أن يستوقفنا كثيرا، ذلك أن المهم ليس هو ما قاله توماس فريدمان وطريقة تعبيره عنه، بل المهم هو ما لم يقله. وهذا فيما يبدو هو أيضا الاعتراض الأساسي على أسلوب مروجي السلع والبرامج الدعائية، بما في ذلك البرامج الدعائية السياسية التي كان يذيعها الاتحاد السوفيتي وبقية دول الكتلة الشرقية قبل سقوطها. لتوضيح ذلك، لنتوقف قليلا عند السؤال الذي أثاره فريدمان في ندوة الجامعة الأمريكية، واستغرقت الإجابة عليه الجزء الأكبر من حديثه. السؤال هو: «علام يتوقف نجاح أو فشل دولة ما في عصر العولمة؟ وما الذي يحدد قدرتها على الفوز في هذا السباق الذي أصبح هو السمة المميزة لعصر العولمة»؟

إجابته واضحة ومختصرة، ويلخصها في عشر نقاط (كانت في الكتاب ثماني ثم أضاف إليها نقطتين):

١- ما حجم وقوة اتصالاتك بالعالم الخارجي؟ (وهو يقترح مقياسا لهذا عدد أجهزة الكمبيوتر الشخصي للأسرة الواحدة، وشبكات الاتصال المتاحة للفرد الواحد).

٢- ما درجة سرعتك في الأداء؟ (ويذكر في هذا الصدد أننا انتقلنا من عالم كان الكبير فيه يلتهم الصغير، إلى عالم سمته أن السريع فيه يلتهم البطيء).

٣- ما حجم قدرتك على الاستفادة من المعلومات

والمعرفة التى تحصلها؟: إذ لا يكفى أن تكون واسع الاتصالات، بل يجب أن تكون لديك قدرة عالية على الإفادة منها، وهذا يتوقف إلى حد كبير على العدد الذى تحوزه الدولة من المتعلمين تعليما عاليا.

٤ـ ما وزنك؟ والذى يقصده فريدمان هنا، هو عكس ما قد يظنه القارئ، فكلما كانت الدولة «خفيفة» كان حظها فى النجاح أكبر، إذ إنه يقصد بالخفة والثقل نوع ما تنتجه وتصدره: هل يتكون أساسا من سلع تقليدية «من الوزن الثقيل»، كالحديد والصلب مثلا؛ أم من أشياء خفيفة، كالخدمات والسلع التى تعتمد قيمتها على ما فيها من معرفة وتكنولوجيا متقدمة؟

٥ـ ما درجة انفتاح الدولة على العالم الخارجى؟

٦ـ ما درجة انفتاحها داخليا (أى ما قدر ما يتمتع به أفرادها من حرية، ونظامها من «شفافية»)؟

٧ـ ما مدى كفاءة «الإدارة والمديرين» فى بلادك؟

٨ـ ما حجم قدرتك على جذب الأصدقاء وتكوين التحالفات؟ ذلك أن كثيرا من مشكلات العولمة لا يمكن للدولة حلها منفردة، بل لابد لها من الدخول فى اتفاقات ومعاهدات.

٩ـ ما مدى جودة «العلاقة التجارية» لبلدك؟ أى ما قدرتها على جذب «الزبائن» سواء كان هؤلاء الزبائن مشترين لبضائعها أو مستثمرين فى أراضيها؟

١٠ـ ما مدى استعدادك «لقتل جرحاك»؟ أى أن تدع مشروعاتك وصناعاتك الخاسرة تموت دون أن تبكى عليها، فى سبيل أن تستمر فى الحياة، المشروعات والصناعات الناجحة والعالية الكفاءة، ويشمل «قتل جرحاك» أيضا، مدى قدرتك على طرد العامل

كلما أراد فريدمان أن يضرب مثالاً على شىء طيب مثل الكفاءة العالية أو التقدم التكنولوجى أو الحكمة أو القوة بوجه عام أو المناعة ضد أى عمل عدائى، نجد بالصدفة المحضة، أن المثل يتعلق بإسرائيل

غير الكفء، ومن ثم قدرتك على تعيين عامل آخر أكثر كفاءة فى مكانه.

هذه القائمة السهلة الممتنعة، يصعب أن يجرى عليها التحسين والتبديل، فهى تصيب كبد الحقيقة، إذ هى بالفعل معايير الفوز فى هذا السباق الذى أصبح السمة المميزة لعصر العولمة. إذ من الذى يستطيع أن ينكر أن الفوز فى هذا السباق (كما فى سباقات أخرى كثيرة بما فى ذلك كثير من المسابقات الرياضية) يتوقف على السرعة والخفة والتصميم الذى لا يلقى بالاً لما قد يسببه الفوز من إضرار بالغير.

وعلى جاذبيتك وتحالفاتك، وعلى قدرتك على الاعتراف بأخطائك وتصحيحها؟ الكلام صحيح بقدر ما هو بديهى لدرجة قد لا يحتاج معها إلى كل هذا العناء فى الشرح والتوضيح.

ولكن الصعب هو ما لم يتعرض له توماس فريدمان فى أى حديث استمعت إليه أو قرأته له فى القاهرة. وهو تقييم هذا السباق نفسه، أخلاقيا وحضاريا إنسانيا وتاريخيا. مفهوم

أننا إذا اشتركنا فى هذا السباق نحتاج إلى كل هذه الأشياء من أجل الفوز، ولكن أليس لدى توماس فريدمان أى كلمة يقولها فى «تقييم» هذا السباق؟ هل هو نبيل أم غير نبيل؟ عادل أم غير عادل؟ يعامل الناس بإنسانية أم بوحشية؟ وما التقييم التاريخى له فى مسار التقدم الإنسانى من حيث التوحش والتحضر؟

فى كتابه «السيارة ليكساس وشجرة الزيتون»، تعرض لبعض هذه الجوانب، ولكنه من ناحية يضع التأكيد كله على ذلك «السباق» الملعون، وضرورة الفوز فيه، والمآسى الناتجة عن التخلف عنه. التأكيد كله على «القطار» الذى لن يتوقف كثيرا والضياع والتشريد اللذين سوف يصيبان من لم يلحق به. وهو من ناحية أخرى لا يلتفت إلى التناقض الصارخ بين مراعاة الشروط التى يضعها للأداء الجيد فى هذا السباق، وبين مراعاة جميع الاعتبارات الأخرى: اعتبارات الأخلاق والعدل والإنسانية واحترام الهوية..إلخ. إنه مثلا يعقد فى كتابه

فصلا يتعلق بالهوية والمحافظة على التراث، ويدعو إلى ما يسميه «بالعوحلية»، أى العولمة مع عدم التضحية بقدر الإمكان، بالسمات والخصائص المحلية. ولكن كيف يستقيم هذا مع كل هذه الشروط التى قال بضرورتها من أجل الفوز بالسباق، بما فى ذلك «الاستعداد لقتل جرحاك»؟ إن من الواجب أن تكون «منفتحًا» بشدة، و«خفيفًا» للغاية، و«سريعا» بأقصى قدر؟ فكيف يمكن أن تكون كذلك وأنت «مثقل» بأعباء تراث لا نفع فيه فى السباق، ولا يساعد على حصولك على «علاقة تجارية جيدة»؟. إن الكلام عن «شجرة الزيتون»، وهى التى ترمز للمحافظة على الهوية والشخصية الوطنية، وكل ما هو مثالى أو شخصى أو عاطفى أو روحى..إلخ، هذا الكلام لا يمكن أن يكون إذن، أكثر من محاولة لذر الرماد فى الأعين، من جانب السيد فريدمان، الذى لا يعنيه فى الواقع إلا السيارة ليكساس.

إنى أقدِّر أن من الصعب على رجل يحتل وظيفة مثل وظيفة توماس فريدمان (التى يصفها بأنها أعظم وظيفة فى الوجود)، وهى وظيفة محرر الشئون الخارجية فى صحيفة النيويورك تايمز أن يفعل غير ذلك، فهى وظيفة لا تترك لصاحبها من الوقت أو صفاء الذهن (أم هو صفاء القلب؟) ما يسمح بالاهتمام بهذه الأمور التى يعتبرها آخرون أمورا مهمة. وهؤلاء الآخرون منهم أيضا أشخاص مهمون، بل قد لا يقلون أهمية عن محرر الشئون الخارجية فى تلك الصحيفة السيارة، فمنهم الأنبياء والرسل جميعا، والمصلحون الأخلاقيون والاجتماعيون، الذين أفنوا حياتهم فى محاولة إقناعنا بأن الحياة ليست مجرد سباق، وأن هناك أشياء لا يجوز أبدا أن تباع أو تشترى، بل وكثير من الزعماء السياسيين الذين اهتموا بمسألة الهوية، وحماية الثقافة الوطنية، ومعظم

الكتّاب والروائيين والرسامين والموسيقيين، بل وحتى بعض المفكرين الاقتصاديين الذين شغلتهم مشكلة التوزيع والمساواة أكثر مما شغلتهم مشكلة التنمية، واعتبروا مكافحة البطالة أهم من رفع معدل نمو الناتج القومي الإجمالي.. إلخ. كل هؤلاء لم يعبأ بهم توماس فريدمان، إذ لابد أنه يعتبرهم، هم والمعجبين بهم، من الضعفاء ثقيلي الحركة بطيئي السرعة، المنطوين على أنفسهم أكثر من اللازم، وليس لديهم أي استعداد «لقتل جرحاهم»، وليس لديهم «علاقة تجارية جيدة» تضمن لهم زبائن كثيرين.

أكُلّ هذا الإهمال لهذا النوع من الناس الذين يمثلون أجمل ما في تاريخ البشرية، يكفي لتبريره القول بأن «العولمة حتمية»؟ ولكن ما هو الحتمي بالضبط في العولمة؟ تقليل المسافات وزيادة قدرة الناس على اتصال بعضهم ببعض، أم النمط الأمريكي في الحياة؟ وهل من المستحيل حقا، كما يتصور توماس فريدمان، أن نتصور أحدهما بدون الآخر؟ إن من مصلحة توماس فريدمان بالطبع أن يعامل العولمة والأمركة، كمترادفين، بل كثيرا ما يذكر صراحة أن «العولمة تعني الأمركة»، ولكن هل هذا هو أيضا رأي المثقفين المصريين؟

لا أظن أن المثقفين المصريين قد أعجبهم ذلك[4]، على الرغم من أن الأسئلة التي وجهت إلى فريدمان في أعقاب كلمته في ندوة الجامعة الأمريكية كان يسيطر عليها الشعور «بعدم التصديق» أكثر من الشعور بالغضب. فقد كان السائلون يستوضحونه بأدب ما الذي يقصده بالطبع بهذا القول أو ذاك، مع أن كلامه كان أوضح مما يحتاج إلى مزيد من البيان. وعندما سأله أحد المثقفين المصريين من الحاضرين عما إذا كان راضيا عن كل شيء في العولمة، بما في ذلك التليفون المحمول مثلا، أجاب أنه هو نفسه لا يحب أن يحاط بعدد كبير من الناس من مستخدمي المحمول، لأنه يشوش عليه ويحرمه من الراحة والهدوء. وقد اعتبر توماس فريدمان هذا التنازل الكبير من جانبه كافيا لإرضاء الساخطين على كل ما يهدد آدمية الإنسان في ظل العولمة وتهدئة خواطرهم!



يحاول فريدمان بخبث إقناعنا بأن فرداً واحداً قد يستطيع تعبئة مقاومة ناجحة لبعض القوى الغائبة في ظل العولمة.. يخاطب جمهوره قائلاً: «أنتم مصدر القوة وليس غيركم».. وهذا كلام معسول جميل، لكنه بعيد عن الحقيقة





من الواضح أن توماس فريدمان في أحاديثه في القاهرة، كان يقوم في الأساس بدور «المتحدث الرسمي باسم العولمة». كان ترويجه للولايات المتحدة في حدود ضيقة، (وإن كان كتابه ينتهي بعبارة «حفظ الله أمريكا!»، أو هكذا تنتهي، إذا أردنا الدقة، الفقرة قبل الأخيرة من الكتاب). إنما هو يروِّج أساسا للعولمة، كما كان هو الحال في كتب ومقالات «نهاية التاريخ» و«صراع الحضارات». ولكن من المهم في رأيي أن نلاحظ، وأن يلاحظ المثقفون المصريون والعرب بوجه خاص، أنه في هذه الكتب الثلاثة التي صاحبتها حملات ترويج واسعة النطاق خلال العشر سنوات الماضية، والتي تلت سقوط الكتلة الشرقية، أن «الجرعة الإسرائيلية» تزيد شيئا فشيئا. فهذه الجرعة تكاد أن تكون غائبة في «نهاية التاريخ»، ولكنها موجودة في النبرة العدائية ضد الإسلام والمسلمين في كتاب «صراع الحضارات»، ثم ها هي الجرعة الإسرائيلية واضحة للغاية في كتاب فريدمان الأخير، مما يجعل المرء يتساءل بحق عما إذا كانت العولمة التي تمثلها السيارة ليكساس في هذا الكتاب، والتي ينتصر ويروج لها، هي العولمة بوجه عام أو عولمة معينة تلعب فيها إسرائيل دورا أساسيا؟ وعما إذا كانت شجرة الزيتون التي تمثل في كتابه التمسك بالثقافة الوطنية والتراث والهوية، وتمسك المرء بدينه وتقاليده وقيمه الأخلاقية، والتي لا يبدي فريدمان أسفا كبيرا على ذبولها وموتها، هل هذه الشجرة غير المأسوف عليها تمثل كل أشجار الزيتون، أم كلها باستثناء شجرة زيتون وحيدة يبذل المؤلف كل هذا الجهد لرعايتها وصيانتها ودعم نموها؟

هكذا نرى أن لفظ «العولمة» له من المزايا أكثر مما كنا نظن. فضلا عن المزايا التي يحققها استخدامه مع أي شعب من الشعوب، أو أي منطقة من مناطق العالم، مما أشرنا إليه في بداية هذا المقال، فإن له مزايا وفوائد أخرى عندما يستخدم مع العرب والمنطقة المسماة حاليا «بالشرق الأوسط». فالعولمة في هذه الحالة لا تعني فقط الانفتاح على العالم الخارجي، بسلعه واستثماراته وأفكاره، بل وأيضا التصالح مع إسرائيل، وقبولها كما هي بل وحتى أكبر مما هي. وإذا بالترويج للعولمة، فيما يتعلق بالعرب، لا يعني الترويج لمجرد «الأمركة»، بل لشيء أسوأ من هذا بكثير. ■

الهوامش

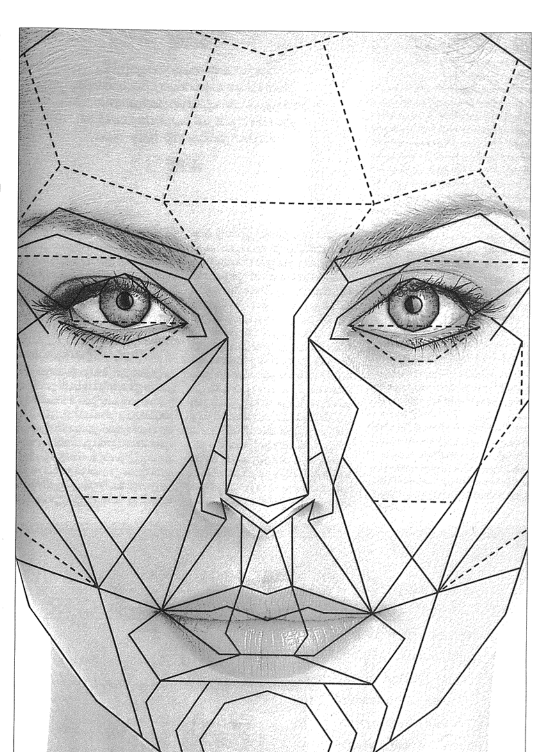
1 - Raymond Aron: 18 Lectures On Industrial Society, Weiden Feld and Nicolson, London, 1968.

2 - Thomas L. Friedman: The Lexus and the Olive Tree: Understanding Globalization, Farrar, Straus and Giroux, N.Y., 1999.

(٣) توماس ل. فريدمان: السيارة ليكساس وشجرة الزيتون، محاولة لفهم العولمة، ترجمة ليلى زيدان ومراجعة فايزة حكيم، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠.

(٤) يظهر هذا أيضا مما كتبه كثير من المثقفين المصريين في نقد كتاب فريدمان، ابتداء من مقال جميل مطر في مجلة «وجهات نظر» (يوليو ١٩٩٩)، إلى مقالات محمود عبد الفضيل وصلاح قنصوة في «مجلة الهلال» (فبراير ٢٠٠٠)، ومقالتي سلامة أحمد سلامة، وصلاح الدين حافظ في جريدة الأهرام (فبراير ٢٠٠٠).

الوجه «الأكمل» و«الأجمل» كما صممه جراحو التجميل.. تتحقق فيه «المعادلة الذهبية» للجمال عند الإغريق، ويلخّص ملامح أكثر الوجوه شعبية وقبولا لدى الجماهير



جراحات تجميل.. أم إعادة تشكيل للجسم البشرى؟!

السبب وراء شعبية جراحة التجميل (حيث أجرى ما يزيد على ١,٩ مليون عملية سنة ١٩٩٦ فى الولايات المتحدة وحدها) هو الطريقة التى تساعد بها الناس على «الانتقال» إلى جماعة اجتماعية يتماثلون معها عاطفيا

فى الصيف الماضى، كسب ثلاثة ممن يرغبون فى التحول من رجال إلى نساء، قضايا الاستئناف التى رفعوها ضد سلطات الصحة المحلية فى الولايات المتحدة، والتى كانت قد رفضت أن تجرى لهم عمليات تحولهم إلى جنس غير جنسهم. وفى قضية شغلت الإعلام فى المملكة المتحدة، ألغت محكمة الاستئناف حكمًا سبق أن أصدرته المحكمة العليا، وقضت ببطلان تصرف السلطات غير القانونى، دون أى اعتبار لما كان «العلاج الصحيح لمرض معترف به». وأهمية هذا الحكم هو أن الراغبين فى التحول من جنس إلى آخر فى بريطانيا، الذين ينتظر حوالى الألف منهم إجراء عمليات جراحية، سوف يكون فى مقدورهم المطالبة بإجراء عمليات تغيير الجنس على حساب هيئة الصحة الوطنية. وعلق محامى الراغبين فى تغيير جنسهم فى نهاية هذه القضية التى طال نظرها، بأن تكلفتها التى بلغت ٢٠٠ ألف جنيه إسترلينى، كان يمكن أن تمول إجراء عشرين عملية تحويل جنس.

وكان قد نُقل عن إحدى الراغبات فى تحويل جنسها، ويرمز إليها بالحرف «أ»، قولها إن عملية تغيير الجنس ضرورية لإنهاء سنوات البؤس. وتعتبر «أ» أن تكوينها الجسمانى الذكورى نوع من «التشويه». والإحساس المؤلم الذى يشعر به رجل «ولد فى الجسم الخطأ، وينبغى أن يكون فتاة بحق ظهر منذ فترة فى رواية جان موريس "Conundrum" (اللغز) (١٩٧٤)، وهى عبارة عن سيرة ذاتية تعد أكثر الروايات إقناعًا لعملية تغيير الجنس حتى الآن. وقد أدت جان التى كانت تعرف وقتها باسم جيمس الخدمة العسكرية، وقد حبست فى جسدها الذكورى، وعملت بصحيفتى الجارديان والتايمز، حيث غطت أخبار الحرب فى فلسطين وصعود قمة

Making The Body Beautiful: A Cultural History of Aesthetic Surgery

(التاريخ الثقافى لجراحات التجميل)

Sander L. Gilman
Princeton University Press, 396pp., $29.95

Survival of The Prettiest: The Science of Beauty

(البقاء للأجمل.. علم الجمال)

Nancy Etcoff
Doubleday, 325pp., $23.95

أحد رجال قبيلة «الهولى» ـ بمرتفعات «بابوا غينيا الجديدة» والتى تقع شمال إستراليا ـ يزين وجهه استعدادا لمهرجان القبيلة السنوى

إيفرست قبل ذهابها إلى الدار البيضاء، حيث أجريت لها عملية لاستئصال جهازها التناسلى الذكورى، وتم تخليق مهبل لها فى عيادة خاصة عالية التكاليف. وفى ذلك الوقت، لم يكن هناك خيار أن تتم العملية مجانًا عن طريق هيئة الصحة الوطنية فى بريطانيا.

وقد عادلت جيمس / جان لغزها بأفكار الروح أو الذات: «إنى أفكر فى الأمر ليس على أنه مجرد لغز جنسى، بل على أنه سعى إلى التوحد». ومنذ ذلك الوقت، والمؤرخون الثقافيون يبحثون الروابط بين مفاهيم الناس عن الجسد الذى يرون أنفسهم يعيشون داخله بصورة مثالية، وبين سعادتهم العقلية. وقدم البروفيسور ساندر جيلمان فى دراسة سابقة عن جراحة التجميل بعنوان Creating Beauty to Cure the Soul (خلق الجمال لعلاج الروح)، حقائق مذهلة عن أصول هذه الأفكار، حيث تتبع فهم فلاسفة عصر التنوير للجسم الجميل، باعتباره تعبيرًا مرئيًا عن الفضيلة الإنسانية. وعلى العكس من ذلك، يدل الجسم القبيح على الروح غير السليمة، ولو صدقنا هذه المحاجة لأصبح أنف اليهودى يمثل روح اليهودى المريضة دومًا.



وفى «خلق الجمال لعلاج الروح»، يركز جيلمان على العلاقة المعقدة بين جراحة التجميل والتحليل النفسى فى أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين، الذى قدم احتمالين متوازيين للتحويل، أحدهما للجسد والآخر للعقل. وبينما يتناول كتاب "Making the Body Beautiful" (تجميل الجسم) الموضوع نفسه، إلا أنه عمل ذو قاعدة أوسع وأقل أكاديمية، كُتب ببعض من مرح أفكار روى بورتر الاجتماعية الطبية، ويتضمن مجموعة لا تنسى من الصور التاريخية قبل التحويل وبعده. ويختلف كتاب جيلمان كذلك فيما يهتم به عن كتاب اليزابيث هايكن "Venus Envy: A History of Cosmetic Surgery" (حسد فينوس: تاريخ جراحة التجميل). فبينما استمدت هايكن معظم نماذجها واستنتاجاتها من الولايات المتحدة، جعل جيلمان مدى كتابه أكثر اتساعًا، ويكشف كتابه عن معرفة أوروبية رائعة.

ويتمحور بحث جيلمان حول فكرة «الانتقال». فقد كان السبب وراء شعبية جراحة

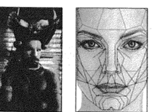
.. عذاب .. أن تولد فى الجسم الخطأ



فيونا ماكارثى

ها هى الأنوف الأيرلندية الصغيرة المائلة لأعلى التى كانوا يسخرون منها فى يوم من الأيام، وكانت تدل على الطبقات المهاجرة المشكوك فيها التى تعمل بالخدمة، تصبح النموذج الأمريكى والإنجليزى الذى يحتذى فى منتصف القرن العشرين. وأصبح لنجمات السينما أنوف ترتفع لأعلى عند أطرافها







التجميل (حيث أجرى ما يزيد على ١,٩ مليون عملية سنة ١٩٩٦ فى الولايات المتحدة وحدها) هو الطريقة التى تساعد بها الناس على «الانتقال» إلى جماعة اجتماعية يتماثلون معها عاطفيا. وكان جراحو التجميل الأوائل، بما كانوا يجرونه من عمليات ترقيع بدائية باستخدام قطع من الجلد، يعملون على إزالة الأدلة السطحية للأصول العنصرية غير المقبولة أو الأمراض غير المرغوبة. ويذكر جيلمان الجراح الإيطالى جاسبارى تالياكوتسى من القرن السادس عشر، باعتباره مبتكر تكنيكات الترقيع لزرع أنف مكان أنف أتى عليه مرض الزهرى. وكانت لتلك الأنوف «الوهمية» مساوئها. فكثيرًا ما كان لونها يزرق فى الطقس البارد. كما أن اللكمة القوية قد تخلعها. ولكن ما كان يبقى أكثر هو مفهوم تالياكوتسى الإنسانى، وهو أن أى شخص بلا أنف كان لابد أن يكون تعيسًا، وأن هذه التعاسة قد تؤدى إلى المرض.

واكتشف «علاج» الأنف المفقود عام ١٧٩٤ فى الهند، وكانت وقتها خاضعة للحكم البريطانى الاستعمارى. وكانت أخبار «العملية الجراحية شديدة الغرابة غير المعروفة فى أوروبا»، التى تنطوى على استخدام رقع جلدية من الجبهة قد انتشرت فى لندن من خلال مجلة «جنتلمانز مجازين». وفى بداية القرن التاسع عشر فى ألمانيا، كان يوهان فردريش ديفينباخ رائدًا فى اتباع طرق أكثر تقدمًا باستخدام قصبة الأنف لإعادة بناء الأنف الذى أسقطه الزهرى. وفى عام ١٩٩٢، ذبح جراح التجميل الأمريكى روبرت ف. فير، بطة حية فى غرفة العمليات واستخدم عظم صدرها كبديل لقصبة الأنف لرجل فى السادسة والعشرين أصيب بالزهرى.

وكان مصطلح جراحة التجميل، المستخدم منذ أوائل القرن التاسع عشر، ينظر إليه فى أول الأمر على أنه جراحة الأنف. ويقدم لنا جيلمان تواريخ مفصلة للحالات، ومؤلمة فى كثير من الأحيان، لأنوف اليهود، والأنوف الأيرلندية (التى غالبًا ما تربط بآذان الكيزان الشهيرة)، والأنوف الشرقية، والأنوف الزنجية، والأنوف المتورمة، كتلك التى كانت تظهر فى كاريكاتير ج. بيربونت مورجان القاسية. وهو يلعب بما يقال عن أن أنف الرئيس كلينتون به صفة مضحكة مشكوك فيها تعود فى أصلها إلى و.ك. فيلدز.

وابتكرت جراحة جديدة لتحويل الأنوف التى ينظر إليها على أنها أدنى من الناحية العنصرية إلى ملامح مقبولة اجتماعيًا. وعند تحويل أنف «الملاكم» الخاص بالمهاجر الأيرلندى إلى أنف أمريكى حقيقى، أجرى الجراح جون أورلاندو رو من أواخر القرن التاسع العملية داخل الأنف، بحيث لم يكن هناك أى أثر للجرح. وأتقن رو كذلك طريقة لكشط الأورام من على وجه رجل سكير بطريقة كان يمكن أن تحول وجهه إلى وجه رجل من عائلة طيبة. «يمكن للمرء أن يغير ملامح سكير ـ ولكن هل فى مقدوره أن يغير شخصيته؟»، إن مثل هذا السؤال وغيره هو مركز اهتمام كتاب جيلمان.

وهو يروى قصة غريبة ومرعبة، ومضحكة جدًا فى الغالب، عن تغيير الرغبات. وتلاشى إلحاح إخفاء الأصول العنصرية بالقبول الاجتماعى للأعراق التى كانت مهمشة فى الماضى. فها هى الأنوف الأيرلندية الصغيرة المائلة لأعلى التى كانوا يسخرون منها فى يوم من الأيام، وكانت تدل على الطبقات المهاجرة المشكوك فيها التى تعمل بالخدمة، تصبح النموذج الأمريكى والإنجليزى الذى يحتذى فى منتصف القرن العشرين. وأصبح لنجمات السينما أنوف ترتفع لأعلى عند أطرافها، مثل الممثلة الإنجليزية كاى كيندل التى شكل أنفها على هذه الصورة جراح التجميل النيوزيلندى الشهير أرشيبولد ماكينود بطريق الخطأ.

وبحلول منتصف سبعينيات القرن العشرين، وهى فترة بزوغ فجر التفاخر العرقى، أعيد النظر فى العمليات التى تجرى لجعل السود يبدون أقل شبهًا بالزنوج. فقد بات من الخطأ المبالغة فى التصحيح وخلق أنف لا يتناسب من الناحية العنصرية. وأصبح الأنف اليهودى الذى كثيرًا ما يعاب موضع حب، بل وتوقير، فى حالة باربرا سترايسند التى ينظر إليها على أنها وجه مقبول لليهودية.

وكان تقدم تقنية التخدير، وتطهير الجروح هو ما سمح بانتعاش جراحة التجميل، التى تطورت بانتهاء القرن التاسع عشر فى أهدافها إلى ما يتعدى بكثير تصحيح الوجه أو الفرق العنصرى. ويحثنا جيلمان على أن ننظر إلى طموح كل من الجراحين والمرضى المتزايد فى سياق الحركات الفكرية والثقافية التى شهدتها أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العشرين. فقد كانت جزءًا مما يسميه جيلمان «بحرًا من التغيير فى تصورنا لأنفسنا ولأجسادنا».

ونشأ مفهوم جراحة التجميل كمهنة رومانسية بين الجراحين اليهود الألمان فى تلك الفترة. وكان جاك جوزيف، وهو أكثرهم جميعا من حيث تأثيره، يرى نفسه نحاتًا للشكل البشرى، وكان يستخدم تكنيكات من جراحة تجميل الأنف لجعل ملامح مرضاه قريبة من النموذج الكلاسيكى الفنى. وكان الوجه الأنثوى الكامل عنده ذا «بروفيل يونانى رومانى بزاوية وجه قدرها ٣٣ درجة»، ومن المثير أنه استخدم صورة زوجته (غير اليهودية) كنموذج، مشيرًا إلى تشابهه مع صورة امرأة رسمها ليوناردو دافنشى بالقلم الرصاص.

وتغلب جراحو التجميل على مكانتهم المنخفضة نسبيًا فى أوائل القرن العشرين لكى ينالوا الاحترام، بل والتزلف. وفى الحربين العالميتين أصبحوا أبطال الساعة. وذاعت شهرة جاك جوزيف عام ١٩١٦، عندما تولى مسئولية قسم الجراحة التقويمية فى المستشفى الخيرى ببرلين، حيث عالج الجروح الفظيعة التى انتشرت فى حرب الخنادق، وسببها أن وجوه الجنود كانت مكشوفة فوق مستوى المتاريس. وأفضل ما فى كتاب جيلمان، فصل متألق عن الجراحات التكميلية، حيث يعلق بإحساسه شديد السخرية أحيانًا قائلاً: إن النجاح الحقيقى كان يحدث عندما يعود المريض إلى وحدته العسكرية كى يقاتل من جديد.

وكان لـ «المحارب المصاب فى قدرته الجنسية»، كما يسميه جيلمان، موضع بارز ومتأرجح فى ثقافة القرن العشرين. وربما كان جيلمان يشير بذلك إلى سلسلة غريبة تضم اثنين وسبعين رسمًا بعنوان «دراسات لجروح الوجه»، قام بها عام ١٩١٦ فنان بريطانى اسمه «هنرى تونكس»، عندما ألحق بوحدة هارولد جيليز لجراحة الوجه التكميلية بمستشفى كمبريدج فى ألدرشوت. وهذه الرسومات شديدة الدقة، موجودة حاليا فى كلية الجراحين الملكية بلندن. والإحساس بأبهة الجندى المحطمة أمر مؤلم فيما رواه هيمنجواى فى رواية "A Moveable Feast"، وهى عن المحاربين القدماء الفرنسيين الذين شاركوا فى الحرب العالمية الأولى "Les Gueules Cassées"، حيث كانت أشرطة صليب الحرب معلقة فى طيات صدورستراتهم. «كان هناك دائما لون لامع يكاد يكون متعدد الدرجات فى الوجه الذى أجرى به قدر كبير من الجراحات التكميلية، بدلا من أن يشبه منحدر التزلج الذى سوى تسوية جيدة». ومع أن شكل هؤلاء الرجال مخيف، فقد ظلوا يحظون بالاحترام. ويشير جيلمان كذلك إلى الكونت لازلو ألماسى الذى دمر جسمانيًا، ولكنه كان لايزال واضحًا بقوة فى رواية مايكل أونداتجى «المريض الإنجليزى». فقد خلق أونداتجى «وجه البطل الرمزى وجسده المحروقين حرقًا فظيعًا كعلامة تشير إلى المعارضة الكاملة للحرب».



وشجع الجو البغيض الخادع فى ألمانيا النازية، عناصر الجراحة التكميلية المريبة. فقد قامت بدورها فى صنع آلة هتلر الحربية الكاملة. ففى عام ١٩٣٥، سمح قانون جديد للدولة بإعادة تشكيل جسم أى جندى «رغما عنه إذا اقتضت الحاجة، لاستخراج أقصى ما يمكن من لياقته». وفى إيطاليا الفاشية، كانت الأوامر تصدر لضباط جيش موسولينى بفحص جفونهم، وشدها عند الضرورة بعملية جراحية لتحسين رؤيتهم. وكان اليهود فى عهد الرايخ الثالث يجرون جراحات تجميل كى «يختفوا». وأصبح العضو الذكرى الذى أجرى له الختان أشبه بالكابوس. وكان يطلب من الذكر اليهودى المشتبه فيه الذى يستجوب فى شوارع برلين فى آخر المطاف أن يخلع سرواله. وكان العرب قد دربوا أفراد الاستخبارات الألمانية على التمييز بين الجروح التى تتم فى اليوم الثامن والعشرين بعد الولادة، التى تميز أى مسلم، والجروح التى تتم فى اليوم الثامن، التى تكشف أى يهودى.

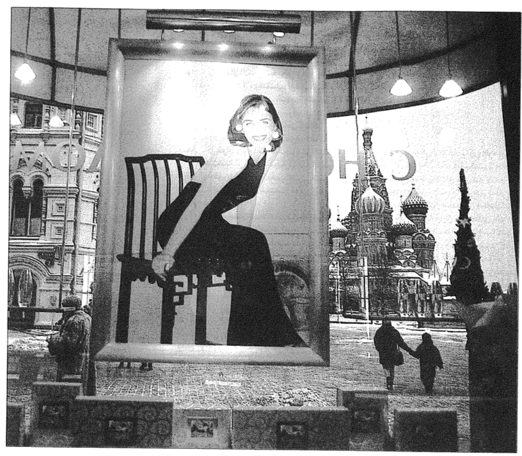
ويكاد يكون من الممكن نقض الختان، مثلما أن إجراءه ممكن. ويعثر جيلمان على نماذج رومانية من العمليات الجراحية لإطالة القُلفة (وهى جلدة الذكر التى تقطع فى الختان) أو تقليدها. وكان اليهود الذين تأغرقوا قد لجأوا لهذه العمليات كى يشاركوا فى الألعاب الرياضية اليونانية، التى كانت محظورة على الرجال الذين أجرى لهم الختان ـ مثلما كان اليهود المتأخرون المستبعدون من المبارزة يذهبون إلى جراحى التجميل لعمل آثار جروح مزيفة للإيهام بأنها ناتجة عن المبارزة. ويشير جيلمان إلى الطلب المتزايد بشدة على نقض الختان خلال العقد المنصرم فى الولايات المتحدة. والاندفاع نحو الترميم الجراحى للعضو الذكرى، الذى بلغ حد «الصناعة الصغيرة»، كان يتم على خلفية من الهجوم على الختان، باعتباره ممارسة فيها إساءة قاسية إلى الأطفال، ولا ضرورة لها من الناحية الطبية، ومن انخفاض عدد الأطفال الذكور الذين تجرى لهم عملية الختان ذاتها. غير أننا نجد مرة أخرى أن الرغبات الإنسانية متغيرة. فطبقًا لما ذكره جيلمان، فإن العضو الذكرى «غير المجروح» يعد فى الوقت الراهن هو المرغوب فى دوائر الشواذ فى نيويورك سيتى، بينما العضو الذى أجرى له الختان مرغوب أكثر فى نفس السياق الاجتماعى بألمانيا.

مادام لكل من الرجل والمرأة مؤخرة، فلماذا نجد أن شد المؤخرة فى المقام الأول عملية أنثوية، مثلها مثل تصغير وشد النهود؟ يبين جيلمان كيف أن بعض كتب أوائل القرن العشرين مثل كتاب هافلوك إليس "Studies in Psychology of Sex"، (دراسات فى علم النفس الجنسى)، كانت تتبع نظريات تشارلز داروين التناسلية التى كانت تركز على المؤخرة باعتبارها صفة جنسية ثانوية أنثوية تشتهى بشدة فى الثقافة الأوروبية. وعندما أتقن جراح التجميل البرازيلى إيفو بيتانجوى فى السبعينيات عملية شد المؤخرة التى قلدت على نطاق واسع، قلل ذلك التركيز على النهود وأعاد التركيز على المؤخرة، ليصل إلى صورة لشكل الأنثى يشبه إلى حد كبير «فتاة» إليس الإنجليزية ـ بل وبطلات السير جون بيتجمان المثيرات فى ملاعب التنس بالضواحى.

وطوال قرون عديدة، كانت الأثداء المتدلية تعد دليلاً على الغرابة والبدائية. وتشير دراسة هيرمان هاينريش بلوس الإثنوغرافية عن «المرأة» التى نشرت لأول مرة عام ١٨٨٥، إلى أثداء الجنس «الأسود» على أنها تشبه ضرع الماعز. بل بلغ الأمر بعالم الأنثروبولوچيا «هانز فريدنتال» أن يزعم فى مقالته التى نشرها سنة ١٩٢٧ بعنوان "Muttersprache und Mutterbrust" (لغة الأم وثدى الأم)، أن بنية اللغة البدائية كان يشكلها ضغط ثدى الأم البدائى، مشيرًا إلى أنماط التنشئة بين «الهوتنتوت والبوشمن» وعلى «الأصوات الغريبة الخاصة بلغتهم التى تنسجم مع أثداء الأمهات الشبيهة بالهراوات التى شكلت الشفاه أثناء رضاعة الطفل».

وليس مستغربًا أن التطور الحديث لجراحة تجميل الثدى، تبدأ بالمطالبة بتصغير الحجم. وقد بذل جراحو الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر جهدًا كبيرًا فى تطوير التكنيكات لبلوغ الشكل المثالى لثدى «المرأة الحديثة»، حيث حلت الأثداء الأكثر استدارة صغيرة الحجم محل الأثداء الكبيرة الثقيلة التى عفى عليها الزمن، مما يخفف الضغط على عضلات الظهر ويزيد الثقة بالنفس. وبعد مائة سنة مازال تشكيل الأثداء مرتبطًا بالعرق. ففى البرازيل تشيع عمليات تصغير الثدى بين عائلات الطبقة الوسطى العليا، وكثيرًا ما تقدم كهدية عيد الميلاد لبناتها، عندما تبلغ الفتاة منهن السادسة

شجع الجو البغيض الخادع فى ألمانيا النازية، عناصر الجراحة التكميلية المريبة. فقد قامت بدورها فى صنع آلة هتلر الحربية الكاملة. ففى عام ١٩٣٥، سمح قانون جديد للدولة بإعادة تشكيل جسم أى جندى «رغما عنه إذا اقتضت الحاجة، لاستخراج أقصى ما يمكن من لياقته»



فى أيام «الاتحاد السوفيتى» كان مثيلاتها يوصمن «بالتهتك».. ولكن فى يومنا هذا «تلعلع» صورة «السوبر موديل» منتصرة فى نافذة محال مستحضرات التجميل.. فى الميدان الأحمر

عشرة لتمييزهن عن المراهقات من الطبقات الأدنى، التى تَصِمهُن أثداؤهن الثقيلة بأنهن «سوداوات». وعَلى العكس من ذلك، نجد أن الفتيات فى الأرجنتين يملن إلى طلب إجراء عمليات لتكبير الأثداء، تمشيًا مع المفهوم الأسبانى الخاص بكون المرأة ذات النهود الكبيرة مثيرة جنسيًا. وطبقًا لما يقوله جيلمان، فإنه فى هذه الحالة أجريت مليون عملية تكبير للثدى منذ عام ١٩٧٠، وهو ما يساوى واحدة من بين كل ثلاثين أرجنتينية.

والرد الطبى على رغبة الكثير من النساء كبيرات السن فى أن «يتحولن» إلى نساء أصغر سنًا له تاريخ ليس مشرفا على الدوام. ويحدد جيلمان «نموذجين كلاسيكيين». الأول، هو إعادة الشباب الكامل للجسم بوسيلة مثل حقن منى الكلاب (وهو ما فعله براون - سيكوار فى پاريس عام ١٨٨٩، وزرع خصيتين كاملتين تبرع بهما أحد القرود - رغمًا عنه كما يبدو - (وهو ما قام به سيرج أفراموفيتش فورونوف فى پاريس كذلك بعد حوالى عشر سنوات)، ونظام «شتايناك» الخاص بقطع القناة الدافقة الأحادى، الذى كان يغمر الجسم الذكرى العجوز بإضافات «غدة البلوغ». وكانوا يزعمون أن هذا يؤدى إلى زيادة كبيرة فى إحساس المريض بالسعادة. غير أنه عندما أجريت لفرويد عملية «شتايناك» عام ١٩٢٦، بعد إصابته بسرطان فى الفك، أملاً فى أن إعادة الشباب سوف يساعده على الشفاء، كان هو يدرك أنه لا فائدة بالمرة.

وتغطى فئة جيلمان الثانية، العمليات الجراحية لإعادة الوجه والجسم إلى ما يشبه الشباب. كانت هناك زيادة ضخمة، ومازال تتقدم فى الطلب على مثل هذه الأنواع من العلاج منذ إجراء الجراح والمؤرخ الثقافى يوجين هولندرز، أول عملية شد وجه لامرأة من الطبقة الأرستقراطية البولندية عام ١٩٠١. وبينما ظلت الجراحة التكميلية على مستوى مستقر إلى حد ما على مدى العقد الماضى، فإن أحدث الأرقام الصادرة عن الجمعية الأمريكية لجراحى التكميل والتجميل، تبين أن هناك زيادة مقدارها ١٣٥ بالمائة فى «التحسينات التجميلية» التى أجراها جراحو التجميل من عام ١٩٩٢.

ويمكن إرجاع الزيادة فى جراحات التجميل، إلى تقدم التكنيكات والعمليات الأقل خطورة والشفاء الأسرع فى عمليات شد الوجه، التى تتم فى عطلة نهاية الأسبوع، والجراحة السعيدة. وتبدأ عمليات إعادة الشباب فى سن أصغر، وينصح بعض جراحى التجميل فى نيويورك بإجراء عمليات «صيانة» سنوية، مثل إزالة الدهون من الرقبة، والقضاء على التجاعيد المثيرة للقلق للنساء بين الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين.



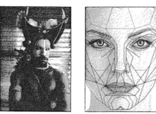
وفى الوقت الراهن، هناك قدر أقل من الاحتيال المرتبط بجراحة التجميل، غير أنه يظل هناك سؤال - يسأله جيلمان بذكاء وإنسانية وبإصرار - وهو إذا ما كان المظهر الجديد يخفى وحسب المشكلات القديمة، ويخلق مشكلات جديدة غيرها فى أحيان كثيرة أم لا. وعندما نستفيد مما تقدمه جراحة التجميل، هل نقلل بذلك توقعاتنا الخاصة بالتغير الإنسانى، أى بوقار الشيخوخة؟ ما هذا الذى نفعله بأنفسنا؟

فى أواخر القرن التاسع عشر، كان معظم المرضى الذين أجريت لهم جراحات تجميل من الرجال، وتبين الأرقام الحديثة الصادرة من الولايات المتحدة، ارتفاعا فى عدد المرضى الذكور الذين تجرى لهم عمليات شفط الدهون، وجراحة الجفون، وشد الوجه، وغيرها من العمليات «التجميلية». فقد بلغ عددهم ٩٩ ألفا عام ١٩٩٨، مقابل ٥٥ ألفا سنة ١٩٩٢، غير أن أرقام النساء تزداد بمقدار عشر مرات تقريبا. فقد صارت عمليات التجميل أمرًا تسيطر عليه النساء فى القرن العشرين، وكان رد فعل الحركات النسائية تجاهها فى التسعينيات مقسمًا تقسيمًا عميقًا، بل وحادًا فى كثير من الأحيان.

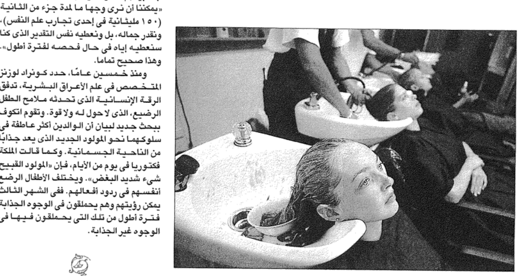
وقد عبرت ناعومى وولف فى كتابها "The Beauty Myth: How Images of Beauty Are Used Against Women" (خرافة الجمال: كيف تستغل صور الجمال ضد المرأة)، كأقوى ما يكون التعبير عن وجهة نظر الحركات النسائية التى تتسم عادة بالارتياب من جراحة التجميل، باعتبارها مؤامرة رأسمالية رجالية. وفى هذا الكتاب، تقول وولف أن مصلحة جراحى التجميل المالية المباشرة الكامنة فى عدد العمليات التى تجرى وحجمها، خلقت مناخًا ثقافيًا تم فيه توجيه المرأة نحو الشعور بأنها قبيحة وشكلها غير ملائم. وعليه، فهى بحاجة إلى علاج. وهى توجز ذلك بقولها: «تنشر الصناعة الإعلانات وتحصل على التغطية الإعلامية، بينما تنال المرأة الجروح. وهذا السطر من المحاجة لا يحظى بتأييد من جيلمان الذى يشير إلى أعداد النساء الضخمة التى تبحث عن العلاج وتنكر احتمال أنهن جميعا لا يتمتعن بالذكاء.

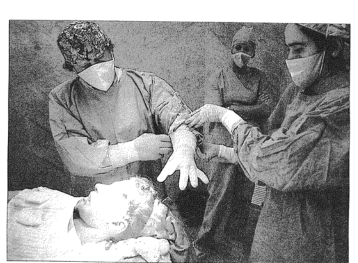
أما وجهة النظر النسائية البديلة، فترى جراحة التجميل على أن فيها تمكينا للمرأة، إذ إن بها تكون المرأة مسئولة مسئولية تامة عن جسمها، ويمكنها إصلاحه إن هى اختارت ذلك. وكان عنصر الاختيار هذا هو العامل الحاسم فى تعليق كاثى ديفيز الغاضب أحيانا "Reshaping the Female Body: The Dilemma of Cosmetic Surgery" (إعادة تشكيل جسم المرأة: معضلة جراحة التجميل)، الذى يقودها إلى نتيجة مفادها أن عملية تصغير البطن يمكن أن تكون صحيحة فى واقع الأمر من الناحية السياسية. وهنا يقدم جيلمان رأيًا تاريخيًا مفيدًا بشأن الدور الفعال الذى يقوم به المرضى فى بدء العلاج. فعلى سبيل المثال، توصلت السيدة الأرستقراطية البولندية التى أجرى لها هولندرز العملية، إلى أول استشارة لها من خلال رسم مفصل يبين كيف أن أثر إزالة جلد الوجه من أمام الأذن سوف يضيق ركنى الفم والثنية الأنفية، وكانت هى التى صممت شكلها الجديد. ويمكن القول بأن أول عملية شد وجه كانت تخصها أكثر مما تخصه هو.

وأكثر المداخلات إثارة فى هذه المحاجة، تأتى من الدكتورة نانسى اتكوف الطبيبة النفسية، التى يقدم كتابها "Survival of the Prettiest: The Science of Beauty" (البقاء للأجمل: علم الجمال)، ردًا سريعًا على ما



تبدأ عمليات إعادة الشباب في سن أصغر، وينصح بعض جراحي التجميل في نيويورك بإجراء عمليات «صيانة» سنوية، مثل إزالة الدهون من الرقبة، والقضاء على التجاعيد المثيرة للقلق للنساء بين الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين





كله تجميل.. سواء كانت العملية صباغة شعر أو قصّه أو إضافة بعض الحمرة على الخدين.. أو كانت العملية جراحة شد وجه وتقويم أنف

قالته ناعومي وولف. فالجمال ليس خرافة فيما يتعلق بالمنشأ الثقافي أو خلق المعلنين الموجهين للآراء. وترى وولف الأمر على أنه متأصل في طبائعنا، حيث تزعم أن ما نقوم به من «سعي حثيث نحو الجمال يعكس آثار غريزة أساسية ما». وهي تنقل عن أفلاطون قوله: «أماني المرء الثلاث هي أن يتمتع بالصحة، وأن يكون غنيًا بالوسائل الشريفة، وأن يكون جميلا». كما تورد افتراض جورج سانتايانا، بأنه لابد أن «في طبيعتنا ذاتها ميلا أساسيا وشائعا إلى مشاهدة الجمال وإلى تقديره».

وردها المحدد على وولف، هو أن شارع ماديسون، حيث تجري أغلب جراحات التجميل، يستغل أفضلياتنا العمومية ولم يخلقها. وتتراوح مراجع اتكوف بصورة محيرة بين دوريات الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس الأكاديمي، وبين كتب تاريخ الموضة والجمال الأكثر شعبية، وكتاب هنري جيمس "Letters"، وكتاب أوفيد "Erotic Poems"، وملاحظتها هي شديدة المعاصرة والحرفية للطريقة التي يتصرف بها الناس. وهي تزعم أن تقييم مظاهر الناس وتقدير مدى جاذبيتهم عملية آلية ومستمرة. كما تقول: «يمكننا أن نرى وجها ما لمدة جزء من الثانية (١٥٠ مليثانية في إحدى تجارب علم النفس)، ونقدر جماله، بل ونعطيه نفس التقدير الذي كنا سنعطيه إياه في حال فحصه لفترة أطول». وهذا صحيح تماما.

ومنذ خمسين عامًا، حدد كونراد لورنز المتخصص في علم الأعراق البشرية، تدفق الرقة الإنسانية الذي تحدثه ملامح الطفل الرضيع، الذي لا حول له ولا قوة. وتقوم اتكوف ببحث جديد لبيان أن الوالدين أكثر عاطفة في سلوكهما نحو المولود الجديد الذي يعد جذابًا من الناحية الجسمانية. وكما قالت الملكة فكتوريا في يوم من الأيام، فإن «المولود القبيح شيء شديد البغض». ويختلف الأطفال الرضع أنفسهم في ردود أفعالهم. ففي الشهر الثالث يمكن رؤيتهم وهم يحملقون في الوجوه الجذابة فترة أطول من تلك التي يحملقون فيها في الوجوه غير الجذابة.



وتصف اتكوف مدى سيطرة «النظرة» على تعاملاتنا مع بعضنا البعض، وإن كان هذا بلا وعي. فالذين يوصفون بالجمال، رجالا كانوا أم نساء يعاملون معاملة فيها تفضيل، وهم يجدون شركاء حياة بطريقة أيسر، كما أن إمكانية حصولهم على وظائف أحسن، وغالبًا ما تصدر ضدهم أحكام أخف في المحاكم، وهم يحصلون على العون والمساعدة بطريقة أسهل، وعندما عرضت على خمسة وسبعين طالب جامعة، في اختبار أجراه أحد علماء النفس، صورًا فوتوغرافية لنساء على درجات متفاوتة من الجاذبية، وطلب منهم أن يقولوا أي منهن سوف يسرعون بنقل أثاثها، أو إقراضها المال، أو التبرع لها بالدم، أو التبرع لها بالكلى، أو إنقاذها من مبنى يحترق، وغيرها من أعمال الفروسية، حصلت الجميلات على أكثر الإجابات كرمًا في كل المجالات ما عدا إقراض المال. ويبدو أن الرجال أقل احتمالاً لأن يطلبوا مساعدة النساء جميلات المنظر. وبالطبع فإن مثل هذه الإجابات التي أظهرها الاستبيان، تثير أسئلة عن مطابقتها للسلوك الفعلي، وهي مسألة يصعب بحثها.

فيم يكمن الجمال إذن؟ تزعم اتكوف أن الجنس البشري يرى أن الجمال هو «تلك الصفات الجسمانية التي توحي بصلاحية الزواج، والقدرة على الإنجاب، والصحة، والشكل الجيد». وهذه صفات عامة وتخضع لتأويلات مختلفة في كل ثقافة. وتظل أسباب الاختلافات المعينة غامضة فيما تقوله اتكوف. وفي الماضي رأى علماء الأنثروبولوجيا وعلماء النفس أن الوجه الجميل «متوسط»، بمعنى أن تكون له ملامح أواسط الناس - وهي قراءة ترتبط بنظريات جيلمان عن «الانتقال». غير أن اتكوف تورد المزيد من البحث كي توحي بأنه في ثقافتنا التي تضع في اعتبارها المشاهير، نجد أنه من بين أجمل النساء جميعا، تختلف قليل من ملامح الوجه «المتوقعة» عن المألوف. فشفاه ناعومي كامبل وكريستي تيرلنجتون تختلف عن شفاه معظم الناس. كما أن ما لدى كيت موس من «عظمتي فك ناتئتين وخط فك رقيق» لا يمكن تقييمه على أنه عادي. وفي دنيا السحر والجمال هناك كذلك تركيز غير عادي على الشباب، وعندما يتم إدخال نسب وجه فتاة غلاف على مجلتي «فوج» و«كوزموبوليتان» في الكمبيوتر، فإن المرء يخمن أنهما طفلتان بين السادسة والسابعة من العمر.

ويمكن أن يسيطر الاعتقاد بكون المرء جذابًا أو غير جذاب على حياته. وتستشهد اتكوف بتولستوي، الذي كان يرى أنه لا أمل في السعادة على الأرض بالنسبة «لرجل بمثل هذا الأنف العريض، وهاتين الشفتين الغليظتين، وهاتين العينين الرماديتين الضيقتين كما هو حالي». ولكن المرء يتساءل إذا ما كان تولستوي أو بالأحرى جورج إليوت كان سيكتب بمثل ذلك الطموح أو ذلك العمق لو أنه كان أكثر جمالاً بالمعنى التقليدي. ويحدث الوعي بعدم القبول الجسماني ردود فعل قوية في كثير من الأحيان. وتنكر اتكوف خلال مراجعتها لأعداد الأمريكيين الذين أجروا طواعية عمليات تجميل تنطوي على شق جلدهم أو حرقه، أو شفط دهونهم، أو زرع مواد غريبة، أن هذا يشي بثقافة مريضة داخل أمريكا في الوقت الراهن. خلال التاريخ البشري، قام الناس بعمل ندوب في أجسامهم ولونوها وثقبوها وحشوها وصلّبوها ونتفوا شعرها ولمعوها باسم الجمال. وحقيقة أن أربعمائة امرأة كانت تجرى لهن عمليات زرع أثداء قبل منع هيئة الأغذية والأدوية لها عام ١٩٩٢، قد تشير إلى درجة متزايدة من التهور والطيش. ولكن التصرف بطريقة تورد الإنسان موارد الألم والخطر ليس بالأمر الجديد.

وكما هو حال الأثداء، فإن عدم رضا الرجل عن عضوه، يمكن أن يدفعه إلى أشكال يائسة من العلاج. والدافع الرئيسي وراء قيام عشرة آلاف أمريكي لجأوا إلى الجراحة لإطالة أعضائهم أو زيادة عرضها ليس في كثير من الأحيان، هو انتقاد شريكة الحياة، أو ما تصفه اتكوف بأنه «فوبيا غرفة خلع الملابس»، أي السخرية التي يتخيلها الرجل من أقرانه. وربما زادت حدة الفزع بعد التقارير التي تشير إلى حدوث انخفاض عام في حجم العضو الذكري الأمريكي.

ورغم أنها تقول في مقدمتها بأن محاجتها سوف ترشدها الأبحاث المتطورة في العلوم المعرفية وعلم النفس الارتقائي، وجدت نفسي أتمنى لو كان كتابها أكثر علمية وأقوى من الناحية الفكرية، وخاصة فيما يتعلق بمسألة مدى ثقتنا في نتائج الاستبيانات. وهي تكتب بأسلوب جذاب، غير أنها تفتقر إلى قدرة جيرمين جرير على أن تكون لها نظريتها الخاصة بها فيما يتعلق بوضع ما يبرر قبول جراحة التجميل. وكتابها المثير للتفكير يجعلني أعيد النظر في الأفكار المكتسبة عن الملاحظة والمتعة والسحر والموضة والجمال الطبيعي والاصطناعي، ويترك لدى شعورا بأنه مازال هناك الكثير الذي يجب أن يقال. ■



حديث عيسى بن هشام
محمد المويلحى

(٣)

العزلة فى العلم والأدب

قال عيسى بن هشام: واعتزلت بالباشا مدة من الدهر، نستملح العزلة، ونستعذب عليها الصبر، ونعيش فيهاعيش الحكماء، من حسن الرضاء، بحسن الاكتفاء، ونستروح راحة البعد عن هذا العالم وأذاه، وإغماض الجفون على قذاه، مؤتنسين كل الائتناس، بالوحشة من الناس، بعد الذى شهدنا من أعمالهم ورأينا، وسمعنا من أقوالهم ووعينا وقاسينا من عشرتهم ما قاسينا: عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى.

وعكفت مع الباشا فى عزلتنا، أذهب به كل مذهب، وأنتقل به من مطلب إلى مطلب، فى مطالعة الأسفار والكتب، من تاريخ وأدب، ومن حكم متينة قويمة، وشتى علوم حديثة وقديمة، أهديه من كل طرف بطرفة، وأتحفه من كل باب بتحفة، وأجتنب معه ما يدعو إلى الضجر والملل، ويدنى من الكد والكلل، فتارة أخوض معه عباب البحار، وطورا أجتاز به سراب القفار، فنرى من يحرق فى البحر مراكبه، ليحمل على اقتحام المنايا كتائبه، ونسمع الشاعر فى القفر يحدو بناقته، ويشبب بمعشوقته، ثم لايقعد به ذل الغرام، عن التفاخر بعز الكرام، ولاينسيه ذكر الهوى، مواقف الحتف والردى، فيخلط بالغزل الفخر، ويخاطب صاحبه من جوف القفر.

ثم أدخل به فى مطالعتنا إلى حلقة حكيم واعظ، يسلب الألباب بقوة بيانه ويخلب العقول بضوء برهانه، ويسترق النفوس بطلاقة لسانه.

وهكذا قضيت مع الباشا زمنا ليس بقصير، أستخرج له نفائس الأعلاق من بطون الأوراق وأقتطف معه زهر الأدب العاطر من حدائق الكتب والدفاتر.



على أنقاض الشيشان .. بوتن إلى الكريملن

سيرجى كوفاليف

هل دخلت روسيا الحرب «الثانية» مع الشيشان لكى يصعد فلاديمير بوتن إلى سدة الرئاسة؟

وإلى أى مدى يمكن اعتبار أصلان مسخادوف الذى انتخب فى يناير ١٩٩٧، رئيسا للدولة «الجار» الصغيرة، والتى لا يتجاوز تعدادها مليون نسمة من المزارعين البسطاء مسئولا باعتداله أو «بتساهله» عن إعطاء الفرصة لأولئك الباحثين عنها فى الكرملين للقضاء على بلده وإبادة شعبه، لأسباب «موسكوفية» داخلية بحتة. وتحت رايات نجحوا فى أن يكتبوا عليها الشعارات الأكثر رواجا هذه الأيام: «القضاء على الإرهاب».

يحاول سيرجى كوفاليف الإجابة عن هذه الأسئلة، فى مقال «متشائم» يعيد فيه النظر فى مقال آخر كتبه قبل أكثر من عامين فى أعقاب حرب الشيشان الأولى (١٩٩٤-١٩٩٦) موضحا أن القضية لم تكن أبدا «بقاء الشيشان جزءا من الاتحاد الروسى»، وحسب رؤيته الجديدة، يبدو أنه كان «متفائلا» أكثر مما ينبغى.

في سنة ١٩٩٧ نشرت مقالاً حاولت فيه الوصول إلى بعض النتائج بشأن حرب الشيشان التى وقعت فى الفترة من ١٩٩٤ إلى ١٩٩٦، وكان رئيسا روسيا والشيشان قد وقعا للتو اتفاقية رفضت استخدام القوة أو التهديد باستخدامها وأجلت التسوية النهاية للعلاقات الشيشانية الروسية حتى سنة ٢٠٠١، بدا لى وقتها أن الحرب انتهت إلى الأبد وأن الوقت قد حان لتلخيص الأحداث الأخيرة.

كنت مخطئاً كل الخطأ فى ذلك. إلا أنه فى ذلك الوقت لم يكن هناك من يحلم، ولو فى أشد كوابيسه سوءاً، بأنه سيكون فى روسيا ساسة لهم من العقل والذاكرة السليمين ما يجعلهم يستأنفون حرب الشيشان على مستوى يفوق ما كانت عليه فيما سبق. بل كان من الأصعب تخيل أن الحرب لن تحظى بدعم الشعب الروسى وحسب، بل ستؤدى إلى انقسامات سياسية غير مسبوقة فيما يتصل بالزعماء الروس الذين يشرفون عليها، وخاصة فلاديمير بوتن الذى يدين ببلوغه الرئاسة بصورة كبيرة إلى مساندته للحرب.

ولكى يفهم القراء الأمريكيون الطريقة التى حدث بها ذلك التحول الذى لم يفكر فيه أحد فهماً تاماً، عليهم أن يتخيلوا للحظة أنه فى سنة ١٩٧٨ مثلاً، استأنف رئيس الولايات المتحدة الحرب فى فيتنام. بل وأن هذا العمل حظى بتقدير كل الأمريكيين - من عمال المناجم والمزارعين حتى أساتذة الجامعة والطلاب. هذا بالضبط هو ما حدث فى روسيا أخيرًا.



أولا وقبل كل شىء لا بد أن أوضح أن جزءاً ضخماً من الذنب فيما يتصل بما حدث يقع على عاتق الشعب الشيشانى وقادته.

ففى الشهور الأولى التى أعقبت انتهاء العمليات العسكرية بدا أن هناك فرصة لإقامة نظام ديمقراطى فى شيشان ما بعد الحرب، وهو النظام الذى كان سيعمل طبقاً لحكم القانون. وفى رأيى أنه لو كان ذلك قد حدث لما كانت هناك أهمية لبقاء الشيشان جزءاً من الاتحاد الروسى أو عدمه. وفى يناير ١٩٩٧ انتخب أصلان ماسخادوف رئيساً

للشيشان. وكان ماسخادوف زعيماً معتدلاً ومسئولاً ورجلاً يفضل بالتأكيد النموذج العلماني للتنمية على «الدولة الإسلامية».

ومن المؤكد أنه كانت هناك مخاوف خطيرة بشأن المسلك الشيشاني في ذلك الوقت. فابتزاز الشعب الروسي المحلي المتبقي في الشيشان واستخدام العنف ضده، بما في ذلك عمليات الاختطاف للمطالبة بالفدية أو الاستعباد، لم تتوقف بانتهاء الحرب ولكنها ازدادت أكثر وأكثر. ولم تبذل السلطات الشيشانية الجديدة أي جهد لوقف هذا النشاط الإجرامي، رغم أنه في بلد ضئيل الحجم مثل الشيشان، الذي يقل عدد سكانه عن المليون، كان كل إنسان يعرف معرفة تامة أياً من رفاق ماسخادوف السابقين يحقق ثروة من تجارة الرقيق، وأين يحتجز الأسرى، وكيف كانت الفدية تبتز، وغيره وغيره. إلا أنه بعد كل بلاغ عن اختطاف لضحية معروفة، كان رئيس الشيشان يدلي ببيانات عامة يشرح فيها الأحداث بلغة غامضة وغير مقنعة بالمرة مثل «استفزاز الاستخبارات الروسية». لم تكن هناك أية مساعي لإنقاذ الأسرى. ولم تكن هناك أية محاولات لملاحقة منظمي تلك الجرائم أو معاقبتهم.

وكان اختطاف العديد من الصحفيين أمراً بغيضاً جداً. فقد كان هؤلاء هم من ظلوا عامين يعرضون حياتهم للخطر الشديد، وكانوا يخبرون الروس والعالم بحقيقة الحرب. وكان الشيشان مدينين لهم بالسلام، مثلما هم مدينون للانتصارات العسكرية التي حققتها الميليشيا الشيشانية.

ولم تكن الحقيقة بحاجة إلى وقت طويل كي تنجلي. فقد توقف المراسلون عن العبور إلى الشيشان، وتكون موقف جديد تماماً ومعارض بشدة للجمهورية بين الصحفيين الروس. ويصعب على توجيه اللوم لموقفهم العدائي من الشيشان.

بل إنه بدأ العمل بأحكام الشريعة الإسلامية في الشيشان بصورة شديدة القسوة، بما في ذلك العقاب البدني، وبتر الأطراف، وإذاعة تنفيذ الإعدام على شاشة التلفزيون المحلي. كل هذا أجبر المتعاطفين مع الشيشان على الشك في مدى صدق نوايا ماسخادوف للدفاع عن الطابع العلماني للدولة ـ وهي بالمناسبة تلك النوايا التي لم يقلها علناً ـ أو على الأقل الشك في صدق عزيمته.



ومما يؤسف له أن المخاوف التي أعربت عنها بشأن مستقبل الشيشان في مقالي المنشور سنة ١٩٩٧ ثبت أنها تقوم على أسس سليمة. ففي خلال السنوات الثلاث المنصرمة لم يكن رئيس الشيشان وحكومتها على استعداد للمخاطرة باتخاذ إجراءات حاسمة لإحلال النظام في الجمهورية. وأسباب ذلك واضحة ـ فقد كانوا يخشون من أن أول خطوة ثابتة يخطونها سوف تؤدي إلى انتفاضة وحرب أهلية. غير أن جبن ماسخادوف أدى إلى نتيجة أكثر سوءاً، وهي الفقدان التام للسيطرة على البلاد وانتقال السلطة الحقيقية إلى أيدي من يسمون «قادة الميدان»، ومن بينهم رجال مثل تاجري الرقيق آربي بارايف ورسلان خيخورويف، والارهابيين سلمان رادوييف وشامل باسايف، والمتعصب الإسلامي الأردني خطاب، الذي يؤكد كثيرون على أنه حليف من حلفاء أسامة بن لادن. واختفت آخر آثار نظام الدولة في المواجهة بين الحكومة وقادة الميدان.

بعبارة أخرى، لم يعد هناك وجود لجمهورية الشيشان التي كان يرأسها اتشكيريا ـ ولو كـ«جمهورية إسلامية». وبدلاً من ذلك تكون ثقب أسود في خريطة العالم يهبط منه رجال ملتحون، يقودون شاحنات كاماز ويحملون الكلاشنكوف، من حين لآخر على المناطق المجاورة من روسيا. وفي بعض الأحيان يستولون على الماشية ويختفون بها، وأحياناً أخر يستولون على الناس. ولا يعرف أحد على وجه الدقة ماذا كان يجري بالفعل في أرض الشيشان نفسها.

قصة الانفجارات التي وقعت في موسكو شديدة الغموض.. ومع ذلك فمن الصحيح أن عالم الإرهاب وعالم الاستخبارات لم يفصل بينهما سور يمنعهما من الاندماج، ولاتوجد أدلة تدين الشيشان، ولكن غياب الأدلة لم يمنع بوتن من استغلالها بصورة مخجلة

إن ما نعرفه هو أن باسايف وخطاب شنا في شهر اغسطس «حملة تحرير» في داغستان المجاورة. ويبدو أنهما وغيرهما من قادة الوحدات الشيشانية التي غزت داغستان كانوا يرون أنفسهم «محاربين عالميين في سبيل الله»، أو لنقل أن كلاً منهما يرى نفسه تشي جيفارا إسلاميا. وكان هؤلاء متأكدين من أن المؤمنين على الجانب الآخر سوف يلقونهم بأذرع مفتوحة. غير أنهم كانوا مخطئين في ظنهم. فقد قابلهم الداغستانيون بالسلاح. بل إن بعض الشيشان ـ داخل داغستان وفي المناطق الحدودية الشيشانية نفسها ـ حاولوا منع الغارة المجنونة. لقد أدركوا العواقب التي ستنتج عنها. وقيل إنهم قالوا لرجال باسايف وخطاب: «لن تمروا إلا على جثثنا». وكان رد هؤلاء هو: «لا بأس يا جند الله». وهكذا سمحت الدوريات الريفية الشيشانية غير الرسمية في المناطق الحدودية لهم بالعبور.

وليس من حقي إصدار حكم على الفلاحين المسالمين الذين استسلموا أولئك الإسلاميين المسلحين تسليحاً ثقيلاً. وفي اعتقادي أنهم لو كانوا يعلمون كل نتائج مغامرة داغستان لفضل كثيرون منهم المخاطرة بأرواحهم، بدلاً من عبور الإسلاميين حدودهم. ولو كان للرئيس ماسخادوف أن يتنبأ بكل النتائج (وهو ما كان من واجبه القيام به)، لفعل كل ما في إمكانه لمنع الإغارة على روسيا من أراضي الشيشان، حتى لو كانت في ذلك مخاطرة بنشوب حرب أهلية.

ولأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية، نفذ الجيش الروسي في داغستان مهمة تحرير حقيقية. فقد حمى سكان داغستان من الهجوم الخارجي. غير أن أداء الجيش كان سيئاً. فقد لحقت به خسائر من نيران مدفعيته وضرباته الجوية. كما أنه ظل أسابيع عاجزاً عن استعادة عدة قرى جبلية كان قد استولى عليها باسايف وخطاب؛ ولم يحذر سكان تلك القرى الآمنين بشأن استخدامه الوشيك للمدفعية والقصف الجوي. كما شاركت القوات الروسية في أعمال السلب والنهب والعنف ضد الناس في المناطق المحررة، رغم أن سلوكهم كان معتدلاً إلى حد ما، مقارنة بالحرب السابقة. إلا أن الجيش في نهاية الأمر أنجز مهمته. وتشتت بعض الغزاة الإسلاميين، بينما أجبر آخرون على العودة إلى الشيشان.

ومن الواضح أنه عند هذه النقطة ولدت في رأس جنرالات موسكو وساستها فكرة رهيبة، وهي استغلال قوة الدفع الناجمة عن انتصار داغستان لشن حرب جديدة مع الشيشان.

ومن السهل معرفة ما كان يبغيه الجنرالات. فقد أرادوا الانتقام لهزيمتهم النكراء في الحرب السابقة. أما دوافع الساسة فهي أكثر تعقيداً. حاولت مؤخراً وصف بعضها في صحيفة «دي فيلت» التي تصدر في برلين:

إن استئناف الحرب بالنسبة للساسة الروس الرجعيين انتقام كذلك، ولكنه انتقام من «الليبراليين البغيضين» و«المتشدقين غير المسئولين» الذين أثاروا الرأي العام في ١٩٩٤ـ١٩٩٦ ضد الاستعراض الدموي لقوة الدولة الروسية.

غير أني أخشى أن يكون هذا التأويل شديد التبسيط. فقد قللت من شأن مستوى السعي وراء المصالح الشخصية الذي يسود الحياة السياسية الروسية المعاصرة. صحيح أن «الساسة الروس الرجعيين» ـ وهم مؤيدو الجماعات القومية والعديد من فصائل الحزب الشيوعي ـ كان سيسعدهم التخلص من «الليبراليين البغيضين» وكذلك من قيصر الكريملين العاجز الذي أجاز اتفاقية وقف إطلاق النار في بلدة خاسافيورت في ٣١ أغسطس ١٩٩٦. ووقع الاتفاقية في موسكو في مايو ١٩٩٧ غير أنه لم تواتهم الفرصة لتحقيق ذلك.

واستخدم آخرون حرب الشيشان الجديدة كذخيرة سياسية. ويأتي على رأس هؤلاء فلاديمير بوتن وغيره من المقربين للكريملين. ففي ذروة العمليات العسكرية في داغستان في الصيف الماضي، عزل يلتسين رئيس الوزراء سيباشن وعين محله بوتن. بل إن الرئيس سمى بوتن علناً ليكون له «وريثاً للعام ٢٠٠٠» ـ وهو الإعلان الذي لم يثر في ذلك الوقت سوى الضحك. فهو بحق يبدو أمراً مضحكاً. أول كل شيء، كيف يمكن للرئيس الحالي أن «يعين» الرئيس القادم ـ هل نحن نعيش في هاييتي أو ما شابه ذلك؟

الأمر الثاني هو أن بوتن رجل ذو وجه يصعب وصفه من الناحية المهنية. فبما أنه كان مديراً سابقاً للاستخبارات الروسية، فلم يكن معروفاً في واقع الأمر للجمهور بصورة عامة. وبدا الأمر وكأنه ليست لديه أية فرصة بالمرة للفوز في حملة انتخابية ضد الساسة المحنكين أمثال ايفجيني بريماكوف رئيس الوزراء السابق، أو يوري لوزكوف رئيس بلدية موسكو، أو جنادي زيوجانوف زعيم الحزب الشيوعي الروسي. والأمر الثالث أنه بعد الأزمة المالية التي حدثت في أغسطس ١٩٩٨، كانت سمعة يلتسين من السوء بحيث كان دعمه لأي مرشح يعني كارثة للشخص الذي يدعمه.

ومع ذلك لم ينزعج بوتن. فقد أكد أنه لا يعتزم دخول انتخابات الرئاسة، غير أن أهم شيء في ذلك الوقت كان الحرب في داغستان. وكان لذلك أثره الكبير على الجماهير ـ وحقيقة الأمر أنه بدا حكماً سليماً. فهل يمكن أن يكون هناك ما هو أهم بالنسبة للحكومة من العمليات العسكرية التي تجري على أراضيها؟

وبعد مغادرة القوات الشيشانية لداغستان وعودتها للشيشان في شهر أغسطس، أعلن بوتن أن الوضع الراهن في الشيشان لا يمكن السكوت عنه ـ وهو ما كان صحيحاً. كما قال إن الحكومة لا يمكنها التوقف الآن: إذ إن عليها ضرب قواعد الشيشان، «حتى لو كانت على الأراضي الشيشانية». (وهذا المنطق مفهوم كذلك ـ غير أنه يتجاهل مشكلة أساسية، وهي كيف يمكن تمييز «القاعدة الإرهابية» من أية قرية شيشانية عادية؟)



بدأ بوتن بإرسال قوات إلى حدود جمهورية الشيشان. وأخذ كثيرون أقواله وأفعاله على أنها مجرد استعراض للقوة العسكرية لمصلحة ماسخادوف وغيره من الزعماء الشيشان الرسميين، وحركة يقصد بها إجبارهم على التحول، على أقل تقدير، من مجرد الإدانة اللفظية للمتطرفين الإسلاميين إلى اتخاذ إجراءات فعالة ضدهم. إلا أن المراقبين الواعين كانوا يرون أن دوافعه واضحة. فرئيس الوزراء الجديد لم يكن يعتزم الاقتصار على التهديدات. بل إنه لم يسع إلى بدء الاتصالات مع الحكومة الشرعية في الشيشان. كما أنه لم ير ضرورة لعرض موعد نهائي على ماسخادوف. لقد كان راغباً في الحرب، وكان سبب رغبته واضحاً.

كان موعد الانتخابات البرلمانية سيحين بعد ثلاثة أشهر ونصف ـ وهي بمثابة

البروفة بالنسبة لانتخابات الرئاسة التى تجرى فى يونيو ٢٠٠٠ - وكان هناك احتمال كبير أن تحقق الحركة المسماة «الوطن الأم - كل روسيا» (وتضم فى معظمها مديرى الشركات السوفيتية السابقين والقادة الإقليميين الأقوياء)، والمعارضة ليلتسين ومؤسسة الكريملين، نصراً كبيراً فى هذه الانتخابات. وكان المرشح الرئاسى الذى تمت مباركته حديثاً سيدخل فى تنافس مع زعماء هذه الحركة، الذين هم أكثر الساسة شعبية فى البلاد، مثل يورى لوزكوف وايفجينى بريماكوف.

وكانت الطريقة الوحيدة التى يمكن بها لبوتن تحقيق أى انتصار سياسى على منافسيه فى موسكو هى تحقيق انتصار عسكرى. ولم تكن داغستان بكافية. ولكن هل سيؤيد الرأى العام استئناف العمليات العسكرية فى القوقاز؟ على أية حال، لم تكن قد مرت سوى ثلاث سنوات على تعبير الجماهير الروسية عن ارتياحها عند توقيع اتفاقية خاسافيورت سنة ١٩٩٦، صحيح أنه منذ ذلك الوقت فعل الشيشان الكثير، مما قضى على أى تعاطف معهم قد يكون لدى الروس. إلا أن الغزو المسلح لداغستان لم يكن كافياً لتقوية الموقف المعادى للشيشان فى المجتمع الروسى، بحيث يقر أية مغامرة عسكرية جديدة. وقرب نهاية شهر أغسطس بدت الحملة الجديدة فى الشيشان أكثر من مشكوك فيها.

وتحرك بوتن بحذر. إذ أعلن أن الحكومة لا تتحدث عما يزيد على تأمين الحدود مع الشيشان. (وكان يكذب بالطبع: فبعد أسبوعين فقط بدأ غزو واسع المدى - وعمليات كهذه لا يمكن تخطيطها فى أسبوعين). وبعد ذلك ذكر أنه لضمان أمن القوات لا بد من احتلال بضعة رؤوس تلال على الأراضى الشيشانية. وبالطبع مضى الأمر دون القول بأن أحداً كان يتحدث بالفعل عن الحرب، حاشا لله؛ فالحكومة كانت تسعى فقط لضمان أمن المناطق المجاورة.

فى ذلك الوقت، وكان شهر سبتمبر، دوت الانفجارات فى موسكو وفولجودونسك - وهى الانفجارات الليلية التى حدثت فى المبانى السكنية التى أدت لمقتل ما يربو على مائتى شخص.



كانت تلك الانفجارات لحظة مهمة فى كشف تاريخنا الراهن. فبعد أن انتهت الصدمة الأولى، اتضح أننا نعيش فى بلد مختلف تمام الاختلاف، ليس فيه من يجرؤ على الحديث عن الحل السياسى السلمى للأزمة مع الشيشان. وكان السؤال المطروح هو كيف يمكنك التفاوض مع أناس يقتلون الأطفال ليلاً فى أسرَّتهم؟ إن الحرب، والحرب وحدها، هى الحل! وما نريده - حسب لغة الكثير من الساسة بمن فيهم فلاديمير بوتن - هو القضاء الذى لا رحمة فيه على «الخصم» كائناً من كان، ومهما كانت الخسائر، وبغض النظر عن عدد المدنيين العزل الذين سيموتون أثناء ذلك، ودون أى اعتبار للجنود الروس الذين سيجودون بأرواحهم من أجل الانتصار العسكرى - ما دمنا سندمر «عش الدبابير الخاص بالإرهابيين» إلى الأبد. ولا يهم من يكون هذا «الخصم» - المقاتلان باسايف وخطاب، أو الحرس المختار للرئيس ماسخادوف (الذى لم يكن له شأن بالغارة التى شنت على داغستان، ولا بتفجير المبانى السكنية فى المدن الروسية بطبيعة الحال)، أو مجرد أحد أفراد الميليشيا المحلية الذى يدافع عن قراه ضد القوات الروسية التى اكتسحتها على حين غرة.



كانت الطريقة الوحيدة التى يمكن بها لبوتن تحقيق أى انتصار سياسى على منافسيه فى موسكو هى تحقيق انتصار عسكرى

وبدأ الساسة الروس فى استخدام لغة جديدة - وهى لغة عالم الجريمة. وكان رئيس الوزراء المعين حديثاً أول من يعطى الشرعية لهذه اللغة بتصريحه العلنى أننا سوف «ندفنهم فى قمامتهم». وعقب قول ذلك أخذت شعبية بوتن تزداد فى استطلاعات الرأى زيادة فلكية. فها هو «شخص صلب» يمسك أخيراً بعجلة القيادة.

وصار للمصطلحات القديمة مدلول جديد. وهكذا سرعان ما باتت كلمة «إرهابى» لا تعنى شخصاً ينتمى لإحدى الجماعات السرية الإجرامية التى كان هدفها هو القتل. فقد صار معنى الكلمة هو «الشيشانى المسلح» - أينما كان. وكانت التقارير العسكرية من داخل الأراضى الشيشانية صريحة فى ذلك: «حوصرت مجموعة تضم ثلاثة آلاف إرهابى فى جوديرميس»؛ «تمت تصفية ألفين ونصف من الإرهابيين فى شالى». بل إن الحرب نفسها لم تعد تسمى سوى «عملية القوات الروسية الخاصة المناوئة للإرهابيين».

وفى الخريف الماضى، تجمعت أعداد كبيرة من القادمين من منطقة القوقاز، وما زال التحرش مستمراً فى الوقت الراهن؛ وكان هناك كلام عن إقامة «نقاط احتجاز مؤقتة» فى ضواحى موسكو «للأفراد المقيمين فى العاصمة دون حيازة التوثيق اللازم» - أى لأهل القوقاز الذين ليس لديهم من المال ما يكفى لشراء ذمة الشرطة. ويبدو أن «نقاط الاحتجاز المؤقتة» تلك، أو فلنسمها صراحة معسكرات اعتقال، لم تتم إقامتها بالمرة - مع أن العزم على إقامتها كان أكيداً. غير أن أحداً بخلاف حفنة من المدافعين عن حقوق الإنسان لم تصدمه تلك الأفكار البربرية.

بل إن موقف المدافعين عن حقوق الإنسان ذاتهم تغير واكتسب الاسم مدلولاً جديداً. فاليوم يعتبر العاملون فى مجال حقوق الإنسان ومنظماتها على رأس أعداء البلاد فى الداخل، فهم «الطابور الخامس» الذى تدعمه المؤسسات الغربية (ويقصد بها الاستخبارات)، ويقوم بانشطة هدامة ضد روسيا. ونشرت سلسلة من المقالات حول هذا الموضوع ليس فقط فى بعض الصحف الصفراء القومية الوطنية، بل كذلك فى أكثر من صحيفة من الصحف رفيعة المستوى فى صحافة روسيا الحرة - واقصد بها «نيزافيسيمايا جازيتا».

ويتضح أن المدافعين عن حقوق الإنسان والصحافة «غير الوطنية» يتحملون وزر الهزيمة التى لحقت الجيش الروسى فى حرب الشيشان الأولى. فقد خلقت تقاريرهم تعاطفاً مع معاناة الشعب الشيشانى، مما أدى إلى تشويش الرأى العام. وبالمناسبة، لا يتهم أحد أياً من المدافعين عن حقوق الإنسان أو الصحافة بترويج معلومات زائفة أو أحادية. فهم متهمون فى واقع الأمر بنقل الأحداث نقلاً موضوعياً.

لقد ضرب القادة حصاراً إعلامياً غير مسبوق حول الشيشان. غير أنه تسربت بعض الروايات عن الفظائع التى ترتكبها القوات الروسية - مثل قتل المدنيين - ووقعت فى منطقة الصراع العسكرى و«المناطق المحررة». وهذه التقارير بحاجة إلى بحث منظم ومستقل ولا يمكننى تأكيدها بصورة محددة؛ غير أنه بكل أسف ليس لدى كذلك سبب لعدم تصديقها. ولم يكن القادة مضطرين لفرض حصار إعلامى. ففى تلك المرات التى عرفت فيها تقارير التدمير والخسائر التى تقع فى صفوف السكان المسالمين فى جروزنى المحاصرة طريقها إلى شاشة التلفزيون، كانت لم تعد تثير اشمئزاز المشاهد الروسى.



قد يمكن تلخيص الوضع الذهنى الراهن فى روسيا فى كلمتين، هما «هستيريا الحرب». وبطبيعة الحال لم تكن انفجارات المبانى السكنية العامل الوحيد الذى سببها. فيبدو أن الرأى العام فى روسيا، حتى قبل اندلاع العنف الأخير، مستعداً من الناحية النفسية لدعم إجراءات الحكومة القاسية، بغض النظر عن كنهها أو عمن وجهت إليهم. فما حدث هو ما تُنُبِّئ به منذ زمن مضى. ذلك أن المجتمع كان يحن إلى «اليد القوية».

وفى مقالى الذى نشرته سنة ١٩٩٧، قلت إن انتصار الشيشان العسكرى، الذى وفر للبلاد استقلالاً بحكم الأمر الواقع، قد يؤدى فى حقيقة الأمر إلى موت الحرية الشيشانية. إلا أننى قلت كذلك إن هزيمة الجيش الروسى قد تتحول إلى نعمة خفية. ذلك أنه ربما أعطى قوة دفع جديدة لجهود تنفيذ الإصلاحات التى باتت مكبلة، بحيث تتحول البلاد مرة أخرى نحو الديمقراطية والحرية. وفيما يتصل بالشيشان، كان لمخاوفى ما يبررها؛ أما فيما يتعلق بروسيا، فلم تتحقق آمالى.

ما حدث فقط هو أن الاقتصاد الروسى دمرته الأزمة المالية المفجعة التى حلت سنة ١٩٩٨ بل إن الفضائح السياسية المصاحبة للأزمة قضت إلى حد كبير على إيمان الشعب بإمكانية الديمقراطية السياسية والحرية الاجتماعية فى روسيا والرغبة فيهما. وكان الكثير من الناس يرون أن فشل «إصلاحات يلتسين» على المستويين السياسى والاقتصادى يعنى خيبة الأمل فى نماذج ليبرالية «الأسلوب الغربى» - وقد ظلت الجماهير سنوات عدة مطمئنة إلى أن الإصلاحات يجرى تنفيذها طبقاً للنموذج الغربى.

وكانت أولى متلازمات التغير الذى طرأ على موقف المجتمع هى تفشى ذلك الشعور المناوئ للغرب إبان أزمة البلقان. ولم يكن لذلك أية علاقة بالتضامن «السلافى» أو «المسيحى الأرثوذكسى» مع الصرب، أو حتى بانتهاك الناتو للقانون الدولى. كانت المسألة أمراً مختلفاً. فمن المؤكد أن الروس لم يعودوا يحبون ما افتتنوا به فجأة وبعمق قبل عشر سنوات. وأعنى الغرب وكل ما يرتبط به، بما فى ذلك مفاهيم الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان.

ومما يحير أن روسيا بها كثيرون يرون «مكيدة غربية» فى الفوضى الراهنة فى القوقاز، دون أن ينتبهوا لعبثية افتراض أن الدول الغربية، وخاصة الولايات المتحدة، قد تساند عدوهم المعلن - أى الإرهابيين الإسلاميين - ضد روسيا. وينظر إلى الشجب الأوروبى والأمريكى لفظائع الحرب الراهنة على أنها مزيد من التأكيد على «المشاعر المعادية لروسيا» لدى الغرب. ولا تعزى الاحتجاجات الغربية لأى قدر من الإخلاص.

إلا أن عواطف الجماهير الروسية السلبية وجهت فى معظمها ضد الوضع الراهن فى روسيا نفسها، وهو الوضع الذى ربط بمكائد حقبة يلتسين السياسية، وهو صحيح، وبقيم الديمقراطية الليبرالية - وهو ما ليس صحيحاً على الإطلاق.

ربما كان من المتوقع أن ينتهى هذا الوضع بعودة النظام القديم، كما تصور زيوجانوف، أو بشبه عودته، كما تصور بريماكوف. ومن المحتمل جداً أن مثل هذه المخاوف جعلت الكريملين (وربما الناس خارج الكريملين) يفكر فى خطة لعمل «تحديث سلطاتى» لنظام يلتسين العاجز. وأكاد أجزم أن الصورة النهائية لهذه الخطة كانت قد وضعت فى منتصف الصيف. ولم يكن العامل الرئيسى بطبيعة الحال هو الخطة ذاتها، وإنما الحالة الذهنية التى تجعلها صالحة للتطبيق. ويمكن تلخيص ذلك فى الصيغة التالية: «نحن لا نريد العودة للشيوعية، غير أننا مللنا ديمقراطيتكم، وحريتكم، وما تقولونه عن حقوق الإنسان. إن ما نريده هو النظام».

ويبدو أن مخرجي الدراما التى كانت

تجرى كتابتها قد اختاروا بالفعل ممثلاً يقوم بالدور الرئيسى. ولم يكن يهم أنه بكل وضوح لن يقارن بنابليون أو كرومويل - سواء فى المواهب الإدارية والسياسية، أو الشدة. وكانت الجماهير الروسية المرهقة مستعدة تماماً لأن تقبل دليلاً على شدته بعض التعليقات العدوانية الهستيرية على شاشات التلفزيون وبعض اللقطات التى تبين جروزنى التى دمرها القصف الجوى والمدفعى.

وما يشهد على ذلك القبول من الجماهير هو النجاح المدهش الذى حققته تلك الحركة المسماة بـ«الوحدة» - التى تجمعت على وجه السرعة «لدعم رئيس الوزراء» - فى الانتخابات البرلمانية التى أجريت فى ديسمبر. فقد فازت كتلة الوحدة، التى تعرف كذلك بـ«الدب» بـ ٢٣ بالمائة من الأصوات. وبالنسبة لكتلة سياسية لم يكن لها وجود فى نهاية الصيف، ودخلت الانتخابات دون أى برنامج سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى، ولم يكن لها سوى شعار واحد هو «نحن نؤيد بوتن»، ولم يكن زعماؤها معروفين فى روسيا، لم تلك النتيجة مجرد عرض جيد، وإنما كانت نجاحاً ساحقاً.

> **بدأ الساسة الروس فى استخدام لغة جديدة - وهى لغة عالم الجريمة. وكان رئيس الوزراء المعين حديثاً أول من يعطى الشرعية لهذه اللغة بتصريحه العلنى أننا سوف «ندفنهم فى قمامتهم»**

بعد الانتخابات حان الوقت لأداء الفصل الأخير من المسرحية. وأكاد أجزم بأن استقالة يلتسين الدرامية فى ٣١ ديسمبر ١٩٩٩ كانت جزءاً من الخطة التى ذكرتها آنفاً. والقضية هنا ليست مجرد أن استقالة يلتسين دفعت منافسى بوتن إلى الدخول فى حملة سياسية مختصرة، مما يتيح له فرصة تحقيق أقصى استغلال لشعبيته الحالية قبل الانتخابات التى تجرى فى أوائل مارس. وكانت تلك إشارة بيانية مفهومة من الجماهير، وهى أن الزعيم الجديد تخلص الآن من كونه «يلتسينيا»، وهو ما كان سيصبح حتمياً تقريباً إن هو دخل سباق الرئاسة باعتباره رئيس وزراء يلتسين. فالآن يمكنه أن يظهر أمام الناخبين متحرراً من خطايا النظام السياسى السابق، الذى لم يكن يحظى بالشعبية لعدة سنوات ودمر نفسه بعد أغسطس ١٩٩٨.

ويقف «السياسى الحاسم الشاب» حالياً فى ذهن الجماهير مقابل العجوز بريماكوف والنكوصى زيوجانوف، بالإضافة إلى سلفه الواهن. ويجرى تشجيع الجماهير تدريجياً، ولكن بثبات على أن ترى رئاسة بوتن بديلاً لكل من عودة الشيوعية وعجز «الديمقراطيين».

ويبدو أن معنى هذا هو أن حملة الشيشان ستستمر على أقل تقدير حتى أوائل مارس، عندما يصبح فلاديمير بوتن متأكداً تقريباً من أنه سيصبح ثانى رئيس لروسيا. بينما لم تكن لديه قبل الحرب أدنى فرصة لأن ينتخب.

ولا أزعم أن بوتن نظم متعمداً انفجارات سبتمبر لتكون لديه ذريعة لشن الحرب. وقصة الانفجارات شديدة الغموض؛ غير أنه ليس لدى أى سبب كى أعتقد أن الانفجارات كانت من تدبير الاستخبارات الروسية، كما يعتقد البعض فى روسيا والغرب. وأنا بصراحة أعتقد أن المعلقين الغربيين يميلون إلى المبالغة فى قوة الكى جى بى وخلفائها وحرَفيتهم، وهو الأكثر أهمية. لقد كانت لى تعاملات مع هذه المنظمة لعشرات السنين؛ وفى رأيى أنه ليس لديهم أناس مؤهلون التأهيل الكافى وعلى قدر من الحسم يتيح لهم تنفيذ مثل هذا العمل.

ومع ذلك فمن الصحيح أن عالم الإرهاب وعالم الاستخبارات لا يفصل بينهما سور من المنعة، بحيث يحول دون اندماجهما على أرضية واحدة. ومن الممكن أن تتخذ إثارة الشرطة أشكالاً عدة. فعلى سبيل المثال قد لا تتخذ الشرطة أى إجراء عند تلقيها معلومات تنطوى على تهديد ما، وذلك إذا ظن أحد أن التراخى يتطابق أكثر مع الرغبات غير المعلنة للمسئولين الكبار.

وبطبيعة الحال لا ينطبق افتراض البراءة على الشيشان وحدهم، وإنما على الاستخبارات كذلك. فالواقع أنه فى الوقت الراهن، وبعد ثلاث سنوات ونصف، يعترف المزيد والمزيد من الناس بأن صورة «الإرهابى الشيشانى» الخاصة بهذه الجرائم لم تؤكدها أية حقائق بالمرة. فعلى الأقل لم تقدم أدلة، مباشرة أو غير مباشرة، للجماهير لمساندة زعم أن الإرهابيين يمكن الوصول إليهم بتتبع أثر الشيشان. ويشير القدر الضئيل المعروف عمن يشتبه فى أنهم يتحملون بعض مسئولية الانفجارات إلى أن هذا قد يكون أثراً زائفاً. فالأشخاص الذين يدور حولهم الكلام ليسوا عرقياً من الشيشان.

ولكن غياب الأدلة لا يمنع الشعب من مواصلة دعمه الحماسى لما تقوم به الحكومة فى القوقاز. فقد كانت الانفجارات ضرورية فقط كذريعة مبدئية لهذه الأعمال.

وبينما لا أعتقد أن بوتن نفسه اختلق تلك الذريعة، فإنى لا أشك فى أنه استغلها بطريقة مخجلة وتنطوى على المصلحة الذاتية، تماماً مثلما لا أشك فى أن الحرب خُطط لها مسبقاً. وليس فى قيادة الجيش الروسى وحسب، بل كذلك فى بعض القيادات السياسية، كما سبق وقلت.

أى القيادات السياسية؟ هذا سؤال يكره حتى التفكير فيه. فهذه الخطط لا تحمل خاتم الجيل العجوز من الشيوعيين أو المؤيدين الشباب المتعصبين لدولة روسيا الكبرى، الذين كنت أخشى فى وقت من الأوقات من تأثيرهم الرجعى على الحياة فى البلاد. إنها تتطابق أكثر مع الأسلوب الجسور الديناميكى شديد النفعية الخاص بجيل سياسى جديد. وليس من المحتمل أنه بعد شهر مارس سوف يبعث الرئيس بوتن القوة السوفيتية من مرقدها، أو يحيى أساطير الدولة الروسية العتيقة. والأمر الأكثر احتمالاً هو أنه سوف يبنى نظاماً له تراث عريق فى التاريخ الغربى ولكنه جديد كل الجدة فى روسيا. إنه نظام بوليسى سلطوى سوف يحافظ على السمات الشكلية للديمقراطية. والأكثر احتمالاً أنه سوف يحاول تنفيذ الإصلاحات التى تؤدى إلى اقتصاد السوق الحرة. وهذا النظام قد يكون شديد العداء للشيوعية، غير أنه ليس من غير المنتظر أن يكون هناك تسامح مع الشيوعيين، ما داموا لم «يدسوا أنوفهم». إلا أن الحياة لن تكون جميلة بالنسبة للمجتمع المدنى الوليد فى روسيا.

وكان من يسمون باليمينيين (أى «اتحاد القوى اليمينية» الذى يضم حزبى أنا «خيار روسيا الديمقراطى») قد أعلنوا بالفعل عن دعمهم لترشيح بوتن فى انتخابات الرئاسة قبل استقالة يلتسين. والواقع أن تعدى اتحاد القوى اليمينية لحاجز الخمسة بالمائة فى الانتخابات البرلمانية، وهو إنجاز كان هناك شك كبير فى تحقيقه قبل شهرين فقط، يعود الفضل فيه بصورة كبيرة إلى حقيقة أن عدداً من زعمائه البارزين، بمن فيهم إصلاحيون مثل أناتولى تشوبايس وسيرجى كيرينكو، أيد بوتن والحرب علانية.

ولا يخفى بوتن بدوره تعاطفه مع اليمينيين، ولا اهتمامه ببرنامجهم الاقتصادى، ولا رغبته فى أن يدير أناتولى تشوبايس حملته الانتخابية المقبلة، بصورة خاصة. (يعزى كثير من الفضل فى نجاح حملة يلتسين الانتخابية سنة ١٩٩٦ لتشوبايس) وهذا أمر يمكن فهمه - فلا يمكن أن تتسوق برنامجاً اقتصادياً من بين صفوف الوحدة، التى خلقتها الحكومة وحدها كى تدخل نوابها الذين انتقتهم ويمكنها السيطرة عليهم فى مجلس الدوما. ولا يمكنك تسوقه بين الشيوعيين.

لذلك فإن عقد صفقة بين بوتن واليمينيين تبدو شديدة الاحتمال. وسوف تقبل حكومة بوتن البرنامج الليبرالى الخاص بالإصلاح الاقتصادى الذى يصر عليه اليمينيون. وسوف يحجم اليمينيون عن الانتقاد الزائد للملامح البوليسية والسلطوية التى تتسم بها حكومة بوتن. بل إنهم ربما أيدوا الإجراءات البوليسية الأشد صرامة، مثلما أيدوا حرب الشيشان الثانية. فلا جديد تحت الشمس. ذلك أن ما يشبه ذلك حدث فى شيلى أثناء حكم بينوشيه الدكتاتورى.



فى رأيى أن هذه توقعات سياسية. وفيما يتصل بالحرب الدائرة فى الشيشان، التى تعد أساسية فى الاستراتيجية السياسية الجديدة، فإن تحقيق انتصار عسكرى هناك ممكن بل ومحتمل. ويبدو جلياً أن القيادة العسكرية قد عقدت العزم على ألا تشغل بالها بالخسائر التى تقع بين صفوف المدنيين العزل؛ فهى قادرة على محو أى جزء من الشيشان، بما فى ذلك جروزنى، لكى تقضى على «الإرهابيين». وفى كل الاحتمالات، سوف تكون نتيجة هذا الانتصار حرب عصابات طويلة لا أول لها ولا آخر فى الجبال وفى المناطق الواقعة عند سفوح التلال. بل إنه كما هو معروف جيداً، هناك طريقة واحدة للقضاء على رجال حرب العصابات، وهى عدم تمييزهم عن العزل الذين يختبئون بينهم. بعبارة أخرى، لا بد من القيام بتطهير عرقى فى المناطق التى تسيطر عليها حركة رجال حرب العصابات.

إن الجيش الروسى مستعد تماماً للتطهير العرقى. وقد اتضح ذلك فى حرب سابقة؛ وأثبتته مرة أخرى الأحداث التى وقعت مؤخراً فى قرية ألخانيورت، حيث أطلق جنود محترفون النار على حوالى أربعين من السكان العزل - بلا سبب. وأكدت التصريحات الرسمية أن قنابل تفريغ الهواء تستخدم فى الشيشان - وهى سلاح رهيب يقتل كل كائن حى على مدى منطقة شاسعة، بمن فى ذلك الأشخاص المختبئين فى الملاجئ.

والجديد فى الأمر هذه المرة هو أن المجتمع الروسى كافة مستعد لتنفيذ التطهير العرقى. فالقسوة والعنف لم يعودا مرفوضين. ولكن هل روسيا مستعدة لحملة إرهابية مطولة فى مدنها وبلدانها؟ ليس لدى شك فى شن هذه الحملة حتى لو بقى بضعة آلاف فقط من الشيشان على قيد الحياة فى مكان ما عقب هذه الحرب، ولا فى أنها ستستمر لوقت طويل.

وفى مقالى الذى نُشر قبل عامين ونصف كتبت أن رؤى الكارثة تستحضرها دعاية الحكومة كى تبرر الحرب التى تجرى فى الشيشان - بما فى ذلك العنف وظهور التطرف الإسلامى - تحققت بعد الحرب، وكنتيجة مباشرة لها. واليوم يتم تخويف الجماهير الروسية بشبح الإرهاب الشيشانى. فما هو الشبح الذى سوف يظهر نتيجة لهذه التعاويذ الجديدة؟ للأسف أن الإجابة فى رأيى يمكن التكهن بها إلى حد كبير. ومن الواضح كذلك أنه طبقاً لتقاليدنا سوف تجعل هذه التطورات من توقعات أى انتصار للديمقراطية فى روسيا أمراً غير محتمل فى أى وقت قريب.

بل إنى أخشى أنه من المحتمل جداً أن العام ٢٠٠٠ سوف يشار إليه فى يوم من الأيام على أنه «غروب الديمقراطية الروسية». ■

أنا .. أنا .. أنا .. أنا

قراءة في
سيرة حياة
الدكتور عبدالرحمن بدوى

يوسف القعيد

طلبت من اثنين من شباب مصر الفتاة ضرب العقاد حتى يتوقف عن الهجوم علينا فصمت إلى الأبد

تحقيقي وترجمتي لكتابي أرسطو «الخطابة والشعر» عمل لامثيل له في التاريخ

كانت المرة الأولى التى أقرأ فيها اسم الدكتور عبدالرحمن بدوى فى النصف الأول من الستينيات عندما ذهبت إلى مكتبة البلدية فى دمنهور باحثا عن المجلد الخاص بمحافظة البحيرة ومدنها وقراها وعزبها ونجوعها، من القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥، وهو القاموس الذى وضعه وحققه وعلق عليه محمد رمزى.

كنت أريد البحث عن تاريخ قريتي «الضهرية ـ مركز إيتاى البارود، محافظة البحيرة»، وسبب تسميتها والأطوار التاريخية التى مرت بها. ولكن هذا الجزء من القاموس لم يكن موجودا، وإن كنت قد وجدت فى طريقى وأنا أقلب فى كروت الكتب والمؤلفين كتابا آخر بالصدفة كان عنوانه: «الزمان الوجودى» وكان مؤلفه هو الدكتور «عبدالرحمن بدوى».

كان من حقى فقط الاطلاع الداخلى فى المكتبة لأنه لم يكن لى الحق فى الاستعارة الخارجية. وقد جلست فى المكتبة التى كانت تعلو بناء قديما هو مبنى سينما البلدية فى دمنهور. وكان المبنى كله واسعا براحا، ولذلك كان الجلوس فيه يرد الروح، ومع هذا أعترف أننى عجزت عن فهم كلمة واحدة من هذا الكتاب الذى كان رسالته للدكتوراه. مما ولّد بداخلى حالة من التحدى جعلتنى أتردد أكثر من مرة على المكتبة محاولا الدخول فى عالم هذا الكتاب.

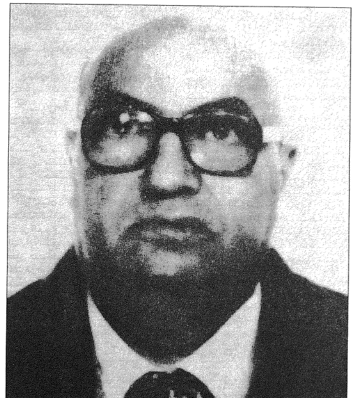
لكننى لم أعان من هذا العسر عندما قرأت له بعد ذلك بسنوات من مؤلفاته: «شخصيات قلقة فى الإسلام» و«من تاريخ الإلحاد فى الإسلام». ومن ترجماته رواية «دون كيشوت». وعندما كنت أقرأ له كان قد رحل عن مصر، ولم أقرأ له بعد الرحيل سوى حديث نشرته له مجلة «الكرمل» الفلسطينية أجرته معه الصحفية العربية سلوى نعيمى، كان حادا فيه، هاجم كل من فى مصر، بصورة مخيفة، وكان ذلك حوالى منتصف الثمانينيات.

قلت لنفسى يومها: ربما كان الرجل معذورا، ذلك أن الغربة تفعل بالإنسان مالايمكن تصوره، كانوا يقولون فى قريتى: «الغربة تربة» بمعنى مقبرة، وقرأت بعد ذلك فى أدبيات الاغتراب من التراث العربى أن الغربة مذلة وهوان وضعة وموت للإنسان وهو على قيد الحياة.



فى عقد التسعينيات وجدت له فى المكتبات كتابين جديدين، ليسا من مؤلفاته التى نعرفها، الأول دفاع عن القرآن الكريم ضد منتقديه، والثانى دفاع عن النبى محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهما مترجمان عن الفرنسية التى كتبهما بها. وبعد أن أصبحا ضمن مكتبتى لم أجد فى نفسى حماسة لقراءتهما، لأن التصفح الأول لهما، وهو مايمكن أن يسمى بالتعارف مع الكتاب، أعطانى الانطباع أن الدكتور بدوى كتب الكتابين يخاطب بهما قارئا فى الغرب لايعرف الكثير عن القرآن ولا النبى محمد «صلى الله عليه وسلم». ولذلك فإن قراءتهما قد لاتضيف إلىّ الجديد، ولهذا اعتبرتهما من قراءات العمر

(سيرة حياتى): ج ١ ـ ٢٨٢ ص، ج ٢ ـ ٣٨٣ ص ـ قطع كبير.
د. عبدالرحمن بدوى
الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٠.
الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ـ عمان.



المؤجلة، ذلك أنه لاتوجد علاقة ـ عندى ـ بين شراء الكتاب وقراءته.

إلى أن وجدت مؤخرا كتابا ضخما يقع فى جزءين عنوانه «سيرة حياتى» يسبق العنوان اسم الدكتور عبدالرحمن بدوى، كان الثمن غاليا ولولا إغراء الناشر بإجراء تخفيض على تخفيض معرض القاهرة الدولى للكتاب ما اشتريته. وقد سألت الناشر إن كان المؤلف وهو مصرى، قد أشار عليه أو طلب منه وجود طبعة شعبية من كتابه فى مصر، فلم أسمع منه فى صخب المعرض وضجيجه إجابة واضحة.

وسبب سؤالى أن الدكتور إدوارد سعيد عندما تعاقد مع ناشر من بيروت على أن يترجم الجزء الذى كتبه من سيرته، اشترط عليه فى العقد المبرم بينهما أن تكون هناك طبعة شعبية خاصة بمصر، وأن توزع هذه الطبعة بمعرفة مؤسسة صحفية مع الصحف والمجلات، وأن إدوارد سعيد تنازل عن كافة حقوقه عن هذه الطبعة حتى يصل الكتاب رخيصا للقارئ المصرى العادى، وقال إدوارد سعيد لناشره اللبنانى إننى أفعل هذا عرفانا بالدور الذى لعبته مصر فى تكوينى الثقافى فى سنوات الشباب الأولى.

المهم عندى أن عبدالرحمن بدوى لم يفكر فى هذا من الأصل والأساس.

عدت إلى بيتى ومعى «خير جليس فى الزمان» كتاب جديد أحب أن أقرأه، وأعترف أننى تفرغت له تماما، لأننى أعتبر أن كتابة السيرة الذاتية تقف فى المقدمة من ناحية متعة القراءة، ولكن ذلك يتم إن توافر شرطان:

الأول: أن يكون الصدق هو الأساس فى الكتابة، ذلك أن السيرة الذاتية تخاصم الكذب والادعاء والصدق هو كلمة السر التى لايمكن تعويضها. والثانى: أن تكون هذه السيرة مكتوبة بشعرية عالية تعيد للعين متعة القراءة. بعد أن افتقدتها فى معظم ما نقرأه هذه الأيام.

لقد خطفتنى هذه المذكرات من حياتى، جعلتنى أصل نهارى بليلى، وأنهيت ستا وستين وسبعمائة صفحة من القطع الكبير فى يومين وليلتين، وإن كنت أعترف أن الذى دفعنى لهذا لا هو إحساس بصدق الكاتب ولاجمال أسلوبه أو شعريته وعذوبته، فكتابته حادة مدببة جافة تذكر الإنسان بكتابات الأدباء الألمان فى جفافهم وبعدهم فيما يكتبون عن الدم واللحم وإنسانية الإنسان، خاصة هيرمان هيسه وتوماس مان.

الذى دفعنى إلى التهام هذه المذكرات هو حالة «الذهول»، ولا أجد كلمة أدق من هذه الكلمة عندما أحاول وصف شعورى عند قراءة هذه المذكرات، والذهول سببه أننى عندما كنت أتأهب لقراءة هذه السيرة الذاتية، لكاتب قرأت له ولم أعرفه. كنت أمنى نفسى بتعارف من نوع فريد، تعارف على الورق، أصحبه فيه من خلال رحلة تكوين عقل وضمير وروح مشتغل بالفكر والفلسفة وكيف تكونت قناعاته وتطورت نظرته إلى الأمور، ولكنى وجدت كل مالم أتوقع وجوده أما ماانتظرته فلم يكن له وجود، لم أجد سوى الذهول.

ذهلت ـ أولا ـ من نزيف الأنا، من كل هذا التمركز حول الذات وعبادة الذات من خلال حالة من هستيريا جنون العظمة التى تتعدى كل ما تعاملنا معه من قبل.

ذهلت ـ ثانيا ـ من هذا الهجوم الجارح على كافة رموز مصر فى القرن العشرين من ساسة وكتاب وأدباء ومفكرين ورجال دين، مع التركيز فى هذا الهجوم الكاسح على الأموات، الذين لا يردون عادة على مثل هذا الهجوم.

أنا .. ومن بعدى الطوفان

ذهلت - ثالثا - من هذا الهدم المنظم لكافة إنجازات مصر فى القرن الذى مضى وودعناه منذ أيام وإهالة التراب عليها. أعرف وأدرك أن كل إنسان حر فى رأيه ولايمكن لقوة على الأرض أن تصادر رأى إنسان، حتى لو خالفت هذه الآراء حالة الإجماع العامة، ولكن ما قيل لايمت بأى صلة من الصلات للآراء.



أخشى أن أكون بذلك أمارس عملية قفز فوق المذكرات وما فيها، لذلك سأعود إلى المربع رقم واحد طارحا سؤالا بسيطا وبديهيا: من الدكتور عبدالرحمن بدوى؟! شرعية السؤال مصدرها أن فى مصر الآن أجيالا شابة لاتعرف عنه أى شىء. ساستند فى هذا التاريخ إلى ماكتبه هو بنفسه فى هذه المذكرات عن سنوات عمره من تاريخ ميلاده فى الساعة الثانية من صباح ٤/٢/١٩١٧. فى قرية شرباص مركز فارسكور محافظة دمياط. حيث كان الثامن بين إخوته لأمه، والخامس عشر بين أبناء والده، ومجموع إخوته واحد وعشرون، أحد عشر من البنين وعشر من البنات، ودخل مدرسة فارسكور الابتدائية، وفى مايو ١٩٢٩ حصل على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية، وفى سبتمبر التحق بالمدرسة السعيدية الثانوية فى الجيزة، وحصل على البكالوريا سنة ١٩٣٤. ويلتحق بكلية الآداب ويحصل على الليسانس فى مايو ١٩٣٨. ويسجل رسالة الماجستير فى أكتوبر من نفس السنة حول مشكلة الموت فى الفلسفة الوجودية. ولكن أستاذه «**لالاند**» يقول له إنه لايليق بالبدع، وأن الوجودية بدعة فحول الموضوع إلى مشكلة الموت فى الفلسفة المعاصرة.

لكنه بعد سفر هذا الأستاذ إلى فرنسا وإسناد الإشراف إلى أستاذ آخر هو «**كوبريه**» يعود عبدالرحمن بدوى إلى موضوعه الأصلى، ويقول:.. وبهذا استعدت خطتى الأصلية وهى أن تنصب الرسالة فى مجموعها على آراء الفلاسفة الوجوديين فى مشكلة الموت.

وفى الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٩٣٨ يعين معيدا بقسم الفلسفة فى كلية الآداب بجامعة القاهرة، وكان الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب قد سمع قبل ذلك بسنة عن طالب بالكلية يجيد ثلاث لغات هى: الألمانية والفرنسية والإيطالية، فقرر أن يسافر هذا الطالب فى الصيف إلى هذه الدول الثلاث حتى يختلط بأهلها، ويتعرف إلى الحضارة التى تقف وراء هذه اللغات، وكانت المشكلة أن اللائحة تنص على ألا يسافر فى رحلات الصيف سوى الأساتذة أو المدرسين، وعبدالرحمن بدوى الذى كان يجيد هذه اللغات كان لايزال طالبا، ولكن طه حسين ذلل هذه العقبة وأصر على سفره وفى ١٢/٦/١٩٣٧ التقى الطالب لأول مرة بأوروبا عندما سافر إلى إيطاليا وفرنسا وألمانيا.

وفى ٢٩/٥/١٩٤٤ قدم رسالته للدكتوراه حول «**الزمان الوجودى**»، وقال طه حسين بعد المناقشة : لأول مرة نشاهد فيلسوفا مصريا، ثم يعمل بالتدريس فى جامعة القاهرة التى يغيرها بجامعة عين شمس بعد إنشائها، ويعين مستشارا ثقافيا لمصر فى سويسرا من فبراير ١٩٥٦ إلى فبراير ١٩٥٨. ويسافر إلى ليبيا بناء على طلب تقدم به للعمل فى جامعتها فى بنغازى من سبتمبر ٦٩ إلى مايو ١٩٧٣، ويعود إلى مصر فى الثامن من مايو، ويبقى فيها حتى السابع من يوليو ١٩٧٣. ويسافر إلى باريس حيث ما زال يعيش حتى اليوم، أو إن شئت الدقة حتى اليوم الأخير من هذه المذكرات الذى يشير إليه فى سياق الكتاب وهو الخامس من مارس ١٩٨٨، أى منذ اثنتى عشرة سنة مضت تخللتها عشرة أشهر تقع فى الفترة الزمنية ما بين عامى ١٩٧٤ - ١٩٧٥ قضاها فى إيران، وكان قد سافر خلال هذه السنوات إلى الهند والكويت ولبنان أكثر من مرة والولايات المتحدة الأمريكية وهولندا، وكتب ونشر مائة وعشرين كتابا مابين مؤلفة ومترجمة وكتب تراثية تولى تحقيقها.

كان آخر ما سمعته عنه مؤخرا أنه عندما حصل على جائزة مبارك التى منحت العام الماضى لأول مرة وقيمتها مائة ألف جنيه، وقد تقرر منحه هذه الجائزة حتى تكون مصالحة مع الوطن، ولكنه رفض بصورة قاطعة مناقشة فكرة حضوره إلى مصر من أجل تسلمها، وإن كان لم يمانع فى تحويل قيمتها المالية إليه حيث يعيش فى باريس.



الأكثر إثارة للذهول فى هذه المذكرات هو آراء الدكتور عبدالرحمن بدوى فى رموز عصره، ومن الصفحات الأولى، وعند الكلام عن أصل اسم قريته، فهو يطلب من القارئ عدم الثقة بما جاء فى الخطط التوفيقية لعلى مبارك، دون أن يوضح الخطأ الذى وقع فيه على مبارك وما هو صوابه، الذى يدفعه إلى أن يطلب مثل هذا الطلب من القارئ، ثم يبدأ فى الكلام عن رموز عصره **بالشيخ محمد عبده**، حيث يتهم د. عبدالرحمن بدوى الشيخ محمد عبده بأنه كان صديق اللورد كرومر، وأنه كان مصلحا دينيا مزعوما، وكانت له صلة حميمة بكرومر، ويقول:

هذا إن صح أن توصف بالحميمية علاقة التابع بالمتبوع والذليل بالجبار والمطيع الخاضع بالآمر المستكبر، بل كان محمد عبده هو نفسه يتفاخر ويباهى بهذه العلاقة الوثيقة بينهما، أى بينه وبين سلطات الاحتلال، كما ورد فى رسالة منه إلى رشيد رضا، لما خاف هذا الأخير من أن يعتقله الإنجليز، وقد استغل كرومر علاقته هذه بمحمد عبده، فجعله يكتب مقالات ضد محمد على رأس الأسرة العلوية، بمناسبة مرور مائة سنة على توليه حكم مصر، وذلك فى سنة ١٩٠٥، وكان ذلك قبيل وفاة محمد عبده بقليل.

ويقول إن محمد عبده ضئيل الإنتاج الفكرى، إذ ليس له إلا كتاب صغير هو رسالة التوحيد، وهى درس ألقاه فى بيروت بعد خروجه من مصر، وهى متن فى علم التوحيد واضح العبارة حسن الأسلوب، لكنه من حيث المادة خجل بسيط لايفيد إلا المبتدئين فى هذا العلم، وما عدا هذه الرسالة ليس إلا تعليقات لغوية بسيطة على مقامات البديع الهمذانى والبصائر النصيرية للساوى، ونهج البلاغة المنسوب إلى الإمام على بن أبى طالب.

وعندما يعود المؤلف إلى واقعة محاضرات محمد عبده فى بيروت بعد ذلك بمناسبة محاضرات ألقاها هو أيضا فى بيروت، ينسى ما قاله من قبل عن رأيه فى هذه المحاضرات بل ويقارن بين نفسه وبين الشيخ محمد عبده، فهل تجعلنا هذه المقارنة نتساءل: إن كانت تنطبق على الآراء السابقة فى اجتهاد محمد عبده على عبدالرحمن بدوى نفسه أم أنه نسى ما سبق أن قاله عنه من قبل؟

وعندما يتكلم عن **طه حسين** يتناسى ماقدمه طه حسين له من قبل من فرص، ووقوفه معه، بل ينسى أنه سيثبت شهادة طه حسين




طه حسين

كان يبلغ البوليس عن زعماء الطلبة المعارضين، ويستعين بجواسيس من بين الطلبة.



محمد عبده

صديق كرومر ومصلح دينى مزعوم.. يكتب ضد محمد على بناء على طلب كرومر.. ضئيل الإنتاج الفكرى ليس له إلا رسالة التوحيد التى لاتفيد سوى المبتدئين.




محمود فوزى

رجل معتوه جهول عيى غبى صوته مثل مواء القطط المخنوقة.. تورط فى فضائح مالية عندما كان قنصلا فى القدس.



عبد الوهاب عزام

مدعى العروبة والإسلام. الحقود المتقلب الأهواء التافه.



أحمد أمين

حقود ضيق الأفق يغار من أى متفوق، حاول أن يضع اسمه معى على كتابى التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية فرفضت. كان يكره كل من يعرف لغة أجنبية لجهله بأية لغة.

العقاد

أوعز له النقراشى بالهجوم على مصر الفتاة والإخوان فكتب.. طول حياته كان مأجورا لحزب من الأحزاب.

زكى نجيب محمود

مستوى كتاباته لا يزيد على مستوى طالب فى المرحلة الإعدادية.

الدكتور على إبراهيم

كان جبانا.. هيابا للسلطة أيا كانت.. كان انتهازيا يأكل على كل مائدة من موائد الأحزاب السياسية.

أحمد حسين

ضيق التفكير ومندفع ومستبد، تلقت مصر الفتاة أموالا من ألمانيا وإيطاليا وحكومة محمد محمود.. حصل على ٢٠٠ جنيه من المخابرات البريطانية وتراجع بعد رد الفعل.

السنهورى

يستحق الاعتداء عليه.. ليتحمل وزر سلوكه.



عن رسالته للدكتوراه بعد ذلك، عندما يقول عن طه حسين أنه كان يبلغ رجال البوليس عن زعماء الطلبة المعارضين فى كلية الآداب، مستعينا فى ذلك ببعض الجواسيس المتزلفين إليه من الطلاب، فكنا نسمع فى اليوم التالى أن البوليس قبض على فلان وفلان من هؤلاء الزعماء، فيمتلك الغضب زملاءهم ويهجمون بالضرب الموجع على المشبوهين، وكم شاهدنا فى طرقات الكلية، وأمام مكتب العميد من معارك عنيفة أو تسوية حسابات فى هذا المجال.

ويقول عن كتابه «حديث الأربعاء» أنه لايؤلف وحدة متصلة بل هو فى الغالب انطباعات متناثرة ولمحات قصيرة.ثم يقول عن «أحمد أمين» أنه كان رجلا حقودا ضيق الأفق تأكل الغيرة قلبه من كل متفوق ومن كل متقن للغات الأجنبية، لأنه كان لايعرف لغة أجنبية فيما عدا قشور تافهة من أوليات اللغة الإنجليزية وكان يسعى للتعويض عن عجزه بانتحال أعمال الآخرين، خصوصا الناشئة المتطلعين إلى الشهرة بالتسلق على جذوع شخصيات ذات شهرة أو نفوذ.

ثم يحكى عبدالرحمن بدوى عن أحمد أمين:



وقد حاول أحمد أمين أن يصطنع معى هذا الصنيع لما أن قدمت إلى لجنة التأليف والترجمة والنشر - وكان هو رئيسها - أصول كتابى: التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية، فى أواخر ١٩٣٩، فلم تفلح محاولته هذه وهددته منذ اللحظة الأولى، إذ قلت فى نفسى: وما شأن هذا الرجل بكتاب مؤلف من دراسات بالألمانية والإيطالية، وفى موضوع بعيد عنه؟! وكيف أبرر وجود اسمه إلى جانب اسمى على كتابى هذا؟! إنها منه صفاقة مابعدها صفاقة؟!

ويقول عن كتاب **«تذكار جيتى» لعباس محمود العقاد** إنه كتاب صغير وتافه، وأنه لايحب القراءة للعقاد وعن العقاد وأحزاب ذلك الزمان، إن النقراشى أوعز إلى كاتب السعديين فى ذلك الوقت عباس محمود العقاد بالهجوم على مصر الفتاة والإخوان المسلمين وقد كان العقاد طول حياته مأجورا لحزب من الأحزاب: الوفد حتى سنة ١٩٣٥، وخصوم الوفد من ٣٥إلى ١٩٣٨، والسعديين من ١٩٣٨ إلى ١٩٥٠. كما كان مأجورا لبريطانيا طوال مدة الحرب ١٩٣٩-١٩٤٥ على الأقل.

يستخدم العقاد لسانه وما يزعمه لنفسه من قوة عارضة فى التطاول على خصوم من يستغل للدفاع عنهم، فكتب العقاد مقالات ضد الإخوان المسلمين لكن هؤلاء سكتوا ولم يحركوا ساكنا، ثم انكفأ بعد ذلك يهاجم مصر الفتاة، فلما كتب أول مقال، تشاورنا فى مصر الفتاة بماذا نرد، فرأى **محمد صبيح** أن يكون ذلك بالرد القاسى فى مجلة مصر الفتاة. وكتب فعلا مقالا بعنوان: «العقاد جهول يريد أن يعلم الناس مالا يعلم»، فكتب العقاد مقالا آخر أشد وأعنف، وكان من رأيى أن العقاد يرحب بهذه المقالات، فلا علاج له عن هذا الطريق، بل لابد من استخدام العنف معه، لأنه لايردعه غير العنف، وأخذ برأيى اثنان من أعضاء الحزب، فتربصا للعقاد وهو عائد إلى بيته رقم ١٣ شارع سليم فى مصر الجديدة، وانهالا عليه بالضرب والصفع والركل وأفهماه أن هذا تأديب مبدئى بسبب مقالين ضد مصر الفتاة، فإذا عاد عادا إليه بما هو أشد نكالا وأحدثت هذه العلقة أثرها الحاسم، فخرس العقاد خرسا تاما، ولم يعد إلى الكتابة ضد مصر الفتاة.

وهذا سلوك فاشى من عبدالرحمن بدوى لابطولة فيه سواء كان الذى ضرب العقاد عضو فى الحزب أم فتوة من الشارع، وهو عودة إلى شريعة الغاب، وعبدالرحمن بدوى يحكى ما يجرى بعد نصف قرن من وقوعه حتى دون أن يعلق عليه، سواء بالإعجاب بما قام به أو مراجعة النفس فيه، والخجل منه، ولاأحب أن يتصور أحد أن الدافع إلى هذا السلوك هو الصراحة والصدق، أتصورأن الدافع إلى هذا الاعتراف المخجل بتدبير علقة للعقاد أى مواجهة الكلمة بالضرب والعدوان - وهو مايقوم به المتطرفون بعد هذا بنصف قرن - دافع هذا الاعتراف هو نوع من توسيع دائرة الأنا، فالرجل يحب أن يبدو قادرا حتى على إسكات العقاد بالضرب.

ويقول عن **أحمد حسين مؤسس مصر الفتاة،** والذى كان عبدالرحمن بدوى نفسه عضوا فيه: إنه ضيق التفكير ومندفع بصورة انفعالية، وأنه فطر على العناد والاستبداد بالرأى،وفى كل تصرفاته لم يستشر أحدا من أعضاء الحزب اللهم إلا مصطفى الوكيل الذى كان بمثابة الأنا الآخر لأحمد حسين.

ويتكلم عن تقلبات أحمد حسين فيقول إنه أوغل فى الاتجاه الدينى، وأمر بتحطيم الحانات، وأطلق لحيته ثم فاجأ الجميع بأنه غير اسم مصر الفتاة إلى اسم الحزب الوطنى الإسلامى، ثم جاء أخيرا بمهزلة المهازل فى هذا الاتجاه وهى كتابه رسائل إلى كل من هتلر وموسولينى يدعوهما إلى اعتناق الإسلام وصاغ الرسائل بطريقة تحاكى الرسائل التى بعث بها النبى محمد صلى الله عليه وسلم إلى كسرى والمقوقس والنجاشى.

هذه الواقعة تجسد أزمة عبدالرحمن بدوى، بل ومعظم المثقفين المشتغلين بأمور الفكر، فهو على المستوى النظرى يصف سلوك أحمد حسين بأنه مهزلة المهازل، ومع هذا تعال لنرى ماذا سيفعل عبدالرحمن على مستوى السلوك الشخصى فى نفس هذه الواقعة، والكلام التالى عن سلوكه من عنده أى ماكتبه بنفسه فى مذكراته.

بعد أن يصف عبدالرحمن بدوى الرسالتين بأنهما مهزلة المهازل يعترف أن أحمد حسين طلب منه ترجمة هاتين الرسالتين، واحدة إلى الألمانية والثانية إلى الإيطالية، الغريب أن عبدالرحمن بدوى يكتب الترجمة بعد تمنع ويكتفى بالقول: وقد أوقعنى ذلك فى حرج، ثم يكتب بعدها: ومن عجيب أننى طاوعته، من المؤكد أنه يدرك أبعاد المسألة، ويعرف بعد المسافة بين مايقوله وما يفعله، ولكنه يلجأ إلى كلمات مخففة مثل الحرج، والمطاوعة، فكم عبدالرحمن بدوى فى أعماقه؟ وكم لسان فى فمه؟ وكم يد يمسك بها القلم ليدون الشىء ونقيضه فى الصفحة الواحدة؟

يتهم عبدالرحمن بدوى مصر الفتاة أنها تلقت أموالا من ألمانيا وإيطاليا بل ومن المصروفات السرية فى عهد حكومة محمد محمود عام ١٩٣٨. ويقول إن أحمد حسين أخبره هو وخمسة عشر زميلا له من رجال الحزب - وإن كان لايذكر اسم واحد منهم - ربما كان من الأحياء الذين يمكن العودة إليهم، بأن المخابرات البريطانية عرضت عليه - أى على أحمد حسين شخصيا - مبلغا من المال، وكدفعة أولى مائتى جنيه، وأن يسافر إلى إنجلترا للتفاهم معها، واعترف أحمد حسين أنه تسلم هذا المبلغ فعلا وأنه بسبيل إتمام هذه المهمة، وأن عبدالرحمن بدوى وفتحى رضوان وحمادة النادى اعترضوا على هذا التصرف، وقطع صلته بالحزب ولايقول عن أحمد حسين سوى أنه حاول التراجع عما خطط له مع المخابرات البريطانية، وهذا قليل من كثير كتبه عبدالرحمن بدوى عن أحمد حسين، إنه يرصده وينتقد تصرفاته حتى سنة ١٩٦٩.



ويكتب عن **الدكتور على إبراهيم:**

هكذا كان دائما كبير الجراحين فيما زعموا.. كان جبانا هيابا للسلطة أيا كانت، ولم يكن له من مبدأ فى السياسة، بل كان انتهازيا يأكل على كل مائدة من موائد مختلف الأحزاب السياسية، والسلطات البريطانية، وكان مهرجا يحب الظهور فى الأمور العامة التى لاتكلفه أى مخاطرة.

هل رأيت عمومية الأحكام وإطلاقها دون تقديم دليل أو واقعة واحدة، يؤكد بها ما يذهب إليه من اتهامات خطيرة؟ خاصة أن الوقائع بعيدة وكل شهود الحدث لم يعد لهم وجود فى هذا العالم.

وعندما يصل إلى **الدكتور عبدالوهاب عزام** يقول عنه:

هذا المدعى للعروبة والإسلام، الحقود المتقلب الأهواء التافه الجهول، الرجل الذى يعانى من التفاهة، الذى يمارس الدجل على الناس، وكل هذه الاتهامات التى يوجهها إلى عبدالوهاب عزام سببها أن هذا الأخير عندما كان عميدا لكلية الآداب، رفض أن يمد لعبدالرحمن بدوى إجازة كان يقضيها فى الخارج، ورغم أن المسألة سويت بعد عودة بدوى إلا إنها تسببت فى كافة هذه الشتائم، لدرجة أن الإنسان يتساءل عن حجم الشتائم التى كان سيوجهها إلى عبد الرحمن عزام وهو الآن فى قبره لو أن مد الإجازة أسبوعا لم يتم.

ويقول عن **عزيز المصرى** - الذى وصل إلى حدود الأسطورة فى خيال شباب تلك الأيام:ومن خصال عزيز المصرى ما يجعله لايستمر فى عمل بداه أو كلف به، وكان عزيز المصرى يعتز بأن الملك فاروق يجلس أمامه مجلس الولد المهذب وكان يعتز أيضا أن الزوجة الأولى لفاروق - فريدة ذو الفقار - من أقربائه.

وحتى بعد مرور أكثر من عشر سنوات على حادث الطائرة الفاشل، لم يكن يرضى أن يفصح عما انتواه آنذاك بهذه السفرة، رغم أن كل ظروف الحادث قد زالت ولم يعد لها أثر حتى يخشى من الإفصاح عن جلية الأمر، أتراه كان خجلا من هذا الإخفاق الشنيع؟!

ويتقدم د. عبدالرحمن بدوى لشغل وظيفة أستاذ للفلسفة وتاريخها فى أكتوبر ١٩٥٦، ويكون منافسه على هذه الوظيفة **الدكتور زكى نجيب محمود،** فيكتب عنه:

إنه تخرج فى مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩٣٠، ولم تكن فيها تدرس الفلسفة، فلم يدرس إذن شيئا من الفلسفة، وعين مدرسا فى المدارس الثانوية وراح يكتب مقالات أدبية سطحية فى مجلة «الرسالة»، معظمها تلخيص ساذج لكتاب وول ديورانت «قصة الفلسفة»، وهو كما يدل عليه اسمه كتاب تافه جدا سطحى جدا، يتوجه لعامة المبتدئين فى الثقافة وبالمراسلة مع جامعة لندن تقدم للحصول على بكالوريوس فى الآداب B.A ثم سافر فى منحة علمية للمجلس البريطانى سنة ١٩٤٤ إلى إنجلترا، وبعد ثلاث سنوات حصل على الدكتوراه فى الفلسفة PH.D فهو لم يدرس الفلسفة دراسة منتظمة فى معهد علمى، ولم يكن له من الإنتاج إلا مقالات بسيطة فى المجلات الأدبية - تماما كما يفعل الآن فى صحيفة الأهرام - مستواها لايزيد على مستوى طالب فى المرحلة الإعدادية، والمرشح الثانى لنفس الوظيفة كان **الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى** وقد قال عنه أضعاف ما قاله عن زكى نجيب محمود، وعلل هذا بسبب المنافسة على وظيفة فى الجامعة.

وإبان العدوان الثلاثى على مصر يصل إلى جنيف **الدكتور محمود فوزى** وزير خارجية مصر. ويكون عبد الرحمن بدوى فى استقباله بالمطار. ويحضر حفل عشاء أقيم على شرفه. ولابد أن يفعل بدوى هذا. ذلك أنه كان ملحقا ثقافيا فى السفارة المصرية فى سويسرا. هذا ما يقوم به على مستوى السلوك. ولكن تعال اقرأ ما يكتبه عن محمود فوزى، بعد أكثر من أربعين عاما على وقوع الحدث، عندما يمارس الحكم على التاريخ ولكن بأثر رجعى.

يكتب عبد الرحمن بدوى عن محمود فوزى، أنه رجل معتوه وجهول، لا يدرى فى السياسة شيئا. وعندما يقف محمود فوزى فى مجلس الأمن يخطب باسم مصر فى ظل هذه المعركة، التى أصبحت الآن من معارك الوطنية المصرية يقول عنه:

سمعت شخصا عييًا غبيًا لا يستطيع أن ينطق بجمله، فضلا عن أن صوته الذى كان يموء به مواء القطط المخنوق، خصوصا وقد تلاه فى الخطابة أبا إيبان بفصاحته وبلاغته وصوته الجهورى الأخاذ، ويكمل عن محمود فوزى:

ولا أريد هنا أن أروى الفضائح المالية التى تورط فيها محمود فوزى لما كان قنصلا عاما فى القدس عام ١٩٤٣، فى موضوع يتعلق بالملكة الوالدة نازلى والدة فاروق. وقد رواها لى أحمد رمزى القنصل المصرى آنذاك فى بيروت، ولا تلك التصرفات التى أقدم عليها لما كان ممثلا لمصر فى هيئة الأمم المتحدة من سنة ١٩٤٧ إلى سنة ١٩٥٢. وقد رواها لى أحمد فراج طائع وزير الخارجية فى وزارة محمد نجيب الأولى، التى شكلت فى ١٩٥٢/٩/٨.

هل رأيت ما هى الوقائع التى يستند إليها الدكتور عبد الرحمن بدوى فى توجيه اتهامات مالية غامضة وغير محددة لمحمود فوزى، إنه مجرد كلام رواه له شخصان لا وجود لهما على قيد الحياة الآن. ولو كانت ذمم الناس يمكن قياسها بمثل هذه الحكايات القريبة من النميمة التى يكون الهدف منها عادة تصفية الحسابات، لما بقى إنسان وحيد له قيمة على ظهر الأرض.



لن أتوقف أمام ما قاله عن سعد زغلول ومصطفى النحاس وتوفيق الحكيم والدكتور إسماعيل غانم والدكتور محمد ثابت الفندى، بل



أنا .. أنا .. أنا .. ومن بعدى الطوفان



وعبد الرحمن بن خلدون، الذى لم يعاصره ولم يعرفه. والدكتور **عبد الرزاق السنهورى** الذى يرى بدوى أنه كان يستحق واقعة الاعتداء عليه. فقد كان عليه أن يتحمل وزر سلوكه ولا ما قاله عن البخل الشديد لمصطفى مرعى، ولا تردد علوبة باشا. ولا ما قاله عن **الدكتور إبراهيم بيومى مدكور. والدكتور مراد غالب، وأحمد بهاء الدين وعبد الرحمن الشرقاوى**، وهجومه يتعدى الحدود فهو يهاجم جان بول سارتر وبابلو بيكاسو.

ولكنى أتوقف أمام بعض الدلالات فقط:

١- إن الناس بالنسبة لعبد الرحمن بدوى نوعان: إما قدموا له خدمات أو لم يقدموا، وربما تنافسوا معه. وموقفه من الجميع واحد: هو الهجوم مع اختلاف فى درجات هذا الهجوم. حتى وإن هاجم الذين خدموه برفق فهو هجوم فى النهاية، ومن يهاجم صفوة الناس بهذه الضراوة لابد وأن يرقى إلى مستوى الضمير فى سلوكه وكتاباته وتصرفاته.

والدكتور عبدالرحمن بدوى يعترف صراحة بأنه كان يوسط **الدكتور طه حسين والشيخ مصطفى عبدالرازق** فى كل قضاياه - الكبيرة منها والصغيرة - ويمكن القول أنه كانت هناك صعوبات لم تجعل أمامه مفرا من الواسطة، ولكن من الناحية الأخرى: هل يمكن أن ننسى الوجه الكريه للوساطة والمحسوبية فى ذلك المجتمع الطبقى الذى كان فى مصر فى تلك الأيام.

٢- إن جميع الذين يهاجمهم بدوى بضراوة من الأموات والموتى لايردون، أما الأحياء فكلامه عنهم مخفف بدون حدود، والموت له حرمة فى العرف المصرى العام، وأنا لاأطالبه بذكر محاسن هؤلاء الموتى، ولكن على الأقل أن يكون منصفا، وخاصة أنه مشتغل بالفلسفة ومن المفترض أن يكون لديه منهج من أجل الوصول إلى الحقيقة، وهذا المنهج يتطلب حالة من الحياد التام، أو الحياد المستحيل إن شئت الدقة بين الإيجابيات والسلبيات!

والأسماء التى داس الدكتور بدوى على إنجازاتها بقدمه، لها دور هام فى صياغة العقل والقلب والضمير المصرى والعربى فى القرن العشرين. ولايمكن محو أدوار هذه الأسماء بجرة قلم، إن ضخامة ما قام به كل منهم يتطلب التفرقة بين الخاص والعام من أدوارهم، كما أن معظم هذا الهجوم «عنعنات»، كلام يقال نقلا عن. عن. عن. إلى آخر هذه الدائرة الجهنمية.

إن هذا الهدم المنظم لرموز هذه الأمة، وإهالة التراب عليها، يوصلنا إلى المحنة التى نعانى منها الآن، وهى غياب القدوة وانتهاء المثل الأعلى فى نظر الأجيال الشابة، الذين يتكون وجدانهم الآن ومنهم سيخرج من يحكم هذا البلد فى الزمن القادم، ومن سيصنع لمصر فنها وأدبها واقتصادها وأمنها وعلومها.

إننى أتابع بحالة من الفزع بداية غروب دور مصر العربى، ذلك أنه لم يبق لها من الدور سوى ذكريات الزمان الذى مضى، وها هو كتاب الدكتور بدوى يحاول أن يحرم مصر حتى من هذا الماضى، وعندما ندرك عقم الواقع المصرى وانتهاء قدرته على إفراز رموز جديدة، لابد أن نستهول المستقبل الذى ينتظر هذا الوطن، ذلك أن مصر دولة دور، وتآكل هذا الدور معناه انتفاء مبرر وجود هذا الوطن نفسه، فى محيطه الإقليمى أو الدولى.

ثم أى شجاعة تلك فى اصطناع البطولات على أضرحة الموتى؟! إن الذى يبقى من الرمز الذى مات هو دوره، ومناقشة هذا الدور لابد أن تتم فى سياق عصره وظروفه المعقدة والمتشابكة، أما اجتزاء تصرف هنا وآخر هناك والتعامل معه بمفرده فذلك خطأ. وحالة الكراهية هذه لاتقف عند حدود البشر ولكنها تمتد إلى المكان، فهو لايحب قريته إلا بعد وصول شركة أوروبية إليها - يكتب - والشركة الأجنبية أشاعت فى القرية جوا متحضرا شبه أوروبى.



أصل إلى نزيف الأنا، أو حالة جنون العظمة التى تبدو فى كل صفحة من صفحات هذه المذكرات، وأنا أعرف أنها مذكرات أى أن الكاتب صاحب السيرة يصبح هو محور الكون، لأننا نرى كل شىء من خلاله، ولكن هناك فارقا بين أن تكون أنت الراوى الذى يرى الآخرين ويقدمهم من خلال رؤيته، وبين أن تقول فى كل صفحة أنا.. أنا.. أنا.. ومن بعدى الطوفان.

فى فصل عنوانه: «الدكتوراه ومذهبى الوجودى» يصف المجهودات التى قام بها ويقول عنها:

- وأمام هذا العمل الجبار جن جنون الحاقدين من هؤلاء المستشرقين الأدنياء وتلاميذهم الأوفياء وحاولوا نقده. فكان نقدهم المزعوم هذا...

كناطح صخرة يوما ليوهنها
فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

ثم يكتب هذه الجملة بالحرف الواحد:

- وهيهات.. هيهات أن يؤثر طنين الذباب فى جبل شامخ.. والجبل الشامخ طبعا هو الدكتور عبدالرحمن بدوى.

ثم يكتب:

وبفضل ماكتبته عن الوجودية صارت الوجودية رافدا أساسيا فى تكوين غالبية المثقفين العرب.

وعندما يحقق ويترجم كتابى « **الشعر والخطابة لأرسطو**» يصف ماقام به قائلا:

- وهكذا أنجزت هذا العمل الجبار متحديا كل الباحثين القدماء والمعاصرين، وهذا ما أثار حقد العاجزين الأدعياء.

ثم يعود ليصف ماقام به:

- وبهذا العمل العظيم الذى لا أجد له مثيلا فى تاريخ تحقيق المخطوطات فى العالم كله وبأية لغة من اللغات..

الغريب أن عبدالرحمن بدوى الذى يتعبد فى محراب ذاته بهذه الصورة، ويتصور أن الجميع فاشلون إلا هو، وأن هؤلاء يحقدون على أى إنجاز يقوم به، بل يصل به الأمر إلى شن الهجوم على الذين يعملون فى مهن بأكملها، وعلى جماعات إنسانية بصورة مطلقة، مع أن هذا التعميم ضد طبيعة البشر، فهو يهاجم الأزهريين والدبلوماسيين والصحفيين والطلبة المصريين الذين يدرسون فى الخارج، ويصل إلى الهجوم على المصريين جميعا، خاصة الذين يشكلون كتلة الجماهير.

يقول عن الصحفيين المصريين إنهم غاية فى الصفاقة والجهل والادعاء، وإن كان هذا لايمنعه من الإشادة بأنيس منصور لأنه كتب مقالا عن اعتقال السلطات الليبية للدكتور بدوى، والدبلوماسيون المصريون فى نظره جهلة ولصوص، ومع هذا فهو يثنى فى نفس الصفحة على المستشار الثقافى المصرى فى الهند، والسفير المصرى فيها، ولكن هذا يتم لأسباب شخصية بحتة، أقرب إلى المنافع والمصلحة.

يقول إنه عندما زار الهند «يناير ١٩٦٤» فإن المستشار الثقافى المصرى فيها د.العتر - هكذا يكتب اسمه - والسفير المصرى الممتاز هما اللذان سعيا لدى وزارة الثقافة الهندية أن تستضيفه شهرا فى الهند - طعاما وإقامة - ألقى فيها أربع محاضرات فى أربع جامعات هندية. ويعود ليقول: إنه بفضل التأييد الكريم من السفير المصرى الممتاز أحمد حسن الفقى تعرفت إلى نائب رئيس الجمهورية الهندى ذاكر حسين، ولكنه يعود ليقول إن لقاءات الدبلوماسيين عبث لا طائل من ورائه، وتسيطر عليها التفاهة والحذر الشديد والكلام الخالى من كل معنى.

وقد يسأل القارئ ألم يعجب الدكتور بدوى شىء؟ وأقول: إنه كان معجبا بكل شىء فى أوروبا وتلك ليست حالة بمفرده، ولكنها كانت حال معظم أبناء هذا الجيل، الذين رأوا أن خلاص مصر يرتبط بكل مايأتى من الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط، وهى الفكرة التى غرسها الخديوى إسماعيل والتى تقول بجعل مصر قطعة من أوروبا.

والدكتور بدوى معجب بألمانيا وهتلر، لدرجة أنه يقول: إنه لم ير شرطة عادية ولاسرية ولم يشعر بأى رقابة، بل إنه عندما يقارن بين مقابر ألمانيا ومقابر مصر، يعجب بالأولى ويرفض الثانية، وهو معجب غاية العجب بفرانكو فى أسبانيا، بل يقول عن فرانكو: إنه كان حاكما حكيما بارد الأعصاب صبورا أبعد مايكون عن ثرثرة السياسيين وصلف الديكتاتوريين ورعونة المغامرين العسكريين، جمع بين الحذر والمرونة وبين الوطنية واتساع الأفق العالمى وبين النظام العام وإطلاق الحريات الخاصة.

هذا الإعجاب بفرانكو لايبديه لشهيد من شهداء النضال الوطنى المصرى، إن الدكتور بدوى يصف مظاهرة الطلبة على كوبرى عباس باعتباره كان مشاركا فيها، ويكتب عن وفاة عبدالكريم الجراحى، وفضلا عن الخطأ فى اسمه الذى هو **عبدالحكيم الجراحى**. ويصف ما جرى باعتباره وفاة وليس استشهادا ولايتكلم عن الشهيد بكلمة واحدة، بل يصف نجاته التى كانت بالصدفة، ولايشارك فى الجنازة التى شارك فيها كل الطلاب على شهداء هذه المظاهرة التاريخية.

أعترف أننى عندما كنت أتهيأ لقراءة هذا الكتاب منيت نفسى برحلة عقلية ممتعة يكتبها مشتغل بالفكر تعدى الثمانين من عمره، ومرّ بتجربة الغربة وعاش معظم سنوات عمره فى الفنادق، وخاصة أنه عاش فى فندق واحد فى باريس من ٤٦ إلى ١٩٥٥، ومن فبراير ١٩٦٧ حتى اليوم، واليوم هو يوم كتابته لهذا الكتاب.

ومع هذا لايلتفت إلى تلك الحياة التى عاشها فى الفنادق، والفندق مكان شديد الخصوصية تمر به حالات إنسانية نادرة، وهذا الكلام لابد أن يلفت نظر المفكر قبل الروائى، فالروائى قد يستلهم شخصية ولكن المفكر يستخلص قواعد عامة للسلوك الإنسانى وردود أفعال البشر إزاء الأزمات التى يفاجأون بها.

إن الدكتور بدوى يعترف بتردده على المطاعم والمقاهى ويقول إنه مدمن جلوس على المقاهى، بل ويكره المدن الأمريكية لخلوها من المقاهى، ومع هذا لم تلفت نظره. ومايكتبه عن المطاعم والفنادق فى هذه المذكرات لايخرج عما يكتب فى نشرات الدعاية السياحية.



ثمة موضوع ما كنت أحب التطرق إليه، ألا وهو تجربة العزوبية وعدم الزواج، لولا أنه هو الذى كتب عنها وكنت أتصور من قبل أنه رفض لفكرة الوجود، أو لأن الإنسان يأتى إلى الدنيا ولايختار اسمه ولاوالديه ولاوطنه كما قال فلاسفة الوجودية. الدكتور بدوى يتحدث عن هذه القضية فى موضعين من كتابه. فى المرة الأولى يتكلم عن تجربة مع فتاة هولندية، وكل التجارب حسية تخلو من العواطف، ذلك أن كلمة الحب لاترد أبدا، والأمر لايزيد على حالة من الإعجاب بمقاييس أجساد نسوية، وجميع هؤلاء النساء فى أوروبا، فهو لايذكر أبدا امرأة مصرية.

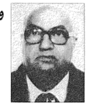


موقف الدكتور بدوى من ثورة يوليو وقائدها **جمال عبدالناصر** يتطلب وقفة. وقد ذكر صراحة أكثر من سبب يجعله ضد هذه الثورة، ولكن ليس إلى الحد الذى وصل إليه، مع ملاحظة أن هذه الأسباب خاصة وتدور حول أمور شخصية، بينما الثورة من أهم الأحداث العامة فى مصر والوطن العربى والعالم الثالث، فى النصف الثانى من القرن العشرين، ورغم أنه يخصص فصلا للثورة إلا أنه وطوال الكتاب فى جزءيه، يتكلم عنها من خندق العداء المطلق لدرجة أنه عندما يقارن بين العصر الملكى وزمن يوليو تتحول المقارنة لصالح زمن فاروق على طول الخط فى الحريات العامة والاقتصاد والتعليم والإسكان والأسعار والحزبية، وإن كان يستدرك ليقول إنه ضد الملكية مثلما هو ضد يوليو.

والفصل الذى يخصصه ليوليو عنوانه: السنة الكبرى. وفيه يتكلم عن الأوضاع التى كانت سائدة قبل يوليو: فالحرية كانت وارفة ينعم بها الجميع، فأصبحت حكرا لفرد تحيط به عصابة، وكانت الكرامة أعز مايملك المصرى فصارت هدفا لكل اضطهاد ومصدرا لكل حرمان وشقاء، وكان الأمن على النفس والمال موفورا لكل شخص، فصار الخوف على كليهما يقض مضجع كل فرد وكل أسرة، وكان النفاق مقصورا على فئة من الوصوليين وعديمى الضمائر فأضحى خصلة شعب بأسره، يتنافس الجميع فى ممارستها ويتباهى فى التفوق فيها.

وكان التفريط فى أى حق من حقوق الوطنية خيانة تنهار بسببها الحكومات، فإذا بالتخلى عن أكبر هذه الحقوق - وهو حق مصر فى السودان - يعد إنجازا عظيما يتباهى به الحكام، ويقارن بين هزيمة فلسطين وهزيمة يونيو والأسلحة الفاسدة التى اشتريت فى ٤٨ بأموال قليلة فى مواجهة الأسلحة التى تركها جيش مصر عند انسحابه فى ٦٧.

وكافة قرارات يوليو كوارث، فتأميم قناة السويس لم يكن هناك ما يبرره لأن القناة كانت

أنـــا .. أنــا .. أنـــا ..  ومن بعـدى الطوفـان

ستعود بعد تسع سنوات بدون حرب، وقرار الوحدة مع سوريا كارثة واليمن مصيبة، أما لماذا نجحت الثورة فذلك يعود لسببين : الأول المفاجأة والثانى غفلة الحاكمين.

ويقول : إن كل ما قام به جمال عبدالناصر داخليا وخارجيا عبارة عن تصرفات حمقاء طائشة لاتحسب حسابا لأى شىء غير الدوى الأجوف العقيم حول شخصه مهما ترتب عليها من خراب وويلات لمصر، وشعب مصر ومكانة مصر فى المجتمع الدولى. وعبدالناصر كان يتخذ قراراته دون تبصر بالعواقب وعلى طريقة التهويش التى جرى عليها فى كل تصرفاته وقد تملكه الغرور حتى أعماه عن كل شىء.

ورغم هذا الموقف العنيف ضد ثورة يوليو وجمال عبدالناصر فهو ـ أى عبدالرحمن بدوى ـ يشارك فى لجنة الدستور على نحو غامض ويغفل باقى التفاصيل، بل ويصبح عضوا فى لجنتين، الأولى لجنة الحقوق والواجبات والثانية لجنة الشئون الانتخابية. وهاتان اللجنتان ـ ضمن لجان أخرى ـ شكلتها ثورة يوليو لدراسة نظام الحكم المناسب لمصر بعد الثورة.

وهذا الموقف يطرح على عبدالرحمن بدوى حزمة من الأسئلة، فإن كان رافضا للثورة وقبل عضوية لجانها، فتلك شهادة ضده، من الصعب رفض نظام مع المشاركة فى نفس الوقت فى لجانه، أم أنه أصبح ضد الثورة بعد لجنة تصفية الإقطاع، وبعد مشكلة الترقيات فى الجامعة التى أثيرت بعد تولى كمال الدين حسين وزارة التربية والتعليم؟ عموما إن عضوية لجان شكلتها ثورة هو ضدها يجسد أزمة انقطاع الصلة وبعد المسافات بين التصور النظرى والسلوك العملى.

ثم إنه لم يذهب إلى هذه اللجان لامباليا ومتفرجا، بل ذهب ليشارك فى بناء يرفضه وهو يستعد لذلك، اقرأ مايكتبه عن عضويته ودوره فى لجنة الحقوق والواجبات:

ـ وللعمل فى هذه اللجنة أعددت نفسى إعدادا جيدا بالاطلاع على كل الدساتير التى صدرت فى الدول المختلفة بعد الحرب العالمية الثانية، فضلا عن الإلمام بالقانون الدستورى بصورة عامة، أكثر من هذا فهويكتب أنه لم يكن عضوا فى لجنة نظام الحكم وليس من حقه المشاركة فيها بالرأى، ومع هذا كان حريصا على الإدلاء بالرأى فيما ينبغى أن يكون عليه نظام الحكم فى مصر بعد الثورة.

بل إنه ـ الدكتور بدوى ـ عندما يقوم على ماهر وأتباعه ـ هكذا يكتب ـ مصطفى الشوربجى ـ ربما يقصد عبدالعزيز الشوربجى ـ والسنهورى ومصطفى مرعى، بالدفاع عن النظام الملكى مستعينين بجريدة «أخبار اليوم»، فهويرد عليهم فى«اللواء الجديد» بمقال عنوانه :«الضفادع الملكية تستانف نقيقها»، إنه يكتب عن غياب الحريات والبلد الذى تحول إلى سجن كبير، ومع هذا فإنه ينتج فى هذا الجو فى الفترة من ٦٠ إلى ١٩٦٦ ثمانية وعشرين كتابا، تسعة كتب فى التاليف وأحد عشر كتابا فى الترجمة،وسبعة كتب فى تحقيق التراث، أى حوالى خمسة كتب فى كل سنة، وبنفس الحسبة كتاب كل شهرين ونصف،فأى قدرة على الإنتاج فى ظل هذا الكابوس، الغريب والعجيب أن هذه الغزارة فى الإنتاج لم تمنع الدكتور بدوى من القول إن دور النشر قد انحسرت فى الستينيات بعد التأميم، ولم تكن هناك سوى المطابع الحكومية التى سيطر عليها الشيوعيون سيطرة تامة.

هل يمكن الآن مقارنة إنتاج سنوات ٦٠/١٩٦٦ بنتاج ثلاث سنوات قضاها فى سويسرا مستشارا ثقافيا فى سفارة مصر فى سويسرا، ورئيسا للمكتب التعليمى المصرى هناك، وقبل المقارنة لابد من سؤال من المستحيل المرور عليه مرور الكرام، وهو أن يقبل الدكتور بدوى أن يكون مستشارا ثقافيا لنظام يكن له كل هذا العداء. وله عليه كل هذه التحفظات، وأنا أكتفى بطرح السؤال، لأن طرحه يمثل نصف الطريق للإجابة عنه.

من فبراير ١٩٥٦ حتى فبراير ١٩٥٨، وهى نصف المدة السابقة عليها تماما، يترجم عملين أدبيين هما: «دون كيشوت» لسرفانتس وبحث«ليوليوس فلهوزن» عن أحزاب المعارضة الدينية فى الإسلام: الخوارج والشيعة. وتحقيق رسائل ابن سبعية. أى ترجمة وتحقيق ولايوجد كتاب وحيد مؤلف. فاى فارق بين إنتاج سويسرا بكل مافيها من نعم الحياة وإنتاج مصر فى ظل كابوس يوليو الفظيع؟!

أما عما يقوله عن وقائع يوليو فحدث ولاحرج وهو يهتم بحادث كمشيش واستشهاد صلاح حسين زوج السيدة شاهندة مقلد، لأن الحادث كان سببا فى مصادرة أرض زراعية لعائلته، إنه يقول عن حادث كمشيش مثلا، إنه حادث تافه عابر يحدث أمثاله فى ريف مصر كل يوم، حادث قتل لأسباب نسائية فى قرية من قرى محافظة الغربية،وينسى أو يتناسى أن قرية كمشيش من محافظة المنوفية.

وتحت عنوان «وانزاح الكابوس» يكتب عن رحيل جمال عبدالناصر، ويدهش لأن

أنــا .. أنــا .. أنــا .. ومن بعدى الطوفان



الصحافة الأوروبية بالغت فى وصف الجنازة، خاصة الصحف الفرنسية بما عرف عن محرريها من تهويل أهوج، وعلى الرغم من أنه كان بعيدا عن مصر فهو يدلى برأيه فى جنازة عبدالناصر. فيقول: إن شعب مصر مولع بالسير فى الجنازات، منذ فجر التاريخ. ولايوجد شعب على الأرض يتفنن فى طقوس الحداد مثل الشعب المصرى، بل إن المصريين يتخذون من هذه الجنازات فرصة للاجتماع ببعضهم، وإن كان الفقيد فى منصب كبير يأتى الناس ليعرفوا من سيخلفه، ولهذا لاينبغى أن يقيم الإنسان لهذه الجنازات فى مصر أى وزن فيما يتعلق بتقدير الفقيد، إنها مجرد تجمهر شعبى كسائر أنواع التجمهرات الشعبية التى يراد بها التنفيس والتفريغ، وفرصة لمشاهدة الكبراء وذوى النفوذ من باب حب الاستطلاع الزائف.

والدكتور بدوى يصل فى سخريته إلى فكرة الشعب عموما، فالشعب مارد هائل على رجلين من طين باسمه ترتكب أكبر الفظائع، وباسمه تدمر أضخم الأبنية وباسمه تهدر كل القيم النبيلة التى أمضى الإنسان كل تاريخه دفاعا عنها، ويعدد الجرائم التى ارتكبت باسم الشعوب عبر التاريخ مع أن الشعب برئ من دم سقراط ومن دم السيد المسيح عيسى ابن مريم. ومن دم الحلاج ومن ضحايا الثورة الفرنسية، لأن كل من أقدم على هذه الجرائم كانوا من الحكام، والدكتور بدوى يرى أن الشعب هو الذى قام بكل هذه الجرائم، ورأيه أن الشعوب لاتحركها سوى المصالح وليس الأفكار، والغريب أن يصدر هذا الكلام عن مشتغل بالفكر وليس رجل أعمال.



تبقى بعض المواقف المتناقضة فى هذه السيرة وما أكثرها، وبعض المعلومات التى فى حاجة إلى تصويب، ويخيل إلىّ أن الدكتور بدوى كتب هذه المذكرات وهو فى الغربة يعيش فى غرفة بفندق فى باريس. وليست معه أوراقه ووثائقه، ولهذا جاءت فى المذكرات بعض الأخطاء أو التناقضات، مثلا يقول أن يوليو منعت المصريين من السفر وحولت البلاد إلى سجن كبير، فى حين أن سفرياته هوشخصيا فى زمن يوليو تفوق سفرياته قبلها وبعدها، بصورة لم تلفت نظره، وعند كلامه عن العدوان الثلاثى يقول إن هزيمة مصر سببها هو الغفلة التامة التى كان القائمون على الجيش يعانون منها.



ومن الأخطاء التى يذكرها أن قريته كانت تزرع المطاط، وهذه أول مرة أسمع فيها عن مطاط يزرع فى مصر، وبعد أن يقارن بين الأدب والفلسفة وينحاز للفلسفة ويقول: لقد هان شأن الأدب فى نظرى، ورأيت أنه لايستحق أن يكرس له المرء حياته، إنما هو مرحلة أولية تزود الإنسان بأداة للكتابة هى اللغة والأسلوب الجيد وبحساسية مرهفة لتذوق ماهو جميل، فحسبى إذن ما حصلته منه كيما أملك هذه الحاسة وتلك الأداة، ولكنه يعود بعد هذا ليترجم أعمالا أدبية أكثر من الأعمال الفلسفية التى ترجمها.

يقول الدكتور بدوى أن اتحاد الكتاب فى مصر استخدم كأداة لمنع النشر عن غير الشيوعيين من الكتاب فى مصر، واتحاد الكتاب لم يكن له وجود فى مصر فى الستينيات، ولم يتم التفكير فى قيامه إلا فى نهاية السبعينيات وفى زمن السادات. ولاعلاقة له بعملية النشر من قريب أوبعيد، فقط هذا الاتحاد يحاول أن ينشر للأدباء الشبان من بين أعضائه أو يساعدهم على النشر. أما فى الستينيات فقد كانت هناك جمعية للأدباء اقتصر دورها على عقد بعض الندوات والنشر كان بعيدا عن اهتماماتها.

ويذهب إلى أن **ممدوح سالم** هو الذى ألقى القبض على من يسميهم مراكز القوى، مع أن الذى تولى هذا كان قائد الحرس الجمهورى **اللواء الليثى ناصف** الذى سرعان ماتمت تصفيته فى لندن.

ورغم أن هذه السيرة الذاتية فيها من السياسة أكثر من الفلسفة، فإن الدكتور بدوى عندما يذهب إليه وهو فى باريس طلاب من إيران لكى يشارك فى حفل تأبين الدكتور على شريعتى، يرفض هذه المشاركة لأنه لا يعرف شريعتى ولم يقرأ له شيئا، فيقول له الطلاب إن الدكتور على شريعتى الذى قتل فى باريس كان ينصح الطلاب بقراءة مؤلفاته - أى مؤلفات الدكتور بدوى - فيقول لهم إن الحفل سياسى، وهولاعلاقة له بالسياسة، وذلك تفاديا للحرج والخوف من السلطات الفرنسية التى قتل شريعتى على أرضها.

المذهل أن الدكتور بدوى يثبت بعد هذا الكلام مباشرة، تقييما كبيرا وواسعا لدور على شريعتى، ولايقول إنه توصل إلى هذا التقييم فيما بعد، فهل وصلت الرسالة إذن؟!

الخطب والنوايا لاتكفى.. العبرة بالتغيير الفعلى

الطريق الصعب لتحـــولات الشـــرق الأوســـط!

«خطاب موجه إلى المؤتمر الأمريكى الثامن لصناع القرار فى الشرق الأوسط»

أنتـــونى كـــوردزمـــان

المشكلات التى يواجهها الشرق الأوسط لا تتمثل فى أنه معرض لمستقبل مظلم، وإنما فى حركته شديدة البطء باتجاه تأمين مستقبل أفضل، فمن السهل أن نتحدث عن إصلاح اقتصادى بنيوى جاد، لكن الأصعب هو تحقيق هذا الإصلاح

الجانب الأكبر من تفسير المشكلة يكمن فى أن عددا كبيرا من دول الشرق الأوسط ليس لها عدو أكبر من حكوماتها نفسها، فتدخل الدولة فى الاقتصاد والفشل المستمر فى تبنى منهج للإصلاح، ثابت بوسائل تقود إلى تحول اقتصادى عملاق، أدى إلى تعثر أجزاء كثيرة من المنطقة



جرت العادة على أن نتحدث عن أى تحولات من منظور الانتقال إلى القرن الحادى والعشرين. لكن من النادر أن يكون الأمر كذلك بالنسبة للشرق الأوسط، فمعظم شعوب المنطقة تتحرك باتجاه العام ١٥٠٠، فى وقت يتجه فيه كثيرون غيرهم نحو العام ٥٦٠٠. والشرق الأوسط لديه من الأسباب ما يجعله يرحب بالفية الآخرين وهو يتثاءب غير مبال!

وبنفس الطريقة، يمكننا الحديث عن التحولات من منطلق «الشكوك المعتادة» ، فهذه التحولات تتضمن تأثير الصراع العربى ـ الإسرائيلى، وزيادة النسل، وإيران والعراق، والإسلام، وحقوق الإنسان والديمقراطية، وتغيير القيادة السياسية، وغيرها. وبخلاف العام ٢٠٠٠، فإن كل تلك تحولات مهمة، لكنها أيضا تحولات معروفة وتحظى بالاهتمام الذى تستحقه.

وأنا أود أن أتحدث هنا عن ثلاثة تحولات أخرى تتعلق بـ: السكان، والاقتصاد، والتحول الاجتماعى، وآمل أن يتم تحديد هذه التحولات بطرق تطرح مسائل جديدة على عملية صنع القرار أو تسليط الضوء على الطريقة التى ينبغى عن طريقها اتخاذ القرار.

لكننى أبدأ بتحذير مهم، فأنا لا أتحدث عن أى من هذه الموضوعات الثلاثة لأن الشرق الأوسط يعانى أزمة مالتوسية أو كارثة محدقة، إننا نتحدث عن أى دولة من بين ١٩ إلى ٢٣ دولة متباينة الاختلاف تضمها المنطقة و بعضها ناجح، وبعضها الآخر يراوح الخطى، والبعض الثالث عرضة للفشل. وفوق هذا، فإن الدول تواجه تحديات فى كافة المجالات ونادرا ما يكون الشرق الأوسط وحده فى مواجهة مثل هذه التحديات، والحاجة إلى إحداث تحولات ملائمة لمواجهتها، وأنا أتحدث عن السكان والاقتصاد والتغيير الاجتماعى لأننى لا أعتقد أنها لقيت العناية التى تستحقها على مستوى وضع السياسات، ولأننى أعتقد أن أحدا ليس بإمكانه وضع سياسة ناجحة للشرق الأوسط إذا لم يأخذ هذه العوامل فى حسبانه بصدق.



المشكلة السكانية:

السكان ليس بالموضوع الجديد على الإطلاق، وكثيرا ماحذر العديد من الخبراء فى شئون المنطقة من مسألة النمو السكانى، والحقيقة أنه لا الحكومات العربية ولاصناع السياسة الأمريكية يرتاحون للمواجهة الصادقة للمشكلات الناجمة عن النمو السكانى فى المنطقة، حتى البنك الدولى يتبنى ، على مايبدو سياسة «ليس بالإمكان أبدع مما كان» ، فيما يتصل بالمسائل الديموجرافية فى هذه الآونة، وغالبا مايفترض أرقامه أن معدلات النمو سوف يطرأ عليها فى الغالب تراجع غير معهود فى المستقبل المنظور، بفضل الإصلاح الاقتصادى، وبغض النظر عن جهة الإحصاء، فإن الشرق الأوسط يشهد زيادة مفرطة فى عدد السكان.

وعندما أتيت للشرق الأوسط للمرة الأولى، أوائل الستينيات كان إجمالى عدد سكان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا مابين ٨٠ ـ ٩٠ مليون نسمة.

بحلول عام ١٩٧٠، ارتفع الرقم إلى ١٢٠ مليونا.

حسب تقديرات البنك الدولى ، فإن عدد السكان فى ١٩٨٠ كان ١٧٤ مليونا.

فى ١٩٩٧ وصل عدد السكان إلى ٢٧٩،٣ مليون.

حسب تقديرات البنك الدولى ، فإن من المتوقع أن يرتفع الرقم فى عام ٢٠١٥ إلى ٣٩٣،٩ وإلى ٤٨١ مليونا فى عام ٢٠٣٠.

وكما سبق وأعلنت، فإن هذا التصور الأخير للبنك الدولى حول النمو السكانى لايدعو إلى الحذر على الإطلاق، فهو يفترض أن المنطقة سوف تشهد فجاة انخفاضا نسبيا فى معدلات النمو السنوى للسكان ، لتصبح النسبة ١،٩٪ فقط خلال أعوام ١٩٩٧ ـ ٢٠١٥، بالرغم من أن معدل النمو فى المنطقة فى الفترة ما بين ١٩٨٠ ـ ١٩٩٧ كان ٢،٧٪، وهناك أيضا مُعامل تحرك محافظ يبلغ ١،٦ ، بالرغم من حقيقة أن معدل النمو السنوى فى الشريحة العمرية من ٠ ـ ١٤ عاما هى ٢٪.

وأود أن أذكركم بشدة بأن أجزاء كبيرة من منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا صحراوية فى غالب الأحوال وهى علاوة على ذلك ، ليست صحراوات غنية ـ على الأقل بالنسبة لمستوى دخل الفرد، فالنفط والغاز هما مصدر الثروة الوحيد فى المنطقة، وهو مصدر يحقق الثروة لعدد محدود من الدول المحظوظة، لكن المنطقة ككل إمكانياتها فقيرة للغاية، من حيث المياه والأراضى القابلة للزراعة، ولاتتمتع بمزايا نسبية فى مجال التجارة، باستثناء صادرات الطاقة.

والمؤشرات السكانية التى أشرت إليها لتوى، لاتفصح أيضا عن أن الضغوط السكانية أكبر بكثير فى بعض الدول عن غيرها.

كقاعدة، فإن أية أمة يتجاوز معدل نمو السكان فيها ٣٪ ، تواجه مشكلات فى دعم نمو دخلها الفردى، وحسب تقديرات المخابرات المركزية الأمريكية، فإن عددا من بلدان الشرق الأوسط يقترب من هذا المعدل زيادة أو نقصا. وتضم هذه البلاد : غزة ، والضفة الغربية ، والعراق، وليبيا، وعمان، وقطر ، والمملكة العربية السعودية، وسوريا، واليمن.

حتى المعدلات الأقل كثيرا من هذا يمكن أن تشكل مشكلة، عندما يكون قطاع كبير من هؤلاء السكان من صغار السن ،ويعوق عدد السكان بالفعل مايمكن للاقتصاد والمجتمع أن يتعاملا معه.

دعونى أقدم لكم بعض الأمثلة القوية حول تاثير مثل هذه الاتجاهات:

ـ فى عام ١٩٨٠، كان تعداد مصر ٤١ مليون نسمة، ويبلغ تعدادها الآن ٦٦ مليونا ، وعلى الرغم من أن معدل نمو السكان فى مصر الآن حوالى ١،٩٪ فقط فإن البنك الدولى يتوقع أن يصل عدد السكان فى عام ٢٠٣٠ إلى ٩٣ مليونا.

ـ كان تعداد سكان إيران فى ١٩٨٠ هو ٣٩ مليون نسمة، وهو الآن يتجاوز ٦٩ مليونا، وعلى الرغم من أن معدل النمو السكانى يزيد قليلا على ٢٪ فإن توقعات البنك الدولى لعدد السكان فى ٢٠٣٠ هو ٩٦ مليون نسمة.

ـ فى ١٩٨٠، كان تعداد العراق ١٣ مليون نسمة، وصل الآن إلى حوالى ٢١،٧ مليون، ومعدل النمو السكانى فى هذا البلد ٣،٢٪ وهو من أعلى المعدلات فى التاريخ، ويتوقع البنك الدولى أن يصل عدد السكان هناك فى عام ٢٠٣٠ إلى ٣٩ مليونا.

ـ كان عدد سكان الأردن فى ١٩٨٠ حوالى ٢،٢ مليون نسمة، وهو الآن حوالى

٤,٤مليون، ومعدل النمو ٢,٦٪، أما توقعات البنك الدولى لعدد السكان عام ٢٠٣٠ فهو ٨ ملايين.

ـ عدد سكان المغرب فى ١٩٨٠ كان ١٩.٤ مليون نسمة، وهو الآن حوالى ٢٩.١ ومعدل النمو ١,٨٩٪ فقط ويتوقع البنك الدولى أن يصل عدد السكان فى ٢٠٣٠ إلى ٤٢ مليون.

ـ فى عام ١٩٨٠، كان عدد سكان العربية السعودية ١٩.٤ مليون، وهو الآن يصل إلى ٢٩.١ بالرغم من أن معدل النمو السكانى حاليا هو ١,٨٩٪ فقط، ويتوقع البنك الدولى أن يصل عدد السكان فى ٢٠٣٠ إلى ٤٢ مليونا.

ـ كان تعداد سوريا فى ١٩٨٠ ـ ٨,٧ مليون نسمة، ويبلغ عدد سكانها الآن ١٧ مليونا، ومعدل الزيادة السكانية ٣.٢٪ ويتوقع البنك الدولى أن يصل عدد سكان سوريا فى ٢٠٣٠ إلى ٢٨ مليون نسمة.

ودعونى أؤكد مرة أخرى على أننا نتحدث عن تحديات لا أزمات، فليست هناك قيود سحرية على النمو السكانى، وكثير من المناطق النامية الأخرى تظهر اتجاهات مشابهة، على أن النمو السكانى هو نوع من الرفاهية وليس حقا، كما أنه يلعب دوره فى إفشال التنمية الاقتصادية عن طريق خفض الدخل الفردى، وهذا بالمقابل يجعل ضبط التغير الاجتماعى من الصعوبة بمكان.

والأكثرمن هذا، أن هذه البيانات المتصلة بالنمو السكانى تعد سببا يجعلنا نحذر الخلط بين أعراض مشكلات السياسة والمرض نفسه، وكخبراء فى شئون الشرق الأوسط، فإننا نميل إلى الحديث باستهانة عن نقص المياه وحروب المياه، إننا نتحدث عن مشكلات تحقيق الاكتفاء الذاتى من الغذاء، لكن وراء كل هذه المشكلات هناك الضغوط العنيدة للسكان والتساؤل بشأن الحلول التى من شأنها الحد من هذه المشكلات، وتكون أفضل من شراء الوقت فى حال عدم التمكن من السيطرة على معدلات النمو.

ووفقا لهذا، فإن الاقتراح الأول الذى أود تقديمه الآن ، بشأن التحولات والسياسة هو أننا بحاجة إلى استشفاف أمين لتأثير النمو السكانى، فبينما يوجد عدد محدود من البلاد التى يمكن أن تتحمل معدلات النمو المرتفعة، فإن الأغلبية ليس بإمكانها ذلك، وأعتقد أن من الواضح الجلى أن الشرق الأوسط فى حاجة ماسة إلى جهود على قدر كبير من الجرأة للحد من معدل النمو السكانى وتحقيق التوازن بينه وبين معدل النمو الاقتصادى.



مشكلة الإصلاح الاقتصادى:

دعونا ننتقل الآن إلى التحولات فى مجال الإصلاح الاقتصادى، والمشكلات التى يواجهها الشرق الأوسط لا تتمثل فى أنه معرض لمستقبل مظلم، وإنما فى حركته شديدة البطء باتجاه تامين مستقبل أفضل. فمن السهل أن نتحدث عن إصلاح اقتصادى بنيوى جاد، لكن الأصعب هو تحقيق هذا الإصلاح. وعندما سئل مارك توين عن صعوبات الإقلاع عن التدخين، أجاب بأن الأمرسهل وأنه فعل ذلك عشرات المرات.

وأنا أتذكر هذا التعليق كلما قرأت عن جهود جديدة للإصلاح الاقتصادى فى الشرق الأوسط، وهونفس السبب أيضا الذى يجعلنى أحيل تلاميذى إلى مراجعهم كلما قرأت عن الإصلاح الاقتصادى فى أبحاثهم، مطالبا إياهم بعمل جدول زمنى بكل وعود ومحاولات الإصلاح السابقة وتفسير أسباب فشلها.

إن الشرق الأوسط ليس منطقة فاشلة ، ومن يقارن بين الشرق الأوسط اليوم وبينه فى الستينيات أو السبعينيات أو الثمانينيات سيجد أن تقدما قد تحقق، وفى الوقت نفسه، فإن الشرق الأوسط ليس منطقة تنافسية أوناجحة بمعايير المناطق والبلاد النامية الأكثر تقدما، فعلى مدى معظم سنوات العقد الماضى، تأرجحت بلاد كثيرة على حافة الشروع فى إصلاح اقتصادى دون أن تتحرك باتجاه مستويات الإصلاح التى تكفل إحداث تحولات كبيرة فى النمو الاقتصادى والدخل الفردى.

وحتى إذا أخذنا فى الاعتبار العوائد غير الناجمة ، إلى حد كبير، عن صادرات النفط والغاز، فإن منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا تظهر تراجعا مطردا فى إسهامها فى إجمالى الناتج القومى العالمى والتجارة العالمية منذ منتصف السبعينيات.. أى على مدى أكثر من ربع قرن ، ومعدلات النمو الاقتصادى للمنطقة متخلفة كثيرا عن مثيلتها فى شرق آسيا وأمريكا اللاتينية، وهى لا تتمتع حاليا بمعدلات النمو التى تشهدها جنوب أفريقيا أو شبه الصحراء الأفريقية.

كانت معدلات نمو الدخل القومى العام فى الشرق الأوسط فى الفترة من ١٩٨١ ـ ١٩٩٠: ٢,١٪ فقط مقابل ٧,٥٪ فى شرق آسيا، و٥,٦٪ فى جنوب آسيا، وقد تحسن المعدل فى الشرق الأوسط فى الفترة من ١٩٩١ ـ ١٩٩٧ فاصبح ٢,٩٪ لكن المعدل ارتفع فى شرق آسيا إلى ٩.٤٪ وفى جنوب آسيا ظل كما هو، ووصل فى أمريكا إلى ٣,٨٪ .

وهناك وسيلة أخرى للنظر إلى النجاح الإقليمى تتمثل فى أخذ معدل زيادة الاستهلاك الفردى السنوى فى الاعتبار، وهذه الزيادة لم تتجاوز نسبتها ٠,٧ ٪ فى الشرق الأوسط خلال الأعوام ١٨٨٠ـ١٩٩٧،مقابل ٦,٨ ٪ فى شرق آسيا.

وإذا ما نظرنا إلى معدل الزيادة فى الدخل القومى العام للفرد فى العام ١٩٩٦ ـ ١٩٩٧،فإن أحدث تقارير البنك الدولى تشير إلى أن هذا المعدل كان ٠,٨ ٪ بالنسبة للشرق الأوسط، و٦,٢ ٪ فى شرق آسيا، و٣,٩٪ فى أمريكا اللاتينية، و ٣,٤٪ فى جنوب أفريقيا.

ولا أريد أن أغرقكم فى الأرقام،لكن بإمكانكم الاطلاع على التفاصيل التى ترغبونها سواء فى تقرير البنك الدولى حول مؤشرات التنمية العالمية أو التحليل البيانى المفصل الموجود بموقع CSIS على شبكة الإنترنت،لكن تظل الحقيقة هى أنه كلما زاد فحصنا للمؤشرات كلما تخلف الشرق الأوسط، فى أغلب الأحوال،وهذا صحيح، سواء كان حديثنا عن الناتج الصناعى أو الزراعى أوالاستثمارات الأجنبية والمحلية أو الإنتاجية.



ومن المفارقات أيضا فى الشرق الأوسط أن صندوق النقد الدولى وجد أن الدول المصدرة للبترول قدمت أكثر أشكال التنافس فقرا أمام الدول الرائدة فى العالم النامى، بالرغم من أنها دخلت عقد الثمانينيات باعتبارها أكثر الدول ثراء.

وجزء من تفسير هذا النقص فى الأداء والتنافس يكمن فى المشكلات السكانية التى سبق وتحدثت عنها ، وإن كان الجانب الأكبر من التفسير يكمن فى أن عددا كبيرا من دول

الشرق الأوسط ليس لها عدو أكبر من حكوماتها نفسها، فتدخل الدولة في الاقتصاد والفشل المستمر في تبني منهج للإصلاح، ثابت وذو معنى، بوسائل تقود إلى تحول اقتصادي عملاق، أدى إلى تعثر أجزاء كثيرة من المنطقة.

ومن المفارقات أيضا أنه يبدو أن لا صلة للمسالة بمن يحكم الدولة، ملكا كان أوشيخا، أو رئيسا، أو «أبناء غير شرعيين» جاءوا عن طريق الانقلابات، ولايهم بصفة خاصة مدى ديمقراطية النظام، أو ما إذا كان في حالة سلام تقنيا، فالمشكلات تكمن في السياسة الاقتصادية وليس في المسائل الجانبية.

وإذا مانظرنا إلى التاريخ الاقتصادي للمنطقة، فمن الواضح أيضا أن المشكلة لاتكمن في نقص السياسات الصحيحة أو الجهود المتكررة لبدء الإصلاح، وإنما في افتقاد المتابعة الجدية، فالتحول المطلوب لايحتاج إلى وضع سياسات بقدرما يحتاج تطبيقها بشكل كامل ومتماسك على مدى سنوات طويلة.

ومن منظور السياسة، فإنني أرى أننا بحاجة إلى الكف عن امتداح الحكومات على أعمالها الرمزية وخططها الجيدة الصياغة ونواياها الحسنة، والحكم عليها على ضوء نجاحاتها الاقتصادية الكبيرة في التنافس مع الأمم النامية الرائدة، على أسس عالمية، فالشروع في الخصخصة وتشجيع الاستثمارات الأجنبية وتقليل الاعتماد على الخدمات الاجتماعية وتشغيل الحكومة للمواطنين والتنويع الاقتصادي كل هذا لايكفي، فشعوب الشرق الأوسط تستحق الفعل والعمل لا الوعود والكلمات.

ودعوني أذكر أيضا التضمينات السياسية الأخرى لهذه الحقائق:

* إن التركيز على خطط تنمية اقتصادية «عربية» أو «إقليمية» لأمرمضحك، فتجارة الدول الشرق أوسطية تكاد تكون قاصرة على أمم خارج المنطقة، ولابديل أمامها غيرذلك، فالتجارة تذهب إلى حيث توجد المزايا النسبية، والدول الفقيرة لايمكنها تنمية تجارة غنية مع غيرها من الدول الفقيرة. كما تبين تجربة آسيا وأمريكا اللاتينية أن نموا كبيرا في التجارة الإقليمية لايتحقق إلا بعد تنمية ناجحة. والجري وراء التعاون العربي أو الإقليمي كحل للنمو مثل مطالبة الشرق الأوسط بأن يرفع نفسه برباط حذائه.

* إن أهدافا مرغوبة أخرى، مثل السلام والديمقراطية ليست بديلا عن الإصلاح الاقتصادي ولاتحقق التنمية الاقتصادية والحرب والاستبداد لايحولان دون تحقيقها، فمن المفارقة أن عددا من نمور شرق آسيا حققت معدلات نموها الكبيرة خلال فترات من الإنفاق العسكري الكبير وفي ظل أنظمة قمعية، ونفس الشيء ينطبق على شيلي، وانتظار السلام أو الديمقراطية للفوز بثمار سلام بنيوي جاد يعني الانتظار إلى الأبد.

* إن عملية السلام العربي ـ الإسرائيلي مسألة عاجلة، ومصر ليس لديها أسباب حقيقية كثيرة للتبادل التجاري مع شرق المتوسط، والسياسات الاقتصادية السورية واللبنانية لاتنسجم وتلك التي تنتهجها إسرائيل أو الفلسطينيون أو الأردن. والتساؤل حول كيفية تكوين وحدة اقتصادية ناجحة، تتجاوز الحدود القومية والعرقية الحالية، قد يكون له نفس أهمية قضايا «الوضع النهائي» الأخرى.

* إن السياحة لا تحقق لأية أمة سوى دخل محدود، ونموقطاع الخدمات، وخطط مواجهة الطوارئ لن تؤدي إلا إلى مزيد من الاعتماد على الواردات المصنعة، والنمو المتوازن والتنويع أمر ملح.

* بالنسبة لكل الشكاوى المتصلة بالفساد، فإن الفساد غالبا ما يكون قوة منتجة وحافزة على الاستقرار، باعتباره القطاع الأسود في العديد من دول الشرق الأوسط، وبصورة أو بأخرى، فإن الأموال الموصومة بالفساد غالبا ما تعود إلى الناس، والقطاع غير الشرعي في الاقتصاد هو الذي غالبا ما يكون الأكفأ في الوفاء باحتياجات السوق التي عجزت الحكومة عن الوفاء بها.

* إن المشكلة الحقيقية، على مايبدو، تكمن في النفقات الباهظة للدولة، وهذه النفقات تشمل مشتروات السلاح المكلفة ومشروعات الدولة الفخيمة المبالغ في تكاليفها ـ تلك «الأهرامات» التي يعشقها كثيرون من تكنوقراطي المنطقة، والتي أدت إلى الإنفاق الباذخ على مشروعات البنية الأساسية الضخمة «الأولى من نوعها» ، وغيرها. وتشمل كذلك تكاليف نظام أبوي لايزال يقدم الإعانات المالية والخدمات الاجتماعية ، ويفرض ضرائب ضئيلة، والذي يتستر على نسبة كبيرة من البطالة الحقيقية عن طريق الوظائف التي تقدمها الدولة.

* إن ثروة البترول غير كافية، فليس هناك مستوى أسعار للنفط يمكنه أن يحل حتى المشكلات المتوسطة المدى التي تعاني منها معظم الدول المصدرة للنفط، بحيث تحقق نوعا من النموالاقتصادي يسمح لها بمنافسة الدول النامية الرائدة في العالم، فالدخل الفردي الحقيقي وصل الآن إلى ٣٥ ـ ٤٠٪ فقط مما كان عليه الحال في فترة الانتعاش النفطي في أوائل الثمانينيات، حتى عندما يتجاوز سعر البرميل الـ ٢٠ دولارا. فالنمو السكاني والاعتماد المتزايد على الدعم الحكومي والعمالة الأجنبية يتجاوز زيادة الدخل من النفط والغاز، والحد من النمو السكان والإصلاح الاقتصادي من شأنهما تغيير هذه الاتجاهات في معظم الدول المصدرة للطاقة.





إن أهدافا مرغوبة أخرى، مثل السلام والديمقراطية ليست بديلا عن الإصلاح الاقتصادي ولاتحقق التنمية الاقتصادية، والحرب والاستبداد لايحولان دون تحقيقها، فمن المفارقة أن عددا من نمور شرق آسيا حققت معدلات نموها الكبيرة خلال فترات من الإنفاق العسكري الكبير وفي ظل أنظمة قمعية، وانتظار السلام أو الديمقراطية للفوز بثمار سلام بنيوي جاد يعني الانتظار إلى الأبد

وقبل أن أنتقل إلى التغيير الاجتماعي، دعوني أؤكد مرة أخرى على أني أتحدث عن مشكلات قابلة للحل، وليس عن منطقة فاشلة. فالمسالة ليست أن الشرق الأوسط يمثل فشلا اقتصاديا مع وجود بعض الأمم الناجحة نسبيا، بل إن معظم الأمم تخفق في زيادة الدخل الفردي بالقدر الذي تحتاجه المنطقة، وبعبارة أخرى، فإن التحدي المطروح هوجعل الشرق الأوسط قادرا على المنافسة على أسس عالمية، فالمنطقة تخلفت عن غيرها من المناطق والدول النامية الرائدة في العديد من المجالات. فالإقليمية الحسنة أومخالفة الجغرافيا الاقتصادية لاطائل من ورائها.

وطبقا للاتجاهات السكانية التي سبق أن ناقشناها ، ينبغي أن يكون واضحا كذلك أن هناك حاجة ملحة للتحرك قدما. وعلى السياسة الاقتصادية أن توجه المزيد من الدعوات إلى ما هو أكثرمن جولات جديدة من الخطط والنوايا الحسنة، وتقييم النجاح من منظور التقدم الاقتصادي الجاد، كما أن السياسة مطالبة كذلك بعدم الخلط بين النمو الاقتصادي وغيره من أهدافها، مثل السلام والديمقراطية والتعاون الإقليمي. فكلها أشكال مرغوبة من التقدم، لكن العلاقة بين تقدم مجال وآخر ضعيفة للغاية، والتحرك في مجال لايعني التقدم في غيره.

مشكلة التغيير الاجتماعي:

المسألة الأخيرة التي أود مناقشتها هي التغييرالاجتماعي ، وهوموضوع معقد للغاية، لكن النقطة التي أود أن أصل إليها هي أن التحولات الاجتماعية تستدعي التطرق بعناية إلى ماهو أكثرمن الإسلام وحقوق الإنسان والديمقراطية. فتحولات التغيير الاجتماعي تتصل حتما بالضغوط السكانية والمشكلات الاقتصادية التي سبق وأشرت إليها.

ودعوني أركز على ثلاث من النتائج الاجتماعية الأساسية المترتبة على المشكلة السكانية والضغوط الاقتصادية في المنطقة.

الشرق الأوسط صار حضريا بالفعل في معظم أجزائه، وفي عام ١٩٦٠،كانت نسبة الحضرنة ٢٥٪ ارتفعت إلى ٣٧٪ عام ١٩٧٠، وإلى ٤٨٪ عام ١٩٨٠، وتبلغ النسبة الآن ٥٨٪ ويتوقع أن تصل إلى ٧٠٪ بحلول عام ٢٠١٥، مع الحضرنة الكثيفة لحوالي نصف دول المنطقة، فحوالي ربع مجموع سكان المنطقة سوف يعيشون في مدن يصل تعدادها إلى المليون نسمة أو أكثر. ومستقبل مدن الشرق الأوسط وقدرتها على الوفاء بالمتطلبات الاجتماعية هو الذي سيقرر، إلى حد كبير، استقرار ونجاح المنطقة، ويكمن التحدي في إعادة تشكيل المدن بحيث تعزز من النمو الاقتصادي وتوفر ظروف العيش السليمة للشباب والفقراء.

إن الشرق الأوسط يواجه «انفجارا شبابيا» وهوانفجار يخلق نوعية جديدة من السكان ليس لذاكرتها اتصال مباشر بنضالات الماضي وثوراته. والنموالسكاني للمنطقة سريع جدا بحيث أن ١٤٪ من السكان في سن الرابعة عشرة أو أقل من ذلك. وتصل هذه النسبة إلى ٥٢٪ في غزة ، و ٤٨٪ في ليبيا واليمن، و٤٤٪ في إيران والعراق، و٤٦٪ في سوريا ، و٤٣٪ في الأردن. وهذا الشباب في حاجة إلى توسع كبير لتوفير السكن وفرص العمل والمرافق، للوفاء باحتياجاته، فالتكاثر السكاني لايمكن تجاهله أكثر من هذا، شأنه في ذلك شأن أسلحة الدمار الشامل.

إن إنتاجية الزراعة الشرق أوسطية تواجه انخفاضا غيرعادي، فخلال معظم عقد التسعينيات لم تزد نسبة هذه الإنتاجية على ١،٧٪، مقابل ٥،٥٪ في الثمانينيات. في الوقت نفسه،انكمش نصيب الفرد من الأراضي القابلة للزراعة بأكثرمن الثلث خلال السنوات الخمسة عشر الأخيرة، وكانت هذه المساحة في الفترة من ١٩٧٩ ـ ١٩٨١ ـ ٠،٢٩ هكتار للفرد، تراجعت إلى ٠،٢١ فقط فيما بين ١٩٩٤ ـ ١٩٩٨، وفوق هذا، فبالرغم من انخفاض نسبة الأيدي العاملة من الذكور في مجال الزراعة من ٣٧٪ عام ١٩٨٠ إلى أقل من ٢٧٪ الآن، فإن العمالة الزراعية ضعفا ماتحتمله مساحة الأراضي الزراعية ، وهو ما يقلل من إسهام الزراعة في الناتج القومي العام بنفس النسبة.

إن الضغوط السكانية والاقتصادية الضخمة تعجل من ابتعاد الناس عن الأرض والزراعة التي تتدهور أحوالها مع الوقت، والزراعة الجيدة والاستغلال الأمثل للمياه يستدعيان أيضا زراعات كثيفة والمزيد من المال لتحقيق العائد الأساسي وتوفيرمزارعين أكثرمهارة وتحقيق مستويات عالية من الإنتاج لمحاصيل متخصصة، وبلا مواربة، فإنه كلما أمكن إبعاد المزارعين غير المهرة قليلي المال عن الأرض كلما كان أفضل.

كل هذه التحولات تعنى أن تدخل المنطقة فى موجة تغيير علمانى كبير، فالشرق الأوسط لايمكن أن يرتد مرة أخرى إلى الخيمة والقرية، بقدر مالايمكن للأمريكيين أن يشبوا الآن رعاة بقر ورواد. والمنطقة يجب أن تتعامل مع حقيقة أنها أصبحت منطقة من المدن والحواضر يمكن أن تكون فقيرة بصورة ملحوظة إذا لم يتعامل صناع السياسة مع تلك الموجة بواقعية . فكل شخص فى الشرق الأوسط بحاجة لأن يفهم ، بصورة قاطعة ، أنه لاخيار هنالك غيرالتعامل مع المشكلات والمسائل العلمانية، إن الشرق الأوسط ليس ضحية لـ«المادية الغربية» ، وهويتغير من أجل التعامل مع حقائق ديموغرافية واقتصادية جديد ة لايمكن تفاديها.

ولكى أكون أكثر تحديدا فإننى أعتقد أن سياسة الشرق الأوسط يجب أن تبذل مزيدا من الجهد عند النظر إلى المشكلات السكانية والاقتصادية باعتبارها أكثرالتحولات الاجتماعية المطلوب التعامل معها. وهذه التحولات تشمل التغييرالسياسى والحضرنة والتعليم، وكذلك ما يطلق عليه عموما «حقوق المرأة» .

فيما يتعلق بالتغيير السياسى ، فإننى أرى أن اجتماع الضغوط السكانية مع الضغوط الاقتصادية التى ذكرتها فيما سبق يؤكد أن الصفقة الأبوية لمجتمع الرفاه الذى تسيره الدولة التى تميز كل نظم الشرق الأوسط تقريبا أصبحت الآن غير محتملة وغيرقابلة للبقاء، فالاقتصاد يجب أن يصبح أكثر إنتاجية بطرق لايمكن تحقيقها ما لم تبتعد الدولة عن الطريق، وينكمش قطاع الدولة ، ويتراجع دور الحكومة فى توفير الخدمات الاجتماعية وتقديم الدعم ،ويُعطى القطاع الخاص حرية واستقلالية أكبر فى الحركة. فـ«سلطانية الأرز الحديدية» لم يعد من الممكن الإبقاء عليها فى الشرق الأوسط بأكثر مما هو الحال فى الصين.

تشير الخبرة إلى أن الاقتصاد الذى تشكله قوى السوق أكثر فعالية بكثير من ذلك الخاضع لسيطرة الدولة، لكن الإصلاح الاقتصادى يجب أن يتطور من خلال الخبرة وعبرالوقت، على أن الأزمة الاقتصادية الراهنة فى آسيا تعد تحذيرا بأن الإصلاح الاقتصادى المستقر يتطلب المزيد من الشفافية من جانب حكومات الشرق الأوسط، فالتنمية الاقتصادية ونمو القطاع الخاص يحتاجان تقريرا اقتصاديا أمينا ، وميزانية عامة، وخططا عامة تسجل نجاحاتها بانتظام، ويجب على الأقل مناقشة جدوى التكلفة بالنسبة لكافة مشروعات الدولة الكبيرة واستثماراتها، إلى الحد الذى يكون واضحا معه أنها أفضل من الاعتماد على قوى السوق. كما أن طرح قضايا النمو السكانى والإنتاجى وكفاءة التوظيف والاعتماد على الواردات والعمالة الأجنبية وتأثير الاقتصاد على التعليم للنقاش العام والواقعى أمرمطلوب.

يتطلب التغيير الاقتصادى كذلك أشكالا جديدة لحقوق الإنسان، تخدم الاقتصاد أكثر مما تخدم المصالح السياسية، فحقوق الإنسان ليست مجرد حماية للفرد والمفاهيم السياسية ، فهى يجب أن تشمل حقوق الملكية وتوحيد المصطلح التجارى ومفهوم جديد للقانون.

إننا نميل ، فى الولايات المتحدة إلى نسيان أننا لسنا ديموقراطية ، وإنما جمهورية تقوم على الفصل بين السلطات وحكم القانون، وليس من سبب يجعل دولة شرق أوسطية أن تكون صورة من الولايات المتحدة لكن هناك أسبابا اقتصادية تدعو إلى التسليم بأن قيام اقتصاد شرق أوسطى ناجح يستدعى الارتكاز إلى حكم شامل لقانون يعول عليه، يصون حقوق الملكية وحرية العمليات التجارية، وهذا يتطلب حماية أكثر فاعلية مما هومتاح الآن بشكل عام.

إن التغييرالاقتصادى لايمكن أن يتحقق بالمدى والسرعة المطلوبة دون التأكيد مجددا على الإنتاجية الاقتصادية ، والتعليم بحاجة إلى التأكيد مجددا على مجالات من شأنها تعليم المواطنين المنافسة، ولايمكن أن يقوم هذا التعليم على التلقين، أو أن يكون متشددا بصورة ترفض فوائد التجارة أو «ليبراليا» بصورة تجعله يخرج أساتذة كبارا فى العلوم السياسية بدلا من تدريب قوة عمل فعالة.

التحديث الاقتصادى يتطلب وسائل اتصال حرة ومفتوحة والاتصال بقواعد البيانات والإنترنت، وهذه النقلة أيضا لاتحتمل الانتظار، فالصغار لايمكن أن يتعلموا ويتكيفوا بحق إلا عن طريق الممارسة، وأى تأخير فى هذا، ولو لسنوات قليلة يمكن أن يعنى تخلف «أجيال كاملة» عن ركب التكنولوجيا.

القيم الاجتماعية مطالبة بالتركيز على الإنتاجية وكذلك وضع القيود أمام النموالسكانى، فتفسيرات الإسلام والموروث الاجتماعى لايمكن أن تعود إلى الماضى، والدول لا يجب أن تتبنى مفاهيم غير عملية للاشتراكية والعون الاجتماعى ، إن العولمة لها تشعباتها الكثيرة، لكن إحداها هى : إذا كان باستطاعة آسيا أن تبيع أجهزة أو ملابس فى الشرق الأوسط أقل سعرا مما تنتجه دول الشرق الأوسط، فمعنى هذا أن آسيا سوف تصدر وتنمو، أما الشرق الأوسط فلا. وإجراءات الحماية والموروث الاجتماعى يمكن أن تقلل من حدة الفقر، لكنها لاتمنعه.

للمرأة دور رئيسى فى هذه الإنتاجية، وحولى ٥٥٪ من الأيدى العاملة النسائية، فى الشرق الأوسط لازالت فى القطاع الزراعى ، فى الوقت الذى تراجعت فيه قوة عمل الذكور بأكثرمن الثلث، ولاتزيد نسبة العاملات فى الصناعة على ١١٪ مقابل ٣٠٪ فى أوروبا.

وبعيدا تماما عن حقوق الإنسان ، فإن دول الشرق الأوسط ليس لها أن تتحمل هدرا أو التقليل من شأن مردود نصف قوة عملها. والمسائل المتعلقة بدور النساء تمتد لتشمل قضايا الأمية والحقوق الاجتماعية، إنها تتعلق بمجمل المستقبل الاقتصادى لأمم الشرق الأوسط.. بالقدرة على الوصول إلى مستوى من الإنتاجية ـ على نطاق الأمة ـ يسمح لدول الشرق الأوسط بمنافسة غيرها من المناطق النامية. ويشمل كذلك قدرة كل من الرجال والنساء على الاختيار الذكى بالنسبة لمعدلات المواليد ومستقبل الأسرة.



خاتمة

دعونى أختم حديثى بالقول بأننى لم أتناول هذه التحولات لاعتقادى بأنها تمثل استبصارا ذكيا وجديدا أو تشتمل على منهج جديد للتعامل مع الشرق الأوسط، فقد سبق لكثيرين من الحاضرين هنا منذ زمن ، مناقشة هذه المسائل ، وكثيرمن حكومات المنطقة بدأت وضع يدها على الأقل ، على المشكلات والبعض منها حقق قدرا من التقدم الملموس.

على أننى أعتقد أن مستقبل الشرق الأوسط سوف يتشكل إلى حد بعيد وفقا لقرارات السياسة التى تصوغ التحولات فى تلك المناطق بالقدر الذى يصوغه به مردود أزماتها السياسية والأمنية المتعددة. كما أعتقد أن نجاح المنطقة سوف يكون محكوما فى النهاية بتنافسها العالمى مع غيرها من المناطق النامية. وقدرتها على الاندماج فى اقتصاد عالمى مستقر.

وأضيف إلى هذا، أننى لا أثق إطلاقا فى البدايات الجديدة والنوايا الطيبة ، وصحيح أن الضغوط التى أشرنا إليها ليست قدرا محتوما، لكنها من الحدة بحيث لايمكن قياس التقدم إلا من زاوية التغيير القومى والإقليمى ، لا من زاوية الخطط ، أو الخطب، أو الأحلام. ■

ترجمة : بدر الرفاعى



حديث عيسى بن هشام
محمد المويلحى

(٤)
العرس

قال عيسى بن هشام : كنت دعيت فيمن دعى من الناس إلى وليمة عرس من أكبر الأعراس ، فقلت للباشا : عندى اليوم حد الكفاية فى بلوغ الغاية ، فهلم إلى المحفل الذى تحتشد فيه المحافل ، والمنهل الذى تتفرع عنه المناهل .

ودخلنا ساحة كأنها مدينة ، تبرجت فى يوم الزينة ، فوقفنا هنيهة فى وسط المزدحم لانجد موضعا للقدم ، حتى أخذ بيدنا أحد المستقبلين بالباب ، من ذوى العلامات فى الثياب ، فدسنا بين جماعة لم نعرف منهم أحدا ، ولم يحسنوا لتحيتنا ردا ، وعلمنا منهم أن رب الدار فى ذهول لايدرك ما يذره وما يأتيه ، وأن صاحب البيت لايدرى الليلة بالذى فيه ، وأنه لاتثريب عليه ولالوم ، فهو مشغول بتحية كبار القوم ، ممن لم يخالطهم قبل اليوم .

الباشا : وماالغرض لصاحب العرس من هذا كله؟

الصديق : الغرض منه أن يذاع بين الناس تشريف هؤلاء الكبراء والعلماء لبيته ، وأكثر الذين نراهم يقيمون ولائم الأعراس ينفقون عليها جانبا عظيما من ثروتهم لاغرض لهم منها سوى ذلك وحده ، وفيهم من وصل به حب الشهرة والفخفخة أن أنفق فى إقامة العرس جميع ماله ، ثم بقى عليه من الدين ما أخل بنظام معاشه .

الباشا : ما كنت أعهد أن الأعراس تكون على هذه الحال من استخدامها للشهرة والصيت ، بل كنت أعهدها تقام لائتناس صاحب العرس بأصحابه وأصدقائه ومشاركتهم له فى صفوه وهنائه ، ولإطعام المساكين ومساعدة الفقراء .

الصديق : ليس للفقراء اليوم ولا للمساكين نصيب فى طعام الأعراس ، بل هو من نصيب مثل هذا الوفد الخارج أمامك وأضرابهم .





كمال النجمي..

إلياس سحاب

كتابات النجمي أنقذت لنا ما يمكن إنقاذه من أساسيات العصر العربي الذهبي في الموسيقى والغناء، وبقي استكمال المهمة على عاتق الباحثين الأكاديميين الذين ننتظرهم

يقول معجم «المنجد» في التعريف بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني: «كتاب الأغاني - لأبي الفرج الأصفهاني - دون فيه الأصوات التي اختارها المغنون للخلفاء، ولاسيما لهارون الرشيد، فجمع من الأغاني العربية قديمها وحديثها ما أمكنه جمعه، ونسب كل ما ذكره منها إلى قائل شعره وصانع لحنه. ثم اتسع في ترجمة (أي في سيرة) هذا الشاعر أو المغني، وبحث في الأحوال التي قيلت فيها الأبيات من حرب أو مجلس لهو، في الجاهلية والإسلام».

مع أن أبي الفرج الأصفهاني قد ولد في عام ٨٩٧، أي في عهد الخليفة العباسي السادس عشر (المعتضد)، وتوفي في عام ٩٦٧، أي في عهد الخليفة العباسي الثالث والعشرين (المطيع)، فقد قدر له أن يضمن كتابه تاريخ الغناء العربي على مدى يقارب القرنين، من أواخر الجاهلية وصدر الإسلام في مطلع ومنتصف القرن السابع، حتى بداية القرن التاسع ذروة العصر الذهبي للغناء العربي في ذلك الزمان، عصر هارون الرشيد والأمين والمأمون (إبراهيم الموصلي وابنه إسحق، وزرياب).



وتشاء الظروف بعد عشرة قرون، عند انبثاق عصر ذهبي آخر في الغناء العربي (بين منتصف القرن التاسع عشر وسبعينيات القرن العشرين)، أن ينبري أديب آخر (استولى عليه شغفه بالموسيقى والغناء حتى صرفه عن الأدب)، إلى تمثل دور أبي الفرج الأصبهاني وتكراره في تاريخ عصر الغناء العربي الذهبي الحديث، هو كمال النجمي.

غير أن كمال النجمي، كان أحسن حظا من سلفه العظيم الأصبهاني، فبينما كان اطلاع الأصبهاني على تراث العصر الذهبي الذي أرخ له، كان في غالبه اطلاعا على الوصف الكتابي لنماذج ذاك التراث، فإن كمال النجمي الذي ولد في عشرينيات القرن العشرين وتوفي في أواخره، قد أتاح له اختراع الأسطوانات والتسجيل على أشرطة، والحفلات المسرحية والإذاعية، الاحتكاك المباشر والمعايشة المباشرة لتراث القرنين التاسع عشر والعشرين في الغناء العربي، حتى أنه استمع إلى تراث القرن العشرين بأكمله مسجلا بأصوات أصحابه. أما تراث القرن التاسع عشر الذي مات معظم عظمائه قبل أن يتاح لهم تسجيل أصواتهم على أسطوانات (الحامولي ومحمد عثمان وسواهما)، فقد تولى تلامذتهم ومريدوهم من فطاحل الغناء المخضرمين (مثل المنيلاوي والصفتي وعبد الحي حلمي وصالح عبد الحي وسواهم) تسجيل زبدة أعمالهم على أسطوانات. سنكتشف في كتابات النجمي أنها كانت زادا سمعيا أساسيا لديه، كما أن حظه كمؤرخ موسيقي، اكتمل بمعايشته لفطاحل المشايخ من أمثال محمد رفعت ومصطفى إسماعيل (والاستماع إلى تسجيلات الشيخ علي محمود)، ممن كان لهم أثر مؤكد وعميق في تطوير فن الغناء العربي المعاصر، والارتقاء به إلى ذراه السامقة التي عرفها مع محمد عبد الوهاب وأم كلثوم.

كذلك أتيح لكمال النجمي أن يعايش التحولات الكبرى التي طرأت على الغناء العربي (والموسيقى العربية) من مدرسة القرن التاسع عشر، إلى مدرسة القرن العشرين، إلى نهاية العصر الذهبي في الربع الأخير من هذا القرن وولادة الألوان الهجينة التي أعلن النجمي رأيه الصريح فيها باقتضاب في كتابه الأخير، ولكنه استفاض في ذلك في كتاباته الصحفية التي لم تجمع بعد في كتاب. كما قدر للنجمي أن يعايش محاولات «تطوير» الموسيقى العربية عن طريق التغرب، وكان له في ذلك موقف صريح أيضا هو معادلة دقيقة بين الحسم والوضوح من جهة، واللباقة الكاملة في أسلوب التعبير، الذي كان لا يجرح أصحاب هذه المحاولات، ولكن يصارحهم بحتمية فشلهم. وقد توج النجمي كل هذه المزايا الخاصة التي أتيحت له، بلقاءات مطولة مع كبار الرموز الفنية في العصر الذهبي (مثل عبد الوهاب وأم كلثوم وسواهم)، فأفاد من ذلك في الاطلاع على آرائهم (بعد الاطلاع على فنهم).

لكل ذلك، ومع أن كمال النجمي لم يتبع الأسلوب المنهجي الذي أمضى فيه أبو الفرج الأصبهاني خمسين عاما لإعداد كتاب «الأغاني»، فإن كتابات كمال النجمي التي امتدت على حوالي أربعين عاما، قد تجاوزت شكل المقالات الصحفية (الذي ظهر فيه القسم الأكبر من كتاباته الموسيقية الأساسية)، فلم تترك موضوعا هاما في تاريخ الموسيقى والغناء العربيين بلا تغطية، وتجاوزت ذلك إلى تحليل طبائع عصر هذه النهضة الموسيقية - الغنائية، بخصائصه الاجتماعية والسياسية والثقافية، وإن تراوح هذا التحليل بين السطح والأعماق، كما سيبدو عند الاستعراض التفصيلي لهذه الكتابات.

غير أن الدخول إلى تفاصيل كتابات كمال النجمي الموسيقية لابد له من المرور بملاحظة أساسية بشأن قيمتها الحقيقية.

فباستثناء كتاب النجمي عن محمد عبد الوهاب (مطرب المائة عام)، جاءت كتبه الأخرى تجميعا لمقالات متفرقة، مما أدى (إضافة للأسلوب الأدبي الممتع لكمال النجمي) إلى التوهم بخلو هذه الكتابات من القيمة الأكاديمية الحقيقية، خاصة أننا نجد الموضوع الواحد، يعالج بمقالات موزعة بين أكثر من كتاب أو في مواقع مختلفة من الكتاب الواحد.

غير أن قراءة متعمقة في كتابات كمال النجمي الموسيقية، تؤكد لنا أن هذا ليس سوى خلل في شكلها الخارجي. فهي لو أعيد نشرها، بعد إعادة تصنيفها وفقا لمواضيعها التفصيلية، أو لو تم تصنيفها على الحاسوب وفقا للمواضيع، لكشفت لنا عن كنوز داخلية من المعلومات والتحاليل، التي إذا قورنت بسواها من الكتابات في الموسيقى والغناء العربيين، اكتشفنا أنها (على الأرجح) أغنى أو من أغنى ما بين أيدينا لملء جزء من الفراغ الذي نشكو منه في الكتابات النظرية عن الموسيقى العربية المعاصرة (والذي أشرت إليه تفصيلا في مراجعة كتاب عن أم كلثوم في العدد الخامس من وجهات نظر)، وهو فراغ مازال بحاجة إلى جهود كثيفة ودءوبة لملئه، ولكن كتابات كمال النجمي أنقذت لنا ما يمكن إنقاذه من أساسيات العصر العربي الذهبي في الموسيقى والغناء، وبقي استكمال المهمة على عاتق الباحثين الأكاديميين الذين ننتظرهم.

الغناء والموسيقى في القرن التاسع عشر

مع أن الفصل الثاني من كتاب «تراث الغناء العربي» (ص ٦١ - ١٣٢)، هو الذي أودعه كمال النجمي خلاصة مركزة عن الغناء العربي في القرن التاسع عشر (أهم نجومه وأشكاله)، فإن كتابه «محمد عبد الوهاب - مطرب المائة عام» قد تضمن فصلا مهما على علاقة حميمة بهذا الموضوع (الفصل السابع، ص٨٧ - ١٠٢)، عنوانه «عبد الوهاب، آخر مطربي شوقي». يميط النجمي في هذا الفصل اللثام عن معلومات بالغة الأهمية في علاقة أمير الشعراء شوقي الوثيقة بتاريخ الغناء العربي الراقي. فبينما تشيع في حياتنا الثقافية «المعلومة» التي توحي بأن محمد عبد الوهاب هو أول وآخر مطرب كبير كانت لأمير الشعراء صلة مباشرة به، وأن شوقي لم ينظم الشعر بالعامية إلا خصيصا لعبد الوهاب (بلبل حيران، وفي الليل لما خلي ومقطوعات أخرى كثيرة)، فإن كمال النجمي يميط اللثام عن أن عبد الوهاب كان آخر المطربين الكبار الذين اتصل بهم شوقي، (فهو لم يكن الأول، كما لم يكن الوحيد)، بل كانت العلاقة الحقيقية والخلاقة بين أمير الشعراء وأمير اللحن والغناء هي تتويج لمسيرة طويلة بدأها شوقي، كما يؤكد النجمي، بشيخ موسيقيي القرن التاسع عشر محمد عبد الرحيم المسلوب، وأطولهم عمرا (١٧٩٦ - ١٩٢٨)، فيقول في الصفحة ٩٠ من كتابه عن عبد الوهاب: «وكان شوقي من القلائل الذين يتذكرون الشيخ محمد المسلوب، ويزورونه من وقت إلى آخر، ويبرونه ويحدبون عليه ويأخذون إليه الأطباء، وكان الشيخ المسلوب قد انقطع عن الغناء منذ مطلع القرن العشرين إذ كان قد بلغ المائة من عمره، وعاش بعدها إلى سنة ١٩٢٨، فقيل إنه جاوز المائة والثلاثين عاما».

وفي مقطع آخر من الكتاب نفسه يقول النجمي، في ص٩٣:

«لكن الظن بأن شوقي لم يمارس نظم الزجل العامي إلا في أغانيه لعبد الوهاب، هو ظن بعيد عن الواقع، لأن لشوقي تاريخا قديما، قبل معرفته بعبد الوهاب، نظم خلاله مقطوعات عامية لمطربين من أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين».

إلى أن يقول في ص ٩٤:

«فقد كان شوقي منذ شبابه الأول شديد المحبة لفن الغناء، عظيم التقدير لأعلامه الكبار، ولم يمنعه منصبه في الديوان

وخلاصة الملاحظة على كتابات كمال النجمي إذا ما نظرنا إليها من هذه الزاوية، أنه إنما اكتفى بكتابة تاريخ الغناء العربي المعاصر، ولم يكتب تاريخ الموسيقى العربية المعاصرة. وليس في هذا أي عيب، ولكنه جهد يقف عند حدود معينة، والحاجة ماسة إلى استكماله بالدأب نفسه، والحرص نفسه والعشق نفسه للموسيقى العربية، الذي يلف كتابات كمال النجمي



الخديوى من نظم الأغانى لعبده الحامولى ومحمد عثمان وسلامة حجازى وغيرهم».

ثم استشهد النجمى بأبيات من قصائد شوقى رثا بها عبده الحامولى (١٩٠١) وعبد الحى حلمى (١٩١٢) وسلامة حجازى (١٩١٧)، ومع أن شوقى لم يلتق وسيد درويش، فقد خصه فى ذكراه الثامنة (١٩٣١) بقصيدة مطلعها:

بلبل اسكندرى أيكه
ليس فى الأرض ولكن فى السماء
هبط الشاطئ من رابية
ذات ظل، ورياحين وماء

ثم طب شوقى سيد درويش بأبيات رائعة عن عبد الوهاب ليخبره بخلافة عبد الوهاب له:

لقد استخلفت فنا نابغا
دفع الفن إليه باللواء
إن فى ملك «فؤاد» «بلبلا»
لم يتح أمثاله للخلفاء

غير أننا نعود من هذا المشهد الرمزى عميق الدلالة، الذى يرسم فيه كمال النجمى بخطوط سريعة من خلال شخصية أحمد شوقى، عمق التداخل بين ينابيع الثقافة العربية المعاصرة فى مرحلتها الحيوية والمزدهرة، نعود إلى الكتاب المرجع لكمال النجمى (تراث الغناء العربى: بين الموصلى وزرياب، وأم كلثوم وعبد الوهاب)، حيث يستعرض فى ٢٥٧ صفحة، تاريخ المحطات الأساسية فى الغناء العربى عبر العصور، من خلال ثلاث لوحات تاريخية كبرى:

* لوحة الغناء فى صدر الإسلام والعصر العباسى.
* لوحة الغناء فى القرن التاسع عشر.
* لوحة الغناء فى القرن العشرين.

ومع أن الطريقة التى يعالج بها النجمى مواضيعه هذه، لا تصنف كتابه هذا (كسائر كتبه أصلا) فى فصيلة التاريخ الأنتولوجى المنهجى للغناء العربى فى كل هذه العصور، غير أنه يرتفع فى معالجته إلى مستوى، ويدخل أعماقا تتيح له استخلاص روح الغناء العربى عبر كل هذه العصور، كما أنه عندما يصل إلى العصور الحديثة (القرن التاسع عشر والقرن العشرين) فإنه يبقى على رفعة المستوى وعمق البحث والتحليل، ويضيف إليهما توسعا فى المعلومات، يقترب بكتابه وكتاباته من أسلوب الاستعراض التاريخى والمنهج الأنتولوجى، أو هو - فى أقل تقدير - يضع بين أيدينا دليلا مدهشا فى عمقه ووضوحه، لابد لأى بحث أنتولوجى منهجى فى تاريخ الموسيقى العربية، القديمة والمعاصرة، (خاصة المعاصرة) من الاستناد إليه.

فلوحة الجذور التاريخية للغناء العربى، تتضمن العناوين الرئيسية التالية:

* مناظرات الموصلى وابن المهدى
* معركة الحياة والموت بين الموصلى وزرياب
* شعر عمر بن أبى ربيعة فى الغناء القديم
* الغناء الدينى والدنيوى عند الغزالى
* الغناء والإيقاع والرقص بين الغزالى والمستشرقين
* غناء بعض الخلفاء، وغناء أبنائهم.

إذا كانت هذه اللوحة تتضمن محطات أساسية عن الغناء العربى فى العصور القديمة، ولا تغطى بالضرورة جميع المحطات بالتفاصيل التاريخية الكاملة، بل تكتفى كما قلنا بالتعبير عن روح الغناء العربى من خلال محطاته الأساسية، فإن النجمى عندما ينتقل إلى اللوحة الثانية (القرن التاسع عشر) يزداد دقة وشمولا، مع الاحتفاظ دائما بدليله الأساسى فى رحلته التاريخية الشاملة هذه، وهو محاولة رسم ملامح الروح العامة للغناء العربى، عبر مختلف العصور.

العناوين الأساسية فى لوحة القرن التاسع عشر، هى:

* شيوخ الغناء (الشيخ شهاب الدين، الشيخ المسلوب، المعلم شعبان).
* مخترع فن الدور.
* فن الدور وتطوره.
* الأدوار الوحيدة.
* فن الدور للرجال فقط (باستثناء أم كلثوم).
* معركة حول أدوار محمد عثمان.
* نواقيس عبده الحامولى.
* حكاية «عشنا وشفنا».
* لما بدا يتثنى.
* الشيخ السنباطى والقصبجى أفندى (والدا رياض السنباطى ومحمد القصبجى).

غير أن ناقدا له شمولية المعرفة وعمق الحساسية كما لكمال النجمى، ما كان يمكن أن يفوته أن مدرسة القرن التاسع عشر قد ظلت هى الذوق الجمالى السائد فى الغناء العربى، حتى انتشار أعمال سيد درويش وعبد الوهاب وأم كلثوم فى عشرينيات القرن الحالى. لذلك، فقد ضمن كتبه الأخرى مقالات فى تذوق فن الغناء العربى فى مدرسة القرن التاسع عشر، وأشكال هذا الفن. أما من خلال استعراض ليالى الغناء مع نجوم القرن التاسع عشر أنفسهم، أو نجوم الغناء المخضرمين بين القرنين، ممن استحقوا لقب حفظة تراث القرن التاسع عشر، وممن كان من حسن حظ الصدف التاريخية أن هؤلاء النجوم كانوا عند دخول تقنية التسجيل على أسطوانات إلى مصر، مازالوا على قيد الحياة ومازالوا فى ذروة مقدرتهم الغنائية، ومازال تراث القرن التاسع عشر العظيم حيا فى ذاكرتهم الموسيقية مطربين أو عازفين، ولا غرو فى ذلك، فقد تخرجوا جميعا على يدى زعماء مدرسة القرن التاسع عشر (المسلوب والحامولى ومحمد عثمان وسواهم). وهذه

أصفهانى القرن العشرين



محطة انتقالية بالغة الأهمية، أحسن كمال النجمي رصدها ووصفها في كتبه الأخرى، مؤكدا على أنه إذا فاتنا الاستمتاع بفن الغناء العربي العظيم في القرن التاسع عشر لأننا لم نعاصر عظماءه ونجومه، فقد عوضنا الله (وعوض تاريخ الغناء العربي المعاصر) بظهور الأسطوانة في السنة الثالثة أو الرابعة من بداية القرن العشرين، مما حفظ لنا زبدة تراث القرن التاسع عشر، ووضعه بين أيدينا نستمتع به ونحلله وندرسه، لمن أراد إلى ذلك سبيلا.

ففي كتاب «مطربون ومستمعون»، يقدم النجمي في ص٢٤٩، وصفا لوصلة غنائية لصالح عبد الحي، مع مقارنة غنية بأداء خاله عبد الحي حلمي. وفي الصفحة ٢٥٣ وصف وصلة لنجم آخر ممن تخصصوا في أداء تراث القرن التاسع عشر، هو الشيخ يوسف المنيلاوي، في صالون نظلة هانم.

وفي كتاب «سحر الغناء العربي» يلتقط لنا النجمي، من ذاكرة مستمع قديم، وصفا حيا لليالي الشيخ عبد الرحيم المسلوب، والمطرب محمد سالم العجوز في أواخر القرن التاسع عشر. وفي الصفحة ٣٤٤ وصف حي لليلة من ليالي عبد الحي حلمي (أنشد فيها دور في البعد ياما لأحمد عثمان) وهكذا. ومع أن كمال النجمي لا يدعي في هذه الفصول تاريخا أنثولوجيا أكاديميا لتراث القرن التاسع عشر، ولا يسعى إلى ذلك أصلا، غير أنه يؤدي مهمة لا تقل أهمية عن ذلك، وهي استحضار روح الغناء والموسيقى العربية في القرن التاسع عشر، إما على لسان رواد من المستمعين القدامى، أو من خلال استماعه الحي أو المسجل لتراث القرن التاسع عشر كما أنشده مخضرمون.



كمال النجمي يميط اللثام عن أن عبد الوهاب كان آخر المطربين الكبار الذين اتصل بهم شوقي، (فهو لم يكن الأول، كما لم يكن الوحيد)، بل كانت العلاقة الحقيقية والخلاقة بين أمير الشعراء وأمير اللحن والغناء هي تتويج لمسيرة طويلة بدأها شوقي، كما يؤكد النجمي، بشيخ موسيقيي القرن التاسع عشر محمد عبد الرحيم المسلوب



مؤرخ القرن العشرين

إذا كان كمال النجمي قد أدى بامتياز مهمة استحضار روح فن الغناء العربي في القرن التاسع عشر، فإن معايشته لفن الغناء العربي في القرن العشرين من أوائله حتى أواخره، قد هيأت له أن يؤدي بامتياز دور مؤرخ فن الغناء العربي في القرن العشرين (وهي الصفة التي اخترناها عنوانا لهذا المقال)، ابتداء بالمرحلة الانتقالية المتداخلة بين القرنين التاسع عشر والعشرين، مرورًا بالمرحلة التأسيسية على أيدي سيد درويش (في فنون المسرح والدور والموشحات والطقطوقة) أبو العلا محمد (في فن القصيدة)، ثم بمرحلة العصر الذهبي مع عبد الوهاب وزكريا أحمد والسنباطي والقصبجي وأم كلثوم وسواهم، وصولاً إلى مرحلة الهبوط أو مرحلة الموجة الجديدة.

غير أنه لابد هنا من التنبيه إلى أن مساهمة كمال النجمي في هذا المجال بالذات لم تتوقف عند كتبه المذكورة في حاشية هذا المقال، بل تواصلت بعد ذلك في مقالات بالغة الأهمية في المجلات المصرية واللبنانية، مما يستحق أن يجمع في كتاب أو أكثر، لاستكمال ملامح النفس التاريخي والتحليل العميق الذي كان يسير كتابات كمال النجمي الموسيقية.

ولأن القرن العشرين هو مجاله الأرحب، فإن كمال النجمي لا يتوقف عند سير عظماء هذا القرن، ولكنه لا يبخل أبدا في التوسع في تسجيل كل الظواهر التي رفدت فن الغناء العربي المعاصر وأغنيته، سواء في ذلك وصف المراحل الانتقالية في بدايات القرن، بنجومها وأجوائها وتحولاتها الاجتماعية والفنية، وتداخل العوامل المعقدة التي ساهمت في تطوير الغناء العربي، وإكسابه ملامح هويته العربية والحديثة.

فقبل ظهور أم كلثوم (وكوكبة ملحنيها) ومحمد عبد الوهاب، كانت ساحة الغناء العربي (باستثناء ظاهرة سيد درويش) موزعة بين غناء تراث القرن التاسع عشر الكلاسيكي، في حفلات غنائية أو أسطوانات، وغناء علب الليل ذي الطابع الترفيهي الخفيف، بل والهابط غالبا في كلامه وفي لحنه وأدائه. ومع أن الخط الفاصل بين هذين اللونين كان واضحا ومحددا وحاسما في بعض الأحيان، ولدى بعض فناني مطلع هذا القرن، فإنه في أحيان أخرى لم يكن بهذا الوضوح والحسم، فقد تورط رموز كلاسيكيون، من ملحنين ومغنين لفترة معينة في اللون الترفيهي السائد. حتى جاءت اللحظة التاريخية الحاسمة التي شهدت صعود النجمين الساطعين اللذين سيسيطران بعد ذلك على مسيرة الغناء العربي في القرن العشرين (عبد الوهاب وأم كلثوم)، وأفول نجم سلطانة الطرب منيرة المهدية، وكان ذلك نتيجة طبيعية، بل بديهية لبزوغ عصر السيطرة الحاسمة للون الكلاسيكي الكبير، الذي كان يمثله عبد الوهاب وأم كلثوم أجمل وأعظم تمثيل، بينما كان صوت منيرة المهدية وأداؤها، واختيارها للكلام والألحان، أميل إلى اللون الترفيهي (مع طابع الطرب المشترك بين الترفيهي والكلاسيكي) منه إلى اللون الكلاسيكي.

سنجد في كتابات كمال النجمي الموسيقية وصفا وتحليلا عميقا لظواهر التحول هذه، خاصة في الفترة الانتقالية التي شهدت التحولات الأساسية بين مدرستي القرن التاسع عشر والقرن العشرين: ظهور الأسطوانة، صعود وهبوط المسرح الغنائي، الانتقال من المسرح إلى السينما، الانتقال من الأسطوانة إلى الإذاعة، معاهد الموسيقى العربية ومؤتمرات الموسيقى العربية.



ينابيع الهوية الخاصة للغناء العربي

قبل الانتقال إلى مناقشة الملامح الأساسية والقضايا الأساسية التي أفاض كمال النجمي وتعمق في عرضها وتحليلها وتحديد الموقف الواضح إزاء كل منها، عند عرضه لتراث الغناء العربي في القرن العشرين (مما يمثل ٨٥٪ على الأقل من مجمل كتاباته المجموعة في كتب، وغير المجموعة)، لابد لنا من التوقف أمام أبحاث مهمة تضمنتها كتابات النجمي، سعيا وراء تحديد ينابيع الهوية الخاصة والمميزة للغناء العربي الكلاسيكي المعاصر، سواء في نماذج الأدب العربي الكلاسيكي المعاصر، أو في مدرسة تجويد القرآن الكريم والتواشيح الدينية. وهذه مساهمة أساسية لكمال النجمي، وقيمة أساسية في كتاباته الموسيقية، يجدر بجميع من يتعاطى هذا اللون من الكتابة التوقف عندها، وتمثلها والنسج على منوالها، ليس فقط سعيا وراء فهم أفضل وأعمق لتراث الغناء العربي، بل أيضا سعيا وراء إيجاد المخارج الصحيحة لتجاوز الحائط المسدود أمام تطور الموسيقى والغناء العربيين، الذي مازلنا نقف أمامه منذ عقدين من الزمن على الأقل.

ففي سعي كمال النجمي للتعبير عن الملامح القومية العربية للغناء المصري وعن تداخل هذه الملامح بين فنون الغناء والأدب، تمتلئ كتبه كلها بمقالات مطولة عن هذا الموضوع. نجد في كتاب «الغناء المصري» عرضا لرومانسية إبراهيم ناجي (شاعر أطلال أم كلثوم وقيثارة محمد عبد الوهاب)، ومقارنة بين رومانسية رامي في ترجمة الخيام ورومانسية علي محمود طه. ثم قصصا طريفة عن ولع الأديب الكبير زكي مبارك بفن الغناء، لدرجة قيامها بعرض إحدى قصائده على عبد الوهاب لتلحينها، ثم مقالة رائعة في الصفحة ٦٨ من الكتاب، يقارن فيها بين سيطرة الروح النهضوية العربية على شعر محمود سامي البارودي وتلحين أبو العلا محمد للقصيدة، ثم مقارنة مماثلة (الصفحة ٦٩) بين مهمة أبو العلا محمد في بعث الروح القومية العربية (من خلال تلحين القصائد) ومهمة سيد درويش في بعث الروح المصرية الشعبية (في ألحانه الشعبية).

ولا يترك النجمي مجالا للتشكيك في الهوية العربية العامة للغناء المصري. فيفتتح مقاله بعنوان «مستقبل الغناء المصري» في الصفحة ٧٠ من الكتاب نفسه، بالسطور التالية:

«أقصد بالغناء المصري، الغناء العربي بوجه عام. فإن الغناء المصري هو الجزء الأجمل، والأكثر تطورا وانتشارا من فن الغناء الذي تتذوقه جميع الشعوب العربية الآن».

وفي كتاب «ألحان وأصوات عربية» يعقد مقارنة بديعة بين المازني وابن الرومي وبيرم، علاقتهم بالأصوات، جميلها وقبيحها (١٢٠-١٢١). ويعود في الكتاب نفسه (١٤٢-١٤٥) إلى الحديث عن وحدة الوجدان العربي من زرياب إلى الشيخ محمد رفعت إلى أم كلثوم. ويعرج بعد ذلك (١٥٦) على سيرة غريبة لأديب من يافا (فلسطين) عاش في مصر وكتب مئات الأغاني لعبده الحامولي وسلامة حجازي ومحمد عثمان وعبد الحي حلمي ومنيرة المهدية وفتحية أحمد، وهو الشيخ إبراهيم الدباغ. ويخصص في كتاب «مطربون ومستمعون» مقالات لتقلب مزاج الأجيال في فن الغناء بين قديمه وحديثه (١٩٧)، كما يعبر عنه نجيب محفوظ في عدد وافر من رواياته، وصولاً إلى انتصار عصر أم كلثوم في ميرامار. ويخوض في مسألة حساسة هي تحريم وتحليل الغناء في مقال رائع يستشهد فيه بكتاب الإمام الغزالي «آداب الوجد والسماع» (٢١٤-٢٢١). ويعرج في مقالة أخرى (٢٤١) على تاجج المشاعر الوطنية في العشرينيات وظهور نزعة استعادة الأمجاد الفرعونية القديمة، حتى أن المطربتين الشهيرتين منيرة المهدية ونعيمة المصرية، تنافستا في غناء طقطوقتين عن توت عنخ آمون. ولكن المدهش حقا أن يعقد كاتب في وزن وثقافة كمال النجمي مقالا كاملا عن ظهور اسم توت عنخ آمون في الغناء، دون أن يعرج على بيت الشاعر أحمد فتحي الشهير في قصيدته التي لحنها وغناها عبد الوهاب (الكرنك):

أين يا أطلال جند الغالب
أين آمون وصوت الراهب

يعود النجمي في مقدمة كتابه «سحر الغناء العربي» إلى التأكيد على وحدة الوجدان العربي التي جسدها فن الغناء، وذلك من خلال استعراض الأثر الذي أحدثته جولات أم كلثوم الفنية في مختلف البلاد العربية، في بداية حياتها الفنية كما في نهايتها. ويعرض بعد ذلك لشخصية كامل الشناوي وأثره على الحياة الأدبية والغنائية، ليس فقط من خلال قصائده التي لحنها عبد الوهاب وفريد الأطرش والموجي، وشارك في غنائها عبد الحليم حافظ ونجاة الصغيرة، ولكن أيضا من خلال أثره المباشر على اكتشاف وإطلاق عدد من نجوم الغناء اللامعة من صالونه الأدبي. كما يستعرض في أكثر من موقع في كتابه عن عبد الوهاب، أثر عدد من الشخصيات الأدبية

والفنية والسياسية فى تكوين شخصية محمد عبد الوهاب، ويخص بالذكر منها شخصيتى أحمد شوقى والأمير يوسف كمال.



أما فى موضوع الأثر المباشر والعميق لتجويد القرآن الكريم والتواشيح الدينية فى الارتقاء بمستوى الغناء العربى، ورفده بالملامح الأساسية فى تكوين هويته وشخصيته، فلعل كمال النجمى لا يتوقف من بداية كتاباته إلى نهاياتها عن الخوض المفصل فى هذا الموضوع وتقليبه على مختلف وجوهه.

ويسجل النجمى دخولا بالغ الطرافة إلى هذا الموضوع، بمقال فى كتابه «الغناء المصرى» الصفحة ٢١٧، عنوانه «لماذا لا يؤذن»، والمقصود بهذا التساؤل هو محمد عبد الوهاب، فيقول النجمى فى مطلع المقال:

«فى شهر رمضان من كل عام، يتساءل بعض الناس: هل يفى مطربنا عبد الوهاب بوعده ويصعد مئذنة مسجد الحسين، أو مئذنة مسجد الشعرانى ويرفع صوته - من خلال الميكروفون - مؤذنا لصلاة المغرب أو صلاة الفجر؟».

ثم يستطرد من هذه المقدمة للغوص فى موضوعه، ويعرض للمقالة الشهيرة لخليل مطران التى دون فيها وصفا رائعا لخروج القاهرة للاستماع إلى المطرب عبده الحامولى يرفع الأذان من مئذنة مسجد سيدنا الحسين فى شهر رمضان.

إلى أن ينتقل فى كتاب «أصوات وألحان عربية»، إلى عرض بديع لأداء أعظم مشايخ القرن العشرين، كالشيخ على محمود والشيخ محمد رفعت والشيخ مصطفى إسماعيل، مع وصف درامى مؤثر لليوم الذى سجل نهاية صوت الشيخ رفعت (الصفحة ١٦٦). ثم يعمد فى كتاب «مطربون ومستمعون» إلى مقارنة بليغة بين كلاسيكية أداء عبد الوهاب وأم كلثوم من جهة، وخفة أداء منيرة المهدية من جهة ثانية، فيعيد ذلك إلى استناد أداء منيرة المهدية إلى تدريبها على غناء العوالم، بينما تدرب كل من أم كلثوم وعبد الوهاب على أداء الشيخ على محمود للتواشيح والأذكار، ثم متابعة عبد الوهاب للشيخ رفعت وتأثره بأدائه. ويستطرد النجمى فى مقارنته هذه ليسجل انقطاع العلاقة بين مغنى الموجة الجديدة، وفنون التواشيح الدينية والأذكار.

غير أن كمال النجمى يصل إلى الذروة فى تسليط الضوء على المساحة المشتركة بين تجويد القرآن الكريم والتواشيح الدينية من جهة، وفن الأداء الغنائى العربى الكلاسيكى فى مقال مطول لأحد أشهر القراء (الشيخ عبد الباسط عبد الصمد) يشيد فيه بمزايا صوته فى المساحات الواسعة وطول النفس، ولكنه يسجل افتقاره إلى الميزة الكبرى التى تميز بها سواه من القراء، مثل الشيخ رفعت (الأداء الدرامى). كما يسلط الضوء على الشيخ عبده عبد الراضى الذى توافرت ظروف عديدة محزنة (يشير إليها النجمى ولا يفصلها) حرمت عبد الراضى من الشهرة التى يستحقها فى عصر الشيخ عبد الصمد. وقد تحول هذا الفصل عن الشيخ عبد الصمد، إلى دراسة فى عشر صفحات (من القطع الكبير) يقدم فيها كمال النجمى خلاصة خبرته فى تقنيات أداء التجويد، والمقارنة بين أساليب كبار القراء ومشاهيرهم، ولكن يتضح أن قائمة القراء والمنشدين التى تضمنها هذا الفصل، أثبتت أن الأستاذ النجمى لم يستمع إلى آخر حلقة فى هذه السلسلة من عظماء القراء ومنشدى التواشيح والأذكار، الشيخ محمد عمران، الذى توفى قبل عامين ونيف، قبل بلوغ الخمسين



لابد من الإشارة إلى مقالة جامعة مانعة فى كتابه «الموجة الجديدة وما بعد الثمانينيات» (الصفحة ٤٥٠)، يختصر فيها كل العيوب فى حناجر وأداء نجوم الموجة الجديدة، الذين لم يتدربوا (على حد تعبيره) لا على تقنيات الغناء العربى ولا على تقنيات الغناء الأوروبى

من عمره، وكان صاحب الصوت الأثير والأداء الأثير لدى كبار الملحنين وعلى رأسهم عبد الوهاب، وكمال الطويل وسيد مكاوى وسواهم.



الموسيقى الآلية، وظاهرة التغرب الموسيقى

تتشعب بعد ذلك المواضيع التفصيلية التى يتناولها كمال النجمى فى المسيرة الطويلة الزاخرة للغناء العربى والموسيقى العربية فى القرن العشرين، بما يصعب الإحاطة التفصيلية الكاملة به فى حدود هذا المقال، غير أنه لابد من التوقف عند مسألتين هامتين تناولهما النجمى فى كتاباته الموسيقية، أبدى فى الثانية رأيا مكتملا واضح المعالم، غير أنه فى المسألة الأولى بقى على مدخلها ولم يسبر أغوارها:

* الموسيقى العربية الآلية.
* التغريب فى الموسيقى العربية.

فإذا توقفنا عند المسألة الأولى، فلعلنا نضع يدنا على نقطة الضعف الوحيدة فى الرؤية الشاملة العميقة التى بنى النجمى على أساسها كتاباته النقدية المهمة والأساسية، إذ يبدو أن التربية التذوقية للأستاذ النجمى على الغناء العربى الكلاسيكى القديم، قد أدى لديه إلى شىء من الغموض فى تبين الفارق الأساسى بين الفلسفة الجمالية للغناء العربى فى القرن التاسع عشر، والفلسفة الجمالية للغناء فى القرن العشرين. فبينما يمكن القول أن تاريخ الموسيقى العربية فى القرن التاسع عشر هو نفسه تاريخ الغناء العربى، حيث كان الغناء هو الهدف وهو الوسيلة. أما الفرقة الموسيقية الصغيرة (التخت)، وأما التلحين (التأليف الموسيقى) فلم يكن لهما غاية إلا مرافقة الأداء الصوتى ومساندته وإحاطته بالزخارف والمحسنات والمكملات. أصبحنا فى القرن العشرين أمام تعاظم دور الفرقة الموسيقية، التى تحولت بفعل التراكم والتطور إلى أوركسترا عربية حقيقية، حتى عندما عزف لمرافقة الغناء. وتأكيدا لذلك، يمكننا الملاحظة أنه بينما كان تاريخ القرن التاسع عشر قلما يسمح بالتفريق بين شخصية الملحن وشخصية المغنى، فقد أصبح هذا الفصل واضحا وحاسما فى القرن العشرين، على الرغم من تداخل الشخصيتين عند عبد الوهاب وفريد الأطرش ومحمد فوزى.

وقد يكون فقدان الفنان العظيم محمد عثمان فى القرن التاسع عشر صوته بسبب المرض، هو الفرصة التاريخية التى حرمتنا مطربا عظيما، ولكنها كانت إرهاصة تاريخية ضرورية لظهور شخصية الملحن كمبدع أساسى للموسيقى، وليس كمجرد «خادم لجمال صوت المغنى وإبداعه الأدائى والصوتى». وقد اكتمل تكرس هذه الإرهاصة فى بداية القرن العشرين، مع سيد درويش الذى كان الفارق شاسعا وبيِّنًا بين عظمة وغزارة موهبته الموسيقية، وضحالة إمكاناته كمطرب، فتكرست بذلك النقلة الجديدة الخطيرة فى ظهور الحدود الفاصلة فى التاريخ الفنى العربى المعاصر بين شخصية الملحن وشخصية المطرب.

ومع أن تربع عبد الوهاب على عرش المطرب الأول والملحن الأول فى القرن العشرين قد يبدو خرقًا لهذه القاعدة الجديدة، غير أن ظاهرة عبد الوهاب الفريدة قد أتت لمن يضعها فى إطارها التاريخى الواسع، متصلة بفلسفة القرن التاسع عشر الجمالية (التداخل بين شخصيتى المطرب والملحن)، ومنفصلة عنها فى الوقت نفسه، أو متجاوزة لها بتعبير أدق.

فقد قدر لى، فى أحد اللقاءات المباشرة، التى شرفنى بها الموسيقار منذ نهايات الخمسينيات وحتى ما قبل رحيله بعامين، قدر لى أن أتباسط معه فى هذه المسألة، إلى أن طرحت عليه سؤالا مباشرا وبسيطا: ماذا تعتبر نفسك، فى المقام الأول، ملحنا أم مطربا؟ فرد بلا أى تردد: أنا ملحن قبل أى شىء آخر. ولا أعتقد أن هذا الجواب كان مجرد خاطر عفوى، فحياة عبد الوهاب الفنية طوال مراحلها تؤكد ذلك. برغم تربعه على عرش الغناء الرجالى. ولنلاحظ - على سبيل المثال - أن توقف عبد الوهاب عن الغناء قبل رحيله بثلاثة عقود لم ينقص شيئا من تربعه على عرش الفن الغنائى. لأنه ظل يمارس التلحين لسواه من الأصوات (أم كلثوم، عبد الحليم حافظ، نجاة، وردة، فايزة أحمد، فيروز) حتى آخر أيام عمره المديد. ولنلاحظ من جهة ثانية، كيف أن ملحنى أم كلثوم العظام من الشيخ أبو العلا، إلى النجريدى، إلى القصبجى، إلى زكريا أحمد، إلى السنباطى، قد ظلوا ملحنين عباقرة، ولم يتحولوا إلى مطربين، برغم جمال صوت السنباطى، وروعة أداء زكريا أحمد. ولنلاحظ من جهة ثالثة أن العبقريات اللحنية الثلاث وراء حنجرة عبد الحليم حافظ (الطويل والموجى وبليغ) قد اكتفوا بصفتهم التلحينية، مع أن بليغ حمدى بدأ فى الإذاعة مطربا، ومع أن أداء الموجى الصوتى كان وراء حساسية أداء عبد الحليم حافظ.

هذه الظاهرة التى تستحق عشرات الدراسات النظرية المعمقة والمطولة، فى عملية تمسح كل ميراث القرن العشرين، لم تكن واضحة على ما يبدو أمام الأستاذ النجمى. فقد انحصر لديه دور الأوركسترا العربية فى القرن العشرين، فى المعزوفات الآلية، وفى المقدمات الموسيقية الطويلة المرافقة للأغنيات الطويلة. وغاب عنه وعن كثير سواه ممن تناولوا هذه الظاهرة، أن التلحين للأوركسترا (وليس للصوت البشرى وحده) كان بارزا، بل طاغيا حتى فى الأغنيات. ولم يقتصر على المعزوفات الآلية، بل إن بعض هذه المؤلفات الفنية العظيمة أبدعت لونا تتميز به الموسيقى العربية المعاصرة، حيث يأتى التأليف الموسيقى فى معادلة مدهشة بين التلحين للأوركسترا والتلحين للصوت البشرى. وإذا كان ذلك أسلوبا مطروقا فى الموسيقى الأوروبية الكلاسيكية (فى الأوبرا والكانتاتا الكنسية)، فإن إبداع الموسيقيين العرب الكبار فى القرن العشرين قد كرر الظاهرة، ولكن بلغة موسيقية عربية صرفة، سواء فى عزف الأوركسترا أو فى التلحين لصوت المغنى.



ولكن، لأن هذه الظاهرة مازالت أهم وأعظم وأعمق من كل ما كتب حولها حتى الآن من دراسات أو ملاحظات نظرية (وهى شحيحة بل نادرة)، فقد حصر الأستاذ النجمى دور الأوركسترا العربية فى القرن العشرين، فى المعزوفات الآلية والمقدمات الموسيقية، بل اندفع إلى أبعد من ذلك، ففسر تطور أسلوب عبد الوهاب فى التعامل مع الأوركسترا أنه مجرد إخفاء لتراجع صوته مع مرور السنين، ولم يلحظ أبدا أن السبب الأول فى ذلك (قبل تراجع الصوت) هو تطور الفكر الموسيقى لدى عبد الوهاب. ودليلنا على ذلك أن هذا التطور فى تفكير عبد الوهاب الموسيقى قد بدا واضحا جليا حتى عندما كان يحتفظ بصوته الذهبى الأول (على حد تعبير الأستاذ النجمى) فى أعمال مثل «فى الليل لما خلى» و«أهون عليك» و«أعجبت بى». وخلاصة الملاحظة على كتابات كمال النجمى إذا ما نظرنا إليها من هذه الزاوية، أنه إنما اكتفى بكتابة تاريخ الغناء العربى المعاصر، ولم يكتب تاريخ الموسيقى العربية المعاصرة. وليس فى هذا أى عيب، ولكنه جهد يقف عند حدود معينة، والحاجة ماسة إلى استكماله بالدأب نفسه، والحرص نفسه

فى أحد اللقاءات المباشرة، التى شرفنى بها الموسيقار منذ نهايات الخمسينيات وحتى ما قبل رحيله بعامين، قدر لى أن أتباسط معه فى هذه المسألة، إلى أن طرحت عليه سؤالا مباشرا وبسيطا: ماذا تعتبر نفسك، فى المقام الأول، ملحنا أم مطربا؟ فرد بلا أى تردد: أنا ملحن قبل أى شىء آخر

والعشق نفسه للموسيقى العربية، الذى يلف كتابات كمال النجمى.

أما المسألة الثانية: التغريب، فإن رؤية كمال النجمى فيها مكتملة واضحة، مع أنه لم يفسح لها مجالا واسعا فى كتاباته.

يجزم كمال النجمى بلا أى تردد، بفشل محاولات التقدم بالغناء العربى والموسيقى العربية، عن طريق الفرض القسرى للغناء الأوبرالى بتقنياته الأوروبية الخالصة على الغناء العربى ذى التقنيات الخاصة به.

وبعد أن يخص النجمى بالنقد كل هذه المحاولات من عقد الستينيات إلى نشاط مدام رطل، فى مؤلفات جمال عبد الرحيم التى يصفها بـ«الطابع القومى الغائب»، فإنه يشفق من الإصرار على استمرار هذه المحاولات فى الطريق المسدود، فى مقالات توزعت على جميع كتبه، ويؤكد أن صب الجهود كلها فى هذا الطريق المسدود، سيترك جماهير المستمعين العرب لرحمة نجوم الموجة الجديدة الهابطة.

ومع أن معظم كتابات كمال النجمى التحليلية لموجة الغناء الجديد، قد ضمنها مقالاته الصحفية فى سنواته الأخيرة، التى لم تجمع فى كتاب بعد، فلابد من الإشارة إلى مقالة جامعة مانعة فى كتابه «الموجة الجديدة وما بعد الثمانينيات» (الصفحة ٤٥٠)، يختصر فيها كل العيوب فى حناجر وأداء نجوم الموجة الجديدة، الذين لم يتدربوا (على حد تعبيره) لا على تقنيات الغناء العربى ولا على تقنيات الغناء الأوروبى.

ولعل خير ما نوجز به خلاصة هذا الجهد الموسوعى لكمال النجمى، هو سطور من الصفحات الأخيرة لكتابه «محمد عبد الوهاب - مطرب المائة عام» يصف فيها بتركيز شديد خلاصة المأزق الحالى للغناء العربى، وخلاصة احتمالات الخلاص.

يقول بعد استفاضة فى وصف الموجة الهابطة:

«وإلى جانب هذه الموجة الهابطة، تقف موجة أخرى ليست هابطة، ولكنها غريبة عن الإنسان العربى، متجاهلة لذوقه الذى صنعته عوامل التاريخ العميقة.. وهذه الموجة أيضا كان عبد الوهاب يستنكرها، كما كان يستنكر موجة الغناء السوقى الهابط..

إن الكثيرين من هؤلاء درسوا الموسيقى الأوروبية دراسة حرفة بلا موهبة، وهم يقولون بتطوير الغناء العربى والموسيقى العربية، ولكنهم فى الحقيقة لا يريدون تطويرهما، بل يريدون إلغاءهما وإلقاءهما فى قمامة الماضى السحيق، ولا يريدون حتى وضعهما فى متحف متواضع، ومن المدهش أن يقع ذلك فى الوقت الذى أخذ فيه الأجانب يتطلعون إلى الغناء العربى ولوازمه الموسيقية، ويدرسون المقامات العربية، ويستمعون إلى الثروة اللحنية والإيقاعية الطائلة فى غناء الأصوات التى غنت فى العشرينيات إلى أوائل السبعينيات، وعلى رأسها عبد الوهاب وأم كلثوم (..) وقد لفق الصهيونيون لأنفسهم ما يسمونه «الموسيقى اليهودية»، بينما يحاول بعض «المطورين» العرب إلغاء الموسيقى العربية والغناء العربى، وينظرون إليها بحقد وزراية كأنهم ورثوا التعاليم والأفكار من المبشرين الأجانب».

أما عن احتمالات التطوير الحقيقى فيقول النجمى:

«إنه لابد من سلوك طريق مستقل فى تطوير موسيقانا، هذا الطريق يمنع أن تكون الموسيقى البحتة (أى الموسيقى الآلية) معولا يهدم الغناء العربى العريق المتجدد، وينبغى ألا نفرغ أو نخجل من تغلب الغناء فى وجداننا على ما عداه من ضروب النغم.

إن الموسيقى الأوروبية يسمونها «الموسيقى العالمية» لأن أوروبا وأمريكا يسيطران على العالم، فموسيقى الأوروبيين والأمريكيين «عالمية» بمعنى من معانى السياسة الاستعمارية، لا بمعنى من المعانى الفنية».

إلى أن يصل إلى ما يشبه الوصية الأخيرة:

«إن الطريق المستقل لتطوير موسيقانا، سيتيح لها أن تحل مشكلات التطور المتعلقة بالتوزيع الأوركسترالى وعلاقته بالآلات الموسيقية العربية التى لا ينبغى أن نتخلى عنها، وتطبيق ما يناسب طريقنا من قواعد الهارمونى والكونتربوينت فى المؤلفات الغنائية والموسيقية البحتة العربية، وبناء شخصية خاصة للمسرح الغنائى العربى، حتى لا يكون امتدادا ساذجا فاشلا للمسرح الغنائى الأوروبى». ■



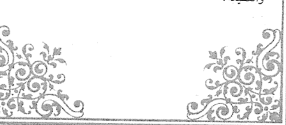
حديث عيسى بن هشام
محمد المويلحى

(٥)
أرباب الوظائف

قال عيسى بن هشام: وسرنا إلى زيارة مجلس من أرباب الحكم والولاية، وذوى السياسة والدراية، ممن بيدهم حل الأمور وعقدها، وبملكهم شقاء الأمة وسعدها، الناشئين فى مهد المعارف والعلوم، والنابغين فى أشتات المنطوق والمفهوم، والموصوفين بدقة النظر وبعد الهمم، والواقفين على أخلاق وعادات الأمم، الذين تنكشف لضوء آرائهم غياهب الخطوب الداجية وتنقاد للطف سياستهم أزمة القلوب الآبية.

فوصلنا إلى دار يزهر بياضها، ويبهر إيماضها، قد ضربت عليها المحاسن أطنابها، وخلعت عليها الزخارف جلبابها، فسار بنا الخدم إلى حجرة فى جانب الساحة، أعدت للانتظار والاستراحة، وإذا برجل جالس فيها يتمايل بين يقظان ووسنان، فرأسه كرة والكرى صولجان.

فلما أحس بقدومنا ودخولنا عليه، انتبه يزيح النعاس بإصبعه عن عينيه، فسلمنا فسلم، وهو يتثاءب ويتلعثم، فتخيلناه من ظاهر جملته وهيئته، أنه صانع من الصناع، أو تبع من الأتباع، ولكن ما لبث أن ظهر لنا من مخاطبته للغلام، أنه ذو رحم فى البيت وذو مقام، ثم التفت إلينا يخاطبنا ويقول، بعد أن ذهب الخادم مستأذنا فى الدخول: «قبح الله الخدم، فهم نقمة من النقم، شرهم حاضر، وخيرهم نادر، والعناء بهم ليس له آخر، فكم أغضبوا حليما، وآذوا كريما، وكم كسروا الصحيح وخلطوا الصريح». وكم ارتكبوا جرمًا وإثمًا، وجاءوا إفكًا وظلمًا، وكم فتحوا الأغلاق، واختلسوا الأعلاق، وكم أحدثوا الشقاق، أذهبوا الوفاق، وكم فرقوا بين المرء وأهله، وحالوا بين الفرع وأصله، ولعنة الله عليهم فى الدارين، فقد ذقت منهم الأمرين، وكادت تصل بنا أفعالهم الشنيعة، إلى ما لا يحمد من الجفاء والقطيعة.



رحيل حارس من حراس

محمد سليم العوا

ذكرت حين علمت بفقد العروبة والإسلام للعلامة الدكتور محمود محمد الطناحى، رحمه الله تعالى، أننا فقدنا، قبله بقليل، شيخه وشيخنا وشيخ العربية، العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر، وفقدنا بينهما أستاذة الأجيال ونابغة الدنيا، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ).

وقبل أولئك الثلاثة فقدنا فى عام واحد، محمد الغزالى، وخالد محمد خالد، والشيخ القابض على دينه وعن رفعة المعهد العظيم الذى بقى يعلِّم الناس أصوله وفروعه لأكثر من ألف سنة: جاد الحق على جاد الحق.

وذكرت حين شرعت فى إملاء هذه السطور، أننا فقدنا داعية العصر وواعظ العرب محمد متولى الشعراوى.. ثم لم نلبث إلا قليلا حتى فقدنا الأستاذ محمد المجذوب أحد نوابغ علماء الشام، ثم الظاهرتين الفريدتين العلامة الشيخ على الطنطاوى، اللغوى الفقيه القاضى المحدث الواعظ وآخر فقهاء الأحناف الأثبات فى المشرق العربى، والقانونى واللغوى الشاعر الكاتب الخطيب، العلامة الدكتور مصطفى أحمد الزرقا..



الطناحى حارس العربية

رأيت محمود الطناحى عاش أكثر قليلا من ستين سنة منغمسًا فى بحر الحياة الثقافية العربية، وسابحًا فى محيط الفكر العربى، وقد ماج كلاهما ـ فى عمره القصير الغزير العطاء ـ بآلاف الأفكار والأحداث التى أدلى الطناحى فى كثير منها بدلوه، فكان عدلاً لا يجور، ومنصفًا لا يحيف، وكان ميزان هذه العدالة ومعيار ذلك الإنصاف، يتمثل فى عوده الدائب إلى قضية اللغة العربية وحراستها والذود عن مواقعها والرباط فى ثغورها، إذ هى عنده مرآة الحضارة وسبيل تجديدها.

وأكثر ما يقف الباحث على هذا الجانب من عطاء محمود الطناحى فى مقالاته التى نشرها فى الصحف السيارة والمجلات الثقافية والأدبية. وقد زادت هذه المقالات على مائة وعشرين مقالة، كان آخرها مقالته عن على الجارم لغويا نحويا، ثم فى مقدمات كتبه المحققة والمؤلفة على السواء.

وقد كنت رجوت أن تجمع هذه المقالات فى كتاب الهلال ، وكنت أسعد الناس حين صدرت المجموعة الأولى، تضم ثلاث عشرة مقالة فى مايو ١٩٩٩، للأستاذ الجليل العلامة الدكتور محمود على مكى.



الطناحى ومحمود شاكر

جعل صانع المجموع المذكور من مقالات الطناحى أول مقالة فيه عن «محمود محمد شاكر ومنهجه فى تحقيق التراث»، فإن الطناحى وشاكر كالأصل وفرعه، أو كالابن وأبيه، إذ عظم الشبه حتى أظهر النسب لمن لم يعرفه. وإذ يتحدث الطناحى عن شيخه، مقارنًا بينه وبين أعلام التحقيق فى عصره يقول: «وإن اتفق أعلام هذه المرحلة فيما ذكرت، فإن أبا فهرٍ محمود محمد شاكر يقف وحده من بينهم، وينفصل عنهم بأمرين:

الأول: أنه صاحب قضية، صحبته وأرَّقته منذ صباه ونشاته الأولى، وهى قضية أمته العربية، وما يراد لها من كيد فى لغتها وشعرها وتراثها كله، وقد أبان عن هذه القضية فى كل ما كتب، وبخاصة فى كتابيه: أباطيل وأسمار، ورسالة فى الطريق إلى ثقافتنا، ثم نثرها فيما دق وجل من كتاباته، وما برح يعتادها فى مجالسه ومحاوراته، يهمس بها حينا، ويصرخ بها أحيانا أخرى، لا تفرحه موافقة الموافق ولا تحزنه مخالفة المخالف.

ولقد حكمت هذه القضية أعمال محمود شاكر كلها، وهى التى وجهته إلى تحقيق التراث، فكان عمله فى نشر النصوص جزءًا من جهاده فى حراسة العربية، والذود عنها، سواءً فيما نشره هو أم فيما حث الناس على نشره وأعانهم عليه.. لقد ألقى هذا الرجل الدنيا كلها خلف ظهره ودُبر أذنيه واستوى عنده سوادها وبياضها، وخلا إلى الكتاب العربى فى فنونه المختلفة، فهو يقرأ صحيح البخارى كما يقرأ الأغانى، ويقرأ كتاب سيبويه قراءته لمواقف عضد الدين الإيجى.

ولعمرى إن هذه كانت قضية الطناحى نفسه، وكان منهج شيخه هو منهجه حرفًا بحرف، وانظر إلى قوله فى المقالة نفسها: «واللغة هى الباب الأول فى ثقافات الأمم وإهمالها أو التفريط فيها أو السخرية منها، هدْم لتاريخ الأمم، ومحو لها من الوجود»، أليس هذا دليلا على ما قلت لك من أن الطناحى كان يعيش هذه اللغة وبها ولها.



.. والشيخ الشعراوى

ويكتب الطناحى عن الشيخ محمد متولى الشعراوى، فيقول: «إنه ظاهرة غريبة عجيبة فى زماننا، وإن كان له أشباه ونظائر فيما سلف لنا من أيام، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.. وقد سلك فى وعظه دربًا غير مطروق، وورد ماءً مهجورًا، وانتجع كلأ غير مرعى.. فإن الشيخ يمثل عندى أنموذجا ينبغى أن نجلوه للناس، بعد أن ندل على جذوره وأصوله، وإن فى ذلك كله بعثًا لتاريخ عزيز غاب عنا، أو أريد له أن يغيب.

وإذا كان لكل عالمٍ أو مفكر مفتاح، فإن مفتاح شخصية هذا الشيخ هو اللغة، واللغة هى الباب الأول فى ثقافات الأمم، وإهمالها أو التفريط فيها، أو السخرية منها هدم لتاريخ الأمم ومحو لها من الوجود.

والشيخ الشعراوى يعنى عناية بالغة ـ كما يقول الطناحى ـ باللغة فى مستوياتها الأربعة، أصواتًا وصرفًا ونحوًا ودلالةً، وفى طريق هذه المستويات الأربعة صال الشيخ وجال، ومما يحسب فى موازينه، ويُسجَّل له: هذه الجسارة والجراة فى معالجة تلك القضايا، وجمهوره الأعظم من عامة الناس، ولكن الشيخ يرى أن هذا ضرورى لتفسير كلام الله، والكشف عن مراده. وقد استطاع الشعراوى أن يأخذ العامة وأوساط الناس إلى قضايا التذوق والبلاغة واللغة والأدب، وخاض بهم لُجج هذه العلوم، واستكثر من شواهد الشعر والأمثال وكلام الفصحاء.. إن الشيخ الشعراوى قد نجح فيما عجز عنه غيره، فإننا على كثرة ما كتبنا عن الإعجاز القرآنى، وعبقرية اللغة العربية، لم نستطع أن ننزل بهذه القضايا إلى عامة الناس، وظلت دائرة بيننا، يدخل اللاحق على السابق، وكاننا نحدث بعضنا بعضا.

وبداة ذى بدء، فإن الشيخ يصرح بضرورة استقبال القرآن، بملكة اللغة ليخرج المستشرقين وأمثالهم من أعاجم العرب الذى كتبوا فى الدراسات القرآنية وهم بمعزل عن فقه اللغة، ثم يقول إن هؤلاء أخذوا اللغة صناعة ولم يأخذوها ملكة.



قضية غريب اللغة

وحين يذكر الطناحى عناية الشيخ الشعراوى رحمه الله بالكلام العالى الفصيح الذى يسميه العلماء غريب اللغة، يقول: «إن هذا العلم ـ علم الغريب ـ مما أهمله الناس فى زماننا هذا إهمالا يوشك أن يكون تاما، فقد هجره الناس هجرا طويلا، بل إن بعضهم إذا صادف شيئا منه فى نص قديم غيره إلى مرادف له مما يسهل على الناس.. وقد أنكر بعضهم استعمال كلمة «لُغوب» لعدم جريانها على الألسنة هذه الأيام، مع مجيئها فى القرآن العزيز قال تعالى ﴿وما مَسّنا من لغوب﴾ سورة ق: ٣٨.

وهكذا ينكر كثير من الكتاب الآن، ألفاظا وتراكيب ضاربة فى الفصاحة بعروقها.. وإنك واجدها فى علم الأنساب والتاريخ والجغرافيا وكتب الفلك والطب والفلاحة والزراعة وسائر ما كتب الأوائل.

وينادى بعضهم الآن بهجر هذه اللغة القديمة وتبنى لغة واقعية كالتى تقرأ فى الصحافة ووسائل الإعلام، حتى لا يشعر التلميذ بفجوة بين الذى يقرؤه فى النصوص القديمة، وبين ما يسمعه فى واقع الحياة.. إن للغة جانبا تاريخيا يجب الحرص عليه ومعرفته، ثم إن اللغة ممتدة مع أصحابها لا تموت ولا تفنى، وليست اللغة للتفاهم وقضاء المصالح فقط، وإلا لكان القدر اللازم لنا منها محدودا جدا، ولكان الذى يعرف خمسمائة كلمة إنجليزية تلبى احتياجاته فى متاجر لندن وشوارعها عالما باللغة الإنجليزية.

ولقد كان غريب اللغة، الذى هو الفصيح الرفيع، مألوفا للناس إلى عهد قريب، فى خطبة الجمعة، وفى الكتاب المدرسى والكتاب الجامعى، ثم على ألسنة المحاضرين وأقلام الكاتبين، ثم هجره الناس هجرا غير جميل، ثم جاء الشيخ الشعراوى فردنا إليه ردا جميلا.

إن موقف محمود الطناحى من تاريخية اللغة وامتدادها مع أصحابها وأنها تبقى ولا تفنى، يخالف ما عليه جمهرة علماء اللغة المقلدين لنظريات الغربيين فيها تقليدا غير بصير، ولم يقد الطناحى إلى هذا التعبير شديد الإيجاز عن هذا الموقف المغاير لموقف اللغويين العصريين، إلا إيمانه بأن اللغة هى مظهر الحضارة ودليل الهوية، وسر بقاء الثقافة، ومفتاح باب الحفاظ على الموروث الضخم الذى لا يحاط به من مجدنا الأثيل الأول. فلا عجب أنه وقف حباته، ووهب ثمرة قلمه وعطاء قريحته الفياضة، لتثبيتها فى النفوس، والتنبيه عليها لأدنى مناسبة وأوهى ملابسة، كما يقفك على ذلك النظر فى منشوره كله. وسوف تراه حين تنظر فى مجموع أعماله المنشورة يحتفى بقضية الغريب ويثيرها فى كل مناسبة لحرصه على بقاء جمال هذه اللغة الشريفة فى تعبيراتها الفصيحة الأصيلة.

ويدفع الطناحى وهما يشيع لدى بعض العامة عن علم الشيخ الشعراوى فيقول: «أما أسرار النظم القرآنى وإيثار أسلوب على أسلوب، فهو مما يفيض فيه الشيخ كثيرا، وهو يرجع فيه إلى محصول وافر ومحفوظ واسع من ثقافته الأزهرية الغنية، لا إلى ما يقوله بعض مستمعى الشيخ ومريديه من أنه يلهم به إلهاما، ويحدث به تحديثا، وكأنه غير مسبوق أو مشارك. ونحن لا ننكر أن الله يفتح على بعض عباده فتحا، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، لكننا نقرر أن كثيرا مما يذكره الشيخ معروف ومذكور ومسطور فى الكتب، وفضل الشيخ أن يذكره إذ نسيه الناس، ويرعاه إذا أهمله الناس، فهو يحيى ما درس وينفخ فيما خمد».



الشعر باب العربية

ويذكر الطناحى الشعر فيقول فى مطلع مقالته عن على الجارم لغويا نحويا: «الشعر باب العربية، والشعراء الكبار هم أقدر الناس على معرفة أسرار العربية، والوقوف على دقائقها، ثم الحرص عليها والذود عنها، وما كان ذلك إلا لأنهم قرأوا فاكثروا القراءة، وحفظوا فجودوا الحفظ، ولن تجد شاعرا كبيرا إلا ووراءه رصيد ضخم من القراءة المحيطة الجامعة للغة فى مجالاتها المختلفة. ويظهر هذا الرصيد فيما يسميه أهل زماننا «المعجم الشعرى» للشاعر، حروفا وأبنية وتراكيب ودلالة».

وإذا قرأت ذكره الحرص على العربية والذود عنها، فاقرأ ـ مستمتعا مثلى بهذا الكلام ـ قوله: «والشعراء الكبار أيضا من أكثر الناس حرصا على قوانين العربية والإذعان لها، رضًا وبشاشة لا إكراها ولا غلبة، ودعك مما يقال عن سلطان النحاة على الشعراء، وتقييدهم للإبداع الشعرى، فهذا كلام العجزة الخاملين، وهم لا يفتاون يستشهدون على ذلك بتلك النماذج القليلة جدا من خروج الفرزدق على بعض قواعد النحو، ويلوكون قوله لأبى إسحاق النحوى: علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا، وقوله وقد سئل عن رفع ما لا يستحق: علام رفعت؟ فقال: على ما يسوؤك وينوؤك، فالفرزدق شاعر فحل تياه، وهذا الذى خرج به عن جادة النحو لا يعد شيئا بجانب شعره الضخم الذى امتلأت به كتب النحو، شواهد

مستقبل الثقافة العربية

محمود الطناحى

كتاب الهلال، ١٩٩٩



على اللغة والنحو والصرف. وأنت لو أحصيت ما خرج به الشعراء جميعا عن النظام النحوى لوجدته قطرة من بحر شعرهم الجارى على سنن العرب وقوانين اللغويين والنحاة. وهذه المدابرة بين النحاة والشعراء غير صحيحة، فكثير من نُحاة الصدر الأول لم يكونوا منظرين من بُعْد، بل كانوا فى قلب الحركة الشعرية وفى الصَّميم منها». وبعد أن يذكر الطناحى أمثلة كثيرة تؤكد ما قال، يقول: «وأحمد شوقى، هذا الشاعر الضخم، متنبى العصر، كان واسع القراءة، ومن أصحاب الحفظ والرواية، وقد حدثنى شيخى محمود محمد شاكر، أنه قرأ لسان العرب كله. وهذا يفسر لنا معجم شوقى الشعرى والنثرى أيضا فى «أسواق الذهب» هذا المعجم الذى يدهشنا بهذه الألفاظ والتراكيب الضاربة فى الفصاحة بعروقها».

يقول الطناحى ودعوة الجارم إلى استحياء الغريب من اللغة، إنما هى دعوة فى حق موضعها، لأن هذا الغريب من صحيح اللغة، والدعوة إلى هجره والتجافى عنه ليست من البر بهذه اللغة الشريفة، بل هى عدوان عليها، وتحيف لشطر كبير منها.. وقد نطق شعر الجارم بهذه الرغبة العارمة فى استحياء تلك الألفاظ التى يتحاشاها الأدباء والشعراء فى زماننا هذا، زهادة فيها أو جهلا بها، أو استسهالا للألفاظ القريبة السهلة المستهلكة، فيقول فى واحدة من كريم شعره:

كم لفظة جهدت مما نكررها
حتى لقد لهثت من شدة التعب
ولفظة سجنت فى جوف مظلمة
لم تنظر الشمس منها عين مرتقب
كأنما تولى القارظان بها
فلم يؤوبا إلى الدنيا ولم تؤب



الذود عن الحياض

والطناحى ليس ضعيفا أمام التراكيب الجديدة التى تدلف إلى لغتنا الشريفة، فتفسد أصلها وتضعف بنيانها، بل هو واقف لها بالمرصاد يدفعها دفعا خارج المعجم العصرى للغتنا المتداولة. يستعمل بعضهم تركيب «موسيقى القرآن»، فيكتب الطناحى وهو يمدح أسلوب الكاتب ويقول إنه «عذب مصفى، لكن عكرته بعض الأوشاب التى تخالط الأساليب الشريفة تتسلل إليها لواذا وكأنها العدوى المهلكة، تتخلل ذرات الهواء، لا تحس بها إلا وقد داهمتك فى خلايا بدنك - عافاك الله - فلا تستطيع لها دفعا ولا مردا. ومن ذلك ما جاء فى كلام المؤلف الفاضل من هذا التركيب «موسيقى القرآن» وهو تركيب رخو لين لا يليق بجلال القرآن وبهائه، ولا تقل: لا بأس علينا من تقارض مصطلحات العلوم، لأن فيه إثراء للغة، لا تقل هذا ولا تغتر به، لأنه مدخل لبلاء عظيم ولو فتحنا هذا الباب لفسد علينا كل شىء، فإن للكلام حدودا ومعالم ينتهى إليها. أنسيت أن منا من قال: إن القرآن رسم لوحة صفتها كيت وكيت؟ فجعل المولى - عز وجل - فنانا تشكيليا يحمل فرشاة يغمسها فى ألوان، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. لقد غيَّروا النظم القرآنى واتساقه فجعلوه «موسيقى القرآن»، ثم غيروا العروض فجعلوه «موسيقى الشعر»، ثم غيروا علم الصرف فسموه «علم الصوتيات»، ثم وثم وثم وباله تستدفع البلايا»!! (المجموع السابق ص ٩٤ - ٩٥).



الغيرة على بحور الشعر

والطناحى لا يغار على اللغة بنحوها وصرفها وتركيبها فحسب، وإنما يغار منها على الشعر والبيان غيرته على نظامها النحوى والصرفى والبنائى جميعا. فهو يرد على بعض الذين يصفون بحر المنسرح (أحد البحور المعروفة التى استخرجها الخليل بن أحمد باعتبارها تتوزع الشعر العربى)، بأنه بحر قليل الاستعمال لأن فيه عنتًا ومشقة، وقد قلَّ النظم عليه، وكان يُهجر لاختلاف موسيقاه عن جنس الموسيقى الشائعة الأوزان؛ ويرى بعضهم أن إيقاع هذا البحر خافت يكاد يكون كلامًا منثورًا، بل إن بعضهم تنبأ بأنه سينقرض من الشعر فى مستقبل الأيام؛ قال الطناحى ردًا على ذلك: «وهذا كلام من لا يرتاح إلى هذا الوزن وينفر منه بطبعه، فيجعل ذوقه الخاص حكمًا عامًا، ثم هو كلام يرسل إرسالا دون مراجعة أو إحصاء، فإن النظم على هذا البحر شائع فى الشعر الجاهلى وفيما بعده إلى يوم الناس هذا، وإن لصديقنا الشاعر عبد اللطيف عبد الحليم (أبو همام) أنسًا بهذا البحر وولعًا، وقد أنشأ ديوانًا، أداره كله على هذا البحر، وسماه: (من مقام المنسرح)، ثم هو لايزال يتعاهده فى شعره بين الحين والحين.

فأنت ترى الطناحى فى هذا النص يحرس حتى بحور الشعر العربى من أن ينال من أصالتها واستمرارها، باستمرار هذا اللسان العربى، نائل، مهما كان صادق القصد فى نقده. وهو لا يكتفى فى الرد عليه بذكر رأيه الشخصى، ولكنه يحشد لذلك ما حفظه ديوان الشعر العربى من قديم عصوره وأوسطها وحديثها على نحو ما ترى فى مقالته التى شرح فيها قصيدة العباس رضى الله عنه، فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم.



أزمة البيان العربى

وبعد هذا الكلام النفيس عن قدرة اللسان العربى على البيان الجميل الحسن، يستعرض الطناحى مجالى البيان العربى الشريف، منذ عُرفت هذه اللغة إلى أساتذة جيلنا من أمثال الرافعى، والعقاد، والمنفلوطى، والزيات، ومكرم عبيد، وفتحى رضوان، ومحمد كامل حسين، ومحمد الصياد وغيرهم، ثم يعود إلى وصف حال البيان العربى الآن فيتحسر قائلا:

«وقد ذهبت تلك الأيام بحلاوتها ونضارتها وصرنا إلى هذا الزمان الذى زهد فيه الناس فى حسن البيان، وهجروا طريقه هجرا يوشك أن يكون تاما، وأصبحت أساليب كثير من الكتاب، وممن ينتسبون إلى الأدب الآن، تدور فى فلك ألفاظ مستهلكة تشبه العملة المعدنية الممسوحة، أو العملة الورقية التى تهرأت أطرافها من كثرة ما تداولتها الأيدى، أو كالعملة الزائفة التى ليس لها رصيد فى مصرف النفس، وإنما هى ألفاظ وتراكيب تُسود بها الصحف وتروح وتجىء، تتجاوزها عينك على عجل، لا تقف عندها، لأنك لا تجد فيها إمتاعًا، ولا تحس معها أنسًا، فضلا عما تحسه فى بعضها من ثقل وغثاثة تكاد تطبق على القلب وتسد مجرى النفس.. إن كثيرًا مما يكتب الآن لا صلة له بالعربية إلا صورة الحروف والأبنية، من الأسماء والأفعال، أما روح العربية وآمادها الرحبة الواسعة فلا تجدها فى أسلوب مما تقرأ، ولا فى كلام مما تسمع..». ويحيل الطناحى هذه الأزمة إلى أسباب خمسة، ثم يعقب على الأمر كله بقوله: «.. والرثاء كل الرثاء لشباب هذه الأيام الذين يخدعون عن تاريخهم وعن لغتهم فيما يقرؤون وفيما يسمعون».



التراث فى خدمة اللغة

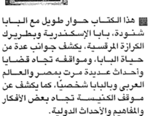
وليس أدل على أن قضية العربية كانت هى قضية الطناحى وأنه اتخذ العناية بكنوز التراث طريقًا للعناية بها وسبيلا إلى خدمتها، من أنه حين دعى للمشاركة فى مؤتمر «مستقبل التعليم فى مصر»، الذى أقامه نادى أعضاء هيئة التدريس فى جامعة أسيوط، قدم إلى هذا المؤتمر بحثا عنوانه «استثمار التراث فى تدريس النحو العربى»، ولم تكن حفاوة الطناحى بالبيان العربى وقفًا على النصوص المتكاملة، أو الكتب العامرة بمأثور النثر ومصون الشعر، ولكنك تجده يفرح بالكلمة المفردة أو التركيب الوجيز، يراه فى كتاب لأحد المعاصرين، فرح الرجل بابن أثير غاب عنه سنين ثم رجع سالما غانما.

إن الباعث على ذلك هو أن الطناحى كان يعيش قضية اللغة، وكأنها قضيته الوحيدة التى تعنيه شخصيا بقدر لا تعنى به سواه. وكان يتمثل تراثها كله، وإنتاج النابغين والنابهين على امتداد حياتها كلها، كتابا واحدا متكاملا تزداد سطوره بكل جديد صالح، فيفرح هو لأن ثروته الخاصة قد نمت، وكثر ثمرها، وطاب جناه. لقد كانت هذه اللغة الشريفة عند الطناحى أهله وعشيرته وبيته، وتاريخه الماضى وعمله الحاضر وأمله المستقبل، بقدر ما كانت - عنده - مرآة ثقافة الأمة، وعنوان حضارتها، وسبيل الرقى بتلك الثقافة وتجديد تلك الحضارة. ولذلك تصدى لكل من عرض لقضية من قضاياها بطريقة تنال منها أو تتهكم عليها أو على أعلامها، ورد خطأ المخطئين وجهل الجاهلين وغرور المغرورين، ردًا أوقف كلاً منهم عند حده، وألزمه مكانه وأظهر الناس على مبلغه من العلم، حتى لا يفتتن به ناشئ.

لقد لقى الطناحى ربه وهو مرابط فى ثغر اللغة العربية يدفع عنها البلايا، ويصحح لأهلها الخطا، ويذود عن حياضها المدَّعين، ويكشف زيف العصريين، الذين يرمونها بما ليس فيها عجزا منهم عن ارتياد دروبها، أو جهلا بحقائق نظمها النحوية والصرفية، وأسرارها الدلالية والبلاغية. وكنا - وكان المتابعون جميعا - ينتظرون أن يُختار محمود الطناحى ليشغل فى مجمع اللغة العربية، المكان الذى خلا بوفاة شيخه، محمود محمد شاكر، ولكن المنية سبقت. ■

عـــروض مـــوجـــزة

كتب عربية



الأنبا شنودة الثالث: دنيا ودين

سناء السعيد

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠

■ هذا الكتاب حوار طويل مع البابا شنودة، بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية، يكشف جوانب عدة من حياة البابا، ومواقفه تجاه قضايا وأحداث عديدة مرت بمصر والعالم العربي وبالبابا شخصيًا، كما يكشف عن موقف الكنيسة تجاه بعض الأفكار والمفاهيم والأحداث الدولية.

يتحدث البابا عن علاقته بالرئيس السادات، والتي كانت متوترة إلى الحد الذي دفع الرئيس السادات إلى إقصاء البابا شنودة وعزله في وادي النطرون، مشيرًا إلى أوجه اختلاف عديدة جرت بين الاثنين، مبعثها أن السادات - وفق ما يرى البابا - أراد أن يثبت أقدامه في السلطة، فأطلق المتطرفين من السجون، وعمل على ملاحقة الأقباط. وينفي أنبابا شنودة في موضع آخر الصبغة السياسية للكنيسة، ويعتبر أن نقله مطالب الأقباط ومخاوفهم إلى القيادة السياسية، ليس هدفه أن تلعب الكنيسة دورًا سياسيًا، وإنما أن تحاط القيادة بما يدور في خلد رعاياها. ويفسر لماذا أصدر أوامره بعدم الصلاة على القس إبراهيم عبد السيد، الذي أُعتبر خارجًا على عقيدة الكنيسة ومحرضًا على اتباع الخطأ. ويدافع عن رفض الكنيسة تطليق زوجين إلا لعلة الزنى، معتبرًا أن ذلك من أصول العقيدة التي لا يملك رجل الدين تغييرها، وينفي عن الكنيسة شبهة الدكتاتورية، مؤكدًا أن الديمقراطية هي التي تسمح للأصوات المعارضة للكنيسة بالإعلان عن نفسها، ويميز البابا بين حوار الأديان والجدل في العقائد، ويرى أن الثانية ضررها أكثر من نفعها، ويؤكد أن مصر لا تعرف الفتنة الطائفية، والأحداث التي تقع لا تعبر عن مشاعر الشعب المصري، الذي عاش قرونًا في حب ووئام، ويرى أن المعالجة الأمنية وحدها لن تحل مشاكل التطرف والإرهاب في مصر، وإنما المعالجة الفكرية والوقائية هي الأساس، وينفي البابا أن يكون من تمتد يده بالإثم لأخيه مسلمًا، فالمسلم هو من سلم الناس من لسانه ويده، ويجدد البابا رفضه إقامة حزب للأقباط، ولا يرى في ذلك فائدة للأقباط أو للوطن، ولا يرى أن أقباط المهجر كتلة واحدة صماء يمكن التعامل معها على أساس أنها تحمل الأفكار ذاتها، ويرفض البابا قانون حماية الأقليات، ويرفض الوصاية الأمريكية على أقباط مصر.

هذا بعض ما يتضمنه الكتاب من آراء للبابا شنودة في مختلف القضايا.

□□□





عشر سنوات مع فاروق

كريم ثابت

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠

■ في هذا الجزء الثاني من مذكرات «كريم ثابت» المستشار الصحفي للملك فاروق، يتناول المؤلف السنوات العشر التي كان فيها شديد القرب من آخر ملوك مصر، وهي السنوات من ١٩٤٢ وحتى ١٩٥٢، وهي سنوات مهمة في تاريخ مصر والعالم، فهي التي شهدت اشتعال الحرب العالمية الثانية وما عانته مصر خلالها بوصفها واحدة من المستعمرات البريطانية، وحريق القاهرة، وحرب فلسطين، وإلغاء معاهدة ١٩٣٦، وحادث ٤ فبراير، وزيادة السخط الشعبي، وتفاقم الغضب على الأوضاع داخل الجيش، وظهور تنظيم الضباط الأحرار، ثم قيام ثورة يوليو ١٩٥٢.

يتضمن الكتاب عشرات الأسرار التي اطلع عليها المؤلف بحكم منصبه وقربه من الملك فاروق، وهي أسرار تبدأ من أخلاق الملك وطبائعه، إلى أسرار السياسة والساسة في تلك المرحلة المهمة.

يلاحظ المؤلف مثلا، فيما يتصل بطباع فاروق أنه كان كثير الشك، وأنه كان يكره أن ينظر إليه بوصفه حدثًا صغير السن، كما كان شغوفًا بإحاطة أعماله بجو من السرية والكتمان، مع أن هذه الأعمال - كما يقول المؤلف - كانت معروفة للمحيطين به تماما.

ويلاحظ المؤلف وهو يكتب عن حادث ٤ فبراير، أن فاروق كان يكره النحاس كراهية شديدة، وكان يعتقد أنه - أي النحاس - أعد نفسه ليكون أول رئيس للجمهورية المصرية، أي أنه كان شديد الطموح، فضلاً عن أنه كان يخاطب فاروق بوصفه والده، وهو ما كان يكرهه كثيرًا.

في الكتاب أيضا أسرار عن تشكيل وزارة إسماعيل صدقي الذي تولى الوزارة لأول مرة في عام ١٩٣٠، وكان عمر فاروق وقتها عشر سنوات، ويحتشد الكتاب بأسرار عديدة عن تأليف الوزارات وتنحية الوزراء، وكيف كانت تتم، وما الذي استهدفه فاروق في كل مرة، وهل كان ذلك يتم دائما برضاه أو رغم أنفه، كما ترد حكايات عن علاقات الملك ونزواته، وخطبته وزواجه وكذلك زواج مصطفى النحاس من السيدة زينب الوكيل. وكيف قضى فاروق وزوجته ناريمان ليل ٢٦ - ٢٧ يناير ١٩٥٢ (أيام حريق القاهرة)، بجوار حقائبهما مستعدين للسفر فورًا، إذا ما تحولت الفتنة إلى ثورة، لكن بعد خمسة عشر يومًا، نسى فاروق كل شيء، واحتفل بعيد ميلاده بحفلتين في يوم واحد، إحداهما نهارية والأخرى مسائية. غير أن احتفالات فاروق لم تدم طويلا، إذ قام الجيش بثورته في ٢٣ يوليو من نفس العام، فقضى على عهد كان مقضيًا عليه بالانهيار والزوال، كما يقول المؤلف في ختام كتابه.

□□□

البحث عن يسوع

كمال الصليبي

عمان - رام الله: دار الشروق، ١٩٩٩

■ يقدم هذا الكتاب قراءة جديدة في الأناجيل، وهو يبدأ بمعلومات عامة تمهد طريق البحث عن حقيقة يسوع الناصري المعروف بالمسيح، اعتمادًا على ما ورد في النصوص المقدسة عند المسيحيين بشأنه. وقبل الولوج إلى الموضوع الرئيسي للكتاب، وهو الحقائق التاريخية المرتبطة بشخصية يسوع، يبين المؤلف المصادر الأساسية للكتاب المقدس، سواء في العهد القديم أو العهد الجديد، والأخير يتكون من أناجيل أربعة تحمل أسماء اثنين من تلاميذ يسوع هما متى ويوحنا، واثنين من معاوني الرسول بولس هما مرقس ولوقا، وجميعها يبحث في سيرة يسوع، ثم سفر أعمال الرسل الذي يتحدث عن أحوال تلاميذ يسوع وأفعالهم، ثم الرسائل وعددها ٢١ رسالة، ثلاث عشرة منها بقلم الرسول بولس، وهو لم يكن من تلاميذ المسيح، لكنه المصدر الأكثر ثقة فيما يتصل بسيرته.

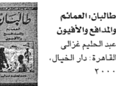
بعد هذه الخلفية المعلوماتية الأساسية، يناقش المؤلف الجانب التاريخي لظهور المسيح، بادئًا بما جرى لبني إسرائيل في بابل على يد الملك «نبوخذ نصر» الذي قضى على مملكة يهوذا في العام ٥٨٦ ق.م. ثم تعاظم الوجود اليهودي بعد ذلك في فلسطين، ثم ظهور السيد المسيح في الناصرة.

ويفند المؤلف بدءًا من ظهور المسيح مقولات عدة حول شخصية وشخصيات أخرى أحاطت به وارتبطت برسالته، منها مثلا أن المؤلف لا يراه معدما أو فقيرا بحسب ما توحي نصوص عدة، بل كان بحوزته صندوق مال أوكله إلى «يهوذا الإسخريوطي»، للإنفاق عليه وعلى أتباعه، كما يلاحظ المؤلف تضاربا في نسب المسيح بين الأناجيل والرسائل وأحيانا بين الأناجيل ذاتها.

ويشكك المؤلف فيما يروى عن مسئولية «يهوذا الإسخريوطي» عن صلب المسيح والوشاية به، ويرى أن مرد هذه الروايات إلى تلاميذ المسيح الذين حملوا بغضًا وكراهية ليهوذا.

ويتوقف المؤلف كثيرا عند «بولس» الذي وضع الأسس اللاهوتية للمسيحية كما نعرفها اليوم، كما يناقش مصادر الأناجيل الأربعة وحكاية العشاء الأخير، وعشرات الموضوعات الأخرى التي تقدم قراءة نقدية للأناجيل الأربعة.

□□□



طالبان: العمائم والمدافع والأفيون

عبد الحليم غزالي

القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠٠

■ بدأ ظهور حركة طالبان على الساحة الأفغانية عام ١٩٩٤ بوصفها حركة الطلبة الأفغان محدودي التعليم، والآن صارت طالبان تحكم أكثر من ٩٠٪ من الأراضي في أفغانستان.

والكتاب هو ثمرة رحلة ميدانية قام بها المؤلف والتقى خلالها عشرات من قادة الحركة والنشطين بداخلها، بدءًا من الملا محمد عمر، وانتهاءً بالبسطاء من المتحمسين لأفكارها، والذين نكتشف من متابعة ما يرد في حديث المؤلف عنهم، قدرًا لا يمكن تجاهله من التطرف، والانصياع شبه التام لقائدهم «ملا محمد عمر»، الذي ينظرون إليه بوصفه أمير المؤمنين. ومن ثم، فإن طاعته واجبة، والخروج عليه مروق يستوجب العقاب، وهذا المروق لا ينحصر فقط في القضايا الكبرى، وإنما يمتد إلى مسائل من نوع تقصير اللحى ومشاهدة التليفزيون والإقبال على العلوم العصرية (طالبان تقصر التعليم على العلوم الشرعية فقط)، والتحيز للنظم الحديثة في الانتخاب وغيره.

أما الحديث عن زراعة المخدرات في أفغانستان، والتي قدرت وفقا لإحصائيات برنامج الأمم المتحدة للحد من المخدرات عام ١٩٩٧ بـ ٥٩ ألف هكتار، يبلغ محصولها السنوي من الأفيون نحو ٢٨٠٠ طن متري، فأمر غير منكور حتى من قبل قادة الحركة، الذين اعترفوا بالمسألة، لكنهم عبروا عن عجزهم عن تقديم بدائل للمزارعين يمكنهم أن يتعيشوا منها في حالة تخليهم عن زراعة الأفيون، وإن كان قادة طالبان يؤكدون أنهم يسعون لتقليص زراعته وتجارته عملاً بتعاليم الإسلام وشريعته.

□□□

جوتة العبقرية العالمية

مجموعة مؤلفين

بيروت: دار الجديد، ١٩٩٩

■ يشتهر «جوتة» بين القراء العرب بديوانه الشرقي، الذي عبر عن رؤية إنسانية وروح صوفية شفافة، واستفاد فيه من نصوص القرآن وأعمال صوفية المسلمين الكبار، والسنوات التي عاشها «جوتة» بين منتصف القرن الثامن عشر ونهاية الثلث الأول من القرن التاسع عشر، وقد كان «جوتة» ثمرة منطقية لهذه الأفكار والتحولات، غير أن أهم ما ميَّز حياته الحافلة وأعماله الأدبية، هو الأبعاد الإنسانية التي اشتملت عليها، ويحمل شاهد قبره أبياتًا ستة تنتهي بالبيت التالي:

وعلى شاهد قبرك سيقرأ الناس
إنك كنت بحق إنسانًا

والكتاب الذي يأتي في ذكرى مرور ٢٥٠ عامًا على وفاة «جوتة»، يشتمل على مقالات عديدة، تتناول جوانب مختلفة من حياته، فيكتب الدكتور

عـــروض موجـــزة

مصطفى ماهر عن «جوتة الإنسان»، الذي خبر الحياة بعسرها ويسرها، وتعرض للمرض والحزن والخيبة والخوف. ويكتب الشاعر «سعيد عقل» عن «جوتة الشاعر»، وكيف أن ترحاله بين إيطاليا وفرنسا والصين وإيران، ودراساته العميقة للتراث الإغريقي والعربي والأوروبي، وتأثره بامرئ القيس وحافظ الشيرازي وآخرين من نوابغ الأدب في كل مكان في العالم، كانت لها آثارها العميقة في تكوينه الأدبي ونبوغه الشعري، كما أن صداقته لـ «شيللر»، أغنت رؤاه وتصوراته للكون والبشر.

ويكتب سمير مينا جريس، عن التأثيرات العربية في الديوان الشرقي الغربي، وهي تأثيرات مؤكدة تزخر بها أبيات الديوان، وتمتد من النصوص المقدسة في القرآن الكريم والسنة الشريفة، إلى أبيات شعراء المتصوفة وأغانيهم.

□□□

متاعب الزواج

عادل صادق
القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩

■ لا تستقيم الحياة الزوجية داخل الأطر القانونية والتشريعات الوضعية التي تبدو ـ ظاهريًا ـ منظمة لهذه العلاقات، واستجابة منطقية لتطور المجتمعات في مرحلة ما من تاريخها، إنما تبنى على الود والتراحم الذي يترجم عمليًا الآية الكريمة: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾. وهذا الكتاب يسعى لتأكيد هذا المعنى، فهو يقول في كل سطر، أن ما يعتري الحياة الزوجية أحيانًا من فتور وملل، وما يدب فيها من شقاق ونزاع، ليس سوى عارض سرعان ما يزول، مادامت الرغبة في التواصل والتفاهم موجودة، والحرص على استمرار الحياة الزوجية قائما.

والكتاب عبارة عن صور قصصية تحكيها زوجات أو أزواج، ومقالات تسعى إلى تحليل الدوافع النفسية لسلوك الزوجين.

ويناقش المؤلف في ثنايا الكتاب واحدة من القضايا المهمة التي تؤثر على الحياة الزوجية وتهددها في الصميم، وهي تفوق المرأة على الرجل اقتصاديا أو علميا أو مهنيا أو اجتماعيا. ويرى المؤلف أن تفوق المرأة المادي يحتل أهمية ثانوية، أما تفوقها المهني أو العلمي أو الاجتماعي، فهو الذي يحدث الخلل في العلاقة، ويشعر الرجل بعجزه، وخصوصًا ذلك النوع من الرجال الذي يفتقد الثقة بنفسه. والمهم أن هذه الأحاسيس السلبية بين الطرفين، هي التي تؤثر على موقف كل منهما تجاه الآخر، ويناقش في موضع آخر مسألة هجرة الزوج وتأثيرها على الزوجة والأولاد والكيان الأسري كله.

عشرات الموضوعات والدقائق في العلاقة بين الزوجين، يتناولها المؤلف، الذي ينهي كتابه بعشرين وصية، ترسم الطريق لحياة زوجية مستقرة.

□□□

شجون جامعية

سعيد إسماعيل علي
القاهرة: عالم الكتاب، ٢٠٠٠

■ يؤكد المؤلف منذ البداية، على رؤيته غير المتفائلة لمستقبل التعليم في مصر، أما تفسيره لرؤيته تلك فهو.. «بحكم تخصصه التاريخي أبصر صعودًا في التعليم كميًا، وهبوطًا شديدًا كيفيًا، إلى الحد الذي يملؤني رعبًا كلما تطلعت إلى المستقبل القريب».

ويتضمن الكتاب عشرات الموضوعات التي تقدم تشريحًا علميًا دقيقًا للأوضاع الجامعية في مصر، ويلاحظ المؤلف أن التعليم الجامعي في مصر ولد في أحضان الوظيفة الحكومية، أي لسد حاجة الدولة تجاه طائفة معينة من الموظفين، ومع تحول الدولة المصرية من الاقتصاد الموجه إلى الاقتصاد الحر وتخليها عن سياسة تشغيل الخريجين، بدأت هذه الوظيفة تتضاءل، لكن المؤلف لا يرى اتساقًا بين تخلي الدولة عن سياسة التشغيل، وتحكمها في الوقت نفسه في سياسة القبول بالجامعات. وتحت عنوان «لا للجامعات الخاصة»، يؤكد المؤلف رفضه لتلك الجامعات التي يتوقع أن تفرز إلى السوق عشرات الخريجين يستبدون بحكم الموقع الاجتماعي، وبحكم الإمكانات المتاحة لتلك الجامعات، المواقع القيادية في سوق العمل، فيما يبقى خريجو الجامعات الحكومية، أسرى الوظائف الحكومية ومرتباتها الهزيلة.

ويرفض المؤلف في مقال تحت عنوان «تجفيف ينابيع الثقافة بالجامعة» تقييد حرية الفكر والرأي لدى الطلاب في المرحلة الجامعية، ويرى أن رفع الحظر عن قنوات التثقيف بالجامعة، سيعزز الأمن الفكري والثقافي لدى الطلاب، وسيمثل ذلك درعًا واقيًا ضد محاولات تخريب الوعي التي تجري بالجامعة.

وينتقد المؤلف في مقال آخر، هذه الكثافة غير الواعية في الجامعات المصرية، ويرى أنها «انفجار طلابي» يؤثر على القدرات التحصيلية للطلاب، كما تؤثر حتمًا على إمكانية أن تضطلع الجامعة بدورها في تشكيل العقلية النقدية، التي هي عماد التعليم الجامعي.

□□□

دورة حياة الإنسان بين العلم والقرآن

كريم حسنين
القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٠

■ إعجاز القرآن الكريم لا ينتهي، في اللغة والعلم وشواهد الكون والطبيعة. وفي هذا الكتاب، يكشف المؤلف عن مدلولات جديدة للتعبيرات القرآنية «نطفة»، و«مضغة»، و«علقة»، و«قرار مكين»، وغيرها، ويبين الحكمة من التعبير عن هذه المدلولات في آيات مختلفة بكلمات أخرى مثل وصف «نطفة»، بأنها «أمشاج» في سورة «الإنسان».

والمنهج الذي اتبعه المؤلف هنا لا يخضع الآيات القرآنية للشواهد العلمية، باعتبار أن الثانية متغيرة والأولى ثابتة. ولذلك يبدأ المؤلف بالقواعد الموضوعية لتدبر آيات القرآن الكريم من وجهة نظره، ثم يبين الحقائق العلمية لخلق الإنسان وعملية الإخصاب وتطور الجنين. ثم يفسر الدلالة العلمية لتعبير «مضغة» في القرآن الكريم، وهي التي اتفق الباحثون الإسلاميون ـ بحسب قول المؤلف ـ على أنها تعبير عن مرحلة الكتل البدنية بالتعبير الطبي، وهي المرحلة التي تتخلق فيها جميع أجهزة الإنسان، ويفسر المؤلف تعبير «نطفة»، و«علقة»، ويرى المفسرون أن «نطفة» هي ماء الرجل وماء المرأة، و«العلقة» هي الدم الغليظ المتجمد. أما الكاتب، فإنه يقترح دلالات جديدة للفظين. ويقول إن التعبير القرآني «نطفة» له دلالة واحدة، فهو يدل على جرثومة التناسل. وأن «علقة» تدل على البويضة المخصبة المتكونة عقب اتحاد النطفتين وما يليها من مراحل لازمة لإتمام تعلقها ببطانة الرحم، ويدلل المؤلف على ذلك بآيات من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

واعتمادًا على الآية الخامسة من سورة الحج، يسعى المؤلف إلى كشف دورة حياة الإنسان، ويرى في الآية إعجازًا لغويًا وعلميًا يتفق مع جميع الأسس التي وضعتها تفاسير القرآن مسبقًا، ويتفق أيضا مع السياق العام في الآية جميعها.

□□□

علم نفس الفن وتربية الموهبة

مصري عبد الحميد حنورة
القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر، ٢٠٠٠

■ يقدم هذا الكتاب رؤية علمية موضوعية لفرع من فروع علم النفس، عاني لفترات طويلة من سوء الفهم وسوء التقدير، وإن كان بدأ الاعتراف به حاليًا بوصفه أحد المداخل المهمة في تناول الظواهر النفسية. وعلم نفس الفن كما يعرفه المؤلف، هو الذي يهتم بدراسة كل ما يتعلق بسلوكيات التعامل مع الموضوعات الفنية، سواء كانت فنونًا جميلة أو تطبيقية، كالموسيقى والنحت والتصوير والزخرفة، أو فنون قول كالشعر والنثر وغيرهما، أو فنون مركبة تجمع بين أكثر من فن.

ويقدم المؤلف في البداية إطارًا نظريًا للدراسة، يقدم فيه الوشائج بين العلم والفن، وتكاملية السلوك الإبداعي، وماهية القياس النفسي للتذوق الفني. ثم يناقش في باب تال عملية الإبداع في السينما والمسرح. ويخصص الباب الثالث لتطبيق الأطر النظرية لعلم نفس الفن في فنون التصوير والموسيقى.

وفي فصل آخر يشير المؤلف إلى حوار دار بين الفنان محمود سعيد والدكتور مصطفى سويف، وهو حوار جرى على فترات استغرقت نحو عامين، وامتد لأكثر من عشرين ساعة، وفيه يسأله الدكتور سويف عن علاقة الاسكتش باللوحة النهائية.

ويجيب سعيد: بأنه كثيرًا ما يرسم اسكتشات دون التفكير في مستقبلها.

ويقدم المؤلف في فصل تال، قراءة لبعض رسائل المؤلف الموسيقي «تشايكوفسكي»، محاولاً الاقتراب من عملية الإبداع في مجال الموسيقى، وفي الفصل الأخير يقدم تصورًا تكامليًا لتربية الموهبة، وهو تصور يبدأ من اكتشافها إلى توفير الظروف الاجتماعية المواتية لنموها، إلى بناء المناخ الوجداني الفعال لتنشيط هذا النمو إلى تدريب الاستعدادات العقلية لتعظيم تطورها.

□□□

أربعون عاما على الوحدة المصرية السورية

باحثون وأكاديميون
القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٩٩

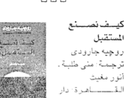
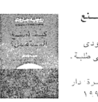
■ تمثل تجربة الوحدة المصرية السورية على قصرها، معلمًا بارزًا من معالم العلاقات العربية خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وهذا الكتاب يقدم تقييمًا علميًا موضوعيًا حول هذه التجربة، شارك فيه عدد من الأكاديميين والباحثين والسياسيين، وهو في الأصل ندوة ضمت محاور عدة، يتعلق أولها بالطريق إلى الوحدة، أي المقدمات التي أفضت إليها. ويتعلق الثاني، بتحليل بعض آليات هذه الوحدة، خصوصًا ما يتصل ببناء المؤسسات وكيفية صنع القرار. ويختص القسم الثالث بقضية الانفصال وما ترتب عليها، وتطورات محاولات الوحدة العربية بعد فشل هذه التجربة في السنوات الأولى من الستينيات، وينتهي الكتاب بحلقة نقاشية عن مفاهيم جديدة للوحدة العربية في ضوء المستجدات العربية والعالمية.

وفيما يتصل بالمستقبل، أي مستقبل التجارب الوحدوية العربية، أجمع المشاركون على أن نقطة البداية لتحقيق هذه الوحدة، هي الإصلاح والتقويم داخل الدولة القطرية، الذي ينبغي أن يتوازى

عـــــروض موجـــزة

مع محاولات على المسار نفسه بالنسبة للدولة القومية. وقد انتهى المشاركون إلى أن ما يعوق التوجهات الوحدوية العربية هو: ارتفاع حدة الصدام الداخلى بين التيارات السياسية والقوى الاجتماعية فى عديد من الدول العربية، وتعرض عديد من دول المنطقة للتفتيت بفعل هذه الصراعات، كما هو الحال فى العراق والجزائر مثلاً من ناحية ثانية، فإن الحوار بين الشعوب العربية يكاد أن يكون مقطوعاً لأسباب مختلفة. وبدلاً من أن تلعب وسائل الإعلام دوراً إيجابياً فى وصل هذا الانقطاع، نجدها على العكس، ساهمت فى تعميق الفجوة وافتعال مزيد من الحواجز النفسية الأخرى، وهو ما جعل الثقافة القومية تتراجع لصالح الثقافة القطرية، وعزز فرص الانعزال والتقوقع.

□□□

كيف نصنع المستقبل

روجيه جارودى

ترجمة: منى طلبة، أنور مغيث

القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩.

■ أثار المفكر الفرنسى المسلم روجيه جارودى عشرات الأسئلة فى مواجهة النظام العالمى الجديد، وما يسميه بالإمبريالية الأمريكية، وهو لا يرى أن خطورتها ماثلة فى العالم الثالث فقط، وإنما تمتد إلى أوروبا ذاتها، التى «تأمركت» وصارت مهددة فى ثقافتها وقيمها وحضارتها كما يقول جارودى.

وهذا الكتاب، يتوجه إلى المستقبل، إلى القرن الحادى والعشرين، كيف يمكن بناء المستقبل، فى ضوء معطيات الحاضر التى سادت فى أمريكا وحضارتها التى يرى المؤلف أن قيمها السلبية تتجاوز بما لا يقاس قيمها الإيجابية. وفى البداية يشخص المؤلف أحوال العالم فى القرن العشرين، الذى انتهى بتناقض مميت على حد تعبيره، وهو أنه عالم متلاحم وممزق فى الوقت نفسه. وهو متلاحم بفعل الآلة العسكرية ووسائل الاتصال والمعلوماتية التى وحدت بين أجزائه، وهو ممزق، لأن ٨٠٪ من مصادر العالم يسيطر عليها ويستهلكها ٢٠٪ من سكانه.

ويعود جارودى إلى ما قبل الميلاد، حيث جرى الانشطار الأول للعالم - بحسب قوله فى الفترة من القرن السادس إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وبروز مفاهيم الشعوب المختارة التى تبناها الإغريق واليهود. ثم الانشطار الثانى وجرى مع أوروبا المسيحية ذات التوجهات الاستعمارية، وهو انشطار ساد ١٥ قرناً. أما الانشطار الثالث، فحدث فى منتصف القرن العشرين والحربين العالميتين اللتين دمرتا العالم.

أما كيف نبنى العالم الجديد ونمنع انفجار الكوكب الأرضى، فأمر يتم عبر تحولات فى الاقتصاد، تحقق مزيداً من العدالة بين سكان الأرض، وتمنع الاستغلال وتحد من وحشية الرأسمالية.

وبتحولات فى السياسة، تخلق نظاماً سياسياً أكثر إنسانية، يعيش فى كنفه العالم كله، وينشر الثقافة السياسية القائمة على المشاركة.

وبتحولات فى التعليم، تبدأ من البدايات والأسس، تُعلِّم القراءة التى تعترف بالآخر وإنجازه الحضارى دون استعلاء أو غرور.

ثم وهذا هو الأهم، تحول إيمانى يوازن بين القيم المادية السائدة فى حضارة الغرب، والقيم الروحية التى تجعل لحياة الناس قيمة أكبر، وتمنح التطور البشرى أبعاداً هو فى مسيس الحاجة إليها.

□□□




مدخل إلى السياسة الخارجية لجمهورية إيران الإسلامية

بيترن ايزدى

ترجمة: سعيد الصباغ

القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٠

■ منذ اندلاع الثورة الإيرانية قبل أكثر من عشرين عاماً، والتحديات التى تطرحها لا تنقطع، وعلامات الاستفهام تتناثر حول نواياها ومواقفها من جيرانها، ومواقف الدول الكبرى منها، وتأتى أهمية هذا الكتاب من كاتبه أستاذ فى العلوم السياسية بجامعة طهران.

ولعل أهم ما يشغل الإيرانيون ويشغل الآخرين بهم، هو ما يرتبط بقضية «تصدير الثورة»، والتى تتراوح أبعادها ما بين أنصار الجبهة الوطنية الذين يرون ضرورة التركيز على تنمية القدرات الذاتية ورفض تصدير الثورة ورفض التعامل دولياً بالمعايير الإسلامية والسعى إلى التكيف مع المجتمع الدولى. أما القوميون الإسلاميون، فيؤمنون بعالمية الإسلام، وبضرورة تصدير الثورة ومقاومة الاستعمار الذى هو سبب تخلف العالم الإسلامى. أما القوميون الثوريون فيرون ضرورة أن يكون الوضع الداخلى فى إيران نموذجاً يحتذى، وهم لا يرفضون تصدير الثورة، لكنهم يؤمنون بالتعايش مع الأوضاع حتى تسمح الظروف بتصدير الثورة إلى الدول المجاورة. ويقدم المؤلف قراءة فى الأسس التى تحكم السياسة الخارجية الإيرانية، ومنها الدستور والمؤسسات ومفهوم الدبلوماسية فى هذا الإطار، وموقع المصلحة الوطنية الإيرانية فى سلم أولويات الدبلوماسية الإيرانية، والمصادر الرسمية المسئولة عن اتخاذ القرار وصياغته فى إيران وهى الدستور والمرشد ثم مجلس الشورى والحكومة ووزارة الخارجية.

أما أصول السياسة الخارجية لجمهورية إيران الإسلامية، فهى كما

أرض الميعاد والدولة الصليبية: أمريكا فى مواجهة العالم منذ ١٧٧٦

والتر أ. ماكدوجال

ترجمة: رضا هلال

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠

■ هذا الكتاب «أرض الميعاد والدولة الصليبية»، يتناول معضلة السياسة الخارجية الأمريكية بين المثالية والنفعية والتجريبية.. فمؤلفه «والتر ماكدوجال» يستعرض دور الولايات المتحدة فى السياسة العالمية خلال القرنين الماضيين.

وكما هو واضح من عنوان الكتاب «أرض الميعاد والدولة الصليبية»، يلجأ المؤلف إلى الاستعارة الدينية. فتعبير أرض الميعاد، مستعار من العهد القديم «اليهودى». وتعبير الدولة الصليبية قصد به الإشارة إلى العهد الجديد وإلى الصليب كرمز للتبشير وللتضحية من أجل خلاص البشرية. ومن ثم، فإن أمريكا أرض الميعاد، تعكس فكرة المهاجرين الأوائل، وكذلك الأمريكيين حتى نهاية القرن التاسع عشر عن أمريكا: أما فكرة الدولة الصليبية، فتعكس تصور الأمريكيين عن أنفسهم وسلوك أمريكا فى الشئون العالمية خلال القرن العشرين، من منطلق أن أمريكا لها رسالة لخلاص البشرية.. رسالة لنشر الحرية والتقدم.

وبمعنى آخر، فإن أمريكا القرن التاسع عشر وظفت سياستها الخارجية من أجل الحرية فى أرض الميعاد - أمريكا. أما أمريكا القرن العشرين، فكانت سياستها الخارجية «توسعية» لنشر الحرية فى العالم!

ولجوء ماكدوجال إلى الاستعارة الدينية، لا يعنى أنه يقدم رؤية دينية لدور أمريكا فى العالم، ولكنه يشى بدور العامل الدينى فى السياسة الخارجية الأمريكية، ويركز على التمايز بين العهد القديم للسياسة الخارجية الأمريكية، والذى استهدف الحرية فى الداخل، والعهد الجديد الذى حاولت فيه أمريكا توسيع دورها فى العالم ثم قيادته.

وقد وصف المؤرخ الشهير آرثر شليزنجر التاريخ الأمريكى بأنه دورات من الحرب بين الواقعية والمسيحانية، بين التجريب والقدرية. وتحدث كيسنجر عن الازدواجية بين العزلة والعالمية، بين المثالية والقوة. كما أن المؤرخ مايكل كامن وصف الشعب الأمريكى بأنه «شعب متناقض»، والسياسة الأمريكية بأنها سياسة البراجماتية المثالية.

ولكن هل كان لابد أن تتحول أمريكا أرض الميعاد إلى دولة صليبية؟

يجيبنا ويليام فولبرايت، بأن كلا من تقاليد العهد القديم والعهد الجديد فى أمريكا هى تعبير عن جانبين بارزين فى الشخصية، جانب أخلاقية النقص الإنسانى (الاكتفاء بصلاح النفس)، وجانب أخلاقية الثقة فى الذات الإنسانية (إصلاح العالم). وبعد عام١٨٩٨، أفسحت الأخلاقية الأولى المجال للأخلاقية الثانية (الصليبية). ومع الإمبريالية التقدمية، أصبحت أمريكا بولس الرسول الذى ينشر الرسالة بين الشعوب الأخرى. وبالويلسونية «الليبرالية العالمية»، حاولت أمريكا أن تكون الكنيسة العالمية وليس مجرد إسرائيل الجديدة.

لقد دار الجدل الذى ميز مرحلة ما بعد الحرب الباردة، حول أى تقاليد السياسة الخارجية مازال صالحاً وفاعلاً.

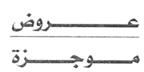
من تقاليد العهد القديم، سيظل تقليد حماية الحرية فى الداخل كوظيفة للدبلوماسية الأمريكية، وتقليد الأحادية بمعنى تأكيد القوة الداخلية قبل الارتباطات الخارجية، ومبدأ مونرو برغم غياب أى قوة أوروبية يمكن أن تهدد الفناء الخلفى للولايات المتحدة. بافتراض عودة روسيا أو صين عدائية أو يابان أعيد تسليحها. أما تقليد المصير المبين، أى التوسعية الذى كان مضمونه «فتح أمريكا»، فقد أصبح هدفه «فتح العالم» تجارياً.

ومن تقاليد العهد الجديد، فإن تقليد الإمبريالية التقدمية، كان انتقالياً بين العهدين القديم والجديد. ولم يزل تقليد الاحتواء الأكثر فعالية، وإن أصبح يطبق على نطاق إقليمى مثلما حدث مع إيران والعراق وليبيا والسودان (الدول المنبوذة)، دون نجاح أكيد. ويبقى تقليدان هما الويلسونية (الليبرالية العالمية) وتحسين العالم بتعديلهما لخدمة التجارة الأمريكية وتطبيق التشريع الأمريكى خارج الولايات المتحدة، بذريعة الديمقراطية وحقوق الإنسان، مثل قانون بيرتون - هيلمز لتشديد الحصار على كوبا، وقانون داماتو لفرض عقوبات على الشركات المتعاملة مع إيران وليبيا، وقانون سبيكتر - وولف للحرية من الاضطهاد الدينى.

لقد كانت - ومازالت - معضلة السياسة الخارجية الأمريكية: أين تلتقى الواقعية بالمثالية، والعالمية بالقومية؟ ومتى تختار بين التوسعية والانعزالية؟

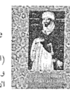
ولكن الاستثنائية الأمريكية، كانت تفرض دائماً تناقض السياسة الخارجية الأمريكية.

وقد نجح والتر ماكدوجال فى كتاب «أرض الميعاد والدولة الصليبية»، فى تقديم سيرة ذاتية قومية لأمريكا، من أجل استنباط التقاليد الدبلوماسية التى حكمت الدور الأمريكى فى العالم منذ إعلان الاستقلال الأمريكى عام ١٧٧٦. وبرغم أن الكتاب ينتمى إلى علم تاريخ العلاقات الدولية، فإن ماكدوجال حرص على كتابته كقطعة من الأدب. وفى الحق أننا أمام كتاب يجمع بين التحليل التاريخى الرصين والأدب الرفيع فى آن معاً.



يقدمها المؤلف: سعادة الإنسان في كل المجتمعات البشرية، وتنظيم السياسة الخارجية للدولة وفقا للمعايير الإسلامية، والدور الأساسي للإمامة والقيادة، ودعم النضال المشروع للمستضعفين ضد المستكبرين في أي بقعة من العالم، والدفاع عن حقوق جميع مسلمي العالم، والاستقلال السياسي والاقتصادي والاجتماعي، والحيلولة دون وقوع الاقتصاد الوطني تحت السيطرة الأجنبية، ومكافحة النفوذ الأجنبي. أما تطبيق هذه الأصول التي أفاض في شرحها المؤلف، فيبقى متروكًا للواقع والتجربة.

كتب أجنبية



Turks, Moors and Englishmen in the Age of Discovery

(الأتراك، المغاربة والإنجليز في عصر الاكتشاف)

Nabil Matar

Columbia University Press, 1999, 268pp., £21.00

■ في عام ١٦٠٣، قدم الملك المغربي أحمد المنصور اقتراحًا إلى حليفته الإنجليزية الملكة اليزابيث الأولى، كان كفيلا لو تمت الموافقة عليه بتغيير وجه التاريخ الحديث على الإطلاق. وكانت الفكرة بسيطة وهي أن يسمح الإنجليز للمغاربة باستعمار أمريكا. واقترح الملك المنصور أن تقوم قوات إنجليزية ومغربية باستخدام سفن إنجليزية بالهجوم معًا على المستعمرات الإسبانية في أمريكا، وطرد الإسبان منها، وكانوا أعداء ألداء للمغاربة والإنجليز، ثم تملك الغزاة الجدد الأرض، إن مثل هذا الاقتراح يبدو غير عادي اليوم، لكنه كان مثيرًا للاهتمام في زمنه. وهو كما يوضح نبيل مطر مؤلف الكتاب، الذي يتناول علاقات الإنجليز مع المسلمين، يكشف عن التحالف الوثيق بين الإنجليز وكل من المغاربة والعثمانيين آنذاك، لدرجة أن بابا الفاتيكان اعتبر اليزابيث في اتحاد مع الأتراك. إن الإنجليز في تلك الفترة ربما كانت لهم تحفظاتهم على الإسلام، لكن هذه التحفظات لا تقارن بالكراهية والخوف من الفاتيكان. وقد جمع الخلاف مع الفاتيكان كلا من الإنجليز والأتراك والمغاربة على التعاون معا.

وقد أخذ التعاون الإسلامي الإنجليزي أشكالاً عديدة، وكذلك أدى إلى توقيع معاهدات تجارية وصداقات عميقة، بل إنه أدى إلى تنظيم الإنجليز والمغاربة حملات عسكرية مشتركة في عام ١٥٩٦، وساهم أيضا في حركة كبيرة بين السكان في العالمين الإسلامي والإنجليزي.. وكانت في لندن جالية مسلمة من الأتراك وكذلك سفراء معتمدون.

يقول المؤلف إنه إذا كانت هناك جالية مسلمة في لندن، فإن من المرجح على نطاق كبير أنه كانت هناك أيضا جالية إنجليزية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. ويؤكد أنه كانت هناك جالية في المغرب أكبر من الإنجليز الموجودين في أمريكا خلال ذلك الوقت.

وكان مطر قد ألف كتابا آخر بعنوان «الإسلام في بريطانيا ١٥٥٨ - ١٦٨٥»، وفيه يكشف عن الإنجليز الذين عاشوا في الشرق العربي، وتحول كثيرون منهم إلى الإسلام. وهناك إنجليز آخرون عادوا إلى بلادهم بحكايات وقصص عن الشرق الإسلامي وعن الرخاء الذي يعيش فيه الأتراك والمغاربة.

وينشر مطر في مؤلفه «الأتراك والمغاربة والإنجليز» صورًا رائعة، تظهر مدى تأثر الإنجليز بالثقافة العربية الإسلامية، ويؤكد أن الغرب والشرق التقيا في ذلك الزمن، وكان اللقاء رائعًا على عكس ما قال الشاعر الإنجليزي كيبلنج بعد ذلك من أن الشرق شرق، والغرب غرب ولن يلتقيا.

□□□

In The Firing Line: Politics, Faith, Power and Forgivness

(على خط النار: السياسات، الإيمان، السلطة والتسامح)

Brian Mawhinney

Harper Collins, 1999, 270pp., £16.99

■ مؤلف هذا الكتاب هو براين ماويني، أحد زعماء حزب المحافظين البريطاني، خلال فترة حكمه الطويلة لبريطانيا من ١٩٧٩ حتى ١٩٩٧، عندما مني الحزب بأكبر هزيمة في تاريخه، وتولى العمال السلطة على أثرها. وقد شغل ماويني عديدًا من المناصب الوزارية، وفي العامين الأخيرين للسلطة، تولى منصب الرئيس التنفيذي لحزب المحافظين، وهي فترة شُهد فيها الحزب وهو يترنح ويتحول إلى جماعات متصادمة ومنقسمة على الملأ، لينتهي الأمر بالهزيمة الساحقة. ورواية رجل مثل ماويني على الأحداث التي شهدها كان يمكن أن تكون مفيدة للغاية، سواء للقارئ أو للباحث، لكنه آثر أن يتناول الأمر من زاوية دينية في الغالب. فقد تحدث عن أن المسيحيين يرون في السياسة بحث عن المجد والسلطة، لكنه يقول في كتابه، إنها يجب أن تكون فعل الشيء الجيد. والمثير للاهتمام، أن ماويني في كتابه الضئيل الحجم، استغرق في الحديث عن هذه القضية لدرجة جعلته ينسى تناول قضايا سياسية مهمة، تعاملت معها حكومته وسببت خلافات شديدة وتدنيا لشعبية هذه الحكومة لدى الرأي العام البريطاني. بل إن ماويني نسي - وهو المهتم بالجانب الديني - تناول قضايا دينية متعلقة بدور الكنيسة، واجهتها حكومة المحافظين.

وللمفارقة، فإن ماويني الذي اختاره جون ميجور رئيس الوزراء البريطاني السابق رئيسا تنفيذيا لحزب المحافظين، لكي ينقذ الحزب من عثرته، كان من بين الشخصيات التي تحملت مسئولية كبيرة عن الهزيمة الساحقة للمحافظين عام ١٩٩٧.

□□□

After Britain: New Labour and The Return of Scotland

(ما بعد بريطانيا: حزب العمال الجديد وعودة اسكتلندا)

Tom Nairn

Granta Books,1999, 324pp., £15.99

■ مؤلف هذا الكتاب يتوقع منذ عام ١٩٧٧ تفكك بريطانيا، وقد أصدر في ذلك العام كتابا تحت عنوان «تفكك بريطانيا»، لكن ما حدث بعد ذلك جعله يقلع ولو مؤقتًا عن توقعه هذا. وهو يقصد بتفكك بريطانيا، خروج اسكتلندا بالتحديد واستقلالها عن التاج البريطاني. وقد صوّت ٤٠٪ من الاسكتلنديين فقط لصالح نقل السلطات إلى اسكتلندا في استفتاء جرى عام ١٩٧٩، وجاءت تاتشر إلى الحكم في نفس العام، لتتوقف كل محاولات نقل السلطات، وليعود الحديث عن وحدة بريطانيا، مما جعل توم نارين نفسه يتوقف عن الحديث عن هذه المسألة.

إلا أن الحديث تجدد مرة أخرى مع وصول العمال إلى الحكم في بريطانيا عام ١٩٩٧، وهم الذين كانوا قد تعهدوا بالعمل على نقل السلطات المحلية إلى اسكتلندا وويلز، وإقامة برلمان في اسكتلندا، وتم ذلك خلال العامين الماضيين في تغير تاريخي في علاقة اسكتلندا بالتاج البريطاني. وبعدما حدث ذلك، خرج عديد من الخبراء والكتاب والسياسيين بتوقعات جديدة، تؤكد أن المسألة مسألة وقت فقط لاستقلال اسكتلندا، بل إن جون ميجور رئيس الوزراء الأسبق حدد المدة بحوالي ١٠ سنوات فقط.

وكما يوضح المؤلف، فإن العلاقة بين اسكتلندا وبريطانيا فريدة من نوعها، فاسكتلندا لم تدخل التاج البريطاني قهرًا، بل دخلته طواعية في عام ١٧٠٧، ولذلك ظلت معظم المؤسسات الاسكتلندية كما هي، مثل نظم التعليم والقضاء وغيرها، وهناك جنيه اسكتلندي وبنك اسكتلندي. وخلال قرنين ونصف من الزمان، قبل الاسكتلنديون التاج البريطاني، واستفادوا منه كثيرًا، وخاصة عندما أصبحت بريطانيا إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس، ووجدت الطبقة الوسطى الاسكتلندية فرصة كبيرة في المجتمع البريطاني، فحققت طموحاتها في شتى المجالات. لكن مع نهاية الإمبراطورية وتضاؤل مكانة البلاد في أوروبا والعالم والنماذج الكثيرة التي ظهرت لدول متغيرة، استطاعت البروز على ساحة المجتمع الدولي، الذي أيقظ من جديد روح الاستقلال عند الاسكتلنديين.

ويرى مؤلف الكتاب أن بريطانيا نفسها في حاجة لأن تجدد نفسها، حتى يمكنها أن تبقى، فلا يمكن لدولة لا دستور مكتوب لها، أن تواجه - حسب رأيه - تغيرات عالم القرن الحادي والعشرين. وهو يرى أن الأغلبية البرلمانية الكاسحة التي يتمتع بها توني بلير رئيس الوزراء الحالي، يمكن أن تساعده على القيام بهذه الثورة الدستورية، التي تهدف إلى الحفاظ على بريطانيا في قرن جديد وألفية جديدة.

□□□

Root And Branch: African American in New York and East Jersy 1613 - 1863

(الجذر والفرع: الأمريكان الأفارقة في نيويورك وجيرسي الشرقية ١٦١٣ - ١٨٦٣)

Graham Russell Hodges

Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1999, 413pp., £14.50

■ تركز الدراسات والمناقشات حول العبودية في أمريكا الشمالية والأمريكان الأفارقة على الجنوب الأمريكي، خاصة في القرن التاسع عشر، لكن مؤلف هذا الكتاب لا يغير فقط وجهة المناقشات من الجنوب إلى نيويورك وجيرسي الشرقية، بل إنه يمد فترة الدراسة طويلا ليبدأ من مقتبل القرن السابع عشر.

ويدرس هودجيز ظروف الأمريكان الأفارقة في ظل الحكم الأمريكي بعد استقلال الولايات المتحدة. ويعطي معلومات جديدة عن مقاومة السود للاضطهاد الذي تعرضوا له خاصة في الفترة من ١٧١٢ حتى ١٧٤١.

ويتناول الكتاب أنواع التمييز الذي كان يمارس ضد السود، سواء كان ذلك في الريف أو الحضر وتركيبة المجتمع الأسود وخلفيته الدينية.

ويستعرض أيضا العلاقات بين فئات المجتمع الأسود نفسها، فهناك من كانوا يسمون بالأنجوليين، وهناك الأفارقة والسود وغيرهم، ولكل فئة صفات مميزة.

والكتاب في مجمله محاولة جيدة للبحث في جذور وفروع أقلية مهمة للغاية في المجتمع الأمريكي وخروج من دائرة البحث التقليدية التي كانت تركز على الجنوب فقط.

□□□

عــــــــــروض مـــــوجـــــزة

India's Nuclear Bomb: The Impact on Global Proliferation
(قنبلة الهند النووية وتأثيرها على الانتشار الكوني)
George Perdovich
Berkeley: University of California Press, 1999, 597pp., £24.50

يعتقد مؤلف الكتاب أن المشكلة فيما يتعلق بانتشار الأسلحة النووية، هي أن العالم يميل إلى التعامل معها، باعتبارها مشكلة تنتمي إلى علم الأوبئة وليس استراتيجية. فمصطلح الانتشار النووي الذي نستخدمه في هذا السياق هو عبارة عن عملية لإعادة الإنتاج من خلال الانقسام في الخلية. ويتضح هذا التصور من خلال تصريح وليام كوهين وزير الدفاع الأمريكي في ١٢ مايو ١٩٩٨، ردًا على مفاجأة إجراء الهند اختبارًا نوويًا، حيث أعرب عن قلقه من أن يسبب الإجراء الهندي سلسلة من رد الفعل، ولم تدخر باكستان جهدًا لتحقيق قلق كوهين على أرض الواقع، فأجرت اختبارًا نوويًا مع نهاية نفس الشهر.

إن من المفترض أن الدول تتحرك مدفوعة بحاجتها للحفاظ على أمنها، لكن هذا التحرك يؤدي إلى عدم أمن الآخرين. ولذلك فإن امتلاك سلاح نووي من جانب دولة ما، من شأنه أن يكون حافزًا فوريًا لدولة أخرى على الأقل لامتلاك هذا السلاح. وقد حدث مثل هذا السيناريو خلال الستين عامًا الماضية. فبسبب الخوف الأمريكي من امتلاك ألمانيا للسلاح النووي، فجرت أمريكا قنبلتها النووية، الأمر الذي تبعه تفجير الاتحاد السوفيتي لقنبلته، وبعد ذلك فجرت بريطانيا وفرنسا والصين قنابلها. ومن جانبها أدت القنبلة الصينية إلى محاولة الهند امتلاك السلاح النووي. ويستعرض الكتاب بشكل كامل تاريخ البرنامج النووي للهند، وهي قصة طويلة تعود إلى السنوات الأولى من الاستقلال، وعزم القادة الهنود على ضمان مكان لبلادهم بين قوى العالم الرئيسية. ووصلت المحاولات ذروتها عام ١٩٩٨، عندما غير اتال بيهاري فاجبائي رئيس الوزراء الأسلوب السري إلى علانية واضحة بشأن امتلاك السلاح النووي.

ورغم أن مناقشات واسعة دارت بين المفكرين والباحثين حول جدوى أو عدم جدوى امتلاك سلاح نووي، إلا أن الشخصيات السياسية الرئيسية في الهند لعبت الدور الرئيسي في تقرير مصير البرنامج النووي. وهو يتساءل: هل لعبت الديمقراطية الهندية دورًا في البت في مسألة امتلاك السلاح النووي؟ ويجيب أن عوامل كثيرة أثرت في هذا الموضوع، وتغلبت في النهاية وجهة النظر الداعمة لامتلاك السلاح النووي.

وينصح المؤلف الهند في نهاية كتابه، أن تثبت للدول النووية الأخرى التي عملت على معاقبتها لامتلاك الأسلحة النووية، بأنها كانت خاطئة، وذلك بأن تصبح قوة تستهدف سلامة العالم، وأن تبدأ بنفسها من خلال وقف التجارب النووية.

ويحتل الصراع مع باكستان حيزًا مهمًا في الكتاب، ويتناول الكتاب دور هذا الصراع في تحفيز البلدين على الإسراع بامتلاك السلاح النووي.

□□□

This is Berlin: A Narrative History 1938 - 1940
(هذه هي برلين: تاريخ قصصي ١٩٣٨ - ١٩٤٠)
William L. Shirer
Hutchinson, 1999, 450pp., £20.00

بانتقال النظام السياسي الألماني إلى برلين، عادت العاصمة الألمانية العتيدة إلى واجهة الأحداث في ألمانيا وأوروبا، وتجددت الذكريات عن تاريخها، والأحداث التي شهدتها.

ومؤلف الكتاب هو الأمريكي وليام شيرر، الذي توفي عام ١٩٩٣، له كتاب شهير صدر عام ١٩٦٠، بعنوان «صعود وسقوط الرايخ الثالث». وقد حقق الكتاب أعلى المبيعات لدى صدوره، وكان شيرر يعمل مراسلاً لشبكة «سي بي إس» الأمريكية في الثلاثينيات، وقد تمكن من إذاعة تقارير عن أهم الأحداث في تلك الفترة، وأهمها أزمة ميونيخ، وغزو ألمانيا للسودين، واندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩، ثم غزو واحتلال فرنسا.

ويتضمن كتاب «هذه هي برلين» الذي نشر بعد وفاة المؤلف، معلومات مثيرة عن برلين قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية بقليل منها أن فيلم «ذهب مع الريح» الشهير الذي ظهر في أكتوبر ١٩٣٩ حظي بشعبية كبيرة لدى الألمان، أو تأكيد مسئولين ألمان أنهم تحركهم دوافع إنسانية بحتة في أعمالهم. ورغم أن تقارير شيرر التليفزيونية كانت في معظمها عرضًا لما كانت تقوله الصحف الألمانية آنذاك، كما أنها كانت تخضع لرقابة مشددة، إلا أنها كانت تحظى باهتمام كبير للغاية من المشاهد العادي، كما أنها في وقت لاحق أصبحت موضع اهتمام الدارسين لمعرفة كيف كانت الحياة في ألمانيا خلال تلك الفترة.

والمفاجأة أن الكتاب لا يعطي اهتمامًا كبيرًا لمسألة اليهود، فلا ذكر لما حدث آنذاك، فهل لأن الرقابة كانت تمنعه من أن يكتب عن ذلك في تقاريره، التي يعيد الكتاب نشرها، أم لأن الدعاية اليهودية بعد ذلك ضخَّمت ما حدث من مآسي لليهود.

ويقدم الكتاب لمحات جيدة لأحداث وقضايا كانت مثار اهتمام كبير آنذاك، وكان شيرر يقدمها في تقارير مطولة، يزيد مدة الواحد منها على ٥ دقائق، مما يعكس أنه كان هناك اهتمام من المشاهدين بمشاهدتها آنذاك، بينما الآن لا يزيد طول التقرير الإخباري التليفزيوني على دقيقتين أو ثلاث على الأكثر في المتوسط.

□□□

Khomeini: Life of The Ayatollah
(خوميني: حياة آية الله)
Baqer Moin
Tauris, 1999, 356pp., £24.95

بعد أكثر من عشرين عامًا على الثورة الإسلامية في إيران، وبعد أكثر من ١٠ سنوات على وفاته، مازال آية الله الخوميني الغائب الحاضر في إيران، ومازال النظام الإيراني يستمد شرعيته منه. والخوميني حسب ما يراه الكثير من المفكرين والسياسيين، واحد من قلة من زعماء القرن العشرين، الذين يمكن أن يدعوا أنهم يمتلكون شخصية كاريزمية ملهمة. لقد كان القوة الدافعة وراء تدمير نظام قديم وإقامة آخر جديد على أنقاضه. وزعيم بمثل هذا القدر من الأهمية، من الصعب كتابة سيرة حياته، لكن مؤلف الكتاب «باقر موين»، قدم من خلال كتابه محاولة صلبة وجادة في هذا الإطار.

ويعد الفصل الخاص بتعليم الخوميني، من أمتع فصول الكتاب وأكثرها فائدة. ويتناول المؤلف بالتفصيل تقاليد الدراسة التقليدية في إيران واهتمام الخوميني الشاب بالفلسفة الإسلامية، ويشير إلى أن الخوميني كان يعكس خلفيته الإيرانية على ما درسه من فلسفة وفكر وفقه إسلامي، وكان ذلك مثار خلاف مع زملاء له.

ويخوض الكتاب في العلاقة بين نظام الشاه، وبين العلماء في إيران، ووصف شاه إيران محمد بهلوي لهؤلاء العلماء، بأنهم رجعيون يمثلون أسوأ ما في المجتمع الإيراني من تخلف وبدائية.

كما يتحدث عن الظروف التي جعلت الخوميني يتقدم الصفوف، ويقود الثورة ضد الشاه، وكذلك تعامله مع العالم الخارجي، ويشير إلى الرسالة الشهيرة التي أرسلها عام ١٩٨٩ إلى زعيم الاتحاد السوفيتي سابقًا ميخائيل جورباتشوف، وطلب منه فيها أن يقلع عن الشيوعية، وأن يتجنب الوقوع في براثن الرأسمالية المادية، وأن يتحول بدلاً من ذلك إلى الإسلام.

□□□

Milosevic: Portrait of A Tyrant
(ميلوسيفيتش: صورة طاغية)
Dusko Doder and Louise Brnson
Free Press, 2000, £17.99

بعد شهور من حملة حلف شمال الأطلنطي «الناتو» على يوجوسلافيا، مازال الرئيس اليوجوسلافي سلوبودان ميلوسيفيتش، يقبض بيد من حديد على مقاليد السلطة، بل إن المعارضة التي وجدت في ضربات الناتو فرصة للإطاحة به، أصبحت أضعف مما كانت، ولم تعد تمثل - على المدى القصير على الأقل - تهديدًا فعليًا له.

ورغم أن ميلوسيفيتش قليل الظهور، نادر الحديث إلى وسائل الإعلام، لا يكشف عن علاقاته أو روابطه مع المتشددين ومجرمي الحرب، إلا أنه يسيطر ويؤثر على كل ركن من أركان ما بقي من يوجوسلافيا.

وهذا الكتاب يشرح سر بقاء ميلوسيفيتش بإظهار عوامل قوته، فهو دعائي ماهر وكاذب، لا يمكن أن تكتشف كذبه بسهولة، ثم إنه مناور حاذق. وقد تعلم في بداية حياته العملية من خلال دراسته في كلية الحقوق وتدرجه في وظائف بالحزب الشيوعي، كيف يلعب دور الليبرالي والماركسي في آن، وأن يكون صديقًا للذين في قمة السلطة أو الذين من المتوقع أن يصلوا إليها. وتعلم أيضا أن يخفي نواياه الحقيقية، وأن يقطع اتصالاته مع زملائه عندما يتجاوزهم في السلطة، وقد عاملهم بوحشية، وكان الضحية الأكبر لأفعاله زميله رئيس الوزراء اليوجوسلافي إيفان بوليتش.

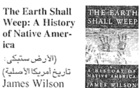
ويتحدث مؤلف الكتاب مع أولئك الذين عرفوا ميلوسيفيتش ووقعوا ضحايا له، ويتضح من المقابلات أن ميلوسيفيتش لم تتطابق أهدافه مع أهداف الوطنيين المتشددين الصرب الراغبين في قيام صربيا الكبرى، إلا بعد أن فشل في السير على هدى زعيم يوجوسلافيا الراحل جوزيف بروز تيتو. ولذلك فإنه انحاز إلى هؤلاء المتشددين لحماية نظام حكمه، ومن هنا، بدأت الحملات الصربية ضد المسلمين والكروات وغيرهم.

ولا يخفي المؤلفان على الإطلاق، مدى احتقارهما لميلوسيفيتش، ويقولان: إن أي دراسة لسلوك ميلوسيفيتش تؤكد أن الرجل لا يعرف سوى الخدم والأعداء، وليس هناك شركاء له في الحكم. ويعطي الكتاب تفاصيل عن علاقة ميلوسيفيتش بزوجته ميرا منذ أن كانا شابين جمعهما الطموح والشيوعية، وهما محبان لبعضهما البعض، ويعتمد كل منهما بشكل عميق على الآخر.

ويتطرق الكتاب أيضا إلى النفسية الصربية، ولماذا تلقى فكرة صربيا الكبرى دعمًا بين الصربيين. ويخلص المؤلفان إلى أن ميلوسيفيتش سيبقى في السلطة لبعض الوقت، لأن الزمام لم يفلت منه ولو بنسبة ضئيلة.

□□□





The Earth Shall Weep: A History of Native America

(الأرض ستبكى: تاريخ أمريكا الأصلية)

James Wilson

Picador, 1999, 466pp., £10.00

■ بينماطرأت على حياة الأمريكيين والأوروبيين خلال السنوات العشر الأخيرة تغيرات شديدة أثرت على نمط الحياة بشكل كبير والذى تحول إلى استهلاكى فى معظمه بصورة غير مسبوقة، فإن حياة السكان الأصليين، خاصة فى الولايات المتحدة ظلت قليلة التغير، بل وغير معروفة على نطاق كبير لدى الأمريكيين أو الأوروبيين.

وخلال السنوات الثلاثين الماضية، نشط بعض الهنود الحمر (السكان الأصليون فى الولايات المتحدة)، فى جمعيات للحقوق المدنية، بهدف الحصول على حق تقرير المصير وتغير العلاقة بين قبائل الهنود وبقية المجتمع الأمريكى.

ومؤلف الكتاب، وهو أحد البارزين فى الحملة الدولية لصالح منح السكان الأصليين فى مناطق العالم المختلفة حقوقهم، وضع لنفسه خطة طموحة هى سرد تاريخ سكان أمريكا الشمالية الأصليين عبر ٥٠٠ عام مضت. ويستعين جيمس ويلسون فى كتابه بمعلومات ووثائق تاريخية وأثرية وأنثربولوچية، مع معرفة عميقة بالتقاليد الشفهية الخاصة بالهنود الحمر. وقد أجرى مقابلات مع بعض السكان تتناول فيها حياتهم ومدى التغير الذى حدث لهم مع اصطدامهم بالحضارة الغربية.

ويعود بنا المؤلف للتاريخ، وكيف التقى السكان الأصليون مع الغزاة البيض، وتعامل هؤلاء الغزاة معهم من خلال العمل على القضاء عليهم، أو جعلهم يعيشون فى مناطق معزولة لا قيمة لهم بعد أن كانوا أصحاب الأرض.

ويمثل الكتاب محاولة للدفاع عن السكان الأصليين وصرخة تطالب بإعطائهم الحق فى حياة كريمة حرة واحترام تقاليدهم وعاداتهم.

□□□

Regulating International Business: Beyond Liberalization

(تنظيم البيزنس الدولى: ما وراء التحرر الاقتصادى)

Solpic ciotto
And Ruth Mayen (Editors)

Macmillan / Oxfam, 1999, 277pp., £50.00

■ بعد كثير من الجدل، تخلت منظمة التنمية والتعاون الاقتصادى (OCED) نهائيا عن اقتراحاتها بشأن اتفاقية دولية متعددة الأطراف حول الاستثمار. وكانت الاقتراحات لهذه الاتفاقيات تمثل محاولة من جانب دول العالم المتقدم التى تمثلها المنظمة التحرير والتخلص من العوائق أمام ممارسات الاستثمار فى عالم يرحب بالأسواق المفتوحة، دليلاً على مدى التأثير الذى تلعبه منظمات اقتصادية غير حكومية كانت تعارض الاقتراحات وكذلك دليلاً على الصعوبات التى تحيط بتنظيم الاقتصاد العالمى.

وهذا الكتاب الذى شارك فيه خبراء عديدون يتضمن هجومًا شديدًا على فكرة أن من الضرورى كبح قدرة الحكومات الوطنية على السيطرة على الاستثمارات الأجنبية فى أراضيها.

كما يتضمن الكتاب حلولاً مبتكرة لبعض المشكلات المتولدة عن العولمة، ومن أهمها كيفية استقرار التدفقات الرأسمالية إلى الدول النامية. كما أن هناك دراسات حول طرق تحسين استغلال الاستثمارات فى العالم.

لكن الكتاب لا يتناول تقريبًا سبل مواجهة مشكلات الفقر المتولدة عن فتح الأسواق أو التمايز الاجتماعى بين الطبقات حتى فى الغرب. ورغم أن المؤلفين يشكلون فى مجملهم جبهة تدعو لقيام هيئة دولية لتنظيم أوسع للاستثمارات، إلا أن هناك فى الوقت نفسه عدم اهتمام بالخسارة التى ستعانيها الدولة فى سيادتها من جراء تدفق الاستثمارات الأجنبية دون رقيب.

□□□

Loyailists

(الموالون فى أيرلندا الشمالية)

Peter Taylor

Bloomsbury, 1999, £7.99

■ فى وقت تواجه عملية السلام فى أيرلندا الشمالية أزمة عنيفة قد تقوض ما تم تحقيقه خلال الأعوام القليلة الماضية، يقدم بيتر تايلور الصحفى البريطانى مؤلفه الجديد عن الموالين للحكم البريطانى فى أيرلندا الشمالية، وهم البروتستانت الذين يشكلون الغالبية فى الإقليم ويريدون البقاء ضمن المملكة المتحدة، ولذلك يطلق عليهم أيضا الاتحاديون. لكن كلمة «الموالين» يقصد بها المؤلف جماعات العنف التى شكلها الاتحاديون لمواجهة الجماعة المسلحة على الجانب الآخر، أى الكاثوليك «الأقلية»، الذين يريدون الاندماج مع أيرلندا فى جمهورية واحدة.

وقد وضع تايلور قبل عدة سنوات مؤلفًا عن الجيش الجمهورى الأيرلندى، والذى يعرف بالمؤقت، والذى يناضل من أجل وحدة شطرى أيرلندا. ويؤكد المؤلف أن أسماء الجماعات المسلحة تختلف، لكن النظرة القبلية واحدة، والهدف واحد هو إجبار الطرف الآخر بالقوة على القبول بسيطرة خصمه.

وكان تايلور وهو صحفى تليفزيونى، قد أذاع حلقات عديدة فى تليفزيون هيئة الإذاعة البريطانية عن الجيش الجمهورى الأيرلندى جذبت اهتمامًا واسع النطاق قبل أن يحولها إلى كتاب.

□□□

كتاب الزاوية

حديث عيسى بن هشام

محمد المويلحى

(٦)

العمدة فى الأهرام

قال عيسى بن هشام: ولما وقفت بنا الركاب فى ساحة الأهرام، وقفنا هناك موقف الإجلال والإعظام، قبالة ذلك العلم الذى يطاول الروابى والأعلام، والهضبة التى تعلو الهضاب والآكام، والبنية التى تشرف على رضوى وشمام، وتبلى ببقائها جدة الليالى والأيام، وتطوى تحت ظلالها أقواما بعد أقوام، وتفنى بدوامها أعمار السنين والأعوام، خلقت ثياب الدهر وهى لاتزال فى ثوبها القشيب وشابت القرون وأخطأ قرنها وخط المشيب، مابرحت ثابتة تناطح مواقع النجوم، وتسخر بثواقب الشهب والرجوم، وتحدث حديث المشاهدة والعيان، ماتعاقب الفتيان وتناوب الملوان، عن قدرة هذا الإنسان، فى بدائع الصنع والإتقان، وتنبئ عن قوة هذا الضعيف الضئيل، فى إقامة هذا الأثر الجليل، وكيف جاز لهذا الفانى البائد، أن يصدر عنه مثل هذا الباقى الخالد، وجل صنع القدير الخالق فى تصوير هذا الحيوان الناطق، حيث جعله مصدرا للأعمال المتناقضة، والأفعال المتغايرة المتعارضة، فبينما تراه يصعد إلى أجرام السماء وعوالمها، ويبحث بفكره فى رسومها ومعالمها، ويسير أقمارها وكواكبها، إذ نراه يعثر عثرة برجله، فيكون فيها منتهى أجله، أو يكبو فى طريقه، فيغص بريقه، ويهوى بإذن الله إلى مكامن الخلد، وهو طامع فى شجرة الخلد، فهو ذاك الذى كبر وصغر، وعظم وحقر، وعز وذل، وكثر وقل، وصعد وهبط، وعلا وسقط، وصلح وفسد، وعرف وجحد، وسعد وشقى، وفنى وبقى، وسبحان القاهر فوق عباده.

ومما يحضرنى الآن من كلام بعض المؤرخين فى شأنه: أن الملك الذى شيده أمر أن يكتب على جدرانه عقب الفراغ منه هذه العبارة عن لسانه على جهة التحدى: «إنى ابتنيت هذا البناء فى ثلاثين عاما، فإن جاء بعدى من الملوك من يدعى القوة والقدرة فليهدمه فى ثلاثمائة عام»!

قـــــــراءات جــــــــديـدة

اجتمــــاع

سوسيولوجيا المشكلات الاجتماعية وأزمة علم الاجتماع المعاصر
شادية على قناوى
القاهرة: دار قباء، ١٩٩٩

تتحدث الدراسة عن نشأة علم الاجتماع عند الغرب، وترجع المؤلفة سببه للحياة العصيبة التى عاشها الأوروبيون، وتضيف الكاتبة شرحا للمزاوجة التى عقدها وايرك فروم بين الفرويدية والماركسية.

■■■

رعب اسمه الاغتصاب
عزت السعدنى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

دراسة جادة وتحقيقات ميدانية من واقع حوادث حقيقية عن واحدة من أهم الظواهر التى أرّقت المجتمع المصرى فى الفترة الأخيرة، والتى تتداخل فى صنعها عوامل عدة، لتفضى فى النهاية إلى هذا الرعب الذى اسمه الاغتصاب.

■■■

Fast Food: Roadside Restaurants in the Automobile Age
(الأطعمة السريعة: مطاعم الطرق السريعة فى عصر السيارات)
John A. Jakle and Keith A. Sculle
Johns Hopkins University Press, 1999, 394pp.

يستعرض المؤلفان تاريخ ظهور مطاعم الأطعمة السريعة التى تقام على جانبى الطرق السريعة لخدمة قائدى السيارات. فيبينان كيف أن هذه المطاعم عكست التوتر السائد بسبب التنوع العرقى فى المجتمع الأمريكى، ثم كيف أدت بعد ذلك إلى تجانس وانسجام الذوق القومى الموحد، كذلك تجسد تلك المطاعم قيم المجتمع الأمريكى التنافسى الذى يقدس الوقت وتنتشر فيه ملكية السيارات أكثر من أى مجتمع آخر.

■■■

The Imaginary Time Bomb: Why an Ageing Population is not a Social Problem
(القنبلة الزمنية الوهمية: لماذا لا يعد ازدياد نسبة كبار السن من السكان مشكلة اجتماعية)
Phil Mullan
IB Tauris, 1999, 239pp., £24.50

يثبت المؤلف فى كتابه، أن الرعب والتشاؤم المسيطر على البعض فى أوروبا والولايات المتحدة بسبب زيادة نسبة السكان كبار السن ليس له أساس .فما ينبغى أن يثير الانتباه دائما هو نسبة الإعالة وإنتاجية الفرد،وليست الأعداد المطلقة. فمن الممكن أن تكون تكلفة من هم أقل من سن ١٦ عاما أكبر بالنسبة للدولة ممن هم فوق سن ٦٥ عامًا.

■■■

Shopping For Pleasure: Women in the Making of London's West End
(التسوق من أجل المتعة: النساء ونشأة الأحياء التجارية فى لندن)
Erika Diane Rappaport
Princeton, 1999, 323pp.

تربط المؤلفة ظاهرة نمو المحال التجارية الكبيرة فى الربع الأخير من القرن الماضى فى لندن، ببداية حصول المرأة على استقلالها وحريتها. حيث أصبح للمرأة أخيرًا مكان تستطيع فيه أن تتواجد بمفردها.

إدارة

الإدارة المعاصرة
عبد الحكم أحمد الخزامى
القاهرة: مكتبة ابن سينا، ١٩٩٩

تقدم هذه المجموعة، والتى سبق أن صدر منها خمسة كتب، خطابا يساعد فى مواكبة تطور العصر، فتتحدث عن عالم الإدارة اليوم فى جميع جوانبها، حيث تقيم الأداء وسبل تحسينه، وأحدث الوسائل المستخدمة فى الإدارة.

■■■

Alliance Competence: Maximizing the Value of Your Partnerships
(كفاءة التحالف: تعظيم قيمة مشاركاتك)
Robert E. Spekman, Thomas C. Mac Avoy
Wiley, John & Sons, 1999, 256pp., $29.95

يقوم الكتاب على نتائج أبحاث وخبرات أساتذة معهد «داردن» المتخصصين فى مجال التحالفات الاستراتيجية فى إدارة الأعمال. ويوضح الكتاب أن النجاح فى الاستثمار العالمى سوف يرتبط بالقدرة على إنشاء التحالفات والاتحادات الناجحة. ويتخذ المؤلفون من تجارب تحالفات فولفو - رينو، وآى بى إم - مايكروسوفت، وشل - إيطاليا نماذج للدراسة والتحليل.

أدب رحـــلات

مزايا الذات الأخرى
صبرى حافظ
القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٩

يعتبر الكتاب من فن أدب الرحلات، حيث يتناول رحلة الكاتب إلى جنوب أفريقيا، ليس فقط للمكان بل أيضا إلى الذات الأفريقية، التى حصلت مؤخرا على استقلالها على يد مانديلا، حيث يشبه الصراع هناك بصراع فلسطين مع الصهاينة، وكيف يزور البعض التاريخ الأفريقى كما يفعل الصهاينة مع تاريخ فلسطين.

اقتصــــاد

Financing the American Dream: A Cultural History of Consumer Credit
(تمويل الحلم الأمريكى: التاريخ الثقافى للائتمان الاستهلاكى)
Lendol Calder
Princeton University Press, 1999, 377pp.

يؤكد المؤلف أن شعار «اشترى الآن وادفع فيما بعد» كان وراء النجاح الكبير الذى شهده الاقتصاد الأمريكى. حيث إن نظم التقسيط هى سر حياة واتساع الطبقة المتوسطة فى الولايات المتحدة، والمحرك الاقتصادى نحو تحقيق مستوى معيشى أفضل. كما أنها تدفع إلى زيادة الحاجة إلى العمل، وبالتالى زيادة إنتاجية الفرد فى المجتمع.

■■■

Frankfurt as a Financial Centre: From Medeival Trade Fair to European Banking Centre
(فرانكفورت: من مهرجان التجارة فى القرون الوسطى إلى المركز المصرفى لأوروبا)
Carl - Ludwig Holtfrerich
Translated by J.A. Underwood
Munich: Beck, 367pp., DM 68

يتتبع المؤلف التطور التاريخى لوضع مدينة فرانكفورت كمركز مالى دولى. فيتحدث عن دور عائلة روتشايلد منذ قرنين، ثم دور سلطات الاحتلال الأمريكية فى الأربعينيات من هذا القرن فى تثبيت ذلك الوضع.

ويخلص إلى أنه مازال أمام فرانكفورت، طريق طويل تسلكه قبل أن تلحق بمدينة لندن التى تسبقها فى مسائل عديدة. ومع ذلك فهى تنافسها على أن تكون المركز المالى الدولى الرئيسى فى أوروبا.

■■■

The Trade off Myth: Fact and Fiction About Jobs and The Environment
(خرافة المبادلة: الحقيقى والمختلق عن الوظائف والبيئة)
Dban S. Goodstein
Island Press, 1999, 195pp.

تؤكد المؤلفة عدم صحة الادعاء بأن تطبيق قواعد وإجراءات حماية البيئة سوف يؤدى إلى فقدان العديد من الوظائف فى الاقتصاديات المحلية.

تاريـــــخ

المغالطات والافتراءات الصهيونية.. على تاريخ وحضارة مصر الفرعونية
عبد المنعم عبد الحليم
القاهرة: دار غريب، ١٩٩٩

يتناول الكتاب الفضائح التاريخية والأخطاء التى بدأت إسرائيل فى ترويجها فى الفترة الأخيرة، وآراءهم فى حضارتنا القديمة، ومحاولة نسب هذه الحضارة لهم ولأجدادهم.

■■■

تاريخ اليهود
أحمد عثمان
القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩

يبحث الكاتب فى ثلاثة أجزاء عن تاريخ اليهود، من خلال كتبهم المقدسة، وما ورد عنهم فى الحضارات الأخرى. ويحلل هذا التاريخ ودوره فى الماضى والحاضر.

■■■

خان الخليلى
سيلفى دونوا وجان شارل ديبول وميشيل تونسيرير
القاهرة: المعهد العلمى الفرنسى للآثار، ١٩٩٩

تتناول الدراسة التى تقع فى مجلدين تاريخ خان الخليلى، مع استعراض لبعض الوثائق المهمة له، والتى توضح أهمية كل موقع به، وأهم السلع التى كانت تباع فيه، وما كان يمثله هذا الخان فى العصر العثمانى وتوضيح لمكانته التاريخية.

■■■

راية التمرد.. مساوئ بلانت
ترجمة: أحمد حسان
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩

دراسة لأهم حركات التحرر والثورات الشعبية فى هذا القرن، ورؤية شاملة لجميع النواحى الثقافية التى ربطت الناس بالمجتمع وأطلعتهم على ذواتهم وحياتهم العقلية والخاصة.

■■■

مصر القديمة: دراسات فى التاريخ والآثار
مختار السويفى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩

تتناول هذه الدراسة عرضا لتاريخ الآثار المصرية، وترسى القواعد الخاصة لدارسى هذا العلم، وهى محاولة من الكاتب لتطوير المناهج بتاريخ الآثار المصرية.

■■■

Al - Alamein Revisited: The Battle of Al - Alamein and its Historical Implications
(معركة العلمين ومضامينها التاريخية)
Edited by Jill Edwards
American University in Cairo Press, 2000, 72pp., L.E. 35

يشتمل على الدراسات التى قدمها مؤرخون وأساتذة من إيطاليا وبريطانيا وألمانيا فى المؤتمر الذى عقد فى الجامعة الأمريكية عام ١٩٩٨، حول الرؤى التاريخية المتعددة فى حملات شمال أفريقيا أثناء الحرب العالمية الثانية.

■■■

In The House of Muhammed Ali: A Family Album, 1805 - 1952
(فى بيت محمد على: ألبوم العائلة، ١٨٠٥-١٩٥٢)
Hassan Hassan
Introduction By Elizabeth and Robert Fernea
The American University in Cairo Press, 2000, 160pp., L.E. 75.00

المذكرات الشخصية لأحد أفراد عائلة محمد على، حفيد الخديو إسماعيل الذى ولد عام ١٩٢٤، ويعيش إلى الآن فى القاهرة.

قـــــــراءات جـــــــديـدة

الكتاب يشتمل على وصف للمنازل والحدائق والمتنزهات والقصور ومعالم من القاهرة اختفت الآن، وأحاديث عن عادات طبقة اجتماعية اندثرت. كما يحتوى الكتاب على رسومات وصور فوتوغرافية، معظمها لم ينشر من قبل، لمختلف أفراد العائلة المالكة من خالات وأبناء عم وزوجات.

تراجم وسير

هيكل.. أو الملف السرى للذاكرة العربية
رياض الصيداوى
القاهرة: مكتبة مدبولى، ١٩٩٩
يتناول الكتاب رحلة هيكل الصحافية والسياسية، حيث شارك هيكل فى صنع القرار مع عبد الناصر والسنوات الأولى للسادات، وبنى صرح الأهرام العملاق، وبعد ذلك تفرغه للكتابة والبحث فى التاريخ السياسى للوطن العربى.

■■■

سالف الأوان
منصور الحازمى
الرياض: مؤسسة اليمامة، ١٩٩٩
يضم الكتاب عدة مقالات حول شخصيات حديثة، ساهمت فى تعديل مسار التاريخ العربى سياسيا وثقافيا وفكريا.

■■■

عازب من الشرق
مصطفى كمال أحمد
أبو ظبى: المجتمع الثقافى، ١٩٩٩
يتناول الكتاب الحياة العاطفية للكاتب فى جزء منه، حيث يعتبر الكاتب الحب نعمة الحياة، وينفى أن من حرم من نعمة الزواج فهو محروم من الحب، والجزء الآخر يتحدث فيه عن الأنثى بكل ما فيها من مشاعر وأحاسيس، مع عرض لأشهر العزاب فى تاريخ مصر.

■■■

أضواء بوهيمية
بايى أنكلان
ترجمة: ثريا سعد الدين
القاهرة: على نفقة المؤلفة، ١٩٩٩
تعتبر مسرحية أضواء بوهيمية من المسرح الإسبانى المعاصر، وتحكى حياة الإحباط والهزيمة التى عاشها الشاعر الإسبانى الراحل «ماكس استريا»، وتقدم دراسة عن الحياة السياسية والثقافية التى عاشها.

■■■

Chopin in Paris: The Life and Times of The Romantic Composer
(شوبان فى باريس: زمن وحياة المؤلف الموسيقى الرومانسى)
Tad Szulc
Da Capo, 2000, 448pp.
يبرز الكتاب التناقضات فى حياة وشخصية المؤلف الموسيقى شوبان. فقد كان بولنديا، شديد الوطنية، ومع ذلك ترك بلاده نهائيا عند بلوغه الحادية والعشرين. وبالرغم من ضعفه البدنى والنفسى الذى اشتهر به، إلا أنه عرف بقصة حب دامت سبع سنوات مع الروائية الشهيرة جورج صاند.

ويركز المؤلف على السنوات الثمانى عشرة التى قضاها شوبان فى الدوائر الباريسية، والتى جمعته بمشاهير الأدب والفن فى ذلك العصر، مثل بلزاك وفكتور هوجو وديلاكروا.

رواية

اللعب بالديناميت
فؤاد حسين وعصام الصاوى
القاهرة: دار أخبار اليوم، ١٩٩٩
مجموعة من قصص المخابرات، التى تتارجح بين البطولة والخيانة، بين العمل مع الوطن وضده.

■■■

بيوت وراء الأشجار
محمد البساطى
باريس: دار إكت سود
ليست هذه باكورة أعمال الكاتب التى تنشر بالفرنسية، بل ترجمت له عدة روايات نشرت بعدة لغات منها الإنجليزية والإيطالية، حيث تتناول الرواية أحد عوالم البساطى التى يخترقها ويقدمها مع كل عمل جديد.

■■■

طيور العنبر
إبراهيم عبد المجيد
القاهرة: دار الهلال، ١٩٩٩
تحلق طيور إبراهيم عبد المجيد فى سماء الإسكندرية بعد حرب السويس، وتحمل الطيور أحلام الناس البسيطة بالحرية والدفء والجمال، ولا تدرى شيئا عما تحمله رياح التغيير لهذه المدينة وأحلامها.

■■■

غير المألوف
قاسم مسعد عليوة
القاهرة: دار المستقبل، ١٩٩٩
مجموعة قصصية تتداخل فيها خطوط الواقع وتتشابك مع الأحلام، لرسم المستقبل. ويشارك الخيال والواقع معا فى رسم هذه الصورة.

■■■

Brief Interviews With Hideous Men
(مقابلات قصيرة مع رجال أشرار)
David Foster Miller
Abacus, 1999, 320pp.
المجموعة القصصية الأخيرة للروائى الذى يمثل جيلا من الأمريكيين ولدوا فى الستينيات. يتميز أسلوبه بالألعاب اللفظية المعقدة المستمدة من مفاهيم وأفكار ما بعد الحداثة. وفى هذا العمل، يرسم ميللر اسكتشات لشخصيات متعددة بغرض تحليل السلوك الإنسانى والدوافع الحقيرة التى تحركها.

رياضة

الرياضة فى حياتنا
صلاح الدين العباسى
القاهرة: دار غريب، ١٩٩٩
يتناول الكتاب الدور الذى تلعبه الرياضة فى حياتنا، من حيث نشر الصحة والنظام. وكذلك نشر عادات غذائية سليمة تقينا من الأمراض والشيخوخة المبكرة.

■■■

Winning Women in Soccer
(نساء فائزات فى كرة القدم)
Marlene Targ Brill
Barron's Educational Series, 1999, 90pp.
كتاب موجه للفتيات الصغيرات، يشجعهن على ممارسة الرياضة كوسيلة للمتعة، وأيضا لتنمية القدرة على الإنجاز والاعتياد على تحقيق النجاح الذى ينعكس فى أوجه الحياة الأخرى. وذلك من خلال تناول تاريخ كرة القدم النسائية وقواعدها، وتسليط الضوء على قصص بطولة ٤ من نجمات اللعبة حاليا فى الولايات المتحدة.

سياسة

أساسيات أسلحة الدمار الشامل
نشمى الرويلى
الكويت: على نفقة المؤلف، ١٩٩٩
يتحدث الكاتب عن أخطر الأسلحة التى تواجه الجنس البشرى، وهى الأسلحة النووية، حيث يتناول اكتشافها وتركيبها وآثارها المدمرة.

■■■

العولمة
ناهد طلاس العجة
دمشق: دار طلاس، ١٩٩٩
تحاول الكاتبة الوصول إلى الجذور التاريخية لموضوع العولمة، وتسعى للربط بينها وبين التغيير الثقافى الحاصل، والتغيير الصناعى والعلمى على الصعيد العالمى والمحلى.

■■■

الفجر الكاذب
جون جراى
القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩
يتناول الكتاب كابوس تطبيق الرأسمالية الأمريكية على العالم بأسره، حيث المخاطر الرهيبة التى تنجم عن هذا النظام، والتى لا تقل خطرا عن النظام الشيوعى الروسى.

■■■

المواطنية فى لبنان بين الرجل والمرأة
نجلاء حمادة وآخرون
بيروت: دار الجديد، ٢٠٠٠
دراسة تتعرض لقضايا المرأة اللبنانية داخل مجتمعاتها، والمواقف المتباينة والحقوق المتفاوتة بينها وبين الرجل.

■■■

تحولات الهوية.. والعلاقات العربية التركية
صلاح سالم
القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٩٩
يتناول الكتاب الصراع الحضارى والثقافى القائم فى تركيا، بين المجموعات الأتاتوركية والمجموعات الإسلامية، وتأثير هذا الصراع على الحضارة التركية، وكذلك علاقاتها بالدول العربية وإسرائيل.

■■■

Taliban: Islam, Oil and The New Great Game in Central Asia
(طالبان: الإسلام والبترول واللعبة الكبيرة الجديدة فى وسط آسيا)
Ahmed Rashid
IB Tauris, 274pp., £12.95
يرى أحمد رشيد الذى قام بتغطية الأحداث الأفغانية وأحداث وسط آسيا لمدة عشرين عاما، أن أفغانستان قد دمرت تماما بسبب الحروب والتعصب وتجارة المخدرات، وتنافس القوى الدولية.

وهو يعتقد أن السلام لابد من فرضه من الخارج، وبالتحديد من الولايات المتحدة التى طالما ساندت حركة الطالبان وجندت المجاهدين من قبل لأسباب عديدة يفصلها فى الكتاب.

والسلام كما يقول سوف يخدم الجميع فتتمكن كل من باكستان وإيران من استعادة قوتهما الاقتصادية والتجارية. كما سيفرض على روسيا أن تتبنى علاقات متعقلة مع جيرانها. ويمكن للولايات المتحدة الحصول على بترول قزوين فى بيئة أكثر استقرارا.

شعر

الحب وحده لا يكفى
أحمد فريد
القاهرة: دار قباء، ١٩٩٩
يؤكد الشاعر فى الديوان أن الحب عطاء، منحة للمحبين للحفاظ على السعادة ونقاء المشاعر بين المتحابين، وقصائد أخرى تتحدث عن المشاعر الحالمة والواقع الجميل.

■■■

إلا حبيبى
هدى ميقاتى
القاهرة: دار قباء، ١٩٩٩
تخاطب الشاعرة فى ديوانها الثالث المشاعر، وتناقش القضايا العاطفية عند المرأة برومانسية واضحة.

■■■

القصيدة أنثى والأنثى قصيدة
سعاد الصباح
الكويت: دار سعاد الصباح، ١٩٩٩
ديوان شعرى جديد للشاعرة، يداعب العواطف الرقيقة والإحساس الناعم الصادق.

■■■

جناحان إلى الجوزاء
أحمد سويلم
القاهرة: دار قباء، ١٩٩٩

يبحر الديوان في الخيال، رافعا شعار الحلم والشعور الجميل والإحساس المتناغم بين الحلم والواقع.

■■■

شجر الكلام
محمد إبراهيم أبو سنة
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠

ديوان جديد لواحد من أهم شعراء الستينيات، ممن لعبوا دورًا بارزًا في الشعر العربي المعاصر. يضم الديوان نحو ١٥ قصيدة أكثرها من النوع العاطفي، وإن تداخل فيها جميعًا الذاتي بالعام.

■■■

في كفي عصفورة زرقاء
ثريا البقصمي
الكويت: دار سعاد الصباح، ١٩٩٩

تخاطب الشاعرة في ديوانها الجديد، مشاعر الغربة والسفر والمطارات، وبرودة مشاعر البعد والحنين للأوطان.

■■■

كرحم غابة
خالد أبو بكر
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩

الديوان الأول للشاعر، يفيض بالمشاعر الإنسانية، ويختلط فيه الهم الذاتي بالهم العام وقضايا الذات بالقضايا الإنسانية.

■■■

لا تدعني أرتحل
حنان عبد القادر
القاهرة: المؤلفة نفسها، ١٩٩٩

ديوان حافل بالوجدانيات والمشاعر الرومانسية الفضفاضة، عودة إلى القصائد الحافلة بالشجن والذاتية.

طب وعلم نفس

The Rise and Fall of Modern Medicine
(صعود وانهيار الطب الحديث)
James Le Fanu
Little Brown, 1999, 490pp.

يقول الطبيب والصحفي جايمز لوفانو، إن ثورة الطب الحديث التي جاءت بعد الحرب العالمية الثانية، والاكتشافات التي تتوالى بمعدل جنوني جعلت صدمة الجديد تؤدي تدريجيا إلى غياب الوعي التاريخي بكيفية حدوث بعض الأمراض. الأمر المسبب لكثير من مشكلات الطب المعاصرة. وهو يحذر المؤلف من الاعتماد المبالغ فيه على التكنولوجيا الحديثة.

■■■

الوجيز في العلاج النفسي والسلوكي
محمد الحجار
بيروت: دار النفائس، ١٩٩٩

يتحدث الكاتب عن أهم الطرق الجديدة والوسائل الحديثة في العلاج النفسي، ويحاول ربط السلوك بالمرض النفسي. ويعرض لأهم النظريات التي تناولت هذا العلم.

■■■

Prisoners of Hate: The Cognitive Basis of Anger, Hostility, and Violence
(سجناء الكراهية: الأسس المعرفية للغضب والعدوانية والعنف)
Aaron T. Beck
New York: Harper Collins, 1999, 354pp.

يؤكد أستاذ علم النفس والمعروف بأبو العلاج النفسي المعرفي، من خلال ملاحظته للمرضى، أن هناك نمطًا معينًا من التفكير المرضي، هو الذي يجعل من المرء قادرًا على الضرب أو القتل أو الاغتصاب، وهو نفسه الذي يدفع جماعة ما إلى إبادة جماعة أخرى.

فالمانع الأخلاقي يتوارى كثيرًا حين يفكر الشخص في أن من ينازعه مخطئ أوشرير أومصدر للخطر أو أدنى منه مرتبة، بينما يعتقد نفسه أفضل من الناحية الأخلاقية أو أكثر صوابا أو أكثر تفوقا.

■■■

When Bad Things Happen to Other People
(عندما تقع الأمور السيئة للآخرين)
John Portmann
Routtedge, 1999, 256pp.

هل الشعور بالسعادة الذي يتأتى من إدراكنا لمعاناة الآخرين دائمًا ما يمثل نوعا من الحقد؟ أم أن هذه العاطفة تعكس احترامًا لفكرة العدالة؟

يناقش المؤلف هذا الموضوع من خلال استعراض ما كتبه كانط ونيتشه وفرويد، وكذلك من خلال النماذج الأدبية لدى كافكا وديكنز وامبرتوايكو.

■■■

The Anatomy of Motive
(تشريح الدافع)
John Douglas and Mark Olshaker
Simon & Schuster, 320pp., £16.99

دخل التحليل السيكولوجي في مجال عمل تخصص المحققين والمخبرين في الولايات المتحدة الأمريكية. المؤلف يروي في كتابه خبرته في هذا المجال الحديث أثناء عمله موظفًا في جهاز الـ إف بي آي الأمريكي.

ويحتوي الكتاب على المقابلات والتحقيقات التي أجراها المؤلف مع المجرمين، ومنهم الذين اشتهروا أخيرًا مثل قاتل فرساتشي وإرهابي أوكلاهوما. والهدف هو محاولة التعرف على بعض السمات الخاصة التي تجمع بين هؤلاء القتلة، والتي تسهل عملية الاشتباه والتعرف بدقة على المجرمين.

علوم وفلك

طعامنا المهندس وراثيا
ستيفن نوتنجهام
ترجمة: أحمد مستجير
القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٩٩

يتحدث عن قضية وصول الأغذية المحورة وراثيا إلى موائدنا، وتسويقها في أوروبا وموضوع استخدام الجينات في إنتاج محاصيل زراعية تحمل مواصفات خاصة، وموقف القانون من هذا كله.

■■■

عالم الفلك العام
ميرفت السيد عوض، مصطفى كمال محمود
القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٩

يحتوي الكتاب على مدخل لعلم الفلك بأسلوب علمي، يحاول تبسيط المفاهيم الفلكية وتقديمها للقارئ، وتحتوي سطور الكتاب على معنى الوحدانية من خلال تناسق الكون.

■■■

Off the Planet: Surviving Five Perilious Months Aboard the Space Station Mir
(خارج كوكب الأرض: البقاء خمسة شهور محفوفة بالمخاطر على متن المحطة الفضائية مير)
Jerry M. Lineger
Mc Graw Hill, 2000, 256pp.

رائد الفضاء الأمريكي، يروي تفاصيل أكثر الرحلات الاستكشافية للفضاء خطورة منذ «أبوللو ١٣». فقد أمضى مع أفراد طاقمه ١٣٢ يومًا على متن محطة الفضاء الروسية المتهالكة وغير المستقرة «مير»، واجهوا خلالها كوارث وطوارئ هددت حياتهم أكثر من مرة من مشكلات الطاقة والوقود التي أقعدتهم في ظلمة حالكة، وفقدان التحكم أحيانا، إلى اشتعال النيران في المحطة.

■■■

The End of Time: The Next Revolution in Physics
(نهاية الزمن: الثورة القادمة في علم الطبيعة)
Julian B. Barbour
Oxford University Press, 1999, 362pp.

في نظرية جديدة، يحاول العالم جوليان باربور إثبات أن الزمن ليس له وجود في الواقع، وأنه ما هو إلا تغير. أي أن إدراكنا للزمن يأتي من إدراكنا للتغيرات التي تحدث من حولنا. فإذا لم يحدث شيء سوف يتوقف الزمن، ولكنه يشير إلى أن حل أكبر معضلة في العلم الحديث والمتمثلة في اتحاد نسبية أينشتاين العامة مع ميكانيكا الكم، سوف تؤدي إلى إلغاء دور الزمن نهائيا من أساسيات علم الطبيعة.

فكر

كيف صنعنا القرن العشرين
روجيه جارودي
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠

صرخة إنذار وصرخة ألم لكل الأحياء، ولكل المهمومين بشئون البشر والناس، حيث يواجه المؤلف بشجاعة سطوة الاستعمار والإمبريالية الجديدة، التي تفرض أفكارها في كثير من الأحيان بسطوة القوة، وقوة السلاح.

■■■

إبراء الذمة
جمال الغيطاني
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠

يناقش المؤلف في هذا الكتاب عددا من الظواهر التي أرقت الوطن والمجتمع المصري خلال العقود الثلاثة الماضية، يبدي فيها رأيه إبراءً لذمته كمثقف مهموم بقضايا وطنه، وهي قضايا تتوزع بين الأدب والفكر والسياسة والشئون العامة.

■■■

جمهورية الحب.. أوراق عن الفن والثقافة
عمرو عبد السميع
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩

تمتد هذه الجمهورية التي أنشأها الكاتب على صفحات كتابه، لتكون إمبراطورية من المثقفين والمبدعين الحالمين بدنيا الحب والإنسانية، ويتخلل هذه الجمهورية عرض لبعض أعمال أدبية وشخصيات أثرت في حياتنا وتركت بصمات واضحة.

■■■

The Myth of Global Chaos
(خرافة الفوضى العالمية)
Yahya Sadowski
Washington D.C.: Brookings Institution, 267pp.

يرفض الكاتب نظرية الفوضى العالمية، التي شاعت بين المفكرين والمحللين في السنوات الأخيرة. حيث دائما ما ينسب لظاهرة العولمة وعملية التحول الديمقراطي وزيادة الاستثمار الأجنبي، كل ما يشهده العالم من صراعات طائفية وعرقية عنيفة وصدام حضاري.

حيث يرى الكاتب أن الصدام الحضاري والحروب والصراعات الإنسانية موزعة على مدار التاريخ بشكل متساو، وأسبابها تكمن في عوامل إنسانية ثابتة لم تتغير منذ نشأة المجتمع.

فكر ديني

الأصول المصرية في اليهودية والمسيحية
أحمد عثمان
القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩

تحليل لتاريخ اليهودية والمسيحية على أرض مصر، ويلقي المؤلف الضوء على التأثير المتبادل بين الأديان على أرض الكنانة.

■■■

الوسيط في المذاهب والمصطلحات الإسلامية
محمد عمارة
القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٩٩

يقع الكتاب في جزأين، الأول منهما يتحدث عن الحضارة الإسلامية، وتأثير علماء الكلام على هذه الحضارة، وتأثير بعض الجماعات الحديثة مثل التكفير والهجرة والجهاد. ويتناول الجزء الثاني شرحا لعدد من المصطلحات الإسلامية، ورأي الدين في الآخر الديني والآخر الحضاري والآخر القومي.

■■■

قــــــراءات جـــــــديـدة

التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث

موريس بوكاي

القاهرة: مكتبة القرآن، ١٩٩٩

دراسة لموقع العلم في كل الكتب والشرائع السماوية، من حيث عظمة مكانته وأهميته، وأن الله عز وجل حث على الاهتمام بالعلم، وكذلك تكريم العلماء في الكتب المقدسة.

■■■

إظهار الإسلام

روجيه دوباسكويه

القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩

دراسة مستفيضة عن الإسلام، بما يحمله من مبادئ، وأثر تطبيق هذه المبادئ في جميع النواحي، وما يمكن أن يؤدي إليه من تحسين ظروف الحياة.

■■■

داود وسليمان في العهد القديم والقرآن

إعداد: عادل المعلم

القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩

يتناول الكتاب قصة النبي داود والنبي سليمان في التوراة والقرآن، حيث تختلف الصورة في كل منهما. فاليهود يؤلهون النبي داود، فهو القوة العليا، أما القرآن فيقدم الصورة الحقيقية للنبيين.

■■■

قصة حياة البابا شنودة

عماد الدين أديب

القاهرة: دار أخبار اليوم، ١٩٩٩

يتناول الكتاب قضايا سياسية وفكرية، شغلت حياة البابا شنودة، من خلال قصة حياته، والمحطات التي استوقفته على الصعيد الثقافي والسياسي، ورأيه في الدور الذي تلعبه الكنيسة حاليا.

■■■

About Religion: Economies of Faith in Virtual Culture (Religion and Post-modernism)

(اقتصاديات الإيمان في ظل الثقافة المادية «الدين وما بعد الحداثة»)

Mark C. Taylor

The University of Chicago Press, 1999, 288pp.

يرى المؤلف أن الدين أكثر مدعاة للاهتمام والدراسة في تلك الأماكن التي لا يظهر فيها بوضوح. هكذا يقوم في كتابه بتتبع أساليب ومظاهر الإيمان في الثقافة المادية المعاصرة، بين شبكات المال العالمية وكازينوهات لاس فيجاس وصور الكمبيوتر والنحت الحديث والأفلام السينمائية.

■■■

Sufism: The Essentials

(مبادئ الصوفية)

Mark J. Sedgwick

American University in Cairo Press, 2000, 96pp., L.E. 40

يتحدث المؤلف عن حياة وعبادات الصوفيين في كل من الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا وأوروبا. ويفسر لماذا لا تقتصر الصوفية على العالم الإسلامي، وإنما تمتد أيضا إلى الغرب.

كذلك يناقش لماذا أصبحت الصوفية من أكثر وجوه الحياة الإسلامية المعاصرة إثارةً للجدل. ويبين الأهمية السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي دائمًا ما ارتبطت بوجودها.

فنـــون

تاريخ وأعمال أعلام الخط العربي

أحمد صبري زايد

القاهرة: دار ابن سينا، ١٩٩٩

يتناول الكتاب أعمال بعض الخطاطين في الوطن العربي، مثل محمد إبراهيم محمود، محمد حسني ومحمد علي المقادي، وتاريخهم في عالم الخط العربي وأهم لوحاتهم.

■■■

Critical Moves: Dance Studies in Theory and Politics

(حركات خطرة: دراسات الرقص في النظرية والسياسة)

Randy Martin

Durham: Dake University Press, 296pp.

استكشاف للعلاقة بين الرقص والسياسة. يتناول المؤلف ألوانا مختلفة من الرقص، ولكنه لا يناقشها بقدر ما يركز على أساليب التحليل وتطورها إلى الآن. وهو يرى أن النقد الحديث في الرقص السائد الآن يتسم بالمحدودية والقصور.

■■■

Margo Veillon: Egyptian Harvest

(مارجو فيلون: حصاد مصري)

Edited With an Introduction by Charlotte Hug

American University in Cairo Press, 2000, 168pp., L.E.120

ولدت الفنانة التشكيلية مارجو فيلون في القاهرة عام ١٩٠٧ ابنة لرجل أعمال سويسري وزوجته النمساوية. وقد فتنت مارجو بالريف المصري وعالم الفلاحين وألوان قراهم الزاهية، والحركة التي تدب فيها باستمرار. يضم الكتاب لوحاتها والصور الضوئية التي أخذتها من مشاهد الفلاحين والفلاحات في الحقول وفي القرى وفي أوقات العمل وأوقات الراحة...

■■■

Possessions: Indigenous Art / Colonial Culture

(مقتنيات: الفنون البلدية والثقافة الاستعمارية)

Nicholas Thomas

Thames and Hiudson, 304pp.

يناقش المؤلف نوعية الفنون التي ينتجها المستوطنون نتيجة لتأثرهم بفنون السكان الأصليين للبلاد التي يستوطنونها. فمن خلال مشاهداته في أستراليا ونيوزيلاندا، يحلل المضامين الثقافية والسياسية التي ترتبط بالفن، وكيف تنعكس هذه التفاعلات على نوعية وأصالة المنتجات الفنية للسكان الأصليين فيما بعد.

■■■

The Mystery of Samba: Popular Music and National Identity in Brazil

(لغز السامبا: الموسيقى الشعبية والهوية الوطنية في البرازيل)

Edited and Translated by John Charles Chasten

North Carolina University Press, 1999, 147pp.

يتتبع المؤلف تاريخ رقصة السامبا، وكيف أدخلت عليها إيقاعات وموسيقى أفريقية، وتقاليد وحركات أوروبية. ثم متى تحولت إلى الرقصة البرازيلية الوطنية الأولى.

نقـــد مســـرحي

الكلاسيكية في مسرح عصر النهضة والتراث المتجدد في مسرح شكسبير وراسين

أحمد عثمان

القاهرة: على نفقة المؤلف، ١٩٩٩

ينقسم الكتاب إلى قسمين: يتناول القسم الأول، أثر التراث في مسرح شكسبير، ويتحدث عن فنون التراجيديا في المسرح الإيطالي والمسرح الإسباني، وكذلك أثر النهضة في الكلاسيكية الألمانية. والقسم الثاني، يتناول دراسة نقدية حول هذه المذاهب المسرحية.

■■■

مسرح الشارع

مجموعة من الكتاب

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩

يحاول هذا الكتاب عرض المسرح على الجمهور في كل مكان، حتى في الأماكن العامة، ويتناول المهرجانات التي تقوم بهذا العمل، لتعرف الجمهور على أهم المذاهب المسرحية الجديدة.

■■■

The Public Mirror: Molière and the Social Commerce of Depiction

(المرآة العامة: موليير والتبادل الاجتماعي للصور الممثلة)

Larry F. Norman

University of Chicago Press, 1999, 216pp.

من خلال قراءاته المتانية في مسرحيات موليير، وتعرضه للتاريخ الاجتماعي الفرنسي في عصره، يبين المؤلف كيف وظف موليير مسرحه الساخر «كمرآة عامة» للجمهور. الصور الساخرة التي يرسمها لشخصياته والمستمدة من الجمهور، كانت تستفز وتتقابل مع الصور التي يرسمها أفراد الجمهور لأنفسهم ولغيرهم، في تفاعل ديناميكي حقق لمسرحه صفة التأثير.

متنوعـــات

الخيل العربية في مذكرات السياح والرحالة

أسعد الفارس

الكويت: صندوق التكافل الاجتماعي، ١٩٩٩

دراسة لأهم ما نشر عن الخيول العربية، صفاتها وقوتها البدنية، وسر اهتمام الأجانب بها، ويحتوي الكتاب على صور لمجموعة من هذه الخيول.

■■■

زي الفل

أنيس منصور

القاهرة: نهضة مصر، ١٩٩٩

يتحدث الكاتب عن التساؤلات التي تطرح نفسها داخله، تساؤلات حزينة حول الفقر والغنى وفلسفة الحياة وأهمية الإنسان، علاقته بما حوله وما يحدد هذه العلاقة.

■■■

Classical Cats: The Rise and Fall of the Sacred Cat

(القطط الكلاسيكية: صعود وسقوط القطة المقدسة)

Donald Engels

Routledge, 1999, 227pp., £25.00

يتناول دور القطط ووضعها في الحضارتين اليونانية والرومانية القديمة. من خلال ما يظهر في الآثار الفنية والرسومات، ومن خلال حكايات ايسوب وأحاديث أرسطو.

كذلك يركز على أثر الحضارة المصرية القديمة التي سبقت الحضارتين المذكورتين والتي كان للقطط فيها وضع مقدس.

■■■

The Smoking Book

(كتاب التدخين)

Lesley Stern

University of Chicago Press, 1999, 208pp., $22.00

في أسلوب يمزج بين المقال النقدي والمذكرات الشخصية، تكتب المؤلفة عن علاقتها الرومانسية بالسيجارة، فهي تكتب بصراحة عن كل التفاصيل الدقيقة المرتبطة بإدمانها التدخين، بما في ذلك المتعة أيضا. والكتاب يضم محاولتها للإجابة عن سؤالين رئيسيين: ما شعور المرء حين يدخن؟ وما الذي يعنيه التدخين؟

نقـــد أدبـــي

نزار قباني.. الوجه الآخر

جهاد فاضل

بيروت: دار الانتشار العربي، ١٩٩٩

يتناول الكتاب السياسة في شعر نزار قباني، والقضايا الفكرية التي تبناها، وجهاده سواء في الغربة أو في وطنه من أجل شعبه وبلده.

■■■

سيكولوجيا القهر والإبداع

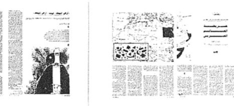
ماجد موريس

القاهرة: دار فارابي، ١٩٩٩

يشتمل الكتاب على دراسة تحليلية للعلاقة بين القهر والإبداع، ويحاول الإجابة عن بعض الأسئلة التي تتعلق بالعملية الإبداعية.

■■■





النادبون في المآتم

أشكر لكم في البداية صنيعكم بإصدار هذه المجلة الغراء، التي وقعت في حبائل غرامها منذ الوهلة الأولى، وليسمح لي أستاذنا الكبير محمد حسنين هيكل أن أعقب على ملاحظته الأخيرة في عدد يناير ٢٠٠٠، والتي جاءت تحت عنوان «خريطة العالم العربي اليوم ١ يناير ٢٠٠٠»، وهو تعقيب لايحمل معنى النقد بقدر ما يحمل معنى التأكيد لكل ما جاء في ملاحظة الأستاذ الكبير من معاني التشاؤم والتفاؤل، والفرق الأول بينهما هو في شكل التعبير، فقد استخدم الأستاذ في تشخيصه لحالة العرب في هذا التاريخ شكل التحليل السياسي ولكني استخدمت شكل الكتابة الشعرية، ومن ثم فالفرق بيننا هو الفرق بين واقعية التحليل السياسي، ورمزية الكتابة الشعرية، وبين حيادية ألفاظ المحلل السياسي وحرارة التعبير الشعري:

أيها الباكون على أمتنا
آناء الليل وأطراف النهار
أيها النادبون في مآتمها
في كل يوم بالعشي والإبكار
جسد الأمة على الخرائط يبكي
ودموعه صارت محيطات وبحار
يطلب الرفق في الذنب قليلا
قبل أن نغطيه بالتراب وبالغبار
نعم في الشرق ضرب حصار
ومن الغرب مائة ألف حصار
نعم هناك ملايين الثكالى
في الصحارى والفيافي والقفار
نعم جفت ضروع و ورود
وغيض الماء في الآبار والأنهار
نعم نحن نمضي كل لحظة
من انكسار قاتل إلى انكسار
كل هذا أيها النادبون في المآتم
ليس معناه موتا أو حتى احتضار
فسوف يأتي صدّيق جديد
وفاروق يعيد إلينا الانتصار
وصلاح الدين يوما سوف يأتي
ليرفع الأعلام ورايات الفخار
وإلى حطين أخرى سوف نمضي
لنسحق عدوان المغول والتتار
وطارق بن زياد سوف يبحر
لينشر في الأرض آيات العمار
وسوف يضاء في التاريخ نور
ونشعل في الهزيمة ألف نار

د. أمين سعيد عبدالغني
جامعة المنصورة



أرض الميعاد هي «أرض الميعاد» .. للفلسطينيين

«أرض الميعاد ليست (أرض الميعاد)»، هو عنوان مقال زياد منى المنشور في العدد الحادي عشر، ديسمبر ١٩٩٩، والذي يعرض فيه بشكل مطول كتابات كمال الصليبي وبالأخص كتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب»، الذي ينفي فيه علاقة إسرائيل القديمة بأرض فلسطين.

وكذلك يتطرق زياد منى إلى ماجاء في كتاب صدر حديثا لهاورد بلوم «ذهب الخروج: اكتشاف جبل سيناء الحقيقي» الذي يضع الأحداث الموصوفة في سفر الخروج، الإصحاحات ١٢ـ١٩ في منطقة تبوك في شمال الجزيرة العربية.

وليس الغرض من هذا التعليق رفض أو قبول أي من الأطروحات السابقة، ولانقد مقال زياد منى، الذي يبدو أنه يستسيغ أفكار كمال الصليبي ومنهجه بشكل عام، وبالأخص افتراضه «صحة التاريخ وخطأ الجغرافيا» بالنسبة للكتاب المقدس.

وكذلك ليس الغرض التدليل على تقصيرنا في مجال دراسات العهدين القديم والجديد وغيرها من حقول الشرق الأدنى القديم، فذلك لاخلاف عليه، لكن ما يستدعي التعليق هو الانجراف مع تيار يعطي أهمية زائدة لأطروحات كمال الصليبي، فها هو زياد منى يكتب أن منحى الأخير يساعد على بروز أبحاث جادة في التاريخ القديم للمشرق العربي، وأن أطروحات الصليبي «قدمت لمن يرغب من الباحثين العرب في تاريخ المشرق العربي أدوات علمية هامة وأوضحت أن هناك الكثير في ذلك التاريخ مما يستوجب المراجعة والتصحيح».

وفي مكان آخر يربط زياد منى أطروحة الصليبي (في كتاب «التوراة جاءت من جزيرة العرب») بمجموعة من الأبحاث الإنجيلية التي ترفض الآراء التقليدية السائدة حول تاريخ إسرائيل القديمة (ابتداء من تومبسون وانتهاء بويتلام)، وكأنها جاءت نتيجة لها. إلا أن الأمر لايقتصر على زياد منى، فهناك شريحة كبيرة من المثقفين العرب تأخذ آراء الصليبي بجدية، ولهذا يستحق الأمر إيضاح بعض النقاط التي لم تطرح، على ما أعتقد حتى الآن، ضمن النقاش الدائر.

بصرف النظر عن تاريخية بعض أجزاء العهد القديم (التوراة) وفترة تأليفها أو تشكيلها، فهو مرتبط بفلسطين سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. ولو كان الحديث عن مكان آخر غير فلسطين لما اكترث أحد بخيال كمال الصليبي، وليس هذا فحسب، فإنما التراث الذي يعبر عنه الكتاب المقدس مرتبط أيضا بالفلسطينيين، السكان الفعليين، أصحاب الأرض إياها.

ومهما كان تعريف فلسطين جغرافيا، أي إذا كان المقصود بها خارطة الانتداب البريطاني، أو بقعة أصغر أو أكبر حسب الفترة الزمنية، فإن مجموعة السكان الذين كانوا يسكنون فلسطين، هم أولئك الذين كانوا على أرضها، وما زالوا، منذ آلاف السنين ولم يتركوها.

لقد كانت هناك هجرات جماعية من وإلى فلسطين بكثافات متفاوتة، لأسباب بيئية أكثر منها سياسية، إلا أن هذه الهجرات حتما لم تحصل بشكل مفاجئ في أي وقت من الأوقات، الاستثناء الوحيد حصل في منتصف القرن العشرين حين أجبر السكان على هجرة مفاجئة جماعية! ولنوضح الأمر أكثر بمثال لتهجير قديم يفهم عادة بأنه جماعي، بما في هذا الأمر من تبسيط يصل إلى حد المعلومة الخاطئة، أقصد هنا السبي البابلي عام ٥٨٦ق.م، الذي لم يصب كافة سكان يهوذا وإنما فئة مميزة من المجتمع، هي بشكل رئيسي من المدن، وخاصة القدس العاصمة، وفي أول القائمة الملك وحاشيته، كما هو واضح من المصادر التي تغطي الحدث، التي لاتقتصر على العهد القديم، والفلاحون وهم القوة المنتجة الرئيسية في فلسطين، لم يتركوا فلسطين ولم يجبرهم الغزاة على تركها، وهذا ينطبق على السبي الآشوري في القرن الثامن ق.م، أو ماحصل نتيجة لتدمير القدس عام ٧٠م.

وكذلك الأمر بالنسبة للاختلاط الذي بالتأكيد، حصل في فلسطين وقسط كبير منه كان نتيجة للعلاقة الجدلية بين الرعاة والفلاحين التي تمتد لمئات السنين، كتغلغل العرب في بلاد الشام، ومن بينها فلسطين، وهومالم يحصل بالتأكيد مع انتشار الإسلام فقط.

وبمعنى آخر، فإن سكان فلسطين حافظوا على تجانسهم عبر العصور وبالأخص في المناطق الجبلية الداخلية البعيدة عن الساحل أو الطرق التجارية، وهذه هي المنطقة التي تشكلت فيها إسرائيل القديمة، وبالرغم أو مع وجود اختلاط، فإن هناك وحدة حضارية تتغير عناصرها بلاشك مع العصور، ولكنها تبقى ثابتة وأساسها هو مجموعة أصلية من السكان تبقى على الأرض، وسيلة الإنتاج الأولى، وهذه الوحدة الحضارية تتمثل في الحضارة المادية والسلوك الإنساني المرتبط بإنتاج تلك الحضارة، كالبيوت وأساليب الزراعة والأدوات المنزلية والمهن بشكل عام. وهذه الوحدة الحضارية تتوارث عبر الأجيال فيما نسميه بالتواصل الحضاري، الذي ينعكس ليس في الحضارة المادية فحسب، بل أيضا في العادات والتقاليد الشعبية وفكريا في الفولكلور. وهو أمر أدركه دارسو الكتاب المقدس الأوائل وأولوه أهمية كبرى أي الدراسات الإثنوجرافية لفلسطين لغرض فهم الكتاب المقدس بجزأيه، القديم والجديد.

من الضروري الآن الاستدراك أن الربط بين الكتاب المقدس والفلسطينيين اليوم يقوم به من لاعلاقة له مباشرة بفلسطين وغير متأصل فيها، وهو لايلغي التاريخ الفلسطيني، وإنما يغيره لحساب غير الفلسطينيين، إلا أن من يقوم بدراسة (أو تفسير) ظاهرة ما، يستطيع بكل ارتياح ادعاء الحق بهذه الظاهرة، وخاصة إذا دمج التقييم ضمن تراثه الخاص به، وهذا ما فعله ويفعله الغرب وما تفعله إسرائيل.

والنتيجة لهذا الربط، وغيره من أسس البحث العلمي، هي تصور تاريخي متكامل لاوجود للفلسطينيين فيه يؤخذ كإطار فكري للتطبيقات السياسية الاستعمارية، وهذا هو التناقض المأساوي في الموضوع.

وأعود إلى نقطة البداية، أي فيما إذا كان في كتابات كمال الصليبي ما يمكن أن يساعد العرب أو الفلسطينيين في مراجعة أو تصحيح تاريخهم كما وصلنا من الغرب (أو من إسرائيل). إلا أن المسألة ليست في تصحيح ما يكتبه الغرب أو إسرائيل، لسبب بسيط هو أنه صحيح، وذلك لأنه يرتكز على أسس علمية سليمة من أهمها ربط التاريخ القديم والآثار بالفلسطينيين اليوم.

وليست أطروحات الصليبي التي تضع التوراة في عسير هي ما نحتاج إليه لدى كتابة تاريخ فلسطين، ففي المحصلة النهائية يلتقي الصليبي مع الخطاب الغربي أو الإسرائيلي في تحريف التاريخ الفلسطيني أو تاريخ الفلسطينيين، الذي يعود إلى آلاف السنين ويشمل إسرائيل القديمة أو مملكتي إسرائيل ويهوذا حتى تاريخ القضاء على الأخيرة عام ٥٨٦ق.م، ويشمل أيضا الفترة السابقة لظهور المسيحية وحتى انفصال اليهودية وتطوراتها كديانة في بقاع مختلفة من الشرق أو أوروبا، أي يشمل أيضا تلك الفترة التي بدأت تتطور أثناءها بذور الديانة اليهودية. وهنا لابد من التوضيح أنه لايمكن منطقيا أن يكون هناك دين «يهودي» أو «يهود» في تلك الفترة، أي قبل المسيح أو حتى قبل تثبيت المسيحية كالديانة الرسمية للدولة في مطلع القرن الرابع الميلادي، والمسيح ليس «ملك اليهود» وإنما ملك اليهوذيين، أو سكان يهوذا كمقاطعة رومانية أو منطقة من مناطق فلسطين.

وهناك اتجاه آخر يشوه التاريخ الفلسطيني، ولكن هذه المرة من قبل الفلسطينيين أو العرب، يختزل هذا الرأي التاريخ الفلسطيني بالقفز، رجوعا في الزمن، عن مملكتي يهوذا وإسرائيل ليربط الفلسطينيين بالكنعانيين الذين يفترض هذا الرأي أنهم من العرب.

ومن الواضح أن هذا النموذج هو إسقاط لحالة عجز أو قهر، فليس أفضل للتخلص من هاتين الكلمتين المزعجتين، أي يهوذا وإسرائيل، من حذفهما من التاريخ الفلسطيني والعودة إلى «كنعان» لأن وقع الاسم «أرق» على الأذن والنفس، وينسى أو يتناسى أصحاب هذا الرأي، أو لايدركون أن مفهوم «كنعان»، ماعدا بعض الإشارات هنا وهناك، هو توراتي طور بشكل أساسي من وجهة نظر الإسرائيليين



القدماء، وكذلك الأمر بالنسبة ليبوس، أو القدس قبل الألف الأول ق.م، التى لم تذكر خارج التوراة، وهذا ما يجعل وضعها أسوأ.

إننا لاننكر وجود تيارات فكرية تعود بذورها إلى المسيحية (العهد الجديد) وخلفيته (العهد القديم أو التوراة) أثرت على الفكر الأوروبى فى الفلسفة أو اللاهوت، ولكن هذا لايجعل تراث الكتاب المقدس بعهديه حكرا على الحضارة الأوروبية، وكان عملية نقله عن طريق آباء الكنيسة الأول جعلته يختفى من فلسطين التى ظهر فيها أصلا، بينما المنطق يقتضى أن ينتقل جزء منه ، إن لم يكن كله، وبالأخص ماله علاقة بالحضارة المادية والعادات والتقاليد، عبر الأجيال من سكان فلسطين ليتجسد بالفلسطينيين اليوم.

نعم، لقد سلبت أرض فلسطين من أصحابها وطردوا منها، وهو متعارف على تسميته بالنكبة التى حدثت عام ١٩٤٨، إلا أن النكبة الفعلية قد حصلت قبل هذا التاريخ بوقت طويل ومازالت تحصل، وتتمثل باستلاب تاريخ فلسطين من الفلسطينيين فى جزء هام منه وهو العهد القديم (إسرائيل القديمة) والعهد الجديد (أصول المسيحية) ، والتحدى الكبير أمام الفلسطينيين والعرب ليس فى استرجاع الأرض وإنما فى استرجاع هذا التاريخ وغيره.

خالد الناشف
جامعة بير زيت



ملاحظات على هامش تجربة محمد سيد أحمد مع إسرائيل

قرأت فى عدد شهر فبراير ٢٠٠٠ من المجلة مقالة الكاتب الأستاذ محمد سيد أحمد الذى كتبه من وحى تجربته مع إسرائيل، وأود أن أسجل هنا تقديرى واحترامى لصراحته وأمانته، واستقامته الفكرية والأخلاقية، وحرصه على أن يعمل دائما من قلب الصف المصرى والعربى، وإعجابى بقدرته على رصد ما طرأ على معتقداته الفكرية وثوابته الوجدانية من تغيرات أو تحولات، بكل مايترتب على ذلك من نقد للذات واعتراف بالأخطاء وتخلص من الأوهام.

وأرجو أن يسمح لى كاتبنا الكبير بأن أعقب على مقاله بأن أطرح عليه بعض الأسئلة وبعض الملاحظات:

١- ورد فى مقال سيادته فى أكثر من موضع ما يوحى بتعارض ما يصل أحيانا إلى حد التناقض بين الأيدلوجية والثورية وبين ما أسماه بالواقعية. حدث ذلك عند حديثه عن حل الحزب الشيوعى المصرى والتحاق أفراده بالاتحاد الاشتراكى، وعند تسجيله لحواره مع جيفارا واختلافهما حول طبيعة الحوافز الثورية وهل هى مادية أم معنوية، وعند وصفه لتحولاته الفكرية بعد هزيمة ١٩٦٧ وبعد غزو الاتحاد السوفيتى لبراج.

وفى ظنى أن الأيدلوجية والثورية معا لايمكن أن تتعارضا مع الواقعية لأنها فى حقيقة الأمر هى لب الواقعية فى إطارها الشامل والعميق. بشرط أن تكون نابعة من قراءة علمية للواقع المحلى والإقليمى فى امتداده التاريخى والجغرافى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى والحضارى، ونابعة من رصد دقيق لمعطيات الحاضر .

من أين إذن ينبع التعارض أو التناقض بينهما؟ ينبع من استيراد أيدلوجية أو ثورية جاهزة، واتخاذ موسكو أو بكين كعبة نطوف حولها ونستمد الإلهام منها ونردد تحليلاتها وشعاراتها ومن ثم نقع فى التناقض بين مايطرحه الواقع وما تفهمه منه منابع الإلهام البعيدة ذات الرؤى والاجتهادات المتسقة مع مصالحها ومشروعاتها وطموحاتها.

٢- يكتب الأستاذ محمد سيد أحمد فى مقاله عن هزيمة ١٩٦٧ أنها نالت من تماسك الأيدلوجية الناصرية، وسؤالى لسيادته : متى كانت لعبد الناصر أيدلوجية بالمعنى الفلسفى أو الفكرى أو النظرى؟ عبدالناصر نفسه أو أحد من حوارييه أو المؤمنين بزعامته لم يزعم ذلك.

٣- يقول سيادته إنه عند تأليف كتابه بعد أن تسكت المدافع واتته فكرة إعادة ترتيب المتناقضات بين العرب وإسرائيل، لابهدف إلغاء المتناقضات فهذا مستحيل، ولكن بهدف تحويلها من تناقضات عدائية إلى تناقضات غير عدائية.

وأرجو أن يعذرنى كاتبنا الكبير لأنى أفهم معنى التناقض العدائى ولكنى لم أفهم معنى التناقضات غير العدائية (هل هو مثلا نوع من خصام المحبين؟) فيما يتعلق بالتناقضات العربية الإسرائيلية الأمر على صعيد الواقع والفكر معا بالغ البساطة والوضوح. ثمة عدو مسلح من قمة رأسه إلى قدميه ومزود بأسنان ذرية، عدو يحتل فلسطين والجولان وجنوب لبنان، ويمارس العدوان على جيرانه، ويسعى إلى الهيمنة على المنطقة، ويخطط لتحويلنا إلى أيد عاملة ورخيصة، وموردين للخامات وإلى سوق من المستهلكين. كيف السبيل إذن إلى تحويل التناقض معه إلى تناقض غير عدائى؟

٤- يقول الأستاذ محمد أن الفرق بين عمل المثقف وجماعة كوبنهاجن هو الفرق بين عمل المثقف وعمل المفاوض، المثقف باحث عن الحقيقة ومسئول عن نفسه وقادر على نقد ذاته، بينما المفاوض ملتزم بموقف الدولة، محتم بالسيادة الوطنية قادر على ممارسة الخداع المشروع لنصرة القضية التى يتفاوض من أجلها. وسؤالى هو: من الذى أعطى لجماعة كوبنهاجن حق التفاوض باسمنا مع ممثلى إسرائيل؟ وإذا كان التفاوض عملا مقبولا من ممثلى الدولة فكيف يكون مقبولا من أفراد لايمثلون سوى أنفسهم؟ وهل المثقف الذى يسافر إلى إسرائيل ويتحاور مع أحزابها ويسعى لتأجيج تناقضاتها أو تدعيم الجماعات التى تبشر - على الهامش - بالسلام. هل المثقف الذى يقوم بهذا الدور لايزال مثقفا أم تحول إلى سياسى؟

وإذا سلمنا بأنه أصبح سياسيا فماهى مرجعيته؟ ألا ينبغى له العودة إلى قواعد حزبه لتقييم جدوى ما تم واتخاذ قرار بالاستمرار فى هذا السعى أو تجميده أو إلغائه؟ إن وجه المفارقة هنا أن مثقفا راح يلعب دورا سياسيا دون أن ينتبه (بتعبير كاتب المقال) أنه ليس سوى جنرال بلا جيش!

محمود عبدالوهاب
قاص وناقد



نكسة يونيو والنساء!

أعجبنى للغاية التقييم الثاقب البصر الذى قدمه د. عاصم خشبة فى رسالته فى عدد يناير الماضى من المجلة عن الحالة المتردية للمجتمع المصرى عند نهاية القرن، الذى أرجع فيه مشاكل التفكك الأسرى والزواج العرفى وانتشار البانجو والشباب الضائع وزنى المحارم وإلغاء التربية المدرسية والأمية والفقر واستيراد الغذاء وتدخين الشيشة فى المقاهى والنوادى والانحراف والطلاق والمرض والجهل والخرافة والدجل إلى النساء فى مصر - والأمهات منهن خاصة.

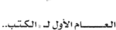
وهذا يشجعنى على أن أضيف إلى هذه القائمة بعضا من المشكلات والأزمات الأخرى التى نسيها كاتب الرسالة، فكيف يفوته أن يذكر أن النساء فى مجتمعنا قد تسببن أيضا فى :

١- نكسة يونيو ١٩٦٧، واحتلال إسرائيل لسيناء
٢- ثغرة ١٩٧٣.
٣- أحداث ١٨-١٩ يناير ١٩٧٧.
٤- حرب الخليج.
٥- تنامى المناطق العشوائية بمصر وفوضى العمارة والبناء.
٦- تلوث البيئة الصناعى.
٧- انتشار أمراض الكبد والكلى وحساسية الصدر بسبب تلوث المياه والهواء.
٨- عدم تنفيذ قوانين المحليات والبلديات فى الغالب.
٩- ازدياد الفجوة بين الطبقات وانتشار الفقر.
١٠- غياب الديمقراطية الحقيقية.
١١- قانون الطوارئ.
١٢- سجناء الرأى.
١٣- التخبط فى سياسات التعليم وهبوط مستواه فى المدارس والجامعات الوطنية.
١٤- الخصخصة والعولمة.
١٥- غياب القاعدة العلمية والتكنولوجية.

واختم بأن أضم صوتى إلى د. عاصم خشبة وأقول إن أمهات مصر جميعا مطالبات بحل هذه المشاكل وآثارها التى تسببن فيها. وذلك فى موعد أقصاه عيد الأم القادم ٢١مارس ٢٠٠٠.

د. ندى عبدالرحمن





بمناسبة مرور عام على صدور مجلتكم الرائدة، يطيب لى أن أعرب عن تهنئتى على ما حققته المجلة فى عامها الأول ، مما شرف ويشرف الصحافة المصرية حقا.

فقد قدمتم طوال هذا العام، جرعة رصينة فيما اخترتموه وعرضتموه من أحدث إصدارات الكتب فى العالم المتقدم، ولاشك أن القارئ المصرى والعربى كان فى حاجة إلى ماتثريه هذه الكتب من فكر وثقافة وتاريخ وفنون وعلوم وتراث، كما يؤكد أيضا رؤيتكم المستقبلية الهادفة إلى مسايرة الإيقاع السريع لما ينتجه العقل المتطور أجنبيا وعربيا فضلا عن استرجاع تراثه الأدبى المتجدد.

ومن ثم.. أصبحت «وجهات نظر» إطلالة ذات مستوى صحفى رفيع، فتحت نوافذ المعرفة أمام قارئها، تساعده على متابعة ماتنتجه وتقدمه سوق الكتاب الأجنبى لاختيار ما يناسب اهتماماته الثقافية المختلفة.

ولتسمح لى - زميلى الفاضل - أن أهنئك بالعيد الأول لمجلتكم الرائدة - تحريرا وإخراجا ومن يتعاون معكم - رئيس التحرير الفنى ، وكل طاقم العمل، كما أتمنى أن يشهد العام الثانى هذا فى عمر المجلة، مزيدا من الانتشار توزيعا، وإثراء، وتبوءا للصدارة دائما فى الساحة الصحفية.

ليلى الجبالى

تنويه

- تعليقا على مقال الأستاذ محمد حسنين هيكل فى العدد الأخير من وجهات نظر - فإن الصحفى البريطانى «باتريك سيل» ليس يهوديا وليس مولودا فى «حلب».

د. سمير خورى - دمشق

- هذا التعليق فيه كثير من الدقة، والمعروف أن أسرة «باتريك سيل» كانت واحدة من الأسر اليهودية فى «حلب» أواسط القرن الأسبق، ثم تنصر جده نتيجة نشاط الإرساليات التبشيرية المسيحية على المذهب البروتستانتى، ثم هاجرت الأسرة بعد ذلك أوائل القرن العشرين إلى بريطانيا.

”نون“

الشباب وأسئلة المستقبل

في مراحل العمر المختلفة، تمثل شريحة الشباب أهم مصادر القوة والحيوية في حياة الشعوب، فهي بمثابة المخزون الاستراتيجي الذي تلجأ إليه الأمة في أوقات الأزمات والصراعات التاريخية، وهي مصدر الإبداع والتجديد والإحلال والتغيير في تطور المجتمعات، وهي التي ستؤول إليها مسئولية تشكيل صورة المستقبل وصناعته. ولا يمكن تصور مجتمع يستمر فيه جيل واحد بدون تغيير؛ لأنه سيتحول حينئذ إلى مجتمع محكوم عليه بالجمود والموت، يفتقر إلى الإبداع والابتكار والتجديد في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.. تخمد حيويته، وتتبدد طاقاته، وتذوى في أشكال مختلفة من الفساد والتعفن والتحلل.

ومرحلة الشباب هي في عمر الإنسان، مرحلة الفعل والإنجاز وتحقيق الذات لو انتقصنا منها مرحلة الطفولة من ناحية، ومرحلة الشيخوخة من ناحية أخرى.. مرحلة الطفولة التي تمتد إلى سن المراهقة، وينقصها الوعي والإدراك والنضج وتحمل المسئولية. ومرحلة الشيخوخة التي قد تتوافر لديها الحكمة وخلاصة التجارب، ولكن تنقصها القوة والقدرة على المبادرة والتحمل. وفي رأى بعض المفكرين أن كلا من الطفولة والشيخوخة هي مراحل انتظار وترقب، انتظار الشباب والنضج بعد الطفولة، وانتظار الموت بعد الشيخوخة، حيث تصبح حياة الإنسان مجرد وجود على الأرض في حالة انتظار.

وفي النظم الديمقراطية في الغرب، حيث انتهى عصر الثورات الوطنية والتغيرات المفاجئة، والانقلابات العسكرية، والانتفاضات الطبقية.. يعتبر الشباب هو الحامل الطبيعي لعوامل التغيير والتجديد في المجتمع، باعتباره أكثر الفئات حساسية للتغيرات والتحولات، وأكثرها استعدادا لخوض التجارب وتحمل نتائجها، والتمرد على القوالب السائدة ومحاولة صياغة قوالب جديدة، خصوصا في عصر العولمة واقتصاد السوق وسيادة أنماط مغايرة من العلاقات الاجتماعية والرؤى الفكرية والثقافية.

أما في دول العالم الثالث، ونحن منها، فمازالت النظرة إلى الشباب تقوم على الوصاية والحماية الزائدة سواء داخل الأسرة أو خارجها. ولا يهتم المجتمع بأن يوجه إلى هذه الشريحة الهائلة التي تمثل أكثر من ثلاثين بالمائة من أفراد الشعب المصري.. على سبيل المثال.. أية أسئلة عن اهتماماتها ورؤاها، وهمومها وقضاياها، ونظرتها إلى المستقبل والحاضر.. فهناك قطيعة شبه كاملة بين الأجيال، وانعدام ثقة من جانب الكبار في قدرة الشباب على تحمل مسئولياتهم بأنفسهم، ورعاية مصالحهم، والمشاركة في تحمل الأعباء جنبا إلى جنب مع الكبار.

ولذلك، فبينما تنهج المجتمعات الغربية الصناعية استراتيجية للتقدم على مستوى المؤسسات والأحزاب والشركات والهيئات، ينهض الشباب فيها بدور طليعي رائد، في عمليات التغيير المتسارعة التي تفرضها ثورة التكنولوجيا والمعلومات وقوانين العولمة الاقتصادية والسياسية، تنهج المجتمعات الأخرى ـ ونحن منها ـ استراتيجية للتقهقر، يحاط فيها الشباب، فتيانا وفتيات، بغابة كثيفة من الموانع والقيود، والحواجز والمحرمات.. خوفا عليه أو خوفا منه. والنتيجة في كلتا الحالين واحدة، لأنها تبقى على السلطة في يد جيل واحد، يتوهم أنه الأذكى والأقدر والأحكم. ومن ثم تقل القدرة على ملاحقة السرعة التي يسير بها العالم، وتصبح المشكلة الحقيقية لدى المسئولين هي في البحث عن قطارات أبطأ، وأساليب أكثر تدرجا، ومواقف أكثر ميوعة، سعيا وراء الحلول الوسطية. وهو ما يؤدى بالضرورة إلى قتل روح الإبداع والتفكير الحر والتجديد، وكأننا بذلك نسلب جيل الشباب، أهم مؤهلاته بل أهم وظائفه في المجتمع.

سألت ذات مرة صديقا يحتل منصبا رئيسيا في إحدى شركات البترول، كيف يتابع أخبار العالم وتحركات السوق، فقال لي: «إن الشركة تعد لكبار الموظفين كل يوم ملخصا بأهم الأنباء والتطورات في العالم»، ولكنه كثيرا ما يطلب من ابنه أو ابنته أن تحصل له من «الإنترنت» على مزيد من التفاصيل.. وفجأة وعلى غير توقع، انبرى صديقي ينحي باللائمة على هذا الجيل الذي يمضي أمام شاشة «الإنترنت» أكثر مما يمضيه في استذكار دروسه.. بل وفي بعض الأحيان يبادر من تلقاء نفسه إلى إثارة بعض الاقتراحات والأفكار، وكأن الفوارق بين الابن وأبيه قد زالت تماما.. وهو ما لم يستطع هذا الأب وغيره من جيل الكبار أن يتفهمه حتى الآن.

في مراحل سابقة، كان المثقفون هم الذين يقودون حركة التجديد والتغيير في المجتمع، قادها الأفغاني ومحمد عبده، ومن بعدهما لطفي السيد وطه حسين والعقاد وسلامة موسى.. كل منهم.. وغيرهم.. لعب دورًا أو آخر في حياة الشعب المصري، وفي حركته النضالية من أجل التحرر الفكري والسياسي. ولكن الثابت أن المثقفين في مصر وفي العالم العربي الآن، فقدوا فاعليتهم وتأثيرهم، وأصبحوا يمثلون عبئا على الأجيال الشابة الصاعدة.. بل أضحوا عقبة في الطريق إلى التحام هذه الأجيال الشابة بحركة التجديد التي يشهدها العالم، بسبب ما تعاني منه المجتمعات العربية من قيود الوصاية والاستبداد والأفكار الجاهزة المسبقة، مع استهانة واضحة بدور الشباب في المجتمع، وميل إلى تهميشه، وتشكيك في قدراته. وذلك على عكس ما يجري في العالم من حولنا، حيث يحتل الشباب مواقع متقدمة في السياسة والاقتصاد والعلم والتكنولوجيا.

إن الانقلاب الذي تشهده المجتمعات الغربية المتقدمة، تجعل الطالب من سن العشرين، أكثر تطورا ومعرفة وقدرة على التعامل مع أدوات العصر.. ومع تطور أسلوب إنتاج الثروة عن طريق تكنولوجيا المعلومات، لابد أن يحدث توافق بين الطريقة التي يتم بها إنتاج الثروة، والطريقة التي يحكم بها الشعب نفسه. ومن ثم فنحن نشهد الآن تغيرات حاسمة في المؤسسات الحاكمة في الغرب تقترن بصعود طبقات جديدة من الشباب، ينتمون إلى أفكار واتجاهات لم يكن يخطر ببال أحد أن تصبح جزءًا من المؤسسات الحاكمة، كما يحدث مع أحزاب الخضر وأحزاب اليمين الجديد التي باتت تشكل جزءًا من النسيج السياسي. ولابد أن تشهد الأنظمة الديمقراطية تغيرا مماثلا في مفهوم الديمقراطية لمواجهة الأزمات المتراكمة.

ونحن لا نتوقع أن يحدث في المجتمعات العربية تقدم حقيقي، ما لم تشهد هذه المجتمعات ثورة شبابية تنقل مركز الثقل الاجتماعي من المثقفين التقليديين الذين ظلوا ومازالوا يبحثون عن اليقين المطلق، ويركنون إلى أفكار ومبادئ بالية، إلى فكر أكثر تحررا واحتراما لسلطة العقل. ويكفي أن ننظر إلى ما حدث في الكويت من أحكام بالسجن على كاتبتين اتهمتا بالعيب في الذات الإلهية، وأحداث أخرى مماثلة في مصر ولبنان وغيرهما، جرت فيها مصادرة الفكر ومنع الكتب. ولم تكن الثورة الطلابية الشبابية التي شهدها الغرب في الستينيات، سوى إيذان بانتقال الثقل الاجتماعي من المؤسسات السياسية والنقابية الفاسدة والمتآكلة إلى حركات الشباب الراغبة في التجديد والثورة على القديم. وانتهى الأمر ـ كما نرى الآن ـ إلى تجديد شامل واسع النطاق في هذه المجتمعات يساير الانقلاب التكنولوجي والاقتصادي الذي تشهده هذه المجتمعات!!

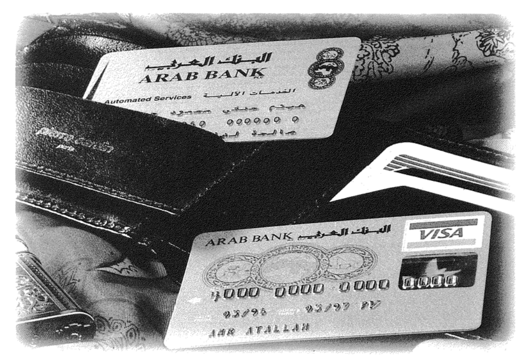


الصورة المحزنة للشباب العربي في المقابل، هي تلك الرغبة العارمة والكامنة لدى ألوف الشباب في الهجرة إلى الخارج.. وما نتلقاه في بريد القراء من شكاوى الشباب وسطورهم التي تنبض بانعدام الثقة، وعدم تصديق ما يقال، واتساع الهوة بين جيل الكبار والشباب.. وما يحكيه الشباب في رسائلهم عن غياب القدوة، وانتشار المحسوبية والبيروقراطية، ومشاعر المرارة من تعسف السلطة، وانعدام الحرية داخل الجامعات والمعاهد، والإحساس بأن آفاق المستقبل تضيق بهم وعليهم.. تجعلهم يفكرون منذ البداية في انتهاز الفرصة للخروج من أوطانهم بحثا عن المستقبل في مزيد من التحصيل العلمي، وتحقيق الذات.. هذه هي الأحلام التي تراود أي شاب عربي يمتلك ولو قدرا قليلا من الطموح والرغبة في تحقيق أحلامه، وهم يرون في البلاد الأخرى، أن التفوق القائم على امتلاك القدرات الذاتية والاجتهاد في البحث، يلقى الاعتراف والتقدير، بغض النظر عن القرابة أو الجنس أو الدين.. ودون ما حاجة إلى التصفيق والنفاق والتفنن في المداهنة والمراءاة، أو الانتماء إلى الحزب الحاكم أو شلة المستفيدين.

إن أكثر ما يثير القلق، هو أن الذين يقومون على وضع استراتيجيات للشباب، لا يفكرون إلا في الاهتمام بتيسير ممارسة الأنشطة الرياضية والشبابية، وتلقينهم المبادئ والدروس التي تخدم النظام، وهم يعلمون علم اليقين، أن للشباب أفكاره ومناهجه وطريقة تفكيره، وأنه أكثر اقترابا من الواقع ومن روح العصر من آبائهم. والمشكلة أننا في حاجة إلى تنشئة جيل جديد يتوافق مع المتغيرات، ويتحمل المسئوليات. والأهم من ذلك أن نفسح له الطريق، وأن نكف عن الإفراط في حمايته وتدليله، ومحاصرته بالممنوعات والترهيبات.. فيوما ما سوف يفلت الشباب من قبضة الحصار والتضييق!

سلامة أحمد سلامة


البنك العربي
البنك العربي
ARAB BANK
P.L.C


البنك العربي
ARAB BANK
الخدمات الآلية
Automated Services
ARAB BANK
البنك العربي
VISA